الفصل السادس

النظريات اللاهوتية عن سر الفداء

الفداء بين الفكر النظري والواقع العملي

تعدُّد التعبير عن ما هو الفداء بتعدُّد موقف الخاطىء أمام الله:

١ ـ إن وقف الخاطىء أمام الله كمن وقع في أسر الخطية ، فالفداء تحرير.

٢ ـ إن وقف الخاطىء أمام الله كمديون أكل على الرب حقوقه ، فالفداء إعفاء من ديون.

٣ ـ إن وقف الخاطىء أمام الله كمُذنب أمام عدل الله ، فالفداء تبريىء.

٤ ـ إن وقف الخاطىء أمام الله كمتعدٍّ تعدى على وصايا الله ، فالفداء صفح عن أخطاء سالفة.

٥ ـ إن وقف الخاطىء أمام الله كعدو قاوم صلاح الله ومشيئته ، فالفداء مصالحة.

٦ ـ إن وقف الخاطىء أمام الله كميت فقَد حق الحياة والرجاء ، فالفداء إعادة حياة ورجاء.

«الخطية» بكل أصنافها صنعت كل هذه المواقف للإنسان أمام الله.

و**«الفداء»** هو العمل المباشر الذي عمله الله بواسطة المسيح لإلغاء قوة الخطية وسلطانها مع كل مفاعيلها.

وهكذا استرد المسيح للإنسان بالفداء موقفه الصحيح المتعدد الأوجه أمام الله: في حرية من بعد أسر، في إعفاء من كل ديون الخطية ، في مسامحة من كل الذنوب ، في صفح عن كل التعدي ، في مصالحة بعد عداوة أَخْفَتْ عنه وجه الله ، في نور الحياة الأبدية بعد ظلمة موت.

ثلاث نظريات لاهوتية عن سر الفداء

والسؤال: كيف تمت عملية الفدية بالموت الذي ماته المسيح، وبأي تقييم يمكن تقييمه؟

+ **أولاً**: هل هو **فدية** بالدم كثمن دفعه، ولمَنْ دفعه؟

+ **ثانياً**: هل هو عملية **تكفير بالإحلال** يتحمل فيها المسيح العقوبة **عنا** نفساً بنفس؟

+ **ثالثاً**: هل هو عملية **استرضاء** وجه الله بعد غضب؟

هذه الثلاثة التفسيرات هي التي طرحها المفسرون على مدى العصور، وعلينا أن نفحصها معاً لنكمل العجز فيها حتى نصل إلى حقيقة معنى الفداء.

أولاً: نظرية الفدية بدفع الثمن: ἀπολύτρωσις

الكلمة بحسب الأصل اليوناني تفيد «يحل» أو «يفك»، وفي جملتها تفيد **الفدية**، فك الدين. والذي يرجِّح هذا التفسير التعبير الذي يستخدمه بولس الرسول كثيراً بقوله أن **«المسيح اشترانا»**، **«فامتلكنا لنفسه»**، **ودفع ثمن شرائنا وهو «الدم»**، **«دم ابن الله»**.

بل وصرَّح مرة بكل وضوح أنه «"بذل نفسه" فدية ἀντίλυτρον لأجل الجميع» (١تي٢: ٦)، وهنا كلمة «الفداء» و«الفدية» باليونانية تفيد في الأصل أيضاً إعادة فك الرقبة، لأن العبد الذي سقط في الأسر كان يوضع في عنقه طوق حديد.

ولكي نفهم معنى الفداء في العهد الجديد يلزم أن نتتبع أصل المعنى في العهد القديم. فالله في العهد القديم اختار إسرائيل ليكون خاصته، أي ملكه، إنما بشروط.

+ «فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي **تَكُونون لي خاصَّة** من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض.» (خر١٩: ٥)

فلمَّا أخلُّوا بالشروط **«باعهم»**:

+ «إنهم أمة عديمة الرأي ولا بصيرة فيهم ... لولا أن **صخرهم باعهم والرب سلَّمهم**.» (تث٣٢: ٢٨و٣٠)

ولكن الرب عاد بعد أن باعهم وشتَّتهم في الأمم، عاد فاستردهم وأعادهم إلى أرضهم.

ولكن إن كان الله باعهم «**فلم يبعهم لأحد**»، «**ولا باعهم بثمن**»، وإن كان «**استردهم**» **فلم يستردهم أو يفكهم من العبودية بثمن أيضاً** كقول الله على لسان إشعياء النبي:

+ «هكذا قال الرب "**مجاناً بُعتم**"، "**وبلا فضة (ثمن) تُفكُّون**"». (إش ٥٢: ٣)

بمعنى أن الله باعهم دون أن يغرِّم نفسه شيئاً، فأعمالهم الشريرة هي التي غرَّبتهم عن الله.

ثم إن إعادتهم إلى الله هي أيضاً لم تُغرِّم الله شيئاً، لأن عودتهم لم تتخطَّ حدودهم كمجرد عبيد.

هذا بالمقارنة بالعهد الجديد حيث عودتنا إلى الله **كلَّفته نَقْلَنا من طبيعتنا إلى طبيعة جديدة متحدة بطبيعته، ومن وضعنا كعبيد إلى أبناء له محبوبين ومقدَّسين، مما استلزم الفدية، وتنازلاً من جهة طبيعة الله حتى إلى مستوى عبودية الإنسان، وتغريم الصليب حتى الدم وهذا ثمن فادح!!!**

وفي الوضع الذي نحن بصدده ـ قبل مجيء المسيح ـ واضح أن البيع صار من الجهتين، فالشعب باع الله وخرج عن طوْعِه وأفسد طريقه على كل المستويات، والله تخلَّى عنهم وباعهم بلا ثمن. وفي أيام المسيح زاد الشعب بكهنته ورؤسائه على كونهم باعوا الله وذلك على مستوى العبادة والتقوى والأخلاق، إذ أضافوا على ذلك إذ باعوه بالفعل بثلاثين من الفضة كما تنبأ عن ذلك زكريا النبي: «فقلت (الله) لهم إنْ حَسُنَ في أعينكم فأعطوني أجرتي، وإلاَّ فامتنعوا. فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لي الرب ألقِها إلى الفخاري الثمن الكريم الذي ثمَّنوني به فأخذت الثلاثين من الفضة وألقيتها إلى الفخاري في بيت الرب.» (زك ١١: ١٢و١٣)

والآن عودة إلى القديس بولس لنجمع من بين أقواله ما يخص الفداء ونقسِّمها إلى قسمين:

القسم الأول: يختص «بالشراء»، و«الثمن»؛

والقسم الثاني: يختص بـ«الفدية»، و«الفداء».

القسم الأول:

+ «احترزوا إذاً لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا **كنيسة الله التي اقتناها بدمه**.» (أع ٢٠: ٢٨)

+ «**الذي بذل نفسه لأجلنا لكي يفدينا من كل إثم، ويطهِّر لنفسه شعباً خاصاً**.» (تي ٢: ١٤)

+ «إنكم لستم لأنفسكم لأنكم قد **اشْتُرِيتم بثمن.**» (١ كو٦: ١٩و٢٠)
+ «**قد اشترِيتم بثمن، فلا تصيروا عبيداً للناس.**» (١ كو٧: ٢٣)

واضح هنا أن بمقتضى عقد الشراء المغموس في الدم، أصبحنا نحن لسنا ملكاً لأنفسنا؛ بل للذي مات من أجلنا وقام، شعباً خاصاً، كنيسة خاصة لله.

القسم الثاني:

+ «**المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا ...**» (غل٣: ١٣)
+ «ولكن لما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس **ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال التبني.**» (غل٤: ٤و٥)
+ «**الذي فيه لنا الفداء بدمه، غفران الخطايا.**» (أف١: ٧)
+ «**الذي بذل نفسه فدية، لأجل الجميع.**» (١تي٢: ٦)

وهنا يأتي السؤال: إذا كان الفداء قد تم بدفع ثمن غالٍ جداً وهو دم ابن الله، فلمَنْ دفع المسيح هذا الثمن؟

الانحراف بنظرية الفِديَة إلى القول بدفع الثمن للشيطان:

سبق أن أوضحنا أن «**الخطية**» هي التي استلزمت الفداء.

والخطية أوقفت الإنسان أمام الله موقف الدينونة.

كذلك معروف أن الإنسان **استُعْبِد للخطية** والشهوات والشرور:

+ «عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلِبَ معه، ليُبْطَل جسد الخطية، كي لا نعود **تُستعبد أيضاً للخطية.**» (رو٦: ٦)
+ «فشكراً لله أنكم كنتم **عبيداً للخطية** ولكنكم أطَعْتُم من القلب صورة التعليم التي تسلمتموها.» (رو٦: ١٧)
+ «كما قدَّمتم أعضاءكم **عبيداً للنجاسة والإثم** للإثم، هكذا الآن قدِّموا أعضاءكم عبيداً للبر للقداسة.» (رو٦: ١٩)
+ «فإننا نعلم أن الناموس روحيٌّ، وأما أنا **فجسديٌّ مَبيعٌ تحت الخطية.**» (رو٧: ١٤)
+ «ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي (الغريزة) يحارب ناموس ذهني **"ويسبيني" إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي.**» (رو٧: ٢٣)
+ «لأننا كنا نحن أيضاً قبلاً أغبياء، غير طائعين، ضالين، **مستعبَدين لشهوات ولذَّات مختلفة.**» (تي٣: ٣)

فالفداء هنا واقع تجاه الخطية بنوع شخصي محدد:

+ «الذي بذل نفسه لأجلنا **لكي يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً خاصاً غيوراً في** أعمال حسنة.» (تي٢: ١٤)

+ فهل يمكن أن يُقال أن ثمن الفداء وهو دم ابن الله دُفع لبد الخطية والإثم والنجاسة والشهوات الجسدية؟ أو كما أخطأ الكثيرون ووقعوا في المحظور وقالوا إن «دم ابن الله» دُفع للشيطان(١)؟

ولكن علينا أن ننتبه أن دور المسيح كفادٍ لم يتوقف عند الفداء بالنسبة للإنسان في خطيته، ولكنه استمر يكمِّل عمل الفداء كشفيع بدمه أيضاً، فهل هو الآن يتشفع بدمه لدى الخطية أو لدى الشيطان؟؟

الوضع الصحيح لنظرية الفدية: الثمن مدفوع لنا:

واضح إذاً أن الفداء أُكمل لحساب الله، والدم الذي قدَّمه المسيح ثمناً وفِدْية لم يسلِّمه لأحد غيرنا. **فدم ابن الله أعطاه الله والمسيح لنا، للكنيسة، فنحن نملك دم المسيح، نحن نشربه ولكن بلا ثمن كدواء عدم الموت**، وهو كثمن فِدْيتنا أُضيف لحسابنا ليلغي كل ديوننا، إنه كنزنا وغِنانا، وصار جزءاً من دمنا وحياتنا.

فالموت الذي ماته المسيح **ماته لنا ولأجلنا، وأعطانا موته ليكون موتنا، وأعطانا دمه المسفوك ليكون دمنا**: «اشربوا منها كلكم» (مت٢٦: ٢٧). لذلك يقول بولس الرسول بكل وضوح إننا «**متنا معه**» (رو٦: ٨)، فهو لم يَمُت بعيداً عنا؛ بل مات بجسدنا ودمنا ولحمنا، فنحن شركاء في هذا الجسد والدم ولا زلنا نشترك فيه، لأنه جسد ودم المسيح الحي المُقام. لذلك أصبحنا شركاء قيامته وحياته، ودمه فينا يحمل لنا قوة الموت والقيامة والحياة.

لقد وهبنا من صميم فدائه لنا بدمه قيامته وحياته، فصارت قيامته قيامتنا كلنا وحياته حياتنا كلنا. فالفداء الذي أكمله المسيح بدمه شِقَّان: شِقٌ سالبي هو الموت ونحن الآن شركاء فيه، شركاء موته ودمه وآلامه، وشِقٌ إيجابي بدمه أيضاً، لأن في دمه روحاً أزليًّا نلنا به قيامته وحياته التي صارت قيامتنا كلنا وحياتنا كلنا.

---

(١) لقد وقع في هذا المحظور كل من القديس أمبروسيوس والقديس اغريغوريوس النيسي؛ عن:

F. Prat, op. cit., II, p. 194f.

فبشركة الفداء بموته امتلكنا الموت وامتلكنا الفداء وامتلكنا الدم، فلنا بها النصرة على الموت والخطية.

وبشركة دمه المسفوك نلنا غفراناً وتطهيراً لخطايانا.

وبشركة آلامه وأحزانه وعار صليبه نلنا قوةً واحتمالاً في كل آلامنا وضيقاتنا واضطهاداتنا وأحزاننا من كل نوع، لأنها صارت شركة في آلامه الفادية، فصارت شركة في صميم الفداء.

فانظر أيها القارىء وتمعَّن: إن آلامنا في الحاضر، كل آلامنا التي نجوزها تحت ضغط العالم والآخرين، أو التي نفرضها نحن على ذواتنا لكي نبقى على مستوى حياتنا ووجودنا واتحادنا في المسيح، هذه الآلام هي شركة في آلامه الفادية، هي شركة في الفداء الذي أكمله بآلامه في بشريتنا ولأجلنا. فحينما قال بولس الرسول: «أقمع جسدي وأستعبده» (١ كو٩: ٢٧)، قالها وهو في حالة شركة مع المسيح، قالها من عمق إحساسه وممارسته لقوى الفداء التي حررته وتُحرِّره كل يوم من حركات الطبيعة وغرائزها العاملة لمحاولة سيادة الخطية مرة أخرى في أجسادنا المائتة عن الخطية.

أنظر أيها القارىء وتفهَّم أن كل آلام وأتعاب وضيقات الجسد والنفس التي نعيشها لحفظ قداسة سيرتنا وطهارة قلوبنا وضمائرنا أمام المسيح والله هي شركة في آلام المسيح الفادية من الخطية والموت. هي عمل لتكميل قوة الفداء في الجسد. هي فعل صميميٌّ من أفعال الإيمان بالمسيح!!!

سواء كانت جوعاً إرادياً أو عطشاً أو ربط البطن بصوم إرادي شخصي أو صوم طقسي عن أكل أو مشتهيات، كذلك أتعاب تقنين السلوك والامتناع عن المتع المؤدية إلى انحلال الأخلاق، كذلك أتعاب الوقوف في الصلاة والسجود والقراءة والسهر والصمت المقدس. كل هذه جميعها هي أعمال مستمدة من قوة الفداء، من دم المسيح الذي اشترانا به لنفسه، وهي جزء لا يتجزأ من الإيمان المسيحي. وطالما نحن ماسكون بدم الفداء الذي غلب به المسيح الخطية فنحن غالبون.

إذاً، فالفداء ليس نظرية إيمانية عقلية تعمل في حياتنا من ذاتها، بل الفداء قوة أكملها المسيح في طبيعتنا لكي نعيش بها ونمارسها ونغلب بها لنحيا بها ونمجد الله!!

+ **«قد اشتُريتم بثمن فمجِّدوا الله، في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله.»** (١ كو٦: ٢٠)

هنا، الجزء الأول من هذه الآية هو هو الفداء، والجزء الثاني من الآية هو هو النسك بكل معناه. فالنسك المسيحي هو ممارسة فعلية للفداء: «لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية»!!! (عب١٢: ٤)

إن آلامنا وأحزاننا هي لنا الآن جزء لا يتجزأ من الفداء، فهي نصرة على العالم، من أجل هذا يهتف بولس الرسول هكذا:

+ «**الآن أفرح في آلامي.**» (كو١: ٢٤)
+ «**وقبلتم سلب أموالكم بفرح.**» (عب١٠: ٣٤)
+ «**كحزانى ونحن دائماً فرحون.**» (٢كو٦: ١٠)
+ «**فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي** لكي تحل عليَّ قوة المسيح.» (٢كو١٢: ٩)
+ «**لذلك أُسَرُّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات** لأجل المسيح، لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي.» (٢كو١٢: ١٠)
+ «مَنْ سيفصلنا عن محبة المسيح؟ **أشدة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عُرْي أم خطر أم سيف، كما هو مكتوب إننا من أجلك نُمات كل النهار**، قد حُسبنا مثل غنم للذبح، ولكننا في هذه جميعها **يعظم انتصارنا بالذي أحبنا.**» (رو٨: ٣٥ــ٣٧)
+ «**آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد** أن يُستعلن فينا.» (رو٨: ١٨)
+ «لأنه كما **تكثر آلام المسيح فينا**، كذلك بالمسيح **تكثر تعزيتنا أيضاً.**» (٢كو١: ٥)
+ «عالمين أنكم كما **أنتم شركاء في الآلام كذلك في التعزية أيضاً.**» (٢كو١: ٧)
+ «من جهة **ضيقتنا التي أصابتنا في آسيا أننا تثقلنا جداً فوق الطاقة** حتى أيسنا من الحياة أيضاً، **لكن كان لنا في أنفسنا حكم الموت** لكي لا نكون متكلين على أنفسنا بل على الله الذي يقيم من الأموات.» (٢كو١: ٨و٩)
+ «مكتئبين في كل شيء لكن غير متضايقين، متحيرين لكن غير يائسين، **مُضطهَدين لكن غير متروكين، مطروحين لكن غير هالكين، حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا.**» (٢كو٤: ٨ــ١٠)
+ «لأن **خفة ضيقتنا الوقتية** تنشىء لنا أكثر فأكثر **ثقل مجد أبديًّا.**» (٢كو٤: ١٧)
+ «**في كل شيء** نُظهر أنفسنا كخدام الله **في صبر كثير في شدائد في ضرورات في ضيقات في ضربات في سجون في اضطرابات في أتعاب في أسهار في أصوام ...**» (٢كو٦: ٤و٥)

هذه السلسلة الطويلة من الآلام لا يمكن لأي بشر مهما أوتي من قوة ذاتية أن يحتملها، وإذا احتملها يستحيل أن يفرح فيها ويُسَرّ بل ويفتخر ويطلب المزيد. إذاً فهي «آلام المسيح» بكل صدق ويقين وحق، وهي آلام الفداء التي وهبها لنا الله في المسيح، فهي آلام خلاصية، آلام فيها نصرة الفداء، وفيها الغلبة على الخطية التي هي أساس كل الآلام، والغلبة على الموت الذي هو قوة

الخطية. لذلك فكل من يوهب[٢] آلام المسيح، يعيش هذه النصرة بكل مؤهلاتها من فرح وسرور وابتهاج وافتخار.

بولس الرسول يقول بوضوح إن آلامه هي آلام المسيح الفادية عينها والتي فيها يتعزَّى بكل صدق: «لأنه كما **تكثر آلام المسيح فينا، كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضاً.**» (٢كو١: ٥)

لا يمكن أن تُنشىء الآلام تعزية إلاَّ إذا كانت آلام المسيح الفادية، لأن آلام الصليب أنشأت قيامة ونصرة ومجداً وعزاءً أبدياً.

بولس الرسول يعيش آلام الفداء، لذلك يستمرىء شدتها ويستعذبها ويطلب كثرتها.

يستحيل على أحد أن يطلب كثرة الآلام إلاَّ إذا كانت هذه الآلام تفتح الطريق على المجد. لذلك يقولها بولس الرسول بصراحة وبقوة: «إن كنا **نتألم معه، لكي نتمجد أيضاً معه**» (رو٨: ١٧). هذه هي شركة آلام الفداء التي لها وحدها شركة المجد مع المسيح. والآلام الفدائية لا تنفصل عن الموت الفدائي، لذلك يقول بالتالي وعن حق: «لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته.» (رو٦: ٥)

هذا كله يعني أن موت الفداء الذي ماته المسيح هو موتنا، وبالتالي الفداء هو فداؤنا، لا كنظرية تُدْرَس بل حياة نحياها، وبالتالي وبالضرورة تكون حياة المسيح القائم من الموت هي حياتنا لأن قيامته هي قيامتنا. والآية هنا صريحة: «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢كو٤: ١٠). بولس الرسول هنا يستخدم قوة موت المسيح في جسده لإماتة جسده عن العالم والشهوات، وبذلك تظهر قوة قيامة المسيح وحياته في جسد بولس الرسول الذي أمات شهواته. هنا الفداء وقوته بالموت والحياة صار نبع الفضائل والأخلاق، أي حياة نعيشها كقوة موت لإماتة الجسد وقوة حياة للروح. مرة أخرى نقول إن **الفداء** ليس نظرية لاهوتية ألّفها بولس الرسول، بل هي هي حياة النصرة على الخطية وحياة تحويل الآلام إلى أفراح وأمجاد، وتحويل الموت إلى قوة إماتة للجسد والشهوات.

المسيح لم يدفع الفِدْيَة والدم الثمين لرئيس العالم أو للخطية، حاشا، بل **دفعها لنا بآلامها لكي تكون لنا** ونكون نحن لها نمتلكها كقوة مخلِّصة.

---

(٢) «قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله.» (في١: ٢٩)

ثانياً: نظرية التكفير بالإحلال ــ عقوبة بدل عقوبة ــ المسيح مات "عنا"(٣)

هذه النظرية تقوم على أساس مفهوم الذبيحة في العهد القديم، حيث ينص الطقس على أن ذبح الضحية وموتها وخروج دمها هو **عوض الخاطىء**، باعتبار ذلك نفس عوض نفس:

+ «**لأن نفس الجسد هي في الدم**، فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير **عن** نفوسكم. لأن الدم يكفِّر**عن** النفس ἀντὶ ψυχῆς .» (لا ١٧: ١١)

والطقس العام بخصوص الذبائح من أجل الخطية يوضح نظرية الإحلال أو الاستبدال، الذبيحة عوض الخاطىء، **ولكن الذي يتحتم أن يفهمه القارىء هو أنه لا توجد للخطيئة العَمْد التي تستحق الموت في ناموس العهد القديم كله أية ذبيحة تعويضية بأي حال.** فكل الذبائح هي عن **خطايا السهو** فقط حيث يُعلَم بها الخاطىء بعد أن يكون اقترفها دون وعي. وإليك النص:

+ «**إذا أخطأتْ نفس سهواً ــ في شيء ــ من جميع مناهي الرب التي لا ينبغي عملها وعملت واحدة منها**: إن كان الكاهن ...، **إن سها كل جماعة إسرائيل**... **إذا أخطأ رئيس وعمل بسهو**...، **وإن أخطأ أحد من عامة الأرض سهواً**...، **ثم أُعلم بخطيته التي أخطأ بها** ... ويضع يده على رأس ذبيحة الخطية ويذبح ذبيحة الخطية في موضع المحرقة ... **ويكفِّر عنه الكاهن فيصفح عنه**» (لا ٤: ١ــ٣٥). أنظر الأصحاح كله، **وهو عن ذبيحة الخطية السهو.**

ثم يستمر سفر اللاويين في الأصحاح الخامس ويذكر جميع خطايا السهو **التي يقترفها الإنسان سهواً ثم يُخبَّر بها، فيصير في الحال مذنباً وعليه أن يقدم ذبيحة الإثم.**

هنا وضع يد الخاطىء على رأس الذبيحة يشير إلى انتقال الخطية أو الإثم (السهو)، وتذبح الذبيحة **بدلاً عن الخاطىء والمذنب**، ويُهرق دم الذبيحة أمام مذبح الرب، أي أمام الله، وتُحرق بكاملها بعضها على المذبح والباقي خارج المحلة (لا ٤: ٨ــ١٢). وبحرقها يكون الكاهن

---

(٣) الكنيسة البروتستانتية تتمسك بشدة بنظرية «التكفير بالإحلال»، أي أن «المسيح مات عنا»، بمعنى «نائباً عنا»، ومع أننا لا نريد ولا نرتاح للمجادلات في أمر اللاهوت ولكن اضطررنا اضطراراً أن نوضح موقفنا من هذا الموضوع لما فيه من أهمية روحية سيرتاح لها القارىء أشد الارتياح.

قد كفَّر عن خطية الخاطىء (سهواً).

فلينتبه القارىء هنا، فذبيحة الخطية في العهد القديم قُدّمت عن الخاطىء وذُبحت عن الخاطىء وماتت عن الخاطىء. **أي أن الحيوان مات عن الخاطىء حتى لا يموت الخاطىء، فهنا الحيوان مات وحده، والإنسان لم يَمُتْ.**

وهكذا في تقديم الكاهن دم الذبيحة أمام الله فإنه يكون قد قدَّم حياة الذبيحة **كفَّارة عن** حياة الخاطىء.

والآن هل يمكن نقل هذا الطقس بمبناه ومعناه إلى حقيقة الفداء الذي فيه قدَّم المسيح جسده على الصليب؟

هنا عائق خطير يمنع التطبيق: وهو أن جميع ذبائح الخطية التي نص عليها العهد القديم هي كما سبق ونبهنا مراراً تصحُّ فقط في حالة **الخطية السهو** unwillingly = ἀκουσίως أي بدون قصد. أما **خطايا العمد** أو التي **عن قصد وبالإرادة فلا ذبيحة لها على الإطلاق** في كل ناموس موسى. وبمعنى آخر أوضح أنه يستحيل إحلال أو استبدال نفس بنفس في حالة **الخطية العمد**، ذلك بحسب ناموس موسى. هنا يصعب التطبيق من قريب أو من بعيد على ذبيحة المسيح، لأن ذبيحة المسيح هي ذبيحة عن **خطية العمد أولاً وكافة أنواع الخطايا** التي يقصُر ويمتنع العهد القديم عن أن يقدم عنها ذبيحة بالمرة.

فهنا يستحيل أن تُحسَب ذبيحة المسيح أنها **عوض** الخاطىء أو عن الخاطىء **أو بدلاً عن** الخاطىء، لأن الخطية هي خطية عمد، **والخاطىء يتحتم أن يموت موتاً ولا يمكن أن تُقدَّم عنه ذبيحة من أي نوع!**

إذاً فما هي ذبيحة المسيح؟

ذبيحة المسيح هي موت الخاطىء بالفعل!! المسيح أخذ جسداً هو في حقيقته جسد الإنسان ككل، جسد جميع الخطاة، أخذه أولاً من العذراء والروح القدس طاهراً بدون خطية. ولكنه جسد حقيقي، هو هو بعينه جسد كل خاطىء، واقتبل في هذا الجسد خطية كل الخطاة، خطية العالم كله؛ وتقدَّم إلى الصليب وقَبِلَ «الموت» (كخاطىء) حاملاً خطية العالم كله؛ حتى إن كل خاطىء يعتبر نفسه في المسيح أنه مات **بالفعل**. فالمسيح لم يَمُتْ بعيداً عنَّا؛ بل مات بنا، **ونحن متنا فيه،** حتى حقٌ لكل إنسان أن يقول: أنا **قد مُتُّ**، فأبطل حكم الموت عني، **أنا في المسيح**

قد جُزِتْ عقوبة الموت فلم يعُدْ عليَّ خطية ولا دينونة بعد. هذا الوضع يستحيل تصوّره بالنسبة لإنسان خاطىء خطية سهو في العهد القديم وقد قدّم عن نفسه ذبيحة شاة، إذ يكون لسان حاله فقط: أنا قد رُفِعَتْ عني عقوبة الموت جزاء خطية السهو وحسب، أما خطية العَمْد فلا ذبيحة ولا تكفير عنها قط.

أي أن ذبيحة المسيح هي ليست على مستوى أية ذبيحة من ذبائح العهد القديم، وبالتالي لا تَمُتُّ لنظرية الذبائح المعروفة في العهد القديم بأية صلة، لأنها ذبيحة عن خطايا العَمْد التي امتنع العهد القديم بكل ذبائحه أن يعوِّض عنها.

كذلك، فذبيحة الخطية في العهد القديم تُحرق بكاملها، بعضها على مذبح المحرقة والباقي خارج المحلة، لا يذوق من لحمها لا كاهن ولا صاحب الخطية لأنها تحمل الخطية. والدم يُسفك على الأرض لا يذوق منه أحد وإلاَّ يُلْعَن. في حين أن **ذبيحة المسيح تؤكل جسداً ودماً**: «خذوا كلوا هذا هو جسدي»، «اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي.» (مت٢٦: ٢٦—٢٨)

بمعنى أن الخطية في العهد القديم أصابت جسم الذبيحة الحيوانية باللعنة، فامتنع الأكل منها حتماً، أما **الخطية واللعنة فأُبْطِلت** في جسم المسيح بموته فتلاشت كليًّا، وصار الجسد المقدس يؤكل والدم يُشرب للحياة والتقديس، فهما مقدسان وطاهران.

بمعنى أن المسيح لم يأخذ الخطية منا ليموت بها **عوضاً عنا**؛ بل أخذ **جسد خطيتنا بعينه**، وأمات الخطية الفعلية فيه، ولاشاها منه بموته. فهو لم يَمُتْ وحده على الصليب، فنحن كنا فيه على الصليب: «مع المسيح صُلِبْتُ.» (غل٢: ٢٠)

ونحن كنا فيه لما مات بالجسد الذي هو جسدنا وأمات الخطية، خطية العَمْد القاتلة، التي في الجسد الذي هو جسدنا: «إن كنا قد صرنا **متحدين معه بشبه موته** نصير أيضاً بقيامته عالمين هذا أن إنساننا العتيق **قد صلب معه**، ليبطل جسد الخطية... فإن كنَّا **قد مُتنا مع المسيح** نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.» (رو٦: ٥و٦و٨)

إذاً فالمسيح صُلِبَ، ليس وحده؛ بل «**نحن صُلِبْنا معه**». فكيف نقول صُلِبَ عنَّا؟
والمسيح لما مات لم يمُتْ وحده؛ بل «**نحن مُتنا معه**». فكيف نقول مات عنا؟
وقد سبق أن قلنا (ص ٢٨١—٢٨٤) أننا **تألمنا معه**. فكيف نقول تألم عنا؟

ولكن المسيح **صُلب فينا** — بجسد بشريتنا — **من أجلنا**، لذلك فنحن **صُلِبْنا** معه.

والمسيح **مات** بجسد بشريتنا من أجلنا، لذلك فنحن **مُتْنا** معه.
والمسيح **تألم** في جسد بشريتنا من أجلنا، لذلك فنحن **تألمنا** معه.

وليلاحظ القارىء كيف دخل مفهوم «عني» في لغتنا العربية أيضاً بسبب خطأ في الترجمة قَلَبَ المعنى وأضرَّ بمفهوم الفداء أشد الضرر، وذلك في ترجمة نص الإفخارستيا الذي جاء في إنجيل القديس لوقا وحده. أما في إنجيل القديس متى وإنجيل القديس مرقس فجاء النص صحيحاً سليماً بحسب النص اليوناني تماماً.

١ ــ إنجيل القديس متى:

+ **«وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال،**
خذوا كلوا هذا هو جسدي،
وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً:
اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد،
الذي **يُسفك من أجل كثيرين** περὶ πολλῶν [وهي لا تحتمل أي معنى غير **من أجل**(4)]،
لمغفرة الخطايا.» (مت٢٦: ٢٦ــ٢٨)

٢ ــ إنجيل القديس مرقس:

+ «وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم وقال:
خذوا كلوا **هذا هو جسدي،**
ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم وقال لهم:
هذا هو دمي الذي للعهد الجديد،
الذي يسفك من أجل كثيرين» [ὑπὲρ πολλῶν = من أجل(5).] (مر١٤: ٢٢ــ٢٤)

٣ ــ إنجيل القديس لوقا:

حيث الخطأ في الترجمة جاء في كلمة **«عنكم»:**
+ «وأخذ خبزاً وشكر وكسر وأعطاهم قائلاً:
هذا هو جسدي الذي يُبْذَلُ عنكم» [ὑπὲρ ὑμῶν (5) هنا الترجمة العربية خاطئة ولا

---

4. Liddell & Scott, *An Intermediate Greek-English Lexicon*, p. 622.
5. Ibid.

تحتمل في اليونانية إلاَّ «من أجلكم»]،
اصنعوا هذا لذكري،
وكذلك الكأس أيضاً بعد العشاء قائلاً:
هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي،
الذي يُسْفَكُ عنكم ὑπὲρ ὑμῶν (°)» [هنا الترجمة في العربية خاطئة ولا تحتمل في اليونانية إلاَّ «من أجلكم».] (لو٢٢: ١٩و٢٠)

٤ ــ الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١١: ٢٣ــ٢٥):
+ «...أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال: خذوا كلوا،
هذا هو جسدي المكسور **لأجلكم** ὑπὲρ ὑμῶν ،
اصنعوا هذا لذكري،
كذلك الكأس أيضاً بعد ما تعشوا قائلاً:
هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي،
اصنعوا هذا كلما شربتم لذكري».

تصحيح نظرية التكفير:

١ ــ التكفير بالاتحاد وليس بالإحلال.

٢ ــ بذبيحة حب وليس بذبيحة عقاب.

إذاً، ليس جيداً القول بأن ذبيحة المسيح على الصليب قدّمها المسيح لله **«عني»** أو **«عن الخطاة»**، وذلك لأمرين كل منهما أخطر من الآخر:

الأمر الأول:

إذا كان المسيح تألم بعيداً **عني** ومات بعيداً **عني**، أي **بدلاً مني** فكيف انتقلت خطيتي إليه؟ ثم كيف أخذنا غفران خطايانا منه أو نلنا برَّه فينا؟ ولكن الحقيقة هي أنه أخذ جسدنا، واتحد به؛ ونحن بالإيمان عكسنا الوضع: أخذنا جسده، واتحدنا به، فصرنا فيه وهو فينا، حسب قوله بنص القول: «وأنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو١٤: ٢٠)، علماً بأن المسيح قال ذلك قبل أن يُصْلَب!! فلما تألم وصُلِبَ ومات، كنا فيه وكان هو فينا حسب قوله، فأمات الخطية في الجسد الذي أخذه منا. فلم تنتقل الخطية منّا إليه نظرياً، بل قُتِلَت وماتت حيث هي في جسد بشريتنا أي جسد كل واحد من البشر:

5. Ibid.

+ «فالله إذ أرسل ابنه في شبه **"جسد الخطية"** ولأجل الخطية، دان الخطية **في الجسد**، لكي يتم حكم الناموس **فينا**.» (رو٨: ٣و٤)

وحكم الناموس **فينا** هو الموت المحتم للخاطىء. إذاً، تم حكم الناموس **فينا** بالموت لما مات المسيح مباشرة، لأنه مات بجسدنا، أي بجسد كل واحد منا.

+ «عالمين هذا أن **إنساننا العتيق قد صُلِبَ معه، ليُبْطَلَ جسد الخطية**.» (رو٦:٦)

إذاً، فالمسيح لم يكن بعيداً **عنا** لما مات، بل كنا فيه ومتنا فيه لما مات، وهنا ليس جيداً أن يُقال: مات **عنا**، بل مات من أجلنا. لأن **الإحلال** هنا، أي أن المسيح حلَّ محلنا بأخذ عقوبة الموت عنا، يُضعف قوة الاتصال، لأننا بالاتصال **والاتحاد** فقط ــ الذي تم في التجسد ــ ننال قوة موت المسيح وقيامته. لذلك نسمع بولس الرسول الذي كان يحيا هذا الاتصال يقول: «فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠). ومرة أخرى يقول: «لي الحياة هي المسيح» (في١: ٢١)، وكما يعبِّر كثيراً جداً باصطلاح حساس عن استمداده كل ما يخص الخلاص والفداء والحياة **مع** المسيح بالاتصال الوثيق بقوله «**مع المسيح صُلِبْتُ** (Χριστῷ συν-εσταύρωμαι).» (غل٢: ٢٠)

الأمر الثاني: المحبة حلّت في العهد الجديد محل العقوبة في العهد القديم:

هو موقف الله الآب من جهة ابنه. فالله بذل ابنه بدافع محبته للعالم حتى لا يهلك العالم بل تكون له حياة أبدية لكل من يؤمن به. لا يوجد هنا أقل شبهة في وجود عقوبة، فالبذل هنا سواء عند الآب أو عند الابن هو عمل محبة، فالله «هكذا أحب ... حتى بذل ابنه» (يو٣: ١٦)، والابن يقول: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه **لأجل** أحبائه» (يو١٥: ١٣). هنا لا يوجد أدنى إحساس بالعقوبة. المسيح هنا لما بذل نفسه، لما تقدم إلى الصليب وقَبِلَ الموت، لم يكن هذا بالنسبة له عقوبة بل حباً. ولكن **موته في جسدنا حُسِبَ لنا نحن أنه استيفاء عقوبة. فلما أكمل الموت أكمل حبه**، فكان لنا **نحن تكميل عقوبة** أما هو فبالموت أكمل حبه!!

فلو كان الموت هو عقوبة الخطية ــ وهو كذلك حقاً في العهد القديم: «النفس التي تخطىء هي تموت» (حز١٨: ٢٠)، لكان الابن قد تحمل عقوبة الموت من يد الآب عوضاً عنا لاستيفاء عدل الله، وهذا غريب عن روح العهد الجديد وغير جائز، وإلاَّ صار عمل الابن ــ أي **البذل ــ عقوبةً**، مع أن **البذل حب**، حبٌّ في دافعه وحبٌّ في نتيجته. الموت هنا بالنسبة للمسيح هو تعبير عن المحبة، ولكن بالنسبة لنا هو استيفاء العقوبة.

يستحيل أن يجمع الله الآب في قلبه نقمة العقوبة ليصبّها في ابنه ليموت عنا و بدلاً منا، مع نعمة المحبة التي أرسل بها ابنه باذلاً إياه كأقوى تعبير عن حبه من أجلنا حتى لا نهلك. كذلك، فالآلام العنيفة التي تحمَّلها الابن المتجسد مع عذاب الصليب والتشهير به حتى الموت، لم تكن لتنفيذ عقوبة فَرَضَها الآب عليه عوضاً عنا، بل لتنفيذ تكليف محبة أكملها الابن في جسم بشريتنا لتكون ميراثاً لنا. فالآلام لم تكن ثمن عقوبة بل ثمن محبة، والصليب لم يكن ثمن عقوبة بل ثمن محبة، والموت لم يكن ثمن عقوبة بل ثمن محبة: « **الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي.** » (غل ٢: ٢٠)

أي أن بمحبته أكمل الموت الذي كان عقوبة عليَّ وذلك بسبب محبته لنا وللآب بالطاعة واحتمال الآلام. وهكذا وازن بأعمال محبته أعمال عقوقنا وجهلنا وخطايانا، كذلك بأعمال محبته رفع كل عقوبة عنّا.

وهذا هو السر الأساسي في تجسد ابن الله، إنه **عمل حب بالدرجة الأُولى** بعيداً كل البعد عن إحساس ومفهوم العقوبة، فلا الله الآب عاقب ابنه، بل عن حب بَذَله؛ ولا الابن عاقب نفسه، بل أحبَّنا وأسلم ذاته من أجلنا؛ ولا نحن وقع علينا عقاب في الحقيقة، بل فُزْنا بالبراءة والمحبة والتبني. وبالرغم من ذلك نَفَّذَ عدل الله، وتم حكم الناموس، ومات الخاطىء. فالمسيح مات بالجسد الذي هو جسدنا وخطيتنا عليه، فتمَّ فينا نحن ــ وليس في المسيح ــ **عدل الله**: « **لكي يتم حكم** الناموس (القانون) **فينا.** » (رو٨: ٤)

العقاب لا ينشىء حباً، **ولكن الحب يلغي العقاب**. لذلك، فالمسيح قام من بين الأموات، لأن عمل المحبة أو فعل المحبة لا يسقط أبداً ولا يموت! فأين العقاب؟

ولينتبه القارىء « **فالموت** » الذي ماته ــ ابن الله المتجسد ــ على الصليب لا ينحصر فقط في رفع عقوبة الخطية، بل ويتعدى رفع العقوبة مئات المرات وبما لا يُقاس، لأن موته على الصليب أعطانا طبيعة جديدة متحدة بطبيعته، أي نَقَل مستوى بشريتنا من خليقة مادية إلى خليقة روحانية جديدة، ووهبنا روح الله القدوس ليسكن في هياكلنا البشرية باعتبارها هيكل الله وروح الله ساكن فيها، ووهبنا حالة تبني لله بعد أن كنا عبيداً، وسكب فينا محبة أُبوَّته على مستوى محبته لابنه الوحيد، لكي نحيا معه حياة أبدية.

فكيف نقول بعد ذلك إن المسيح بموته تحمَّل العقوبة عنا؟؟ الصحيح أن بموته ألغى العقوبة، لأن موته كان بدافع الحب من الله وليس عقاباً، فلما ألغى العقاب ظهرت مفاعيل الحب الفدائي الكثيرة.

أو كيف القول أنه مات عنا إرضاءً لعدل الله؟

الصحيح أن بموته من أجلنا، وقد جزنا معه الموت واللعنة، يكون قد تم حكم الناموس (القانون) **فينا** كخطاة، فتبرأنا. وهكذا يكون **تم فينا** عدل الله فتأهَّلنا مباشرة لمحبته وبره: «لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة.» (أف ١: ٤)

مرة أخرى نقول إن المسيح مات لنا ولم يمت عنا.

المسيح قَبِلَ حكم الموت، ليس عقوبة، بل قيل عنه أنه «**احتمل الصليب من أجل السرور الموضوع أمامه**» (راجع عب١٢: ٢). الموت كان سروراً له، الموت كان للمسيح كأساً مقدَّماً بيد الآب، كأس تكليف أبوي استلمها الابن بكل سرور الطاعة، ولما شربها تكلل بالمجد. ونحن أكملنا العقوبة التي علينا **فيه** في هذه الكأس. موت المسيح كان مجداً له، وكان لنا فيه تكميل عدل الله عن عصياننا.

المسيح لم يُعاقَب بالموت، بل بالموت ألغى العقاب. الموت الذي ماته المسيح أعظم وأجلُّ من العقاب ألف مرة، إنه حبٌّ!! لذلك فالموت الذي ماته المسيح صار فداءً لحياة أبدية وليس عقاباً ينتهي بالبراءة، هو فداء حب، حب الآب للابن وللعالم. لذلك فالموت باعتباره موتَ فداءٍ بدافع الحب الإلهي أنشأ كلَّ **ما يتناسب مع المحبة**، هكذا كما قال بولس الرسول: «كما اختارنا **فيه** قبل تأسيس العالم، لنكون قديسين وبلا لوم قدامه "**في المحبة**"، إذ سبق فعيَّننا للتبني بيسوع المسيح لنفسه **حسب مسَرة مشيئته**، لمدح مجد نعمته **التي أنعم بها علينا في المحبوب**. الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا، **حسب غنى نعمته**.» (أف ١: ٤-٧)

فهل هذه النتيجة المزدحمة بسَبْق **الاختيار والتقديس**، والوقوف أمام الله **بلا لوم في المحبة**، **والتبني حسب مسرة الآب، ومدح مجد نعمته، التي أنعم بها علينا في المحبوب**، والتي تمت بالفداء الذي **«فيه ولنا»** معاً **بمقتضى غنى نعمته**، نقول هل هذه كلها يمكن أن تكون مجرد نتيجة لتحمُّل المسيح العقاب عنا؟؟ وأن يكون الله قد أكمل العقاب في ابنه عوضاً عنا؟؟

وأخيراً فإننا لا نعثر في رسائل بولس الرسول ما يوضح نظرية الإحلال والإبدال، أي أن يكون المسيح قد مات عوضاً أو بدلاً عنا. بل إن النصوص محصورة كلها في مفهوم «من أجل» وتأتي باليونانية ὑπέρ وأحياناً περί، ولكن لا تأتي أبداً بمعنى «عوضاً عن» ἀντί:

+ «لأن المسيح إذ كنا بعد ضعفاء، مات في الوقت المعيَّن لأجل ὑπέρ الفُجَّار، فإنه بالجهد يموت أحد لأجل ὑπέρ بار،

ربما لأجل ὑπέρ الصالح يجسر أحد أيضاً أن يموت،

ولكن الله بيَّن محبته لنا، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا ὑπέρ .» (رو٥: ٦ــ٨)

+ «مع المسيح صُلبت فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي ὑπέρ .» (غل٢: ٢٠)

+ «لا تُهلِكْ بطعامك ذلك الذي مات المسيح لأجله ὑπέρ .» (رو١٤: ١٥)

+ «وهو مات لأجل ὑπέρ الجميع ...» (٢كو٥: ١٥)

+ «الذي مات لأجلنا περί حتى إذا سهرنا أو نمنا نحيا جميعاً معه.» (١تس٥: ١٠)

+ «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا ὑπέρ أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء.» (رو٨: ٣٢)

+ «وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي المكسور لأجلكم ὑπέρ ، اصنعوا هذا لذكري.» (١كو١١: ٢٤)

+ «الذي بذل نفسه فِدْيَة لأجل ὑπέρ الجميع.» (١تي٢: ٦)

+ «الذي بذل نفسه لأجلنا ὑπέρ لكي يفدينا من كل إثم ويطهر لنفسه شعباً ...» (تي٢: ١٤)

+ «المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا ὑπέρ .» (غل٣: ١٣)

+ «لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا ὑπέρ ، لنصير نحن بر الله فيه.» (٢كو٥: ٢١)

+ «الذي بذل نفسه لأجل ὑπέρ خطايانا، لينقذنا من العالم الحاضر الشرير.» (غل١: ٤)

+ «فإنني سلَّمتُ إليكم في الأول ما قَبِلْته أنا أيضاً، أن المسيح مات من أجل ὑπέρ خطايانا حسب الكتب.» (١كو١٥: ٣)

أنظر أيها القارىء وتمعَّن: لماذا لم يَقُلْ بولس الرسول، ولا مرة واحدة أن المسيح صنع موتاً أو فداءً بدلاً عنا = ἀντί ؟ أليس لأن هذا لا يتمشى مع حقيقة الفداء؟ والذي يتضمن أننا نحن لم نمت معه إن كان هو **مات عنا**؟ ولكن إن كان قد مات **من أجلنا وبجسدنا**، فنحن **قد مُتنا معه** بالضرورة!! حسب قوله:

+ «**إن كان واحد قد مات لأجل** ὑπέρ **الجميع، فالجميع إذاً ماتوا.**» (٢كو٥: ١٤)

لاحظ هنا أنه يتضمن أن الجميع جازوا الموت فعلاً، وهنا يكون قد أكمل الناموس لنا حقاً، ولم يُعْفِهم من الموت، بل جَازَ بهم الموت الذي غَلَبه، فغلبوا بموته الموت وقاموا معه.

+ «وهو مات لأجل ὑπέρ الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم ὑπέρ وقام.» (٢ كو٥: ١٥)

ثالثاً: نظرية استرضاء وجه الله(٦)

وتقوم على أساس تصادم العدل عند الله في مواجهة الخطية، فالله قدوس والخطية إساءة مباشرة لقداسته، وهنا عدالة الله تنبري للخاطىء الذي أساء إلى قداسة الله وكرامته فلا تتركه دون عقاب. وهكذا يقف الخاطىء أمام عدل الله مُداناً إلى أن تُرفع الإساءة ويُكفَّر عنها.

وإذ لا توجد خليقة ما قادرة أن تعوِّض عن إساءة الخطية عن عمد ضد الله الذي لا يُحدُّ، لهذا لَزَم أن يكون للوسيط هذه اللامحدودية. لذلك لزم أن يتجسد ابن الله ليسترضي أولاً عدل الله حتى ينسكب حب الله ورحمته للإنسان. فهنا عدل الله في مواجهة الحب والرحمة، حيث على الابن المتجسد أن يسترضي العدل أولاً ليسترد الحب والرحمة لبني الإنسان، مُقدِّماً باسم الإنسان ما يوازي أو يعادل الإساءة التي اقترفها ويقترفها الإنسان ضد قداسة الله وعدله.

هنا الفداء بالموت الذي يؤديه ابن الله في بشريته يرفعه بلاهوته ليتساوى مع طبيعة الله اللامحدودة في أثره الاسترضائي، في أسمى برهان على طاعته البنوية، ليستعيد حب الله ورحمته على بني الإنسان.

هذا المنطق الديالكتيكي(*)، بقدر ما أنه يدخل في الحبك الفلسفي التأملي بقدر ما يبتعد عن البساطة التي في المسيح وعن واقع الفداء بصورته المجروحة الدموية. فالصليب، وإن كان يمثل حكمة الله غير المحدودة، إلا أنه في بساطته في متناول فكر طفل.

وفكرة استرضاء الله وإن كانت مستمدة من العهد القديم، فـ«يهوه» — النار الآكلة — في العهد القديم قد صار، بميلاد ابن الله واستعلان بُنوّته، أباً يسكب روحه — بدل اللعنة — على كل بشر. لذلك فصورة الله في هذه النظرية (وهو طالبٌ مَنْ يسترضي عدله وكرامته) لا تتناسب الآن مع: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل مَنْ يؤمن به بل تكون له

---

(٦) هنا للأسف نجد كثيراً من الآباء القدامى وحتى آباء العصور الوسطى بل و بعض المحدثين ساروا على هذا النمط اللاهوتي.

(*) أي الذي يعتمد على الحوار، والسؤال والجواب، والفرض ونقيضه ثم معالجة المتناقضات.

الحياة الأبدية» (يو٣:١٦)، حيث الله الآب هنا هو الذي يطلب استرضاء الإنسان المظلوم المخذول المُهان والمطرود، ساعياً أن يردَّه إلى كرامته الأُولى.

كما أننا نجد، في نظرية استرضاء الله، الحوار قائماً بين الآب والابن لحساب الإنسان، وكأن الإنسان كمية مهملة لا دخل لها في الحوار، في حين أن التجسد يُدْخِل الإنسان في عملية الفداء كشريك بالدرجة الأُولى، فبجسد الإنسان ودمه تم الفداء باتحاد لاهوت الابن.

كذلك نجد في نظرية الفداء كاسترضاء الله أن عملية الفداء تنتهي باسترضاء الابن للآب، وحينئذ ينتهي الحوار وتنتهي الرواية المأساوية باسترداد كرامة الله.

ولكن بحسب الواقع العملي، نجد الفداء لا ينتهي عند هذا الحد، فالابن المتجسد دخل من واقع الفداء إلى الأقداس العليا **بدمه ليكمل الفداء**: «دخل مرَّة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبدياً» (عب٩:١٢). وحتى الإنسان وإن كان قد استعاد بالفداء رضى الله وحبه ورحمته، إلاَّ أنه لا يزال ينتظر مزيداً من الفداء:

+ «فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معاً إلى الآن. وليس هكذا فقط، بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضاً نئنُّ في أنفسنا متوقعين التبني فداء أجسادنا.» (رو٨: ٢٢و٢٣)

وإن كان بعض الآباء الأُول قد استخدموا هذه النظرية، أي نظرية الفداء القائم على استرضاء الله، فذلك لم يكن من واقع إيمانهم الشخصي المباشر في فهم وتفسير الفداء بحد ذاته، ولكن كان بسبب الدفاع الذي قاموا به ليردوا على سؤال الوثنيين: [لماذا صار الله إنساناً]؟

هنا أدخل هؤلاء الآباء الفداء باعتباره الضرورة التي حتَّمت تجسد ابن الله وبنوا عليها هذه النظرية التأملية الفلسفية التي تنتهي بحقيقة واحدة وهي ضرورة تجسد ابن الله.

ضعف النظريات الثلاث السابقة،

وضرورة «الفداء الشمولي»

أي اعتبار المسيح يشمل ويجمع البشرية كلها في ذاته

ولكن إذا عدنا للفداء في حد ذاته ومن جهة صلته العملية بالخلاص الفعَّال في الفكر والقلب والجسد معاً، يشعر الإنسان أن هذه النظريات جافة يعوزها وعي وحركة الروح.

أما فكر الآباء عموماً بخصوص الفداء فيدور حول عنصر أساسي ورثناه عنهم في المقولة التي نرتل بها في التسبحة اليومية المقدسة:

[هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له فلنُسبِّحه ونمجده ونزِدْه علواً] (ثيئوتوكية الجمعة).

هذا المبدأ اللاهوتي المضيء ملأ فكر الآباء الأُول جميعاً. فالله أرسل ابنه في جسد إنسان لكي يتم الخلاص بإنسان، **فالمسيح يجمع البشرية كلها في ذاته**. والله لما أراد خلاصنا، صمم أن يخلصنا **في طبيعتنا** التي تخصُّنا والتي تحتاج إلى إعادة خِلْقَة، لذلك تجسد ابن الله وصار إنساناً مثلنا في كل شيء ما عدا الخطية.

فلما مات المسيح بدافع الحب والطاعة للآب، أكمل بحبه حكم الموت في كل إنسان في البشرية كلها، أو على الأصح، أكمل الإنسان العقوبة الواقعة عليه من داخل عمل محبة المسيح وطاعته حتى الصليب **لأن المسيح مات بجسد البشرية**. وهذا هو المعيار اللاهوتي الأساسي عند بولس الرسول:

+ «لأن محبة المسيح تحصرنا (أي تجمعنا كأننا واحد)، إذ نحن نحسب هذا أنه **إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذاً ماتوا**. وهو مات **لأجل الجميع**، كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام.» (٢كو٥: ١٤و١٥)

هنا مفهوم الفداء يخرج بمعيار عملي ثابت هام وخطير وهو الربط والجمع: **«فالجميع إذاً ماتوا»**، وهو ما مهَّد له في أول الآية: **«لأن محبة المسيح تحصرنا»**. هنا أصبح من نتيجة الفداء العملية هذه الوحدة والرابطة في المحبة التي تحصر الجميع. كيف ولماذا حدث هذا الترابط وعلى أي أساس؟ الجواب هو على أساس أن **«موت المسيح هو موتنا»**، لذلك أصبحت **«حياة المسيح هي حياتنا»**، أو أننا في المسيح نحيا جميعاً كقول بولس الرسول: «لأنه كما في آدم يموت الجميع،

هكذا في المسيح سيُحيا الجميع» (١ كو١٥: ٢٢). أما الكلمة الحارسة التي حرست هذه الشمولية فهي كلمة: «**من أجل ὑπέρ**»، بمعنى أن موت المسيح لم يكن موته هو بل موتنا نحن بالحقيقة! لأنه مات "لأجل" — أي لصالح — **الجميع!!**

وعلينا أن نلاحظ أنه في موت المسيح الذي أكمله في جسد «**البشرية ككل**»، **جمع الكلَّ في جسده الواحد**، وهذا هو الذي جعل الفداء عملية **شمولية** شملت بل جمعت الكل في الواحد، ففي لحظة موت المسيح ماتت البشرية ككل. على هذا الأساس يقول بولس الرسول: «إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً ماتوا.» (٢ كو٥: ١٥)

وليلاحظ القارىء هنا فشل النظرية القائلة أن في الفداء مات المسيح **عن** الجميع، وإلاَّ تكون النتيجة المنطقية: «إذاً الجميع قد أُعْفُوا من الموت»، وبهذا يبطل الفداء، في حين أن **قصد الفداء الأساسي هو أن يجوز الجميع الموت بموت المسيح، فينتهي الموت إلى الأبد.**

هذه **الشمولية** التي أحدثها الفداء بموت المسيح لأجلنا وفي جسدنا، **حتى حق لنا أن نقول إن «الجميع قد ماتوا»**، هذه الشمولية يعود ويوثقها سرَّا المعمودية والإفخارستيا. **فبالمعمودية نعتمد لموت المسيح الشمولي عينه، وبالإفخارستيا نشترك في الجسد الشمولي الواحد المذبوح بعينه. ثم تعود وتنتقل من الواقع العملي على الصليب ومن الواقع السري في العماد والإفخارستيا إلى الإيمان القلبي بالفداء الذي يعطي حق الموت والحياة.**

ويلاحظ أن بولس الرسول حينما يقول: «محبة المسيح تحصرنا» (٢ كو٥: ١٤)، **فهو يقصد المحبة الإلهية من نحونا. هذه المحبة هي التي تُلْهِبُ قلوب المؤمنين من نحو المسيح أولاً فتفتح طاقات الروح لتنعكس المحبة بكاملها من نحو الآخرين في إنكار ذات، فتؤدي إلى مزيد من الترابط والشمولية التي هي من جوهر عمل الفداء.**

هذه النتائج المتتابعة للفداء، من الصعب العثور عليها في نظرية استرضاء الله أو في نظرية إحلال المسيح محلنا بالموت عنا، أو حتى في نظرية دفع الفدية لرئيس هذا العالم، لأن عنصر الترابط والشمولية يعوزها جميعاً، وهو من صميم عمل الفداء.

كذلك يهمنا هنا أن نتعرض لمعنى قول بولس الرسول: «**فالجميع إذاً ماتوا**» (٢ كو٥: ١٥). **فما هو هذا الموت؟** هنا ينقسم الآباء إلى قائل بأنه **موت جسدي** من واقع الحال بموت الجسد، وإلى قائل بأنه **موت روحي** من واقع الحال السابق بالبعد والاختفاء عن الله. وإلى قائل بأنه **موت**

أخلاقي من واقع الانغماس في الشرور. وإلى قائل بأنه **موت مِسْتيكي سرّي** نرى نتائجه وعلاماته ولا نستطيع أن نحصره في هويَّة معينة. والحقيقة أن هذا الموت يشمل بالفعل كل المعاني السابقة وأكثر.

وموت المسيح على الصليب هو الذي جعل الفكر يقف مكتوفاً لا يستطيع أن يحصر هذا الموت في اتجاه واحد. فالجسد مات بالفعل ولكن كان معه الأنين: «إلهي إلهي لماذا تركتني» (مر١٥: ٣٤). إذاً لم ينحصر الموت في الجسد فقط، فهو بُعْدٌ عن الله. ثم بالقيامة بجسد آخر جديد غير خاضع للحواس وفي نفس الوقت يمكن إخضاعه للحواس، هيأ لنا إمكانية الموت في المعمودية موتاً حقيقياً على مستوى موت الصليب لنوال نفس قوة القيامة العاملة في الجسد لتجديده. هذا هو **الموت المستيكي** الذي لا يقل قوة وفعلاً عن الموت الجسدي الذي يستمد الموت منه كيانه كموت.

كما يتحتم التفريق بين قول بولس الرسول أن «**الجميع ماتوا في آدم**» (١كو١٥: ٢٢)، وأن «**الجميع ماتوا في المسيح**» (٢كو٥: ١٤)، فإن هناك فارقاً هائلاً بين الموت في آدم والموت في المسيح، حيث الأول أنشأ قضية خاسرة مخزية في حياة الإنسان وأخلاقه ومستقبله، في حين أن **الموت في المسيح** أنشأ إلغاءً كاملاً وشاملاً للقضية الخاسرة بالموت في آدم، إذ أعطى حق الحياة والخلقة الجديدة وحق العودة إلى الله. إذاً، فالمسيح أمات بموته موت آدم بكل توابعه. وهذا نستقرئه بوضوح في الفارق بين: أنين المسيح ساعة الموت: «**إلهي إلهي لماذا تركتني**» (مر١٥: ٣٤)، وبين هتاف النصرة بعد إكمال واجبات هذا الموت بالقول: «**قد قام المسيح من الأموات**» (١كو١٥: ٢٠)، «**ورفَّعه الله... فوق كل اسم**» (في٢: ٩)، «**وصعد فوق جميع السموات**» (أف٤: ١٠)، «**أجلسه عن يمينه**» (أف١: ٢٠)، «**ولا يسود عليه الموت بعد.**» (رو٦: ٩)!

هذا الفارق بين موت آدم وموت المسيح، نقرأه أيضاً بوضوح في الآية السابقة: «**وهو مات لأجل الجميع، كي يعيش الأحياء ...**» (٢كو٥: ١٥). فهو موت لحياة، في حين كان موت آدم موتاً لهلاك!!

«الفداء الشمولي» ببر المسيح تجاه الخطية

يعود بولس الرسول إلى الفداء في وضعه الشامل للبشرية، ليتعرض له ليس من جهة الموت الذي ماته المسيح بل من جهة العنصر المسبِّب للموت، وهو الخطية، حينما أخذها المسيح بالتدبير من يد الآب بالرضى لتدخله بصفتها المطلقة أو الشمولية في قوله:

+ «لأنه (الله) جعل الذي لم يعرف خطية خطية لأجلنا، لنصير نحن برَّ الله فيه.» (٢كو٥: ٢١)

هنا في الحقيقة يعطينا بولس الرسول صورة أخرى للفداء الشامل العجيب مبتدئاً من نقطتين وهما: **«الخطاة والخطية»**، في مقابل صورة الفداء السابقة التي طرقها من جهة **«الجميع والموت»**. فهنا بولس الرسول يكشف الفداء في جوهر فعله وتعامله: الخطاة والخطية. فالمعروف أن الخطية شملت البشرية جمعاء. فالخطية فعل شمولي (ولا نستطيع أن نعطيها كلمة «جوهر» أو «طبيعة» لأن كل الأفعال السالبة ليست جواهر، وهي تستمد وجودها الكاذب من غياب الوجود الحقيقي كالظلمة والنور). فالخطية كفعل سلبي شمولي شملت البشرية.

هنا بولس الرسول يستعلن سرًّا جديداً من أسرار الفداء، وهو أن الله لكي يتعامل مع الخطاة لا بد أن يتعامل مع الخطية **«الفعل السلبي»** الذي سلب البشرية وجودها الحقيقي مع الله. فلكي يصل ابن الله إلى كافة خطاة الأرض، يلزم أن **يلبس أو يحمل فعل الخطية أو كيانها السلبي المدمر**. ولا خوف على ابن الله، لأنه لم يفعل الخطية قط وهو معصوم عن فعلها، لذلك أمكنه أن يحتويها ــ كفعل أو كيان سلبي ــ يؤثر هو فيها ولا تؤثر هي فيه إلا بما يسمح به هو وإلى حين (بالموت).

هنا أيضاً ننتبه أنه حامل جسد «البشرية»، فباحتوائه لفعل الخطية الشمولي السلبي أصبح ليس خاطئاً ــ فهذا مستحيل ــ بل «خطية»!!! لأنه لم يفعل ولن يفعل الخطية بل هو حامل لكيانها السلبي الفعّال وحسب.

ولكن يلزم أن ننتبه أن المسيح كابن الله هو «البار»، لا لأنه يصنع البرَّ وحسب بل لأنه يبرِّر الفاجر، وهذا بحسب طبيعته الفائقة ولاهوته. هنا قدرة المسيح الفائقة لحمل البر والخطية معاً! ثم وبهذه القدرة الفائقة أصبح قادراً بطبيعته الفائقة هذه وهي قائمة في صميم الطبيعة البشرية أن يعطي البشرية البرَّ الذي فيه بقدر ما يأخذ الخطية التي فيها ــ أي في البشرية.

[هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له فلْنُسبِّحه ونمجده ونُزِدْهُ علواً] (ثيئوتوكية الجمعة).

ولكن ليلاحظ القارىء، أن الخطية لم تنتقل من البشرية أو من الخاطىء إلى المسيح، ولا البرُّ انتقل من المسيح إلى الخطاة ليبرِّرهم. فهي ليست عملية إحلال وإبدال، بل إن «البر والخطية» معاً هما كائنان في المسيح، وكما أخذ الخطية في بشريته ككلٍّ أعطى البرَّ لبشريته ككل، فنحن

صرنا بالإيمان والمعمودية:

بلا خطية فيه،

وأبراراً فيه،

وقديسين فيه.

فكل مَنْ آمن واعتمد بالمسيح وأحبه، **واتحد به**، يكون قد نال البر وتبرَّر، وتقدَّس فيه.

وليلاحظ القارىء، أنه كما أن **«الخطية»** هي فعل شمولي ككيان سلبي أخذه المسيح في طبيعتنا بإرادته ليُنهي عليه، كذلك **«البر»** هو جوهر شمولي إيجابي أصلاً في طبيعة المسيح، وقد سلّمه للطبيعة البشرية بالاتحاد في التجسد، واستعلنه في نفسه بالقيامة بالجسد من الأموات!

الفصل السابع

تكميل الفداء بالقيامة والروح القدس

أولاً ــ تكميل الفداء بالقيامة من الأموات

ــ التبرير ــ

الفداء تم على مرحلتين، الأولى بالموت، حيث بالموت أمات المسيح الموت؛ والمرحلة الثانية بالقيامة من بين الأموات، حيث استُعلن بر المسيح الذاتي وتحقق أنه غلب الموت، فأعطى البشرية فيه الحياة الجديدة. لذلك، فكلٌّ من الموت والقيامة يمثل الفداء بدون تمايز، ولكن بالقيامة من الأموات كمل فعل الفداء الذي بدأ بالموت.

+ «الذي **أُسْلِمَ** من أجل **خطايانا**، **وأُقيمَ** لأجل **تبريرنا**.» (رو٤: ٢٥)

بولس الرسول هنا يعتمد على نبوة إشعياء النبي:

+ «من أجل أنه **سكب للموت نفسه** وأُحصيَ مع أثمة، **وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين**.» (إش٥٣: ١٢)

هنا إشعياء النبي يصف بدقة أنه بإرادته سكب للموت نفسه، ثم أوضح العلة والسبب الذي دفعه إلى ذلك بقوله مباشرة أنه بعمله هذا «أُحصي مع أثمة»، ثم عاد إشعياء يصحح المعنى لئلا نخطىء، فليس لكونه أُحصي مع أثمة أنه صار أثيماً، بل إنه «حمَلَ خطية كثيرين» («كثيرين» في العبري تفيد الكل). أما شفاعته فواضح ــ ولو أنها كانت غير واضحة في رؤية إشعياء ــ أنها تفيد ما بعد الموت حتماً.

ولكن الصعوبة في آية بولس الرسول هي في السؤال: **كيف نتبرَّر بقيامته؟** ولماذا ينحصر التبرير في القيامة وليس في الموت؟ هنا بالعودة إلى القيامة بالنسبة للمسيح نجد أنها **تمت بقوة**

الروح القدس، وبالقيامة استُعلن برُّ المسيح، بمعنى أنه لم يَمُتْ كخاطىء، **وإلاّ ما كان قد قام. فلأنه قام من الموت، فهذا معناه أنه غلب الموت فاستُعلن برُّه، وليس فقط استُعْلِن برُّه، بل وتحقق أنه ابن الله:** «وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات» (رو١:٤)، بل واستُعلن أن تجسده هو: «الله ظهر في الجسد». هذا يؤكده بولس الرسول في قوله: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى **الله ظهر في الجسد، تبرر في الروح** ...» (١تي٣:١٦). هنا «تبرَّر في الروح» تفيد في اليونانية «تحقق برُّه» في الروح أي بالقيامة بالروح القدس.

والآن، إن كان المسيح قد سكب للموت نفسه من أجل الخطاة، فهو قام من أجلهم حتماً وبالضرورة. والآية في ذلك واضحة: «وهو **مات لأجل الجميع** كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي **مات لأجلهم وقام.**» (٢كو٥:١٥)

كما هو واضح أن قيامة المسيح نفسها شملت قيامة المؤمنين به: **«أقامنا معه.»** (أف٢:٦)

فإن كان المسيح قد **استعلن برّه بقيامته** من بين الأموات،
وإن كان قد قام من الأموات من أجلنا،
وإن كنا قد قمنا معه،
فيكون استعلان برِّ المسيح بالقيامة من الأموات هو أيضاً وبحد ذاته استعلان لنصيب برِّنا معه أو هو لتبريرنا. فكما قام من أجلنا، هكذا يتوجب أن يصير برُّ قيامته من أجلنا.

علماً بأن كلمة **«بر»** δικαιοσύνη في أبسط معانيها هي حالة أعلى من البراءة، فهي نوال عطية الله بالتزكية بعد الخلوّ من الخطايا والعيوب، والتبرير هو الحكم بالتزكية أمام الله تمهيداً لنوال محبة الله ورحمته.

والله له قدرة أن يبرِّر لأنه بار وكليُّ البر وبرُّه فعَّال كالحب والرحمة. فكما أن الله له أن يحبَّ أو يرحم من يشاء (رو٩:١٨)، هكذا يبرِّر من يشاء ويبرِّر الفاجر أيضاً (رو٤:٥) لا بمقتضى أعمال الفاجر بل بمقتضى برّ الله الشخصي الخلاَّق، الذي يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة (رو٤:١٧).

+ «طوبى للذي غُفِرَ إثمه وسُتِرتْ خطيته، طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية.» (مز٣٢: ١و٢)

وهذا هو أظهر صفات الله التي يتميَّز بها في مقابل عدله، حتى إن الذي «يؤمن بالذي يبرِّر

الفاجر، فإيمانه يُحسب له برًا.» (رو٤: ٥)

وعند الله والمسيح «**البر**» هو عكس «**الدينونة**»، «**والبار**» هو الصفة المتقابلة مع «**الديّان**»، و«**التبرير**» هو الحكم المقابل لحكم «**الإدانة**»:

+ «لأنه إن كانت **خدمة الدينونة** مجداً، فبالأولى كثيراً تزيد **خدمة البرِّ** في مجد.» (٢كو٣: ٩)

+ «وليس كما بواحد قد أخطأ، هكذا العطية، لأن **الحكم من واحد للدينونة**، وأما الهبة فمن جرّى خطايا كثيرة **للتبرير**.» (رو٥: ١٦)

+ «فإذاً، كما **بخطيةٍ** واحدةٍ صار الحكم إلى جميع الناس "**للدينونة**"؛ هكذا **ببرٍّ** واحدٍ صارت "**الهبة**" إلى جميع الناس **لتبرير** الحياة.» (رو٥: ١٨)

أما بالنسبة للإنسان، **فالبارُّ** هو المقابل **للخاطىء**:

+ «لأنه كما **بمعصية** الإنسان الواحد جُعِلَ الكثيرون **خطاة**؛ هكذا أيضاً **بإطاعة** الواحد سيُجْعَل الكثيرون **أبراراً**.» (رو٥: ١٩)

و «**خطية**» الإنسان يقابلها «**برُّ**» المسيح والله. ولا يوجد للإنسان برٌّ ذاتي بالمرة لأنه خاطىء بطبعه وليس باراً: «كما ملكت الخطية في الموت، هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا.» (رو٥: ٢١)

فإن كان المسيح قد تزكَّى، أي ظهر برُّه بالقيامة من الموت، هكذا قام ليزكِّي، أي يبرِّر، كلَّ مَنْ يموت ويقوم معه.

ونحن نموت مع المسيح ونقوم معه: **بالإيمان، وبالمعمودية**:

أما بالإيمان: فهذا يوضحه بولس الرسول بإسهاب على مستوى البر الذي ناله إبراهيم بالإيمان: «فآمن إبراهيم بالله فحُسِبَ له براً» (رو٤: ٣)، ويضيف بولس الرسول: «ولكن لم يُكتب من أجله وحده أنه حُسِبَ له، بل من أجلنا نحن أيضاً الذين سيُحْسَب لنا، **الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات**، الذي أُسْلِمَ من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا» (رو٤: ٢٣–٢٥)، كذلك: «لأنك **إن اعترفتَ** بفمك بالرب يسوع **وآمنتَ** بقلبك أن الله أقامه من الأموات خَلَصْتَ.» (رو١٠: ٩)

أما بالمعمودية: «... أننا كلَّ مَنْ اعتمد ليسوع المسيح، اعتمدنا لموته، فدُفنّا معه بالمعمودية للموت، حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة.

لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته.» (رو٦: ٣ـ٥)

وهكذا نجوز الموت والقيامة على مستوى الفعل السرّي مع المسيح. فهنا شركة الموت مع موت المسيح ــ بالإيمان والمعمودية معاً ــ تعتقنا من جسد الخطية: «عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلِبَ معه ليُبطَل جسد الخطية، كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية.» (رو٦:٦)

ثم شركة القيامة في قيامة المسيح ــ بالإيمان والمعمودية معاً ــ تُبرِّرنا، أي تُزكّينا في الحياة الجديدة وأمام الله، حيث نقف دائماً أمامه بلا لوم!

والتبرير ليس عقيدة نؤمن بها غيباً، بل هي حقيقة نحسها في يقين الإيمان، الإيمان الذي يزكيه الروح القدس ويجعله خضوعاً حقيقياً لله فتتقابل مع وعد الله بالتبرير بثقة وتأكيد معاً، لأن التبرير هو انفتاح حقيقي للإيمان: «لنكون قديسين وبلا لوم قُدّامه في المحبة» (أف١: ٤). وهذه الثقة وهذا اليقين يقومان على أساس تصديق الله أولاً وقبل كل شيء وعلى اعتبار أن تبريرنا هو جزء لا يتجزأ من حقيقة برّ المسيح وقيامته، بل ويتعلق ببرّ الله نفسه، لأنه صالحنا لنفسه ويستحيل أن نقف أمامه دون أن نستمد برًّا منه أيضاً في دالة البنوة التي نلناها في المسيح، لأن قيامة المسيح أقامتنا معه وأصعدتنا معه لنتواجه مع الله فيه. لذلك أصبح تبريرنا بقيامة المسيح أمراً حتمياً، وإلاّ يستحيل علينا أن ندخل دائرة الله، وتكون قيامة المسيح عجزت عن أن تكمّل فداءنا وخلاصنا ومُصَالحتنا مع الله. علماً بأن الله لا يبررنا بعدله ولكن بنعمته ــ ومجاناً، لأنه يستحيل على إنسان أن يُحَاكَم أمام الله ويتبرَّر، ولكن تبرير الله نكتسبه بنوع الهبة المجانية بالإيمان بالمسيح على أساس ذبيحته التي كفَّر بها عن خطايانا، فغُفِرت لنا، وعلى أساس برِّه الذي وهبه لنا؛ وهكذا استُعلن بر الله لمَا سامحنا بخطايانا. فالله، لأنه بارٌّ، فحتماً يظهر عمل برِّه:

+ « **متبررين مجاناً بنعمته،**
بالفداء الذي بيسوع المسيح،
الذي قدمه الله كفَّارة، **بالإيمان بدمه،**
لإظهار برِّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله،
لإظهار برِّه في الزمان الحاضر (بالقيامة من الأموات)،
ليكون باراً (الله)، ويُبرِّر مَنْ هو منَ الإيمان بيسوع.» (رو٣: ٢٤ــ٢٦)

هنا تتداخل ثلاث مبادرات من الله الآب، يكمّلها ثلاثة أعمال يأتيها المسيح ويستجيب لها الإنسان بثلاثة أيضاً:

دور الله:

+ إذ يرى استحالة خروجنا من سطوة الخطية بإمكانياتنا، صمم أن يبرّرنا مجاناً بحسب غنى نعمته.
+ ولذلك دبَّر بكل حكمة وفطنة أن يقوم ابنه بعمل الكفارة ليلغي الخطية.
+ وهو بهذا قصد أن يوضح لنا أنه **بارٌ حقيقة**، سواء في الماضي إذ عاملنا من جهة خطايانا السالفة بإمهال لطفه، أو في الحاضر بإظهار برّه عملياً إذ برّرنا بالإيمان بابنه، وهكذا شمل الله الآب عملية خلاص الإنسان بالنعمة، والحكمة، والبر معاً.

دور المسيح:

+ أكمل الفداء وخلَّص الخطاة، وهو بهذا كان مُستجيباً مع نعمة الله ومتمشّياً معها.
+ وأكمل الكفارة بموته بكل حب وطاعة بإبطال الخطية التي وقفت حاجزاً بين الإنسان والله، فرفع الحاجز. وكان بهذا مستجيباً لحكمة الله.
+ وبقيامته تحقَّق برُّه، فصار الإيمان به مصدراً للتبرير. وبهذا التحم برُّ الآب ببرِّ الابن.

دور الإنسان:

لم يقف بعيداً عن عملية الفداء بكل مشتملاتها:

+ استجاب بالإيمان بموت الرب وبهذا حاز بجدارة على نعمة الله المجانية.
+ استجاب لعمل الكفَّارة، وصَلَبَ الجسد على صليب المسيح، فتتلمذ لحكمة الله أي الصليب.
+ استجاب لقيامة المسيح وآمن بالذي هو قادر أن يقيم الموتى، فحُسِبَ إيمانه له براً.

ثانياً ــ تكميل الفداء بعمل الروح القدس على طول المدى

وفوق كل المكاسب التي ربحناها بقيامة الرب يسوع المسيح من الأموات من جهة التبرير، تظل هناك عطية تختص بتكميل الفداء على طول المدى وهي عطية الروح القدس، التي أوضحها سفر الأعمال في يوم الخمسين وأوضحتها الأناجيل، خاصة إنجيل القديس يوحنا، الذي فيه ربط المسيح إرسال الروح القدس بقيامته وانطلاقه إلى الآب. هذا جمعه بولس الرسول في تعبير واحد، وإن كان في شيء من الغموض، ولكنه يعبِّر عن عمل المسيح بالروح وفي الروح بعد القيامة كما رآه بولس على طريق دمشق من السماء، هكذا:

+ «صار آدم الإنسان الأول نفساً حية، وآدم الأخير **روحاً محيياً.**» (١كو١٥: ٤٥)
+ «نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من **الرب الروح.**» (٢كو٣: ١٨)

+ «وأما الرب فهو الروح ...» (٢ كو٣: ١٧)

+ «ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب.» (غل ٤: ٦)

واضح من هذا أنه بعد القيامة ظل المسيح عاملاً بوجوده الروحي الشخصي الدائم، وبروحه أيضاً، كينبوع يفيض باستمرار وبلا انقطاع بنعم ومواهب وتجديد وتشجيع يفوق الحصر(١).

وقفة قصيرة لمراجعة مراحل الفداء:

وهكذا نستطيع أن نجمع عمل الفداء الذي عمله، ولا يزال يعمله، وسيعمله المسيح في المستقبل أيضاً هكذا:

+ كل ما عمله بالفداء والكفَّارة بدمه على الصليب والقبر والقيامة مرة واحدة في الطبيعة البشرية كأساس،

+ وكل ما يزال يعمله بقوة الفداء الذي أكمله بالقيامة مرات ومرات في كل نفس وجسد، ليحضرها أمام الآب بلا لوم.

+ كل ما عمله المسيح من أجلنا،
وكل ما يعمله المسيح داخلنا.

+ كل ما عمله على الأرض زمنياً،
وكل ما يعمله الآن في السماء وإلى الأبد.

+ كل ما عمله بشخصه،
وكل ما يعمله بروحه.

+ كل ما عمله لتأسيس عهد البر للمصالحة مع الله،
وكل ما يتشفع به الآن وبالروح على طول المدى لتوثيق عهد البر للمصالحة مع الله.

الفداء يرسم درجات استعادة الإنسان لموقفه مع الله هكذا:

+ في عدن **سقط الإنسان في العصيان**، وطُرح من أمام وجه الله؛

+ على الجلجثة **يتخلص الإنسان من العصيان** بالطاعة في المسيح، وينفتح له الباب المغلق لطريق السماء.

---

(١) راجع:
«الروح القدس فينا في لاهوت بولس الرسول»، الباب الأول الفصل الثاني.
«عمل الروح القدس في التبرير»، الباب الثالث الفصل الثاني.
«الروح القدس في الكنيسة»، الباب الخامس الفصل الأول.

+ بدخول الخطية **تفتَّت الإنسان**، ومزَّقته العداوة؛

+ بدخول النعمة **التحم الإنسان** معاً في المسيح في قداسة وحدة الجسد، وتهيأ بالحب للاتحاد بالله.

والفداء بهذه الصورة، أعلن أن الله نفسه هو مؤسس النعمة، ومدبِّر الحكمة، وصانع البر.
واستعلن ابنه رئيس السلام.
وتحقق أمل كل النبوات في إعلان مسرة الله في بني الإنسان!

ونجمل هذا كله في قول بولس الرسول عن الفداء وكأنه ينشد نشيد الحب الذي برَّح بقلب الآب، فلم يَطِقْ أن يرانا في أسر الموت قعوداً، فأفاض من حبه وغنى رحمته ونعمته ولطفه الفائق، فكان الفداء!!

+ «**الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبنا بها،** ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح ــ **بالنعمة** أنتم مخلَّصون! ــ وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع، ليُظهر في الدهور الآتية **غنى نعمته الفائق، باللطف** علينا في المسيح يسوع.» (أف٢: ٤ــ٧)

هنا في هذه الصورة الحقيقية الواقعية لعمل الفداء، ينتفي كل ما صوَّره كثير من اللاهوتيين عن الله كصاحب دَيْن على الإنسان، يطالب بالدفع ويتحايل لكي يسترضي ذاته بتغريم ابنه وحده! أو كقاضي العدل يطالب بالقصاص، والنقمة في يمينه، ويقع الابن وحده صريع حق العدالة! ويتعذَّب على الصليب.

الفصل الثامن

النتائج المباشرة التي ترتَّبت على الفداء

أولا ــ المصالحة

إيجابية الله المطلقة:

علاقة الإنسان بالله هي علاقة مخلوق بخالقه، فهي علاقة تبعية. وهي تأتي على مستويات بحسب نظرة المخلوق لخالقه، وأيضاً بحسب نظرة الخالق للمخلوق.

الله قدوس، بمعنى أن الطبيعة الفائقة في سموِّها وإيجابيتها المطلقة ليس فيها شيء مما للخليقة، وذلك من جهة السلبيات. فهو كليّ العلم وكليّ الحكمة وكليّ الصلاح وكليّ الحب وكليّ الرحمة وكليّ العدل أيضاً. فكل ما هو ليس من هذه الصفات غريب عنه ولا يقترب إليه، وإن اقترب يتلاشى. فإيجابية الله فعَّالة كالنور الذي إذا اقتربت إليه الظلمة تلاشت ليبقى النور هو النور بكل كيانه، لا يقلُّ ولا يتبدد ولا يتغير. كذلك فهو كليّ العلم، فكل جهالة خَطَرٌ عليها إن هي اقتربت منه فهو يمحوها، وكذلك الحكمة وبقية صفات الله.

ولكن وراء هذه الصفات المطلقة، هناك القوة الخالقة التي في جوهرها تعطي وتشكّل وتحمِّل، مما يجعل لهذه الصفات المطلقة قدرة أن تقترب هي من خليقتها لتمنحها وجوداً وكياناً أفضل، لذلك قيل أن الإنسان مخلوق على صورة الله. فالله دائم الاتصال بالإنسان ليقرِّبه إليه، حتى تظل الصورة تحاكي أصل كيانها وتمتد فيه إلى الأكثر.

الخطية حالة عداوة لله:

ولكي يجعل الله مجال الاقتراب إليه مفتوحاً من جهته نحو الإنسان، وضع له وصايا إذا تممها زاد اقترابه وزاد تغييره، وبالتالي زاد أخذه لصفات الله ليكون على صورة خالقه. فإذا تعدى هذه الوصايا، أصبح متعدياً على العلاقة التي تربطه بخالقه، فيتوقف الاقتراب ويتوقف التغيير. ولكن

إذا تمادى الإنسان في التعدي، تحوَّل الاقتراب إلى ابتعادٍ وتغرُّب الإنسان عن الله كخالقٍ له، وعن الصورة التي له.

ولكن إذا امتزج التعدِّي بعد ذلك بازدراء الوصية وصاحبها، دخل الإنسان في مجال النفور والصدود وتحوَّل التعدي إلى عداوة، فيتعرّض الإنسان إلى القوة التأديبية حيث تنبري إيجابية الله لتقتصَّ من سالبية الإنسان لتلاشيها: «فقال الرب لموسى مَنْ أخطأ إليَّ أمحوه من كتابي.» (خر٣٢:٣٣)

الخطية هي التعدي على وصايا الله. فالخطية كفعل سالبي مبغوضة لدى الله لأنها تتحدى صفات الله: «أحببتُ يعقوب وأبغضتُ عيسو» (رو٩:١٣). والله يتعامل مع الخطية على درجات تتناسب مع تحدِّيها لصفاته القدوسة. فخطايا السهو ليست كخطايا العَمْد. لذلك جعل الله لخطايا السهو في العهد القديم أعمالاً يقوم بها الإنسان ليصحح بها علاقته مع الله، فأوصى بتقديم الذبائح الحيوانية(١)، فتعددت الذبائح بتعدُّد درجات الخطية من جهة نوع التعدي. أما خطايا العَمْد فلم يجعل الله لها تصحيحاً بل جعل لها عقوبة الموت. لأنه لماذا يعيش من يتحدى صاحب الحياة ومُعْطيها؟ وإن عاش فهو يلوث الصورة التي خُلق عليها ويزداد في تلويثها، وبهذا يتلف قصد الله من خلقته للإنسان أصلاً.

كيف تعاملت إيجابية الله المطلقة مع خطية الإنسان؟

وهكذا يبدو الله عنيفاً كل العنف تجاه الخطية حينما تأخذ صورة التعدي المتعمَّد على وصايا الله. ولكن هذا بحسب الظاهر فقط، أما بحسب الحقيقة، فجوهر صفات الله إيجابي مطلق ليس فيه السلبيات. والحكم بالموت سلبيٌّ قاطع لا يتناسب قط مع إيجابية الله. لذلك فمن خلف عنف الله ضد الخطية وبالتالي الخاطىء الذي يتعدى عامداً وحتى مزدرياً بوصايا الله، تعمل الإيجابية بنشاط في محاولة احتواء الخطية كفعل سالبي والتعامل معها لملاشاتها، حتى يبقى قصد الله من تقريب الإنسان ثابتاً لا يميل ولا يهتز بسلوك الإنسان السلبي والعدائي(٢).

---

(١) أنظر ص٤٠١ــ٤٠٣.

(٢) هناك صورة لعنف الله السلبي تجاه الخطية والخطاة، وكيف يختفي وراء هذه الصورة عينها الروح الإيجابية. والصورة هي لشعب إسرائيل وهو يتمرد على الله في البرية والرب يعلن سخطه وغضبه، ثم تأتي الأيام فتكشف ماذا كان في قلب الله من حب ورحمة وعطف خلف هذه الصورة عينها ولهذا الشعب عينه.

الصورة: «وقال الرب لموسى حتى متى يهينني هذا الشعب وحتى متى لا يصدقونني. ... **إني أضربهم بالوبأ وأُبيدهم.**» (عد١٤: ١١و١٢)

ما وراء الصورة: «قد ذكرت لك غيرة صباكِ محبة خطبتكِ ذهابك ورائي في البرية...» (إر٢:٢)

لذلك فعنف الله الشديد تجاه الخطية والخاطىء حسب الظاهر، يسنده من الخلف، بحسب قصد الله، خطة الفداء تتبارى فيها صفات الله وطبيعته الإيجابية جميعاً لملاشاة الخطية والاستمرار في تقريب الخاطىء وتغييره لتظل صورته تنمو وتزداد حسب قصد الله الأزلي، ويزداد قُرْبُه إلى الله ويحيا متنعماً بحبه وأُبوّته!!

هنا يمكن أن نأتي إلى الاصطلاحات اللاهوتية لنتعمق معناها بكل سهولة، حيث يمكن أن نستوعب الآن قول بولس الرسول:

+ «ونحن **أعداء** قد **صولحنا** مع الله بموت ابنه.» (رو٥: ١٠)

+ «وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين **وأعداءً في الفكر في الأعمال الشريرة، قد صالحكم** الآن في جسم بشريته بالموت، ليُحضركم قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه.» (كو١: ٢١و٢٢)

العجيب هنا أن تجتمع **«العداوة» مع «المصالحة»** تجاه الله، والذي جمعها هو المسيح في موته، حينما حمل طبيعتنا وهي في حالة العداوة مع الله بسبب الخطية المتملّكة فينا والتي شكلت عنصر العداوة المستحكمة مع قداسة الله؛ حمل عداوتنا وجعلها في مواجهة قداسة الله الفعّالة في طبيعته، فقتل العداوة بموته وقام بقداسته حاملاً بشريّتنا وهي في حالة مصالحة مع قداسة الله!!

+ « لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً، **ونقض** حائط السياج المتوسط،
أي **العداوة**، مبطلاً بجسده ناموس الوصايا ...
لكي يخلق ... في نفسه **إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً**،
ويصالح الاثنين في جسد واحد **مع الله** بالصليب،
قاتلاً العداوة به (بالصليب).» (أف٢: ١٤-١٦)

+ «الآن في المسيح يسوع أنتم الذين **كنتم قبلاً بعيدين، صرتم قريبين بدم المسيح.**» (أف٢: ١٣)

واضح أن الإنسان كان في خطيته في حالة عداوة كحالة قائمة ساكنة بلا رجاء، وذلك شأن السالبية. والتحرك جاء من قِبَل الله، وذلك شأن الإيجابية النشطة الخلاّقة التي تُزكيها كل صفات الله وطبيعته. هذه الحركة يلزم أن ننتبه لها جداً ونقدّرها أشد التقدير ونعتنقها بل نعانقها، ففيها يكمن كل رجاء البشرية ومستقبلها السعيد وخاصة بالنسبة للخاطىء الذي فقد الحركة والقوة على الحركة، وانبطح على الأرض مستغرقاً في يأسه وموته، فهو— وهو بهذا الموت — له من يسعى إليه في السماء بحركة إيجابية يستحيل أن يعوقها عائق مهما كان سلبياً، وهو قادم إليه حتماً ليحمله

على منكبيه. هذا هو الله في كل مواقفه مع الإنسان في كل أزمنة جهله وعناده وعداوته الشكلية التي لم تُعِق الله ولن تعوقه حتى يكمل كمال قصده في صورته التي خَلَق.

بولس الرسول طبَّق هذه الصفة الفريدة في الله على شعب إسرائيل الذي أخطأ أشنع خطية إذ رفضوا مسيًّا إسرائيل، وقتلوا مسيح الأمم، بآن واحد، فدخلوا في حالة عداوة متعمَّدة مع الله؛ ولكن بقيت وراء هذه العداوة صورة إيجابية لله بوعودها التي يستحيل أن تسقط من نحو هذا الشعب، يقول بولس الرسول:

+ «من جهة الإنجيل (الذي رفضوه) هم **أعداءٌ** من أجلكم (ليفسحوا الطريق لدخول الأمم)، وأما من جهة الاختيار (الوعد) فهم **أحباء** من أجل الآباء، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة.» (رو١١: ٢٨و٢٩)

عجيب حقاً أن يحمل الله **حالة عداوة، وحالة محبة معاً ولشعبٍ مُتَعَدٍّ!** أما العداوة فواضح سببها، وأما المحبة فكيف تكون؟ الجواب نراه مختفياً في الآية السابقة: «وهذا هو العهد من قِبَلي لهم، **متى نزعتُ خطاياهم**» (رو١١: ٢٧). فالله وإن أفرزهم وحاصرهم في عداوتهم له، إلاَّ أنه لا يزال يخطط كيف سينزع خطاياهم أيضاً في الوقت المحدد: «وإن كان عدد بني إسرائيل كرمل البحر فالبقية ستخلص» (رو٩: ٢٧)، «إن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل، إلى أن يدخل ملؤ الأمم وهكذا سيخلص جميع إسرائيل.» (رو١١: ٢٥و٢٦)

من هذا نفهم أنه يستحيل أن يبقى الله في حالة عداوة للإنسان مهما غالى الإنسان في عداوته لله!! فإيجابية الله حتماً ستبلغ هدفها للمصالحة وتتخطى كل سلبيات الإنسان.

ولينتبه القارىء، فإن العداوة بالنسبة لله تنصبُّ على الخطية وبالتالي على الخاطىء؛ أما المصالحة فهي تنحصر في الخاطىء فقط عندما يخلص من خطيته، لأنه لا تَصالُحَ مع الخطية من جهة الله. لهذا تمتنع المصالحة عن الخاطىء طالما خطيته باقية.

أما بالنسبة للإنسان، فهو يستحيل عليه أن يدرك حقيقة صلاح الله أو يشعر بحاجته الحقيقية للمصالحة طالما هو مُستعبَدٌ للخطية، لأن الخطية تعمي عين الإنسان عن الحق والصلاح. ولكن الخطية يمكن أن تزيِّف حالة صلح كاذب مع الله لكي تبقى وتظل تنخر في عظام الإنسان وحتى لا ينتبه إليها الإنسان أو ينشغل بها: «وهم غير مُرضِين لله وأضدادٌ لجميع الناس، يمنعوننا عن أن نكلم الأمم لكي يخلصوا، حتى يتمموا خطاياهم كل حين؛ ولكن قد أدركهم الغضب إلى النهاية.» (١تس٢: ١٥و١٦)

لذلك، فالمصالحة يلزم أن تكون متبادلة عن حقيقة واحتياج من جهة الإنسان، وعن رؤية شافية لخطورة بقاء الخطية مستترة وراء الإحساس الكاذب بالمصالحة، لئلا يعيش الإنسان في حالة خديعة لا يستيقظ منها إلاَّ بعد فوات الأوان ويكون هذا منتهى قصد العدو.

بدء المصالحة:

المصالحة بدأت كفعلٍ تَغَلْغَل الخليقة كلها وقت أن سُفك دم ابن الله:

+ « لأن فيه سُرَّ أن يحلَّ كل الملء،
وأن يصالح به الكلّ لنفسه،
عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته،
سواء كان **ما على الأرض أم ما في السموات.** » (كو ١: ١٩و٢٠)

المبادرة للصلح جاءت هنا من الله كليًّا. وجاءت من نحو الخليقة كلها، والتي يمثلها الإنسان على الأرض. وقد هيأ الله لهذه المبادرة الفاعلية الشاملة، بأن جعل في المسيح كل ملء الكيان الإلهي مع كل النعمة والقوة، ليكون «الإنسان»، **الذي سبق في آدم** أن جلب الغضب والعداوة بالخطية على الإنسان والخليقة؛ ليكون الإنسان أيضاً **«الإنسان في يسوع المسيح»** (١تي٢: ٥)، هو الذي يرفع حالة الغضب والعداوة، يرفع سببها الوحيد وهو الخطية، وذلك بقبول حكم الموت الواقع على الإنسان بصورة كلية وشاملة، ليتبرأ الإنسان يسوع المسيح ومعه الخليقة ويدخل الكل في حالة مصالحة مع الله. وهنا «المسيح» كمُصَالح للكل، يدخل بصفته الخالق للكل والوسيط بين الله والإنسان.

والمسيح لم يصالح الله بالإنسان والعالم كطرف ثالث بين الله والإنسان، بل لأنه ابن الله والإنسان معاً، **لذلك صالح الطرفين معاً في نفسه وبدمه.** صالح الله بالإنسان وصالح الإنسان بالله وبقي مُصالِحاً كما هو، عنصر مصالحة، ــ في ذاته ــ فعّالاً. فليس بموته وبدمه فقط تمت المصالحة، بل وبقيامته وحياته استمرت وتستمر، بل وترَقَّى لتنتقل من مصالحة إلى خلاص أبدي، ليظل المسيح مصدر تسبيح وتمجيد ومجد للآب بواسطة الإنسان:

+ « لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه،
فبالأوْلَى كثيراً ونحن مُصَالَحون نخلص بحياته،
وليس ذلك فقط بل نفتخر أيضاً بالله، بربنا يسوع المسيح الذي نلنا به الآن المصالحة. »
(رو٥: ١٠و١١)

ولكن لكي نفهم مضمون هاتين الآيتين أكثر، ينبغي أن نعود إلى الآيتين السابقتين عليهما:

+ « ولكن الله بيَّن محبته لنا لأنه ونحن بعد **خطاة** مات المسيح لأجلنا،

فبالأَوْلَى كثيراً ونحن **متبرِّرون** الآن بدمه، **نخلص** به من **الغضب**.» (رو٥: ٨و٩)

وفيها ابتدأ بحالنا **كخطاة** (الآية٨)، ثم انتقل إلى حالنا **تحت الغضب** (الآية٩)، ثم انتقل إلى حالنا ونحن **أعداء** (الآية١٠)، وبالمقابل نقلنا من خطاة إلى **متبرِّرين** (الآية٩)، وإلى **مُصَالَحين** (الآية١٠)، ومن تحت **الغضب** (الآية٩) إلى **الخلاص** (الآية١٠). كل ذلك لأن المسيح انتقل من حالة الموت الذي ضمن لنا به الصفح إلى قيامة الحياة الممتدة في الأبدية.

ومن هذا التدرج نتبين الوجهين للفداء: **الوجه السلبي** «الفداء بالموت وسَفْك الدم»، **والوجه الإيجابي** «بالقيامة واستعلان الحياة الأبدية فيه».

ولكن تأتي (الآية١١) كتاج يعلو فوق هامة الآيات جميعاً حيث لا يكتفي بولس الرسول بأن نكون مُصَالَحين ومُخلَّصين بموت المسيح وحياته كنتيجة مباشرة للفداء الذي أكمله، بل يزيد عليها فعلاً من أفعال الفداء والخلاص جدّ خطير وجديد على أسماعنا، وهو استعلان الفداء والخلاص بتسبيح الإفتخار بالله والمسيح!! فتمجيدنا لله والمسيح هو تكميل عمل الخلاص — من جهتنا — الذي سيدوم معنا إلى الأبد، وهذه هي الرابطة التي تربطنا منذ الآن بالسمائيين في خورس واحد لإقامة ليتورجيا مشتركة دائمة على الأرض وفي السماء.

ولكن ليس على الإنسان بَعْدُ، أن يقدِّم واجبات التصالح، ولكن عليه فقط أن يقبل صلح الله له في شخص ابنه. لقد أوقف الله كل مآخذه على الإنسان، لقد رفعها المسيح جميعاً مستخدماً بشريتنا في تقديمها، فالمصالحة تمت فينا وبنا وانتهت إلينا. ومرة أخرى نوضح أن المصالحة آتية من الله الآب رأساً ومنتهية فينا، والمسيح هو العامل الوحيد الذي أكملها. فالمسيح هو عامل مصالحة لحساب الله، ولكننا نحن الذين تقع علينا المصالحة ونحن المستفيدون منها. الله رفع بواسطة المسيح كل معوِّقات المصالحة وكل العداوة السابقة. هذا العمل هو في حقيقته تكريم كبير للإنسان، له أن يفتخر به، ولكن ليس في نفسه بل يفتخر به في الله شاكراً المسيح الذي أكمله لنا.

خدمة المصالحة:

+ « ولكن الكل من الله الذي **صالحنا** لنفسه بيسوع المسيح،

وأعطانا **خدمة المصالحة**،

أي إن الله كان في المسيح **مُصالِحاً** العالم لنفسه،

غير حاسب لهم خطاياهم،
وواضعاً فينا كلمة **المصالحة**،
إذاً نسعى كسفراء عن المسيح كأن الله يعظ بنا،
نطلب عن المسيح: **تصالحوا مع الله!**» (٢ كو٥: ١٨-٢٠)

بولس الرسول هنا من واقع محاجاته السابقة على هذه الآيات يوضح أن كل علاقة الإنسان الجديدة بالله لم تأتِ من تسلسل بشري ولا نبوي، حتى يكون للإنسان ضلع فيها، بل يؤكد أن كل ما تم من مصالحة جاء رأساً من الله عن طريق المسيح وبواسطته. وقد صارت البشرية كلها بذلك خليقة جديدة متساوية في الجدّة، وكل العتيق الذي من العهد القديم انتهى بكل مواريثه المتسلسلة:

+ « إذاً، إن كان أحد في المسيح (بالروح) فهو خليقة جديدة (ليس بحسب الجسد تفكر وترى)،
الأشياء العتيقة قد مضت (الفكر بحسب الجسد لأمور العهد القديم)،
هوذا الكل قد صار جديداً. » (٢ كو٥: ١٧)

وإلى هنا يكون بولس الرسول قد مهّد لنفسه أن الكل بعد أن تصالح مع الله صار خليقة جديدة، ولكن ميَّز الله الرسل بميزة واحدة وهي أن يكرزوا بالمصالحة ويخدموا هذه النعمة الجديدة، أي المصالحة كما خدمها المسيح. فالرسل يُعْتَبرون جميعاً وعلى التساوي خُدَّام المصالحة، كمجرد سفراء عن المسيح لتكميل خدمة المسيح، حاثِّين المؤمنين أن **يقبلوا الصلح مع الله!**

وهكذا سارت المصالحة على هذه الدرجات:

(أ) الله أراد حسب مسرَّة مشيئته أن يصالح العالم — عالم الإنسان — لنفسه.

(ب) اختار المسيح — الابن المتجسد — **أن يقوم بعملية المصالحة في جسم بشريتنا بصورة مطلقة، برفع عائق المصالحة وهي الخطية من جذورها بصفة مطلقة، فلا تعود خطية قط تُعيق حالة الصلح.**

(ج) اختار الله الرسل، ليستلموا بالنعمة من المسيح وبواسطته ليخدموا المصالحة، بقوة الكلمة بالروح. ولا امتياز لرسول عن رسول، فالكل أخذ المصالحة من المسيح وأخذ خدمة المصالحة من الله.

(د) دعوة المؤمنين أن يقبلوا هذه المصالحة باعتبارها آتية من الله رأساً وبواسطة المسيح، الذي بروحه ونعمته يخدمون، على أساس أن الله «**غير حاسب لهم خطاياهم**»، وهذه هي

أخطر وأقوى كلمة في خدمة المصالحة!! وهذا هو محور الإيمان بالمسيح والله وقلب المسيحية النابض.

وطبعاً، إيمانٌ مثل هذا هو الذي يورِّث كل طبيعة الخليقة الجديدة والحياة بالروح وليس بالجسد، لأن تحوُّل الله من ديَّان للإنسان بسبب عائق الخطية، إلى مُصالِح بسبب رفع عائق الخطية، يتحتم أن يقابله تحوُّل الإنسان من حالة العداء المتحكم مع الله بسبب الخطية المتسلطة، إلى **حالة استعداد بقبول حالة المصالحة مع الله، على أساس قبول نعمة الله بالإيمان** بيسوع المسيح الذي ألغى سلطان الخطية الذي سيطر على الإنسان واستعبده وأفسده.

أي أن قبول الصلح مع الله من يد المسيح كوثيقة مُمضاة بدمه، يتحتم أن يكون في مقابل الإيمان الواثق بدم المسيح لقبول النعمة التي لها سلطان رفع الخطية وإبطالها من الجسد: «لأنكم بالنعمة مُخلَّصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله.» (أف ٢:٨)

+ حينما يحس الإنسان إحساساً واقعياً في أعماقه أن سلطان الخطية قد أُبطل فيه بالنعمة، فإنه يحس في الحال بالمصالحة مع الله!

+ هذا الإحساس الواقعي بالإيمان يأخذ قوته وواقعيته حينما يدرك الإنسان أن قوة المصالحة وعطيتها قد تمت له بالفعل **حتى قبل أن يفكر فيها**، وذلك في جسد المسيح الذي أكمل به رفع الخطية وأكمل بذلك حالة المصالحة العامة للبشرية في جسم بشريته، **أي دون مبادرة من الإنسان أو سعي!**

+ «**وأن يصالح به الكل** لنفسه عاملاً الصلح **بدم صليبه**.» (كو١:٢٠)

+ «ويصالح الاثنين (يهوداً وأمماً) في جسد واحد مع الله **بالصليب، قاتلاً العداوة به**.» (أف٢:١٦)

بمعنى أن الإنسان يدخل بالفعل في حالة مصالحة مع الله ــ والآخرين ــ بالإيمان.

والإيمان قائم على عملٍ للمصالحة شاملٍ أكمله الله تماماً بالمسيح ــ على مستوى عالم الإنسان ككل ــ وصار جاهزاً لقبوله بالإيمان مجاناً.

ثانياً ــ إبطال عوائق المصالحة

١ ــ **الخطية،** (والموت التابع لها).

٢ ــ **الناموس.**

١ ــ الخطية

الله إذ أحب الإنسان، صمم في نهاية زمان تأديبه وهو واقع تحت وصاية الناموس الذي كان يمثل زمان شقائه وتغرُّبه عن الله، أن يرفع سلطان الخطية من طبيعة الإنسان التي أشقته وغرَّبته عن الله:

+ « لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من **ناموس الخطية والموت،**

لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه في ما كان ضعيفاً بالجسد،

فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية **دان الخطية في الجسد.** » (رو٨: ٢و٣)

«دان الخطية»:

يعني حكم عليها بالموت، ولكن ليس معنى هذا أن الله أعاد للإنسان ما فقده آدم بسبب الخطية وحسب، وإلاَّ يكون الإنسان في وضع يمكن السقوط منه ثانية في نفس الخطية والوقوع تحت حكم الموت من جديد.

ولكن الله عوض أن يردَّنا إلى طبيعة آدم الأُولى، أعطانا درجة أعلى بما لا يمكن أن يتصوره الإنسان.

فالله عوض أن يلغي حكم الموت عن طبيعة الإنسان وحسب،

أعطانا في طبيعتنا عدم الموت!!

+ والله عوض أن يُبطل الشهوات وسطوة الغرائز التي يستخدمها الشيطان ليغوي من خلالها الإنسان لاقتراف أشنع الخطايا، أعطانا قوة الغلبة عليها مع كل مجازاة النصرة وإكليلها!!

«الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات.» (غل٥: ٢٤)

+ الجسد ميت بسبب الخطية ويسير نحو الموت الطبيعي،

«إذاً لا تملكنَّ الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته.» (رو٦: ١٢)

فلم يَعُد يحيا بالخوف تحت حكم الشيطان الذي له سلطان الموت، بل ينتظر قيامة أبدية للمجد والغلبة.

+ نحن نتعارك مع الجسد وننازعه في شهواته،
ولكن لسنا عبيداً تحت سلطانه! إذ نستمد وجودنا من فوق.

+ الشر وميوله الشريرة تقتحمنا وتصطنع فينا حرباً،
ولكن لنا السيادة عليها بأدوات للحرب أمْضَى!

«لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو٨: ٢)

+ فلا الخطية تُخضعنا رغماً عنا،
لأن قوة النعمة ماسكة بإرادتنا!

+ ولا الموت (الأبدي) قادر أن يقترب إلينا، فدم المسيح وفيه الحياة الأبدية هو داخلنا. وقد دخلنا في التأمين على أرواحنا بالروح القدس الساكن فينا.

«... القصد والنعمة التي أُعطيت لنا في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية، وإنما أُظهرت الآن **بظهور مخلِّصنا يسوع المسيح، الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل.**» (٢تي١: ٩و١٠)

ولينتبه القارىء:
الموت أبطله المسيح على الصليب ــ وبصورة علنية ــ عندما قام حيًّا بجسد بشريتنا!
فالموت لم يَعُد موتاً لنا بل باباً للحياة الأبدية.

وبالأكثر لم يعد الموت يفصلنا عن المسيح: «من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ ... لا موت ولا حياة ...» (رو٨: ٣٥و٣٨)، «فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن.» (رو١٤: ٨)

الموت الآن يعدُّنا للقيامة،

وعندما تأتي القيامة ينتهي الموت: «آخر عدو يُبطَل هو الموت» (١ كو١٥: ٢٦). الموت يعمل فينا الآن على مستوى الجسد فقط، على مستوى ما عملت الخطية في جسد المسيح، فالمسيح مات بالخطية ونحن الآن نموت معه بذات الجسد. ولكن المسيح قام من الموت وأعطانا الآن القيامة بالروح من الموت لنحيا بالروح حتى وإن كان الجسد مُماتاً!!

نحن الآن نموت بالجسد ولكن نحيا بالروح معاً وبآن واحد، نموت بإرادتنا ونحيا بنعمة المسيح:
+ «عالمين هذا أن **إنساننا العتيق قد صُلب معه ليُبْطَل جسد الخطية.**» (رو٦: ٦)

+ «الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات.» (غل٥:٢٤)

+ «وإن كان المسيح فيكم فالجسد ميت بسبب الخطية، وأما الروح فحياة بسبب البر.» (رو٨:١٠)

+ «فإن كنا قد متنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.» (رو٦:٨)

واضح إذاً أن الموت الذي يعمل فينا الآن هو موت جسديٌّ فقط بالنسبة للجزء الذي فسد فينا، استعداداً للقيامة حيث يلبس عدم الفساد:

+ «لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت» (١كو١٥:٥٣). أي لا بد أن نتخلص من الجزء الفاسد فينا لكي نلبس الممجد.

+ «الذي سيغير شكل جسد تواضعنا (الفاسد) ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء.» (في٣:٢١)

أنظر أيها القارىء وتفهَّم: لو كان المسيح مات عنا كدافع للدين، أو مات «**ليسترضي وجه الله عنا**» كمن وقعت عليه عقوبة الموت عوضاً عنا، ما كنا نتعرض للموت الآن قط، لأنه طالما هو دفع الدين عنّا فلماذا تبقى علينا بقايا ديون؟ وطالما هو تلَقَّى كل عقوبة الموت عنا ليسترضي وجه الله فبرَّأنا، فلماذا تبقى العقوبة إلى الآن ونموت؟

ولكن الحقيقة أن المسيح مات **لأجلنا** ὑπέρ بالجسد أي ببشريتنا، وجازت معه بشريتنا الموت عن الخطية **فرفع عنها عقوبة الموت روحيًّا وليس جسدياً، لأن الموت جسدياً ساد على المسيح فكيف لا يسود علينا جسدياً؟**

ولكن كما أن الموت لم يَسُدْ على المسيح لأنه لم يمُتْ كخاطىء ليبقى في الموت ولكن كحاملٍ للخطية فقط وقد نفضها عنه بالموت، كذلك قام بعدها بالجسد والروح وبمجد لاهوته.

وهكذا لن يسود الموت علينا **روحياً**، فنحن بانتظار القيامة بعد موت الجسد.

«لأن الذي مات قد تبرأ من الخطية» (رو٦:٧) سواء بالإيمان أو المعمودية!! لذلك: «**لا شيء من الدينونة** الآن على **الذين هم في المسيح** يسوع.» (رو٨:١)

وهذا يوضحه القديس يوحنا في إنجيله وبفم المسيح هكذا:

+ «إن مَنْ يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد **انتقل من الموت إلى الحياة.**» (يو٥:٢٤)

٢ ــ الناموس

ليعلم القارىء أن الناموس، بسلطانه الذي تغلغل في وعي الشعب اليهودي وفي حياته وأخلاقه وسلوكه ومعاملاته وعبادته ١٥٠٠ سنة، كان أعقد مشكلة واجهت اليهودي الداخل إلى المسيحية، كما كان أصعب عقبة بالنسبة للأممي الذي بدأ يتعرَّف على المسيح بواسطة الرسل اليهود أصلاً والذين أرادوا بتهويده أولاً!

أما بالنسبة لليهود الداخلين إلى المسيحية، فظل الناموس محتفظاً بهيبته وسلطانه في تقديس السبت والختان وحفظ المواسم والأعياد والعادات اليهودية كما هي وأُضيفت المسيحية إليها.

وبولس الرسول هو الوحيد من بين الرسل الذي أدرك انتهاء سلطان الناموس بمجيء المسيح وموته على الصليب، **وذلك حينما دعاه الله لبشارة الإنجيل بين الأمم**، فكرز بإنجيل المسيح بدون ناموس ولا سبت ولا ختان ولا أعياد يهودية ولا عادات ولا تعاليم فرِّيسية، هي من وصايا الناس، وإليك تعاليمه:

احترام بولس الرسول للناموس:

لم يكن موقف بولس الرسول من الناموس في حد ذاته يشوبه أي ازدراء أو تحدٍّ، بل كان يقيِّمه من واقع حدود ضرورته وصلاحيته ومدى فاعليته. فهو يعلن أولاً مدى احترامه له:

+ «إذاً الناموس مقدَّس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة.» (رو٧: ١٢)
+ «فإننا نعلم أن الناموس روحيٌّ، وأما أنا فجسديٌّ مَبيعٌ تحت الخطية.» (رو٧: ١٤)
+ «فإن كنت أفعل ما لست أريده فإني أُصادق الناموس أنه حسن.» (رو٧: ١٦)
+ «فإني أُسَرُّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن.» (رو٧: ٢٢)

وأقوال بولس الرسول هذه تأتي مُطابقة لأقوال المسيح:

+ «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس **حتى يكون الكل.**» (مت٥: ١٧و١٨)
+ «وإذا ناموسيٌّ قام يجرِّبه (المسيح) قائلاً: يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ فقال له: ما هو مكتوب في الناموس كيف تقرأ؟ فأجاب وقال: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك. فقال له بالصواب

أجبت، افعل هذا فتحيا.» (لو١٠: ٢٥-٢٨)

+ «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكلُّ ما قالوا لكم أن تحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون.» (مت٢٣: ٢و٣)

هكذا نرى أن عقيدة بولس الرسول متوافقة مع نظرة المسيح للناموس من جهة أنه يوفي بالغرض الذي وُضع من أجله. ولكن نجد المسيح يعود ويقطع بأن الناموس وُضع لزمن محدود كان فيه الناموس كافياً لتأديب الشعب، ولكن حينما بدأ المسيح يعلِّم انتهى هذا الزمن وبدأ الزمن الجديد الذي لم يَعُدْ الناموس يصلح له، بل يتحتم على الناموس أن ينسحب كما انسحب المعمدان ممثِّلاً للنبوة بأكملها. ويقول المسيح في إنجيل القديس متى (الأصحاح الخامس):

+ «قد سمعتم أنه قيل للقدماء (الناموس) لا تقتل ... وأما أنا فأقول لكم ...»

+ «قد سمعتم أنه قيل للقدماء (الناموس) لا تزْنِ ... وأما أنا فأقول لكم ...»

+ «أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء (الناموس) لا تحنث ... وأما أنا فأقول لكم ...»

+ «سمعتم أنه قيل (في الناموس) عينٌ بعين وسنٌّ بسنٍّ ... وأما أنا فأقول لكم ...»

+ «سمعتم أنه قيل (في الناموس) تحب قريبك وتبغض عدوَّك ... وأما أنا فأقول لكم ...»

ثم بدأ المسيح يضع في مقابل كل وصايا الناموس وصايا جديدة كلها على أعلى مستوى من الروحانية لتتناسب مع الحياة الجديدة التي زرعها الرب في طبيعتنا والتي بها نؤهَّل لميراث السموات. وبذلك يكون المسيح قد أكمل عجز الناموس وجَبَرَ نقصانه، **ثم استودعه لماضيه، وحبسه في دائرة القدماء الذين وُضع لأجلهم.**

وكان هذا هو عين التعليم الذي علَّم به بولس الرسول.

ولكن بولس الرسول ابتدأ أولاً يشرح الأسباب التي من أجلها وضع الله الناموس بيد موسى، ومن واقع هذه الأسباب انتهى إلى أن الناموس أكمل مهمته التي وُضع من أجلها، ولكن بولس الرسول برْهن بما لا يدعو للجدل أن الناموس عجز عجزاً كاملاً عن معالجة خطية الإنسان.

ولأن المسيح جاء خصيصاً لمعالجة خطية الإنسان وإبطال مفعولها، تحتَّم على الناموس أن يعطي مكانه للمسيح وينسحب. وإليك هذه الخطوات:

لماذا وضع الله الناموس بيد موسى؟

أوضح بولس الرسول أن الناموس وُضع بالأساس لكي ينبه حاسة الضمير عند الإنسان بوجود حدود حاسمة وفاصلة لله في حياته يتوجب عليه أن لا يتعدَّاها، فوضع له الوصايا العشر وما تفرَّع

منها، باعتبارها الحدود الفاصلة بينه وبين الله لا يتعدَّاها، فإذا تعدّاها وَجَب عقابه. وهكذا باختصار، بدأ الناموس يوقظ ضمير الإنسان من جهة التعدّي، وسَمَّى الله التعدّي «خطية» بمعنى أنه أخطأ السلوك وتعدّى حدود الله:

+ «لم أعرف الخطية إلاَّ بالناموس، فإنني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشتهِ.» (رو٧:٧)

+ «فلماذا الناموس؟ قد زيدَ (زيد على الموعد الأول لإبراهيم) بسبب التعديات (الخطايا).» (غل١٩:٣)

+ «وأما الناموس فدخل لكي تكثر (معرفة) الخطية ...» (رو٥:٢٠)

وبولس الرسول يصوِّر نفسه كإنسان فيما قبل مجيء الناموس، أو كصبي قبل أن يتعرف على الناموس هكذا:

«أما أنا فكنت بدون الناموس عائشاً قبلاً، ولكن لما جاءت الوصية (التي حددت أنواع الخطايا التي لم تكن تُعرف سابقاً أنها خطايا، وقالت أن هذه الخطايا إن فعلتها يُحكم عليك بالموت)، عاشت الخطية (التي لم تكن قبلاً معروفة) فمُتُّ أنا (الذي كنت قبلاً عائشاً).» (رو٩:٧)

وهكذا ينتهي بولس الرسول بالقول بأن جهاده في تكميل أعمال الناموس الذي يبغي من ورائه الحياة كما يقول الناموس: «الذي يفعلها سيحيا بها» (رو٥:١٠)، انتهى به إلى أن الذي لا يعملها يموت!! فقال قولته المرَّة: «فوُجدت الوصية التي للحياة هي نفسها لي للموت» (رو١٠:٧). وطبعاً لم يلتقط بولس الرسول السبب مباشرة، فالسبب ليس الخطية، كما يقول، ولكن غياب النعمة، لأن بغياب النعمة فينا وفي الناموس يصير الصالح لنا طالحاً، وهذا لكي تنفتح أعيننا ونطلب النعمة وننتظرها، التي جاء المسيح وأعطاها، فكمّل بها الناموس الذي كان ينقصها: «لأنكم بالنعمة مُخلَّصون (قد خَلَصْتُم) بالإيمان، وذلك ليس منكم هو عطية الله ليس من أعمال ...» (أف٢: ٨و٩). وينتهي بولس الرسول إلى حقيقة مُبْكية حقاً، وهي كيف استخدمت الخطية الناموس الإلهي لموتي!! «لأن الخطية وهي متخذة فرصة بالوصية خدعتني بها (بالوصية) وقتلتني»!! (رو١١:٧) مع أن الناموس إلهيٌّ والوصية روحية ومقدسة. والمعنى واضح أن الخطية قبل الناموس وقبل الوصية لم يكن لها وجود ولا أي سلطان عليَّ، ولكن لما ظهر الناموس تسلّحت الخطية بالناموس ورفعت سيفه على رقبتي!

كل هذا بعلم الله وتدبيره حتى يكتشف الإنسان الخطية ويكتشف أن الناموس الذي وضعه

الله كان لتأديب الإنسان وتعريفه بضعفه الشديد وحاجته إلى مخلِّص حقيقي: «**إذاً، قد كان الناموسُ مؤدِّبَنا إلى المسيح** لكي نتبرر بالإيمان، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدِّب، لأنكم جميعاً (يهوداً وأمماً مؤمنين) أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع.» (غل٣: ٢٤—٢٦)

وبولس الرسول في تقييمه للناموس كمؤدِّب بواسطة الأحكام التي يضعها على الخاطىء وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يُبَرِّىء، يوضح أن أعمال الناموس ليست كافية أن تبرر الإنسان أمام الله. وهو في هذا لا يعارض نفسه حينما يقول عن نفسه بخصوص سيرته في اليهودية: «من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم» (في٣:٦)، لأن بولس الرسول بعد أن دخل الحياة الروحية التي في المسيح أدرك أن ترضية الناموس بالأعمال لنوال برِّ الناموس إنما هي بحسب ظاهر الأعمال بمجرد تتميمها حرفياً، ولكن يبقى الضمير يصرخ ويئن بسبب أن للخطية قدرة على تلويث الضمير وليس الجسد فقط. والناموس لا يطهِّر الضمير ولا يتعامل معه، إنما يتعامل مع الأعمال وتتميمها لطهارة الجسد وحسب.

لذلك يقول، بعد أن أدرك عمق نعمة المسيح وقدرة دمه لرفع الخطية وكل آثارها الداخلية في النفس والضمير بدون أعمال: «لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عِجْلَةٍ مرشوشٍ على المنجَّسين يقدِّس إلى طهارة الجسد، فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي (لاهوت) قدَّم نفسه لله بلا عيب **يطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة** (أعمال الخطية) لتخدموا الله الحي.» (عب٩: ١٣و١٤)

الناموس أكمل مهمته:

وبذلك يكون الناموس قد وُضع ليكشف طبيعة الخطية وأصنافها ويوقظ ضمير الإنسان تجاهها حتى إلى درجة الرعبة، لأن وراء الخطية وَضَعَ الناموس عقوبات بلا رحمة: «مَنْ خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة» (عب١٠:٢٨). وبناءً على ذلك يكون الناموس قد أدَّى مهمته خير أداء، فبالوصايا وضع الحدود، ليكشف عنصر التمرد والخطية في الإنسان، ثم وقَّع العقوبة بأعنف شدَّة حتى تخطَّ الخطية في شعور الإنسان وضميره خطوطها المرعبة: «لكي تصير الخطية خاطئة جداً بالوصية» (رو٧:١٣)، ويستصرخ من سطوة الخطية في جسده وأعضائه:

+ «لست أفعل ما أُريده، بل ما أُبغضه فإياه أفعل. فإن كنت أفعل ما لست أريده، فإني أُصادق الناموس (الوصية) أنه حسن. فالآن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فيَّ...

ويحي أنا الإنسان الشقي! مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت.» (رو٧: ١٥—١٧و٢٤)

عجز الناموس:

واضح أنه إلى هنا، أي إلى حد كشف الخطية ومحاصرتها في ضمير الإنسان، وقف الناموس عاجزاً عجزاً فاضحاً لا يستطيع أن يعطي أي علاج للخطية؛ بل يرفع سيف القصاص والموت وحسب!

والسبب في ذلك كنا قد ألمحنا إليه (ص٢٣٣—٢٣٥)، وهو أن آدم ورّثنا طبيعة عارفة للخير والشر، ولكن غير قادرة للإنحياز للخير، لأنها فاقدة لنعمة الله ومحرومة من برّه وبالتالي مهيأة تماماً لإيحاءات الشيطان لاقتراف أي خطية، وحاملة حكم الموت بالضرورة. وهكذا عاش الإنسان من آدم إلى موسى بدون ناموس أي بدون وصايا، لذلك لم يُحسَب أنه أخطأ بشبه تعدّي آدم إذ لم يكن عليه وصايا فيتعداها أو يكسرها: «إذ حيث ليس ناموسٌ ليس أيضاً تعدٍّ» (رو٤: ١٥)، ولكنه لم يكن مبرَّراً؛ بل واقعاً تحت حكم الموت. فلما أعطى الله موسى التوراة، أي الناموس والوصايا، واجهها الإنسان لشديد الأسف بدون أسلحة، فهو كائن في طبيعة فاقدة للنعمة ومحرومة من برّ الله. فكان عليه أن يجاهد ويعمل بمقتضى وصايا الناموس حتى يتبرر بأعمال الناموس. ولكن عجز الإنسان عن أن يكمل الناموس أو أن يثبت فيه أو يتمم وصاياه: «لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة، لأنه مكتوب **ملعون كل مَنْ لا يثبت في جميع** ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به.» (غل٣: ١٠)

وبطرس الرسول يعترف عن نفسه وعن آبائه أنهم فشلوا في تتميم وصايا الناموس وبالتالي صاروا بلا رجاء؛ بل وتحت لعنة بانتظار الخلاص:

+ «لماذا تجرِّبون الله بوضع نير (الناموس) على عنق التلاميذ (المؤمنين من الأمم) لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله.» (أع١٥: ١٠)

+ «ولكن إسرائيل وهو يسعى في أثر ناموس البر لم يدرك ناموس البر. لماذا؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان؛ بل كأنه بأعمال الناموس ...» (رو٩: ٣١و٣٢)

+ «لأنه بأعمال الناموس، كلُّ ذي جسد لا يتبرر أمامه لأن بالناموس معرفة الخطية.» (رو٣: ٢٠)

وقول المسيح يؤكد ذلك:

+ «كذلك أنتم أيضاً متى فعلتم كل ما أُمرتم به (من الناموس) فقولوا إننا عبيد بطالون لأننا إنما عملنا ما كان يجب علينا.» (لو١٧: ١٠)

+ «لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه في ما كان ضعيفاً بالجسد ... لأجل الخطية ...» (رو٨:٣)

وبذلك ننتهي إلى حقيقة مذهلة، وهي أن الناموس جعل الوصايا محكاً لكبرياء الإنسان وعتوّه، وكشف محاولته تأليه نفسه وهي الخطية الأولى التي جرّت على آدم الشقاء والبلاء والفناء بحسب مشورة الشيطان:

+ «فقالت الحية للمرأة: لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما **"وتكونان كالله"** عارفَيْن الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة (الفكرة) جيدة.» (تك٣: ٤-٦)

وبولس الرسول في قوله عن المسيح: «الذي إذ كان في صورة الله **لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله**» (في٢:٦)، إنما يضع المقابلة مع آدم الذي قَبِلَ مشورة الشيطان أن يكون **«كالله»** على وجه السرقة والاختطاف وعن طريق التعدي ليحصل على ما للاَّهوت، مكملاً القول: «... لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِدَ في الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب» (في٢: ٧و٨). ثم يضع بولس الرسول المقابلة النهائية كيف سقط آدم وفقد درجته أمام الله وانطرح على الأرض ينحني ويعبد الحيوانات والحجر والشجر، وبن المسيح الذي: «رفَّعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممَّن في السماء ومَنْ على الأرض ومن تحت الأرض.» (في٢: ٩و١٠)

وهذا العنصر الذي هو التأليه الذاتي الذي انبثَّ في طبيعة الإنسان، أذلّته الوصايا التي أشعرته بعجزه، وحطّمه الناموس الذي أدّبه بعصا من حديد، حتى شعر الإنسان بحقيقة وضعه بالنسبة لله كمتعدٍّ، وكيف أن الخطية سادت عليه واستعبدته وصار بالحقيقة عبداً للخطية. هكذا نجح الناموس في أن يغلق على الجميع في دائرة العصيان.

+ «لأنه بأعمال الناموس، **كلُّ ذي جسد لا يتبرر أمامه** لأن بالناموس معرفة الخطية.» (رو٣:٢٠)

+ «لكن الكتاب (الناموس) **أغلق على الكل تحت الخطية**، ليُعطى الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون.» (غل٣:٢٢)

+ «**لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة**. لأن مكتوب: ملعون كل مَنْ لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به.» (غل٣:١٠)

وواضح أنه ما من إنسان قط استطاع أن يعمل كل الناموس، خاصة وأنه قال بأن مَنْ أخطأ

في واحدة فقد أخطأ في الكل: «لأن مَنْ حَفِظ كل الناموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكل.» (يع ٢: ١٠)

وهكذا ثبت ثبوتاً قاطعاً أنه لا رجاءَ في الخلاص من الخطية، ولا شفاءَ من سُمِّها القاتل، ولا حياة من وراء الناموس؛ بل الحكم بالدينونة واللعنة والموت بلا رجاء:

+ «في الإيمان مات هؤلاء أجمعون، وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدَّقوها وحيُّوها.» (عب ١١: ١٣)

والآن وقد ثبت أن الناموس عجز عن أن يبرر الإنسان أمام الله، تحتم أن يأتي برُّ الله من فوق:

+ «وأما الآن فقد ظهر برُّ الله (بالمسيح) بدون الناموس (الإنجيل) مشهوداً له من الناموس والأنبياء، برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون، لأنه لا فرق، إذ الجميع أخطأوا (يهودٌ وأُممٌ) وأعوزهم مجد الله.» (رو ٣: ٢١—٢٣)

وأخيراً، ظهرت النعمة التي فقدها آدم، وعاد إليه برُّ الله مجاناً إنما برحمة الله وبثمن باهظ كلَّف الله دم ابنه على صليب العار ليمحو عار الإنسان ويصفح عن كل الخطايا السالفة:

+ «متبرِّرين مجاناً بنعمته بالفداء الذي في يسوع المسيح ἐν Χριστῷ ، الذي قدَّمه الله كفَّارة بالإيمان بدمه **وذلك** لإظهار برِّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله، **لإظهار برِّه** في الزمان الحاضر **ليكون باراً، ويبرِّر مَنْ** هو من الإيمان بيسوع.» (رو ٣: ٢٤—٢٦)

مجيء المسيح يكمِّل ما عجز عنه الناموس:

+ «ما جئت لأنقض بل لأُكمِّل.» (مت ٥: ١٧)

المسيح لم ينقض الناموس؛ بل أكمله بالفعل، فالمسيح جعل للناموس معنى بل وقيمة بموته لما أكمل عقوبته. والذي أصبح بفضل بولس الرسول وهو في المسيح عن باقي اليهود هو أن بولس الرسول وجد في المسيح وحده منتهى كمال الناموس، حتى أصبح لا قيمة للناموس بدون المسيح. إذ بينما ينتهي الناموس عند عقوبة الموت، وجد بولس الرسول أن المسيح بعد أن أكمل عقوبة الموت قام من الموت وأعطى الحياة. لهذا انتهى قصد الله من الناموس ـــ من جهة تأديب الإنسان ـــ بموت المسيح ليبدأ قصد الله بالمسيح لإعطاء الحياة.

ولقد اكتشف بولس أنه بمجرد أن استُعلِنَ له المسيح ـــ وهو في طريقه إلى دمشق ليقتل المؤمنين بالمسيح هناك ـــ أن غيرته للناموس قد أوقعته في أخطر جريمة، وأن صوت المسيح من السماء: «أنا

يسوع الذي أنت تضطهده» (أع٩: ٥) قد أيقظ الضمير الذي لم يستطع الناموس أن يوقظه بل بالعكس كان قد طمس معالم الحق فيه؛ إلى هنا انتهى الناموس عند بولس. وحينئذ استُعلِنَ له بأجلى صورة أن دور الناموس قد انتهى بمجيء المسيح، وأن أي تمسُّكٍ بالناموس بعد مجيء المسيح هو التجديف بعينه؛ بل ويصير علة لقتل المسيح نفسه كما حدث على الصليب أو كما حدث بيدي بولس نفسه!

+ «لأنه لو أُعطي ناموس قادر أن يُحْيي، لكان بالحقيقة البرُّ بالناموس. لكن الكتاب (الناموس) قد أغلق على الكل تحت الخطية ليُعطى الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون.» (غل٣: ٢١و٢٢)

+ «ولكن قبلما جاء الإيمان (بالمسيح)، كنا محروسين تحت الناموس مُغْلَقاً علينا إلى الإيمان العتيد أن يُعْلَن، إذاً قد كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدِّب.» (غل٣: ٢٣—٢٥)

+ «لأن الله أغلق على الجميع معاً في العصيان لكي يرحم الجميع.» (رو١١: ٣٢)

يخرج القديس بولس من هذا كله بأن الناموس كان داخلاً في خطة الخلاص، وأن دوره كان لتأديب وتهذيب ضمير الإنسان ليعدّه للنقْلة الكبرى لتجديد خِلْقة الإنسان من فوق ونوال حرية أولاد الله.

وهكذا، فالناموس لم يوضع كواسطة مباشرة لتبرير الإنسان أمام الله كما كان يتصوَّر اليهود!! بل على النقيض كان واسطة لكشف وفضح عدم برِّ الإنسان: «أنه ليس بارٌّ ولا واحد» (رو٣: ١٠)!! مهما أدَّى الإنسان من أعمال ومجهودات وتكفيرات، فالناموس يَعِدُّ خطايا الإنسان عدًّا ويكيل لها العقوبات كيلاً.

كيف انتهى الناموس:

+ «إذاً يا إخوتي أنتم أيضاً قد مُتُّم للناموس بجسد المسيح لكي تصيروا لآخر للذي قد أُقيم من الأموات لنثمر لله... **وأما الآن فقد تحررنا من الناموس إذ مات الذي كنا مُمْسَكين فيه** حتى نعبد بجدة الروح لا بعتق الحرف (الناموس).» (رو٧: ٤و٦)

هذا يعني أن الناموس حيٌّ طالما نحن كنا أحياء بالجسد يحكم فينا الناموس و يهدِّد ويميت، ولكن الآن وقد مُتنا في المسيح، والجسد العتيق الذي كان تحت حكم الناموس قد وقع عليه حكم الناموس الذي أخذه المسيح ومات به ومتنا نحن أيضاً معه، فقد انتهى الناموس بالنسبة لنا لأننا

لسنا أحياء بعد بالجسد الذي كان تحت قبضة الناموس. وطالما نحن أموات مع المسيح، فالناموس ميت بالنسبة لنا.

هذا بمفهوم فعل الفداء على الصليب وبفعل المعمودية الذي يوثّق ويحقّق فعل الفداء فينا، لأننا بالمعمودية نموت ونُدفن مع المسيح. وبولس الرسول يضعها مرة أخرى محصورة هكذا:

+ «لأني **مُتُّ بالناموس للناموس** لأحيا لله. مع المسيح صُلِبتُ، فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان إيمان ابن الله الذي أحبني وأسْلَم نفسه لأجلي.» (غل٢: ١٩و٢٠)

هنا أيضاً يؤكد بولس الرسول أننا مع المسيح صُلِبنا، وبالتالي نكون قد مُتنا للناموس، لأن المسيح صُلِبَ بناءً على حكم الناموس ــ أنه فاعل شر ــ سواء ما نطقه رئيس الكهنة ومجمع السنهدريم أو الذي استحقه المسيح بالفعل كونه حمَل «الخطية» في جسد بشريتنا على الصليب. فطالما أن الناموس **أماتنا** كآخر عقوبة عنده، فليس للناموس بعدُ أيُّ شيء علينا «**بالناموس مُتنا للناموس**»، وحياتي الآن هي حياة المسيح فيَّ، فبالتالي ليس للناموس أية صلة بي.

ولكن كل هذا الكلام عن الناموس يخص اليهود، لكي يدركوا أن بالمسيح وعلى الصليب قد خرجوا من طَوْق الناموس؛ بل ومن التبعية للناموس إذ صاروا لآخرَ، أي المسيح. **ولكن ماذا عن الأمم؟** ثم ماذا عن علاقة اليهود، يهود الناموس والختان، بالأمم أهل الغُرْلة؟

+ « ولكن الآن في المسيح يسوع، أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين (عن إسرائيل والمواعيد) صرتم قريبين بدم المسيح،
لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين (الأمم واليهود) واحداً
ونقض حائط السياج المتوسط، أي العداوة،
مُبْطِلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائضَ،
لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً.
ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب، قاتلاً العداوة به.» (أف٢: ١٣ــ١٦)

« كنتم بعيدين »:

كلمة مملوءة بالمعاني، فالأمم لم يكونوا فقط بعيدين عن اليهود، بل ومكروهين ومحتقَرين مُزدَرَى بهم، غير موجودين!! بل وللأسف ــ على هذا التعبير ــ كانوا بالنسبة لإسرائيل «كالكلاب» يأكلون من فتات أربابها الساقط تحت موائدهم (بالمعنى الروحي طبعاً أي يلتقطون من بعيد أخبار الله).

ولينتبه القارىء، فالسبب في ذلك هو الناموس وتعاليمه التي تحضُّ على كرههم والبعد عنهم باعتبارهم غُلْفاً أنجاساً مناكيد، لا يجسر يهودي أن يدخل إليهم أو يأكل عندهم وإلاَّ يتنجَّس.

والآن، وقد ذُبح المسيح بجسد بشريته على الصليب ذبيحة خطية ومات، وماتت البشرية كلها بموته وانتهى الناموس وأُبطل وأُبطلت وصاياه، فالبعيد بسبب الناموس تحتم أن يصير قريباً!! وليس فقط قريبين مع إسرائيل؛ بل وقائمين في جسد بشرية المسيح بالإيمان:

+ «إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذاً ماتوا.» (٢كو٥: ١٤)

إذاً فقد صار الأمم المؤمنون واحداً بذات الجسد مع اليهود المؤمنين. والجسد المبذول والمُقام قد استُعْلِنَ أنه الكنيسة الجامعة، وصارت الأمم فيها: «فلستم إذاً بَعْدُ غرباءَ ونُزُلاً؛ بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف٢: ١٩)

وتآخى الأمم واليهود في سلام معاً، وفي سلام واحد مع الله، بعد أن كان اليهود أعداءً بسبب التعدِّي، والأمم غرباءَ وبلا ناموس وبلا إله في العالم! نعم، لقد صار المسيح سلاماً للبعيدين والقريبين معاً.

وكان يستحيل على اليهودي أن يتآخى مع الأمميِّ في سلام واحد طالما كان الناموس قائماً يضع أساس حائط الانقسام، ويسيِّج على اليهود ويحرِّضهم على العداء الفكري والعقيدي والجنسي بآن واحد. وهكذا تم تحطيم السور الفاصل — أي الناموس — الذي كان هو أساس العداوة، لكي يجمع المسيح في نفسه من الاثنين إنساناً واحداً صانعاً سلاماً.

وهكذا، وبمقدار ما كانت الوصايا والفرائض في الناموس هي علة العداوة، صار دم المسيح مصدر الوحدة والسلام.

وفي قول آخر يجمع بولس الرسول اليهود والأمم تحت راية الصليب على أساس تسمير الناموس على الصليب، وهو ما أسماه وثيقة ديون خطايا البشرية، بنفس المسامير التي سَمَّر بها الناموس — على يدي رؤساء الكهنة — جسد المسيح!

+ «وإذ كنتم (الأمم) أمواتاً في الخطايا وغَلَفِ جسدكم، أحياكم معه مُسامحاً لكم بجميع الخطايا، **إذ محا الصك الذي علينا (نحن اليهود) في الفرائض الذي كان ضداً لنا، وقد رفعه من الوسط مسمِّراً إياه بالصليب.**» (كو٢: ١٣و١٤)

واضح هنا أن بواسطة الصليب رفع كل ديون اليهود بإلغاء الناموس على الصليب. ثم، بآن واحد **وعلى نفس المستوى، تمَّ الصفح عن كل خطايا الأمم التي صنعوها وهم بلا ناموس!**

ولكن نود لو انتبه القارىء لعظمة التشبيه البالغ الحبك والدقة في قول بولس الرسول أن بالمسامير التي سمَّر بها الناموس ـ عن جهالة ـ جسد المسيح، سمَّر المسيح ـ بالحكمة ـ الناموس على ذات الصليب!

صراع بولس الرسول مع اليهود المسيحيين (المتنصرين) من أجل الناموس:

مقدمة:

نحن لا نأسف على أنه على مدى الأربع الرسائل الكبرى إلى غلاطية وكورنثوس الأولى والثانية ورومية استغرق بولس الرسول في مشكلة الناموس من جهة محاولة فرضه بالقوة من جانب اليهود المتنصِّرين على المسيحيين الجدد من الوثنيين، لأن في هذا الجدل المحتدم ربحنا التعرف على أصول ومنابع القضايا المسيحية الكبرى، حينما حلَّق بولس الرسول فوق المشاكل المعروضة ليكشف لنا عن أسرار كان من النادر أو حتى من الصعب أن يتعرض لها لولا الانفعالات المحتدمة من جراء جرأة وخِسَّة العناصر اليهودية المتنصِّرة في مهاجمتها لتعاليم بولس الرسول والتعرض لشخصيته والحطّ من رسوليته.

فقد عاد إلى الوراء ليكشف، بل ليفضح الخطية وكيف دخلت واستوطنت أعضاء الإنسان، كما أمسك بأيدينا وأدخلنا إلى منابع النعمة، وحلل طبيعة «التبرير» وكيف أن هذا الاسم أتاه شعب إسرائيل حينما سعى وراءه كالسراب.

وقدم لنا الإيمان المسيحي كأغلى عطية يمكن أن ينالها الإنسان على الأرض، وفتح أمامنا ملفات قضايا الناموس بدراسة فريسيٍّ واعٍ، وتقصَّى أسبابه وحدود إمكانياته وعجزه، وحدَّد زمان انتهائه.

وفتح لنا باب الفداء لنطَّلع على سر الجسد، السر المخفى منذ الدهور، كيف أن الأمم هم شركاء فيه حسب قصد الله الأزلي.

وبهذا وبذلك صنع حلولاً، وقدَّم مخارجَ، وسجَّل مواعيد، وسلَّم وثائق، صارت كلها مذخرات للكنيسة ولاهوتها.

وفي مواجهة مكايد اليهود المتنصرين واستعلائهم بناموسهم وتوراتهم، حلَّق بولس الرسول وارتفع، وقدَّم لنا قواعدَ راسية توضح التناسق بين العهدين وارتفاقهما معاً، ولكن في سهولة وإقناع، بحيث جعل العهد القديم بنظامه الكامل الشامل يخضع للإنجيل ويخدم صِدْقَه واستعلانه، متعرضاً للأسرار إنْ المعمودية أو الإفخارستيا (١كو١٠: ٢-٤)، كشركة فعلية في موت الرب وفي الالتحام

بجسده، واضعاً إياها في أقدس المواضع من الإيمان في حياة الإنسان، وأحاطها بهيبة مع تحذيرات فتحت أمامنا بمفهومها الحقيقي طريق القداسة وأنارت لنا الحياة والخلود.

وهو لم يهمل اليهود المتمسكين بيهوديتهم، بل أعطاهم ما يكفل تحررهم من عهدهم البائد. واختصَّ الأُمميين بأصدق تعاليمه، ليُحضرهم مع اليهود المؤمنين في وحدة الروح واتحاد المحبة، ليتراءوا أمام وجه الله بالتساوي، بلا لوم في القداسة والأُلفة والمحبة. وهكذا صنع المسيح كنيسة الدهور. أما الذين ارتأوا التمسك بالناموس بكبرياء التعالي وهددوا صحة الإنجيل وبساطة حريته، فقد شهر في وجه تحدّياتهم أسلحة رادعة اصطنعها من الناموس ذاته والتوراة، فما فتئت حتى أخمدت تحدياتهم واستُظْهِر الإنجيل.

بدء الصراع ومجمع أورشليم:

ظل الصراع بين بولس الرسول واليهود المسيحيين ما يقرب من أربع عشرة سنة أثناء خدمته في نواحي سوريا وكيليكية.

أما علاقة بولس بالكنيسة الأم، كنيسة الرسل، من جهة خدمة الأمم فكانت كما يصفها هو: «ولكنني كنت غير معروف بالوجه عند كنائس اليهودية التي في المسيح، غير أنهم كانوا يسمعون أن الذي كان يضطهدنا قبلاً يبشر الآن بالإيمان الذي كان قبلاً يُتلفه، فكانوا يمجدون الله فيَّ.» (غل١: ٢٢ــ٢٤)

هذا في البداية قبل أن يستفحل نجاح بولس الرسول في إنشاء الكنائس المتوالية في الأمم. غير أنه لما امتدت خدمة بولس في أنطاكية عاصمة سوريا وازداد عدد الوثنيين الذين قبلوا الإيمان وملأوا الكنائس هناك، أحسَّت كنيسة أورشليم أن نسبة الأُمميين فاقت أعداد اليهود المؤمنين بكثير، فبدأ القلق يهز قلوب الرسل من جراء مستقبل الانضباط والتبعية والخوف من تأثير الوثنيين المسيحيين غير المختونين على الانضباط الناموسي والتقاليد اليهودية، وكانت اليهودية في أعماق قلوبهم لا تزال ذات جلال، ولم يكونوا قد استوعبوا بعد «أن ملكوت الله يُنزَعُ منكم ويُعطَى لأمة تعمل أثماره» (مت٢١: ٤٣)، بمعنى دخول الأمم في حظيرة المسيح الواحدة.

فبدأ اليهود المؤمنون بالمسيح **الغيورون على الناموس** ــ بعلم وبدون علم الرسل ــ يتحركون، فذهبوا إلى أنطاكية للتجسس والمقاومة:

+ «وانحدر قوم من اليهودية (أورشليم) وجعلوا يعلِّمون الإخوة (المسيحيين من أصل وثني) أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا. فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة

ومباحثة ليست بقليلة معهم رتَّبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأُناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة.» (أع١٥: ١و٢)

هذا نسمعه من بولس الرسول هكذا:

+ «ولكن بسبب الإخوة (المسيحيين اليهود) الكذبة المُدْخَلين خفية الذين دخلوا اختلاساً ليتجسَّسوا حريتنا التي لنا في المسيح (من الناموس وأحكامه) كي يستعبدونا (للناموس وسلطانهم اليهودي)، الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة ليبقى عندكم حق الإنجيل.» (غل٢: ٤و٥)

وهكذا بدأ عمل القديس بولس في محيط الأمم منذ أول يوم يتزعزع بالتهديدات الكفيلة أن توقفه نهائياً لو كان قد نجح هؤلاء الإخوة (الكذبة) هكذا واستمالوا بسلطانهم المؤمنين الجدد من الأمم! لذلك يقول بولس الرسول نفسه: «إنه لم يخضع لهم». أما إذا لم يكن بولس قد أسرع هكذا بحكمة النعمة إلى الرسل ليأخذ موافقتهم على خدمته لإنجيل المسيح بين الأمم بدون ناموس ولا ختان، لكان قد تسبَّب في فصل كنيسة الرسل عن الكنائس التي أسسها بولس الرسول في الأمم، ولأصبحت كنيسة الأمم بقيادة بولس الرسول مجرد شيعة يهودية منشقة[3].

أما نجاح بولس الرسول في إقناع الرسل بالموافقة على دخول الأمم إلى المسيح بدون ناموس ولا ختان فكان يعتمد بالأساس على النجاح الذي أحرزه في الخدمة بين الأمم، والتي بدأت تكتسح البلاد حول أورشليم في سوريا وكيليكية، بالإضافة إلى موهبة بولس في الإقناع وفهم رسالة المسيح بعمق لا يُجارَى بنعمة الله التي ظهرت عليه، مع الآيات التي صنعها المسيح بواسطته. هذا كلُّه أقنع الرسل بالموافقة وبإعطاء بولس الرسول يمين الشركة مع برنابا في مواجهة ضغط الغيورين من اليهود المتنصِّرين الذين لم يكن عندهم أي تعاطف تجاه الأمم، والذين حاولوا مستميتين أن يجبروا تيطس زميل بولس في الأسفار على أن يختتن أمامهم، فلم يخضع لهم بولس الرسول قط. علماً بأن الرسل أنفسهم أحسُّوا، بالنعمة التي فيهم، بمقدار خطورة رفض الأمم من الدخول إلى المسيحية لأن ذلك كان معناه توقُّف نمو الكنيسة خارج حدود اليهودية. هذا بالإضافة إلى تذكُّرهم أمر المسيح الصريح لهم بأن يذهبوا إلى كل الأمم ويبشروهم بالإنجيل ويعمدوهم. لهذا كان نجاح بولس الرسول في المجمع الأول للرسل في أورشليم هو نقطة انطلاق الكنيسة في الأمم، مؤازَرَةً بنعمة الله

---

3. O. Pfleiderer, *The Influence of the Apostle Paul on the developement of Christianity*, London, 1885 (Hibbert Lectures).

وبركة الرسل القديسين الأطهار.

وواضح غاية الوضوح أن القديس بطرس كان العامل الأساسي وربما الوحيد في ترجيح كفة بولس ضد المتعصبين للناموس. وواضح أن الاجتماع بدأ صاخباً وأن صوت الغيورين على الناموس ارتفع عالياً، ومن الرسل كان هناك مَنْ انحاز إليهم، لأن سفر الأعمال يقول في وصف بداية الجلسة هكذا: «فبعد ما حصلت مباحثة كثيرة» (أع١٥: ٧). أخيراً وقف بطرس وحسم النزاع بجرأة وشجاعة نادرة التي كانت دائماً هي أعظم صفاته:

+ «أيها الرجال الإخوة، أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمي يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون. والله العارف القلوب شهد لهم مُعطياً لهم الروح القدس كما لنا أيضاً. ولم يميِّز بيننا وبينهم بشيء إذ طهَّر بالإيمان قلوبهم. فالآن لماذا تجرِّبون الله بوضع نير على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله. لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضاً. فسكت الجمهور كله.» (أع١٥: ٧-١٢)

لقد غلبت محبة المسيح التي كان يحترق بها قلب القديس بطرس [«يا رب أنت تعلم إني أحبك» (يو٢١: ١٥)] فوق كل المعارضات والتحفظات والترددات التي أتت من كل الأصوات، حتى صوت يهوديته داخل ضميره الذي أخمده بصعوبة، بينما بولس الرسول جالس يرقب مسار الروح وفعل النعمة في قلوب من أحبوا المسيح وأحبهم، ويصلي!

لقد صنع بطرس الرسول للكنيسة صنيعه الذي لن يُنسى له أبد الدهور عندما زكَّى كرازة بولس الرسول. لقد ضمن للكنيسة مستقبلها في العالم كله وعبر آلاف السنين بموقفه الحاسم الشجاع، وفتح الطريق أمام باقي الرسل يعقوب ويوحنا ليعطوا بولس يمين الشركة.

ولكن واضح أنهم رفعوا النير (نير الناموس وأحكامه وبرَّه) عن أعناق الأمم ولم يرفعوه عن أعناقهم هم أنفسهم، لكنهم صنعوا ذلك ليس عن عقيدة ولكن عن اضطرار ظروفهم التي فرضت عليهم ذلك، — حسناً —، لكي يُظهر لنا المسيح مدى سخاء دعوته لنا نحن الأمم!!

وانتهى المجمع بأن تبرأ الرسل في أورشليم رسمياً من أعمال اليهود المتعصِّبين للناموس (الغيورين) هكذا: «**إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين** من عندنا أزعجوكم بأقوال، مُقلِّبين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس، **الذين نحن لم نأمرهم**» (أع١٥: ٢٤). ثم أمضوا وثيقة الدهور بمقتضى محضر مجمع الكنيسة الرسولية الأولى في التاريخ: «لأنه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة أن تمتنعوا عما ذُبح للأصنام وعن الدم

والمخنوق والزنا، التي إن حفظتم أنفسكم منها، فَنِعِمَّا تفعلون. كونوا معافين.» (أع ١٥: ٢٨و٢٩)

وعلى القارىء أن يفهم من كلمة الامتناع عن «أكل المخنوق **والدم**» أن هذا يعني الامتناع عن أكل اللحم الذي لم يُصفَّى دمه تماماً أثناء الذبح، وهذا أمر لا يزال متبعاً عند المسيحيين في الشرق حتى اليوم. أما قوله الامتناع عن الزنا فيعني الامتناع عن زواج الأقارب المحرم الاقتران بهم وهو أمر أيضاً لا يزال متبعاً في شرقنا المسيحي ولربما في كل الغرب أيضاً؛ حيث هذه الوصايا لا تُحسَبُ بعد أنها أحكام للناموس؛ بل مجرد وصايا الرسل. وعلى هذا الأساس وغيره من المبادىء نصرخ الآن ونقول: «نؤمن بكنيسة رسولية واحدة».

كانت هذه الوثيقة بالنسبة لبولس الرسول أمضى سلاح في عراكه مع الغيورين من اليهود، أمَّا لنا ولكل شعوب الأرض فهي صك انعتاق من عبودية الناموس وكل أحكامه. والفضل يُنسب لبولس الرسول أول ما يُنسَب. أما ما أضافه القديس يعقوب بخصوص جمع المساعدات لفقراء أورشليم كما جاء في الرسالة إلى غلاطية (٢: ١٠)، فوإن ظهرت وكأنها ضريبة إيمان، ولكنها كانت أعظم ضمان لربط كنائس الأمم بالكنيسة الأم بشعور الكنيسة الواحدة والإيمان الواحد والحب الواحد. والعجب أنه لا تزال هذه العادة في كل كنائس العالم أن يُجمع بعد كل خدمة ما يتقدم به كل إنسان عن نفسه وعن بيته لخدمة الفقراء وربما لإعالة خدام الرب أيضاً.

ولكن من حيث المضمون الروحي لوثيقة مجمع الرسل الأول، نستطيع بوضوح أن نستشف ارتفاع الإيمان المسيحي للأمم روحياً فوق إيمان اليهود الذين قبلوا الإيمان بالمسيح واحتفظوا بآن واحد بالناموس وفعل الختان. وهكذا وقفت المسيحية لأول مرة على رجليها حُرَّة من عكاز الناموس الذي بلى في أيدي أصحابه، ومستقلة عن اليهودية وإلى الأبد! ومنذ ذلك اليوم، والكنيسة المسيحية بدأت ترسي لنفسها قواعد إيمانها وتقنن لنفسها واجباتها.

عودة للمقاومين:

ولكن لم يَنْتَهِ صراع بولس الرسول مع الغيورين للناموس بهذه الوثيقة، لأنها كُتِبَتْ ــ كما قلنا ــ ليس عن اقتناع عقائدي بعدم أهمية الناموس للإيمان بالمسيح، ولكن من واقع الضغط الذي مارسه بولس الرسول من واقع عمل النعمة والنجاح الذي أحرزه بين الأمم، مع إحساس الرسل بالعامل الإلهي في الموضوع. فلم تكن الوثيقة إلاَّ مجرد ترضية أو معاهدة سلام.

وإذ نسمع بعد هذا عن رجال من هؤلاء اليهود الغيورين على الناموس جاءوا من عند القديس

يعقوب للتجسس أيضاً على مؤمني أنطاكية؛ وكان القديس بطرس(٤) هناك، فسلك أمامهم بغير ما كان يسلك في غيابهم، وذلك خوفاً منهم. وهذا في الحقيقة يوضح خطورة المعركة وسطوة هؤلاء الغيورين وإرهابهم: «... ولكن لما أتى بطرس إلى أنطاكية قاومتُه مواجهة لأنه كان مَلوماً. لأنه قبلما أتى قوم من عند يعقوب كان يأكل مع الأمم، ولكن لما أتوا كان يؤخِّر ويفرز نفسه خائفاً من الذين هم من الختان، وراءى معه باقي اليهود أيضاً حتى إن برنابا أيضاً انقاد إلى ريائهم.» (غل٢: ١١—١٣)

وكان بولس الرسول حادًّا قاطعاً مع بطرس: «قلت لبطرس قدام الجميع: إن كنتَ وأنت يهودي تعيش أُممياً (يأكل معهم) لا يهودياً فلماذا (الآن) تُلزِم الأمم (بامتناعه عن الأكل معهم) أن يتهوَّدوا.» (غل٢: ١٤)

يقول القديس ذهبي الفم هنا أن خوف بطرس من اليهود المتنصِّرين كان في الحقيقة خوفاً عليهم لئلا يرتدوا عن الإيمان، أما القديس إيرينيئوس فيسند خوفه منهم على أساس احتراسه من مكائدهم ووشايتهم(٥) ... أعذار...

ولكن الواضح من النص أن بطرس الرسول كان من الداخل مقتنعاً بمنهج بولس الرسول تمام الاقتناع، ولكنه لم يَقْوَ على ما قوي عليه بولس الرسول، ربما بسبب تخصص الدعوة وغياب عنصر التشجيع الإلهي مثل ما ناله بولس الرسول من الرب مباشرة. ولكن عثرة بطرس الرسول بسبب ثقله الرسولي كانت أكثر مما كان يُظَنُّ، لأنها جرفت القديس برنابا ليسلك على منواله وكذلك كل اليهود المتنصِّرين عن قناعة وحماس وليس كمجاراة كما كان لدى بطرس في الأصل. كما أن حركة القديس بطرس هذه خلخلت إيمان الأمم المتنصِّرين في أنطاكية بإحساس النقص، كما أشعرتهم بالعزلة. وهذا أخطر، إذ وجدوا أنفسهم محرومين من الشركة مع الرسل ومن التعامل معهم؛ إنها كارثة!! عبَّر عنها بولس الرسول أنها كانت بسبب «أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل» (غل٢: ١٤). لقد استكثرها بولس الرسول على بطرس الرسول ذي القلب الكبير

---

(٤) يقول العلاَّمة كلمندس الإسكندري، ويشترك معه آخرون مثل القديس ذهبي الفم والقديس جيروم واغريغوريوس الكبير (بابا روما)، أن «كيفا» الذي أخذه الجميع على أنه هو «صفا» أي «بطرس»، أخذوه هم على أنه شخص آخر غير بطرس أو أنه بطرس آخر غير بطرس الرسول. ولكن من واقع النص يظهر بوضوح أنه هو هو بطرس الرسول، إذ أن برنابا، وهو على مستوى بولس الرسول في الخدمة والكرامة، راءى معه. وقد نفى القديس أغسطينوس احتمال هذا الرأي وشدَّد على أنه هو بطرس الرسول.

F. Prat, *op. cit.,* Vol. I, p. 51.

5. Ibid., p. 52.

والروح المتسعة والإيمان الملتهب بحب المسيح، لذلك راجعه بشدَّة وهو عالم بعظمة نفسيته وحبه الذي لا يمكن أن يهتز. إنها لم تكن خطية من طرف بطرس، ولكن خطورتها كامنة باعتبارها نموذجاً قدَّمه ليحتذي به غيره(٦).

أما التعليم اللاهوتي الذي خرجت به الكنيسة من هذه الواقعة فهو قول بولس الرسول:

+ «الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح.» (غل٢: ١٦)
+ **«لأني مُتُّ (بموت المسيح) بالناموس للناموس لأحيا لله.»** (غل٢: ١٩)
+ «مع المسيح صُلبتُ، فأحيا، لا أنا؛ بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياه الآن في الجسد (أكل ــ شرب ــ علاقات مع الناس) فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي ... **إن كان بالناموس برٌّ، فالمسيح إذاً مات بلا سبب.»** (غل٢: ٢٠و٢١)

هنا بولس الرسول يجعل الجمع بين الناموس والمسيح أمراً مستحيلاً!!

ونتيجة لذلك، بقيت كنيسة أنطاكية منقسمة إلى يهود غيورين على الناموس ومسيحيِّين من أصل أممي لا يؤمنون بالناموس، حيث لا يتعامل الأولون مع الآخرين. فكيف تُقام الخدمة وكيف يشترك الجميع في الأسرار المقدسة؟ لقد كان هذا نذيراً بأن عنصر النَخْر في عظام الكنيسة الفتيَّة لا يزال كامناً. وبدأ اليهود الغيورون يصبُّون نقمتهم على بولس الرسول مترفِّعين عن تعليمه(٧).

وهكذا بدأت العلاقات بين بولس الرسول والكنيسة الأم يحكمها التحفظ من الجانبين، بالرغم من اعتراف الرسل برسولية بولس وتفوقه في المعرفة، ولكن مع التحفظ أيضاً، كما يكتب بطرس الرسول بنفسه: «واحسبوا أناة ربنا خلاصاً، كما كتب إليكم أخونا الحبيب بولس أيضاً بحسب الحكمة المعطاة له، كما في الرسائل كلها أيضاً متكلماً فيها عن هذه الأمور، التي فيها أشياء عسرة الفهم يحرِّفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب أيضاً لهلاك أنفسهم.» (٢بط٣: ١٥و١٦)

الزيارة الثانية التي قام بها بولس الرسول لغلاطية:

كان قد استطاع الغيورون للناموس من مسيحيي اليهود أن يصلوا إلى غلاطية بآسيا الصغرى ويقلبوا الموازين ضد بولس الرسول ويحرِّضوا المؤمنين معهم في تيار اليهودية والناموس والختان والأصوام مرة أخرى كضرورة حتمية للخلاص، مستندين على برنابا الرسول الذي يُعتبر أول من أنشأ الكنيسة هناك، وعلى الرسل في أورشليم. ولم يكتفوا بذلك بل أحطُّوا من قدر بولس الرسول

---

6. Ibidem.
7. Pfleiderer, *op. cit.*, p. 121.

جاعلين منه مجرد تلميذ للرسل ومحاولين النَّيل من كرامته الشخصية أيضاً. وحاول بولس الرسول في زيارته هذه أن يوقف هذا التيار الجارف، ولكن بمجرد مغادرته لغلاطية، انفجرت المكائد والدسائس المعادية تعمل عملها بينهم. وحينئذ كتب بولس الرسول رسالته إلى غلاطية، التي تُعتَبر حتى اليوم وإلى أجيال قادمة أروع تحقيق عن حرية المسيحية كأثر خالد، شاهداً بقوة نعمة المسيح على تحرير الإيمان المسيحي من براثن الناموس.

وهو يدافع أولاً عن استقلال سلطانه الرسولي، وأنه لم يُدعَ من إنسان ليكون رسولاً: «بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان، بل بيسوع المسيح والله الآب الذي أقامه من الأموات» (غل ١:١)؛ وأنه ليس من تقليد بشري سابق تعلَّم الإنجيل وإنما بإعلان مباشر من المسيح، وأن إنجيله يحمل في داخله ختم صِدْقه والحق الإلهي الذي استلمه في نفسه باتصاله السري الإلهي بالروح القدس. وهذا الاختبار عينه الذي أخذه باستعلان داخلي من الروح الذي يتعلق عليه وحده معرفة الإنجيل، يتمنى بولس الرسول أن يكون في قلوب من يقرأون له.

وهنا يسأل أهلَ غلاطية الذين سلَّمهم هذا الحق وهذا الروح قائلاً: «أريد أن أتعلم منكم هذا فقط: أبأعمال الناموس أخذتم الروح أم بخبر الإيمان؟ أهكذا أنتم أغبياء، أبعدما ابتدأتم بالروح تُكمَّلون الآن بالجسد؟» (غل ٣: ٢و٣)، ثم أيضاً الذي سلَّمكم هذا الروح (بولس الرسول): «فالذي يمنحكم الروح (بولس) ويعمل قوات فيكم، أبأعمال الناموس أم بخبر الإيمان؟» (غل ٣:٥)

ولكي يرفع بولس الرسول هذا القانون الروحي، أي أن الإيمان بالخبر وليس بالأعمال، وأن هذا القانون أعلى من الناموس والزمن، رفعه إلى إبراهيم المحسوب أنه أبو الإيمان نفسه: أن إبراهيم آمن بالله فحُسب إيمانه هذا برًّا!! لهذا يحسب أن المؤمنين هم بالضرورة أولاد إبراهيم.

ولأن الوعد أن بنسله (بالمفرد أي ولد واحد = أي المسيح) تتبارك أمم الأرض، كان الحساب الأمم وليس اليهود، لذلك فكل المؤمنين من الأمم هم الورثة الحقيقيون لإيمان إبراهيم ولإبراهيم نفسه وللوعد الذي أخذ.

ولما اعترض اليهود المسيحيون الغيورون على الناموس أن الناموس أُضيف على الوعد وأنه بدون الناموس إيمان المسيح لا يكفي. رد بولس الرسول هكذا:

أولاً: من علاقة الوعد بالناموس:

أن الناموس يتعارض مع الوعد، فالواحد ضد الآخر، والله جعل الذين يعملون بأعمال الناموس

إن هم لم يعملوا به كله ــ وهم لم يعملوا به أبداً: «لأن من حفظ كل الناموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكل» (يع ٢: ١٠) ــ جعلهم تحت لعنة: «لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة لأنه مكتوب ملعون كل مَنْ لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به.» (غل ٣: ١٠)

والله نفسه جعل الذين يعيشون بالإيمان ــ ولو بدون استحقاق الأعمال: «وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر فإيمانه يُحسب له برًّا» (رو ٤: ٥) ــ ولكن بعطية النعمة، فإن بركة الله بحسب الوعد تحل عليهم: «ولكن أن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله فظاهر، لأن البارَّ بالإيمان يحيا» (غل ٣: ١١). ويختم بولس الرسول هذه المناقضة الشديدة بين أعمال الناموس والإيمان بالوعد هكذا: «ولكن الناموس ليس من الإيمان ــ بل الإنسان الذي يفعلها (الأعمال) ــ سيحيا بها، المسيح افتدانا من لعنة الناموس، إذ صار لعنة لأجلنا، لأنه مكتوب ملعون كل من عُلِّق على خشبة ــ لتصير بركة إبراهيم للأمم في المسيح يسوع لننال بالإيمان موعد الروح.» (غل ٣: ١٢ــ١٤)

ثانياً: من واقع تاريخ العلاقة بين الوعد والناموس:

لأن **الوعد** وهو كامل في ذاته ومقتدر أن يحقق نفسه تماماً بدون أي وسيط أو جهد إنساني، فلا يمكن أن يأتي الناموس بعد مدة طويلة جداً ــ ٤٣٠ سنة منذ أن نطق الله بالوعد لإبراهيم ــ ليُضاف إلى الوعد كضرورة إضافية[٨]. هذا بحد ذاته ليس فقط يُضعف قوة الوعد فحسب، بل يُلغيه، إذ يفقد العامل الأساسي فيه وهو النعمة كعطية موهوبة.

+ «إن الناموس الذي صار (بعد وعد الله لإبراهيم) بعد أربعمائة وثلاثين سنة لا ينسخ (يلغي) عهداً (الموعد) قد سبق فتمكَّن من الله نحو المسيح حتى يبطل الموعد. لأنه إن كانت الوراثة (وراثة بركة إبراهيم) من الناموس، فلم تكن أيضاً من موعد ولكن الله وهبها (البركة كوراثة) لإبراهيم بموعد.» (غل ٣: ١٧و١٨)

ثالثاً: علاقة الوعد بالناموس من جهة مصدره ومعطيه:

+ الوعد استلمه إبراهيم من الله شخصياً بقسم: «أقسمت بذاتي».
+ والناموس استلمه موسى بيد ملائكة.
+ بمعنى أن الأول قيِّم على الثاني وأقيَم.

---

(٨) من إبراهيم إلى موسى ٤٣٠ سنة.

+ ولكن ليس بمعنى أن الناموس يتعارض مع الوعد: «فهل الناموس ضد مواعيد الله» (غل٣: ٢١). وإنما الناموس وُضِعَ ليكون أداة لتكميل الوعد.

+ لأن الناموس عاجز من ذاته أن يعطي حياة، لذلك حُبس الناس تحت عبودية الخطية حتى مجيء الوعد بالبركة ليحقق الإيمان بالمسيح لحساب أولاد إبراهيم الروحيين: «لأنه لو أُعطيَ ناموس قادر أن يُحيي لكان بالحقيقة البرُّ بالناموس. لكن الكتاب أغلق على الكل تحت الخطية ليُعطى الموعدُ من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون.» (غل٣: ٢١و٢٢)

هنا انتصر بولس الرسول بدفاع كتابي رائع ليحفظ حق الإيمان بالمسيح أو بالحري حق الإنجيل طاهراً نقياً.

وحينئذ يتحول بولس الرسول بعد ذلك من الدفاع إلى الهجوم:

+ كيف بعد أن عرفتم الله والله عرفكم بعد أن كنتم تعبدون آلهة هي أصنام، كيف تعودون إلى الخدمة بأمور أركان العالم الضعيفة (غل٤: ٨-١٠).

+ وهنا يضرب بولس الرسول باليمين واليسار، لأن المقصود بأركان العالم الضعيفة أيضاً هي أعمال الناموس من أعياد وأصوام وتطهيرات وإعداد وهلال وسبت. وهكذا إذ يستكثر بولس الرسول على **الوثنيين** بعد أن عرفوا الله بالروح وابتدأوا يخدمونه بالروح والإيمان القلبي، أن يعودوا ليخدموا تحت هذه الأمور؛ فكم يكون التوبيخ بالنسبة لليهود الذين كانوا يعرفون الله والله يعرفهم ولهم الوعد والإيمان والروح الذي وعد أن ينسكب عليهم في هذه الأيام.

+ لقد اعتبر بولس الرسول اللجوء إلى الناموس بعد أخذ الإيمان بالمسيح، **أن ذلك يُبْطِلُ الإيمان بالمسيح: «قد تبطَّلتم** κατηργήθητε **(= انفصل) عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس، سقطتم من النعمة»** (غل٥: ٤). وهكذا وضع بولس الرسول الفاصل والقاطع الأبدي بين الناموس والإيمان بالمسيح. وجعل التعارض والتضاد بينهما ما لا يمكن التساهل فيه أو تخطيه.

● **الضربة القاضية للفصل بين المسيحية واليهودية:**

النتيجة: أنه بمجيء المسيح انخفضت قيمة الناموس وكبرياؤه إلى الصفر، أي انتهى عهده. فلم تعُدْ فيه أية فائدة أو قيمة إزاء حرية أولاد الله والبر بالإيمان، بل وبمجيء الوعد الكامل، أصبح الناموس في توصياته الجسدية على قدم المساواة مع الوثنيين في عبادتهم لأركان العالم الضعيفة.

وقوله أن أولاد الناموس (ابن الجسد) يضطهدون أولاد الروح (ابن الحرة) هو مطابقة لما صنعته

اليهودية في بولس الرسول وفي الكنيسة الأُولى (غل ٤: ٢٢–٣١). وكان هذا التشبيه المتجاسر الحاد والقاطع كفيلاً بأن يضع الفاصل النهائي بين اليهودية والمسيحية وينبِّه بالفعل إلى أساس العداوة، وليس العداوة فقط، بل والاضطهاد من الجانبين.

وإذ أدرك بولس الرسول خطورة هذا القرار، حاول تلطيفه بقدر الإمكان، وكأنها نوع من المصالحة أو طرح مهادنة سلامية، ولكن عبثاً.

ظهور اليهود الغيورين في كورنثوس وتجديد المقاومة بشكل آخر:

سلاح المتعصبين للناموس هذه المرة ليس الناموس ولا الختان. لكنهم غيَّروا «التكتيك» (**أي** حركة الحرب في الهجوم والدفاع)، فانصبَّ هجومهم هذه المرة على هدفين: «**إنجيل**» بولس، ثم **بولس نفسه**.

فإنجيل بولس قالوا عنه أنه ليس هو إنجيل المسيح بل هو «إنجيل آخر»، وبرهانهم على ذلك أن بولس الرسول نفسه لم يرَ المسيح (مسيح التاريخ)، ولا المسيح أرسله بواقعة تاريخية مسجَّلة. أما إنجيلهم هم فهو الإنجيل الحقيقي – لمسيًّا الملكوت – لأنهم عرفوا المسيح وخدموا معه (هكذا)، فهم رُسُل حقيقيون، وكان رد بولس الرسول على ذلك:

+ «ليكون لكم جواب على الذين يفتخرون بالوجه لا بالقلب.» (٢كو٥: ١٢)
+ «فإنه إن كان الآتي يكرز بيسوع آخر لم نكرز به أو كنتم تأخذون روحاً آخر لم تأخذوه أو إنجيلاً آخر لم تقبلوه، فحسناً كنتم تحتملون.» (٢كو١١: ٤)
+ «لأني أحسب أني لم أنقص شيئاً عن فائقي الرسل.» (٢كو١١: ٥)
+ «ولكن ما أفعله سأفعله (سيَقطع هؤلاء الرسل المزعومين بالحرم) لأقطع فرصة الذين يريدون فرصة ... مثل هؤلاء هم رسل كذبة، فعلة ماكرون مُغيِّرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغيِّر شكله إلى شبه ملاك نور. فليس عظيماً إن كان خُدّامه [«القائلين إنهم يهود وليس يهوداً بل هم مجمع الشيطان» (رؤ٢: ٩)] أيضاً يُغيِّرون شكلهم كخُدَّام للبر، الذين نهايتهم تكون حسب أعمالهم.» (٢كو١١: ١٢–١٥)

ولكنهم – وكيهود – اتضح لبولس الرسول أنهم يتمسَّكون ويكرزون بالمسيح **حسب الجسد فقط**، وليس المسيح حسب الروح كابن الله. من هنا ظهر فعلاً وبالتالي أنه إنجيل آخر، وهو حتماً وبالضرورة إنجيل لا يُحْيي ولا يُقيم من موت، وإنما إنجيل يتبع الناموس والحرف، **فهو** إنجيل قاتل. وحينما يحاولون تزييف الصورة، يقولون إن لهم «**الروح**» أيضاً ولكنه **في الحقيقة هو** روح العهد القديم ذي المجد الزائل كالنور على وجه موسى وهو للخوف للعبودية.

ومن هذا المنهج الحربي لليهود المتنصِّرين المختفين وراء الناموس، يتضح أن الحرب موجَّهة أساساً نحو بولس الرسول وبالتالي نحو إنجيله. وبهذا تظهر خطورتها ويظهر تأثيرها المدمِّر للكنيسة ولروح بولس الرسول نفسه، لأنهم لم يدّخروا وسعاً في النيل من شخصه بأساليب دنيئة: «لأننا إن صرنا مختلِّين فلله، أو كنا عاقلين فلكم.» (٢كو٥: ١٣)

إن بولس الرسول، ولشدة حساسيته، لم يستخدم حقه الرسولي في حياة مكرمة يُصْرَف عليها من الأموال المتحصلة من الجمع الأسبوعي، حتى لا يثقل عليهم ــ هذا كان شعوره الرهيف، فأخذ يمارس مهنته القديمة في صنع الخيام بيديه بالليل والنهار لينفق على نفسه:

+ «أم أخطأتُ خطية إذ أذللت نفسي كي ترتفعوا أنتم، لأني بشَّرتكم مجاناً بإنجيل الله، سلبتُ كنائس أخرى آخذاً أجرة لأجل خدمتكم. وإذ كنت حاضراً عندكم واحتجتُ لم أُثَقِّل على أحد ... وفي كل شيء حفظت نفسي غير ثقيل عليكم وسأحفظها.» (٢كو١١: ٧ــ٩)

فبدا أمامهم، وللأسف، في وضع متواضع أو حقير شجَّعهم على الظن به أنه ليست له كرامة الرسول وأنه ليس له الحق في السيادة عليهم كرسول!!!

+ «كان ينبغي أن أُمدح منكم، إذ لم أنقص شيئاً عن فائقي الرسل، وإن كنت لست شيئاً. إن علامات الرسول صُنِعَتْ بينكم، في كل صبر بآيات وعجائب وقوات. لأنه ما هو الذي نقصتم عن سائر الكنائس إلاَّ أني أنا لم أُثَقِّل عليكم ...، هوذا المرة الثالثة أنا مستعد أن آتي إليكم ولا أُثَقِّل عليكم لأني لست أطلب ما هو لكم بل إياكم. لأنه لا ينبغي أن الأولاد يذْخرون للوالدين بل الوالدون للأولاد، وأما أنا فبكل سرور أُنفِق وأُنفَق لأجل أنفسكم.» (٢كو١٢: ١١ــ١٥)

والأدهى من ذلك وأمرّ، أنهم اتهموه باختلاس الأموال المجموعة لفقراء أورشليم ليصرف على نفسه.

وقد رأى القديس بولس أن يكشف لهم عن حقيقة علاقته بالله كرسول وعن مواهب الله له بكل حزن وأسف وشعور بالخطأ، لأنه يظهر وكأنه يفتخر وهو لا يفتخر. فكرّس لذلك الأصحاح الحادي عشر (٢١ــ٣٣) والأصحاح الثاني عشر (١ــ١٢) من رسالته الثانية لهم.

وهو يفتتح رسالته الثانية لهم وهو في غاية التأثر والحزن والضيق بسبب ما حدث بينهم وما صدر منهم، ولكن في صورة عزاء، حيث تكررت هذه الكلمة عشر مرات في خمسة أعداد:

+ «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح أبو الرأفة وإله **كل تعزية**، الذي **يُعزّينا** في كل ضيقتنا، حتى نستطيع أن **نُعزّي** الذين هم في كل ضيقة **بالتعزية** التي **نتعزّى** نحن بها من الله. لأنه كما تكثر آلام المسيح فينا كذلك بالمسيح **تكثر تعزيتنا** أيضاً. فإن كنا نتضايق فلأجل **تعزيتكم** وخلاصكم العامل في احتمال نفس الآلام التي نتألم بها نحن أيضاً، **أو نتعزى** فلأجل **تعزيتكم** وخلاصكم. فرجاؤنا من أجلكم ثابت عالمين أنكم كما أنتم شركاء في الآلام كذلك في **التعزية** أيضاً.» (٢كو١: ٣-٧)

ثم يعود ويطفح به الكيل فيحكي عن آلامه النفسية التي برّحت به حتى الموت ولكن الله كان يُحْيي:

+ «مكتئبين في كل شيء لكن غير متضايقين (حرفياً: "مضيّق علينا من كل الجهات ولكن غير مسحوقين")، متحيّرين لكن غير يائسين، مُضطهدين لكن غير متروكين، مطروحين لكن غير هالكين. حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا، لأننا نحن الأحياء نُسلّم دائماً للموت من أجل يسوع، لكي تَظْهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا المائت. إذاً، الموت يعمل فينا ولكن الحياة فيكم.» (٢كو٤: ٨-١٢)

وهو إذ يُثبِّت وقفته التي لا تتزحزح عن الحق وإنجيل الحق وكلمة الحق، لا يبالي إن كان إنجيله يصير إلى حين مكتوماً، أو إذا كان يفسّره المقاومون ضد بولس وضد الحق، وهم الذين تسرَّبوا من أورشليم ومعهم جوابات توصية من الرسل. وإذ لم يكن له شهادة من أحد اعتمد على شهادة ضميره وضمير الذي يقرأ إنجيله:

+ «أفنبتدىء نمدح أنفسنا أم لعلنا نحتاج — كقوم — رسائل توصية إليكم؟ أو رسائل توصية منكم؟ أنتم رسالتنا مكتوبة في قلوبنا معروفة ومقروءة من جميع الناس، ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منا، مكتوبة لا بحبر بل بروح الله الحي، لا في ألواح حجرية (ناموس) بل في ألواح قلب لحمية.» (٢كو٣: ١-٣)

+ «من أجل ذلك إذ لنا هذه الخدمة، كما رُحمنا لا نفشل. بل قد رفضنا خفايا الخزي غير سالكين في **مكر، ولا غاشّين كلمة الله**، بل **بإظهار الحق مادحين أنفسنا لدى ضمير كل إنسان قدام الله**. ولكن إن كان **إنجيلنا مكتوماً، فإنما هو مكتوم في الهالكين الذين فيهم — إله هذا الدهر — قد أعمى أذهان** غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله. فإننا لسنا نكرز بأنفسنا بل بالمسيح يسوع رباً، ولكن بأنفسنا عبيداً لكم من أجل يسوع.» (٢كو٤: ١-٥)

ثم تعود إلى بولس روحه الوثابة واعتداده بقوة المسيح العاملة فيه للخدمة فيقول لهم:

+ «فإذ نحن عاملون معه (المسيح)، نطلب أن لا تقبلوا نعمة الله باطلاً (بخلطها بتزييفات ناموسية) ... ولسنا نجعل عثرة في شيء لئلا تُلامَ الخدمة. بل في كل شيء نُظْهِرُ أنفسنا كخُدام الله، في صبر كثير، في شدائد، في ضرورات، في ضيقات، في ضربات، في سجون، في اضطرابات، في أتعاب، في أسهار، في أصوام، في طهارة، في علم، في أناة، في لطف في الروح القدس، في محبة بلا رياء، في كلام الحق، في قوة الله بسلاح البر لليمين ولليسار، بمجد وهوان، بصيت رديء وصيت حسن. كمُضِلِّين ونحن صادقون، كمجهولين ونحن معروفون، كمائتين وها نحن نحيا، كمؤدَّبين ونحن غير مقتولين. كحزانى ونحن دائماً فرحون، كفقراء ونحن نغني كثيرين، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء. فمنا مفتوح إليكم، أيها الكورنثيون، قلبنا متسع، لستم مُتضيِّقين فينا بل متضيقين في أحشائكم. فجزاءً لذلك أقول كما لأولادي، كونوا أنتم أيضاً متسعين.» (٢كو ٦: ١-١٣)

لقد قبل الكورنثيون توبيخ بولس الرسول بفرح، وارتدُّوا إليه بكل قلوبهم، وبينما هو ذاهب إليهم أتته الأخبار بواسطة تيطس الذي كان أرسله إليهم ليستطلع أحوالهم أنهم بفرح الروح ينتظرونه:

+ «لكن الله الذي يعزِّي المتضعين، عزَّانا بمجيء تيطس، وليس بمجيئه فقط، بل أيضاً بالتعزية التي تعزَّى بها بسببكم، وهو يخبرنا بشوقكم ونَوْحِكم وغيرتكم لأجلي، حتى إني فرحت أكثر لأني وإن كنت قد أحزنتكم بالرسالة، لست أندم مع إني ندمت. فإني أرى أن تلك الرسالة أحزنتْكُم ولو إلى ساعة. الآن أنا أفرح لا لأنكم حزنتم، بل لأنكم حزنتم للتوبة.» (٢كو ٧: ٦-٩)

والملاحظ أن روح بولس ارتاحت لهذه العودة ولانسحاب العناصر المقلقة، وهذا يتضح من رسالته إلى رومية التي كتبها أثناء وجوده في كورنثوس للمرة الثالثة، وهي تفيح برائحة السلام وتتميز بروح الموضوعية والهدوء.

تصفية حساب الناموس في رسالته إلى روما وإنما في هدوء!

لم يذهب بولس الرسول إلى روما قبل أن يكتب رسالته إليها والمسيحية كانت دخلتها، ولم يكن له أعداء أو مقاومون هناك. هذا نعلمه من يهود المجمع هناك عندما استقبلوه في أول زيارة له وهو مكبَّل بالسلاسل: «فقالوا له نحن لم نقبل كتابات فيك من اليهودية، ولا أحد من الإخوة جاء فأخبرنا أو تكلم عنك بشيء رديء، ولكننا نستحسن أن نسمع منك ماذا ترى؟ لأنه معلوم

عندنا من جهة هذا المذهب أنه يقاوَمُ في كل مكان.» (أع٢٨: ٢١و٢٢)

لكن الرسالة مكتوبة ليس ليهود المجمع الأصليين، إنما للكنيسة في روما بعنصريها من اليهود المسيحيين الذين كانوا يتبعون منهج بطرس الرسول غالباً[٩]، ومسيحيي الوثنية الداخلين في الإيمان وكانوا معاً ليسوا على اتفاق، فكان التوتر عنصراً لا مفرّ منه.

لقد كان الإيمان السائد في روما هو الإيمان المنحدر من أُورشليم: «أن إيمانكم يُنادَى به في كل العالم» (رو١: ٨)، «لأني مشتاق أن أراكم ... لنتعزى بينكم "بالإيمان" الذي فينا جميعاً، إيمانكم وإيماني» (رو١: ١١و١٢). وبولس الرسول يبدأ منذ أول رسالته بروح المهادنة لليهود المسيحيين: «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن، لليهودي أولاً ثم لليوناني.» (رو١: ١٦)، لأن نمو عدد الوثنيين الداخلين في الإيمان المسيحي كل يوم جعل العنصر اليهودي يتقلّص يوماً بعد يوم، حتى صاروا أقلية ضعيفة لا حول لها ولا قوة بعد أن كانوا العنصر الأساسي والمؤسس للكنيسة هناك.

والغطرسة الرومانية، وهي معروفة بما فيها من حب السيادة واحتقار الشعوب (غير الرومانية) وذلك بحكم العنصرية، كانت ما زالت لاصقة ببعض المتنصِّرين من الأمم. وعلى مَنْ كان حبُّ السيادة؟ على «اليهود» المصبوغين بالإحساس بالسيادة الإلهية فوق الأمم. هذا بالإضافة إلى حياتهم التي لم تكن تخلو بعد من عنصر الاستهتار الأخلاقي في عاداتهم اليومية. وكان بطء تكيُّفهم على الأوضاع المسيحية الجديدة بالتواضع والإخاء والمحبة وتقديم الآخرين، كل هذه كانت تحيِّر فكر اليهود المتنصِّرين وتُربكهم، الذين انطبع ملكوت الله والمسيَّا في قلوبهم بطابع اليهودية وسيادتها، الأمر الذي لم يَطِقْهُ كثرة منهم فاضطروا للعودة إلى يهودية المجمع وأصبحت وحدة الكنيسة مهدَّدة. كل هذا توحي به عناصر الرسالة إذا دققنا في تحليلها.

وبولس الرسول يركز على إيضاح موقفه في طرح أسباب هذا التوتر وتوجيهه نحو **الاتجاه السلامي**، ولكن مع إبراز رأيه الذي لا يمكن أن تغيب حقيقته عن ذهن القارىء، **محاولاً بذلك بكل الجهد أن ينشىء عقيدة واحدة جامعة متحدة.** وهو يلتجىء إلى هذه الخطوات:

أولاً: ربط إنجيله الذي أخذه بإعلان المسيح بالعهد القديم باعتبار أن المسيحية هي تكميل وعد الله بالأنبياء:

+ «بولس عبدٌ ليسوع المسيح، المدعوُّ رسولاً، المفرَزُ لإنجيل الله الذي سبق فوعد به بأنبيائه في

---

9. Pfleiderer, *op. cit.*, p. 145.

الكتب المقدسة عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد.» (رو١: ١ــ٣)

+ «لأني لست أستحي بإنجيل المسيح، لأنه قوة الله للخلاص لكل مَنْ يؤمن، لليهودي أولاً ثم لليوناني، لأنْ فيه مُعْلَنٌ برُّ الله بإيمان لإيمان، كما هو مكتوب، أما البار فبالإيمان يحيا.» (رو١: ١٦و١٧)

وهو هنا يستعير قول حبقوق النبي: «لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد، وفي النهاية تتكلم ولا تكذب، إن توانَتْ فانتظرها لأنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر... **والبارُّ بإيمانه يحيا**.» (حب٢: ٣و٤)

+ «وأما الآن فقد **ظهر برُّ الله** بدون الناموس **مشهوداً له من الناموس والأنبياء**، برُّ الله بالإيمان بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون لأنه لا فرق.» (رو٣: ٢١و٢٢)

+ «أم الله لليهود فقط، أليس للأمم أيضاً؟ بلى للأمم أيضاً، لأن الله واحد هو الذي سيبرِّر الختان بالإيمان والغُرْلة بالإيمان. أفنُبْطل (العهد القديم) الناموس بالإيمان؟ حاشا بل نُثبِّت الناموس (ونكمِّله).» (رو٣: ٢٩ــ٣١)

موضوع إبراهيم: «لأنه ماذا يقول الكتاب؟ فآمن إبراهيم بالله فحُسِبَ له برًّا... ولكن لم يُكْتَب من أجله وحده أنه حُسِبَ له بل من أجلنا نحن أيضاً ــ الذين سيُحْسَب لنا ــ الذين نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات الذي أُسْلِمَ من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا.» (رو٤: ١ــ٢٥)

الكلام لليهود المتنصرين:

+ «أم تجهلون أيها الإخوة لأني أُكلِّم العارفين بالناموس.» (رو٧: ١)

+ «ولكن ليس هكذا، حتى إن كلمة الله قد سقطت، لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون.» (رو٩: ٦)

+ «كما يقول في هوشع أيضاً سأدعو الذي ليس شعبي شعبي والتي ليست محبوبة محبوبة، ويكون في الموضع الذي قيل لهم فيه لستم شعبي أن هناك يُدْعَوْن أبناء الله الحي.» (رو٩: ٢٥و٢٦)

+ «وإشعياء يصرخ من جهة إسرائيل وإن كان عدد بني إسرائيل كرمل البحر فالبقية ستخلص.» (رو٩: ٢٧)

+ «وكما سبق إشعياء فقال لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلاً (الجزء من اليهود الذي قَبِلَ المسيح وصار مسيحياً) لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة.» (رو٩: ٢٩)

+ «كما هو مكتوب ها أنا أضع في صهيون حجر صدمة (يسوع المسيح) وصخرة عثرة، **وكلُّ مَنْ يؤمن به لا يُخزَى.**» (رو٩: ٣٣)

+ «لأن الكتاب يقول كل مَنْ يؤمن به لا يخزى، لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني، لأن رباً واحداً للجميع، غنيًّا لجميع الذين يَدْعُون به، لأن كل مَنْ يدعو باسم الرب يخلص.» (رو١٠: ١١—١٣)

+ «وأقول إن يسوع المسيح قد صار خادم الختان [اخْتُتِن في اليوم الثامن، وكَرَز لليهود: "لم أُرسَل إلاَّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة." (مت١٥: ٢٤)] من أجل صدق الله حتى يُثَبِّت مواعيد الآباء.» (رو١٥: ٨)

الكلام للأمم المتنصِّرين:

+ «وأما الأمم فمجَّدوا الله من أجل الرحمة، كما هو مكتوب، من أجل ذلك سأحمدك في الأمم وأرتِّل لاسمك. ويقول أيضاً: **تهللوا أيها الأمم مع شعبه**، وأيضاً سبحوا الرب يا جميع الأمم وامدحوه يا جميع الشعوب، وأيضاً يقول إشعياء: سيكون أصل يَسَّى، والقائم ليسود على الأمم، عليه سيكون رجاء الأمم.» (رو١٥: ٩—١٢)

ثانياً: جمع في شخص يسوع المسيح: مسيح التاريخ بحسب التوراة ومسيح الروح من السماء، بحسب الاستعلان الذي ناله لحساب الأمم:

+ «الذي سبق فوعد به، بأنبيائه، في الكتب المقدسة عن ابنه، الذي صار من نسل داود من جهة الجسد (اليهود) وتعيَّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات (لكل من اليهود والأمم).» (رو١: ٢—٤)

+ «الذين هم إسرائيليون ... ولهم الآباء ومنهم **المسيح حسب الجسد**، **الكائن على الكلِّ** (يهودٍ وأممٍ)، **إلهاً مباركاً** إلى الأبد آمين.» (رو٩: ٤و٥)

ثالثاً: عاد هنا في رسالته إلى أهل روما يعادل ويوفق بين وَجْهَي الناموس. ففي رسالته إلى غلاطية، وبسبب خطورة الأزمة التي خلَّفها اليهود المتعصبون للناموس، **كشف عن وجه الناموس الطقسي بحسب الجسد** الذي أَوْرَثَ اللعنة عِوَض البرِّ للإنسان الذي يعمل به:

«لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة، لأنه مكتوب: ملعونٌ كل مَنْ لا يَثْبُت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به.» (غل٣: ١٠)

أما هنا في رسالته إلى رومية، فركَّز على الوجه الروحي للناموس كَوْنَه يحضُّ على الصلاح والتقوى والطهارة حتى ولو كان لا يؤازِر مَنْ يعمل بها، فإنْ أخفق الإنسان، فهذا لكونه يعتمد

على الجسد وطبيعته العاجزة:

+ «إذاً الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة ... فإننا نعلم أن الناموس روحيٌّ وأما أنا فجسديٌّ مَبيعٌ تحت الخطية ... فإن كنت أفعل ما لست أُريده (الخطية)، فإني أُصادق الناموس أنه حسن.» (رو٧: ١٢و١٤و١٦)

+ «لأنه ما كان الناموس عاجزاً عنه في ما كان (الإنسان) ضعيفاً بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد. لكي يتم حكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد (بناموس الجسد)؛ بل حسب الروح (روح الحياة في المسيح).» (رو٨: ٣و٤)

رابعاً: ثم عاد هنا في الرسالة إلى أهل رومية ليراجع عمومية الحكم الذي أطلقه في رسالته إلى أهل غلاطية، على أن الرجوع إلى الأركان الضعيفة (أي وصايا الناموس الطقسية) يحرم الإنسان من المسيح:

+ «قد تَبَطَّلتم عن المسيح، أيها الذين تتبررون بالناموس، سقطتم من النعمة.» (غل٥: ٤)

هنا في الرسالة إلى رومية أجاز للضعفاء هنا بنوع من الاستثناء:

+ «ومَنْ هو ضعيف في الإيمان، فاقبلوه لا لمحاكمة الأفكار. واحد يؤمن أن يأكل كل شيء وأما الضعيف فيأكل بقولاً، لا يزدرِ مَنْ يأكل بمَنْ لا يأكل، ولا يَدِنْ مَنْ لا يأكل مَنْ يأكل لأن الله قَبِلَهُ. مَنْ أنت الذي تدين عبد غيرك؟ هو لمولاه يثبت أو يسقط، ولكنه سيثبت لأن الله قادر أن يثبِّته.» (رو١٤: ١—٤)

+ «إني عالم ومتيقن في الرب يسوع أن ليس شيءٌ نجساً بذاته، إلاَّ مَنْ يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس.» (رو١٤: ١٤)

هنا حصر القديس بولس النظرة العامة والحكم العام على الأعمال والسلوك والأكل والطعام في النظرة الشخصية لكل واحد بمفرده حسب ضميره. وأضاف نوعاً من الحماية للإنسان (اليهودي الأصل) الذي له ضمير يُعثره من نحو سلوك الآخرين، فهذا يَلْزم أن لا نعثره بحريتنا في المسيح:

+ «فإن كان أخوك بسبب طعامك يُحْزَنَ، فلست تسلك بعد حسب المحبة. لا تُهْلِك بطعامك ذلك الذي مات المسيح لأجله ... فيجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل أضعاف الضعفاء، ولا نُرضي أنفسنا. فلْيُرضِ كل واحد منا قريبه للخير لأجل البنيان.» (رو١٤: ١٥؛ ١٥: ١و٢)

هنا الضعيف والذي يعثره ضميره هو المسيحي اليهودي الأصل الذي لا يزال الناموس عالقاً به، الذي تربى ضميره على النجس والطاهر حينما يأكل المسيحي الوثني الأصل أشياءَ ليست طاهرة أمام اليهودي.

وهذا التوجيه الجديد الذي يقدمه بولس الرسول لأهل رومية هو:

١ ــ من واقع تغيير الحال بالنسبة لليهود المتنصرين، إذ أصبحوا أقلية ضعيفة بعد أن كانوا في الكنائس الأخرى في البداية أكثرية متجبِّرة ومستبدة. وهكذا بعد أن كان المسيحيون من ذوي الأصل الوثني واقعين تحت ضغطهم واضطهادهم وتعييرهم، انقلب الحال وصاروا ــ أي اليهود المتنصرون ــ هم الأضعف والواقعون تحت إعثار من الوثنيين المتنصِّرين، وذلك عندما يأكلون، أي يأكل هؤلاء أشياء نجسة في عُرْف اليهود أو يسلكون بحرية غير مقبولة ولا جائزة عند اليهود.

٢ ــ من واقع تقارب الخبرات واقتراب كل فريق من الآخر من كلا الطرفين مما شجع بولس الرسول على التلطيف في مهاجمة اليهود والناموس، بُغْيَة الوصول إلى الوحدة في الكنيسة الجامعة.

خامساً: عوض التفرقة القاطعة العنيفة بين اليهود والمسيحيين التي **قدَّمها** بولس الرسول في رسالة غلاطية بجعل المسيحيين الأمميين هم أولاد سارة (الكنيسة)، والورثة الحقيقيين لإبراهيم وللوعد لأنهم آمنوا بالمسيح؛ في مقابل اليهود الذين لم يؤمنوا وكأنهم أولاد هاجر (الناموس وسيناء)، **الذين بالنهاية هم مطرودون** من البيت: «اطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة» (غل٤: ٣٠) (ارجع إلى ص٣٤٠) ــ عاد هنا بولس الرسول في رسالته إلى رومية ليتلطف كثيراً من هذا الحكم استرضاءً لليهود المتنصِّرين الواقعين تحت ألم الإحساس بالأقلية، في حين أن كل المواعيد بالمسيَّا هي لهم بالدرجة الأُولى، عاد يطرق علاقته الشخصية باليهود بكل اللطف والمشاعر الرقيقة؛ بل والمديح في الأصحاح التاسع من رسالته إلى رومية على هذا المنوال:

«إن لي حزناً عظيماً ووجعاً في قلبي لا ينقطع، فإني كنت أودُّ لو أكون أنا نفسي محروماً من المسيح لأجل إخوتي أنسبائي حسب الجسد، الذين هم إسرائيليون ولهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد، ولهم الآباء، ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد آمين.» (رو٩: ٢ــ٥)

وعاد يلتمس الخير ويرجو الحياة لليهود حتى الذين رفضوا المسيح والإيمان هكذا:

+ «فأقول ألعلَّ الله رفض شعبه؟ حاشا! لأني أنا أيضاً إسرائيلي من نسل إبراهيم ... لم يرفض الله شعبه الذي سبق فعرفه ... فأقول ألعلهم عثروا لكي يسقطوا؟ حاشا! بل بزلَّتهم صار الخلاص للأمم لإغارتهم، فإن كانت زلَّتهم غِنًى للعالم ونقصانهم غِنًى للأمم فكم بالحري ملؤُهم ... لأنه إن كان رفضهم هو مصالحة للعالم فماذا يكون اقتبالهم إلا حياة من الأموات.» (رو١١: ١و٢و١١و١٢و١٥)

بمعنى أن عثرة اليهود بصليب المسيح لا تعني رفضهم إلى الأبد؛ بل هو مجرد تنحِّيهم من الطريق فقط ليدخل ملؤ الأمم لتكميل خطة خلاص الله العظمى، وحينئذ يدخلون ليكمل الخلاص بهم. وهكذا يصير الأولون آخرين والآخرون أولين، ولكن بالنهاية الكل يدخلون. وهكذا تنتهي الشمولية عند بولس الرسول بأن اليهودي واليوناني واحد في المسيح، والكل يجمعهم ملكوت الله.

وبهذا وفي رسالة رومية ينتهي صراع الأُممية عند بولس الرسول مع اليهودية والناموس، ولكن لا تزال المسيحية متفوقة عن اليهودية بما لا يُقاس.

وسائط الفداء

الباب الثالث: الإيمان.

الباب الرابع: الأسرار.

الباب الخامس: الكنيسة.

الباب الثالث

الإيمان والتبرير والتقديس

في لاهوت بولس الرسول

الفصل الأول

الإيمــان

لا نريد أن نخوض في المفهومات التي خرجت عن أصالة استخدام هذه الكلمة، لأن غايتنا الأساسية من الشرح والتوضيح هو الوصول إلى بناء الفكر والقلب بالمعرفة الروحية الصحيحة حسب الإنجيل، وخلاصة خبرة وتعاليم الآباء القديسين المشهود لهم.

أصل الإيمان في العهد القديم:

أصل «الإيمان» ومنشأه كان مع إبراهيم أب الآباء، ولكن إبراهيم لم يبدأ مع الله بالإيمان ولا الله بدأ مع إبراهيم بعمل يجعله مؤمناً، فالإيمان جاء كعلاقة بين إبراهيم والله بعد أن سمع إبراهيم صوت الله وهو في أور الكلدانيين، ورحل تاركاً عشيرته إطاعة لدعوة الله؛ بل وأظهر إبراهيم خضوعاً لله وتكريماً لوجه الله في مواقف كثيرة قبل أن يأتي ذكر الإيمان، بل وكان إبراهيم يدرك في قلبه أن الله هو خالق السموات والأرض قبل أن يؤمن إبراهيم بالله؟!! «فقال أبرام لملك سدوم: رفعتُ يديَّ (علامة شهادة) إلى الرب الإله العلي مالك السماء والأرض، لا آخذن لا خيطاً ولا شِراكَ نعلٍ ولا من كل ما هو لك، فلا تقول أنا أغنيتُ أبرام» (تك١٤: ٢٢و٢٣). وأخيراً لما ظهر له الرب ووعده بأن لا يخاف وأنه تُرْسٌ له وأنه سيعطيه أجراً كثيراً، اعترض إبراهيم على الله قائلاً: «فقال أبرام أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماضٍ عقيماً، ومالكُ بيتي هو أليعازر الدمشقي ...» (تك١٥: ٢). وهنا وعده الله، وهو ابن حوالي مائة سنة وامرأته عاقر وتقدمت في الأيام جداً ولم يَعُدْ لها طبيعة الإنجاب، وبالرغم من ذلك وعده الله بأنه سينجب ولداً. هنا آمن إبراهيم: «ثم أخرجه إلى خارج (الخيمة) وقال: انظر إلى السماء (ليلاً) وعُدَّ النجوم إن استطعت أن تعدَّها. وقال له هكذا يكون نسلك، **فآمن بالرب فحسبه له براً**.» (تك١٥: ٥و٦)

يلاحظ هنا أن الإيمان كان نتيجة وعد بأمر غير معقول وفوق قدرة التصديق. هذا هو أول عنصر من عناصر معنى «الإيمان» وقوته عند بولس الرسول:

(أ) «فهو (أي إبراهيم) على خلاف الرجاء آمن على الرجاء ...

(ب) وإذ لم يكن ضعيفاً في الإيمان، لم يعتبر جسده، وهو قد صار مُماتاً إذ كان ابن نحو مائة سنة ولا مماتية مستودع (رحم) سارة،

(ج) ولا بعدم إيمان ارتاب في وعد الله،

(د) بل تقوَّى بالإيمان مُعطياً مجداً لله،

(هـ) وتيقن أن ما وعد به هو قادر أن يفعله أيضاً،

(و) لذلك أيضاً حُسِبَ له برًّا.» (رو٤: ١٨–٢٢)

هذا هو نموذج الإيمان، وهذا هو شرط الإيمان الذي يُحسَبُ له برًّا:

(أ) إيمان على خلاف الرجاء أنشأ لنفسه رجاءً فوق معقولية الرجاء.

(ب) إيمان لا يعتبر الأمور الواقعة الملموسة المضادة للعقل.

(ج) إيمان يجعل وعد الله لا يقترب منه الارتياب.

(د) إيمان قوي هو بحد ذاته تمجيد لله.

(هـ) إيمان يضع وعد الله على مستوى التنفيذ الحتمي.

من هذا نفهم معنى ومضمون الإيمان في الوحي الإلهي من واقع إيمان إبراهيم في العهد القديم، فهو منحصر انحصاراً شخصياً للغاية، جاء كتاج فوق العلاقات العامة، فإبراهيم أطاع الله وخرج من أور، وخرج وهو لا يعلم إلى أين يذهب.

واعتبر الله أنه خالق السماء والأرض،

وأن الله ذو اعتبار عالٍ وكرامة حتى يحلف به.

كل هذه العلاقات العامة جاءت قبل أن يؤمن إبراهيم بالله!

فلما مسَّ الله واقع إبراهيم الميت وأعطاه وعداً بالحياة، هنا حدث الاتصال السري الذاتي والتعلُّق الحياتي بالله عند إبراهيم، فجاء الإيمان!! هنا يمكن أن نقول إن الإيمان هو ارتباط داخلي، حياة بحياة، ذاتاً بذات، ارتباط الإنسان بالله، ليحدث الانتماء الفائق للطبيعة فيصير الإنسان لله ويصير الله للإنسان.

صور ونماذج مبسطة للإيمان في العهد القديم في لاهوت بولس الرسول (عب ١١):

(أ) **بالإيمان** نفهم أن العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يُرى مما هو ظاهر = (الخليقة من لا شيء بقوة الكلمة).

(ب) **بالإيمان** نُقل أخنوخ لكي لا يرى الموت ولم يوجد لأن الله نقله. إذ قبل نقله شُهد له بأنه قد أرضى الله.

(ج) **بالإيمان** نوح لما أُوحي إليه عن أمور لم تُرَ بعد خاف فبنى فلكاً ... صار وارثاً للبر الذي حسب الإيمان.

(د) **بالإيمان** إبراهيم لما دُعي أطاع أن يخرج ...، فخرج وهو لا يعلم إلى أين يأتي.

(هـ) **بالإيمان** قدَّم إبراهيم إسحق وهو مُجرَّب، ... إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات.

(و) **بالإيمان** صنع (موسى) الفصح،

(ز) **بالإيمان** اجتازوا في البحر،

(ح) **بالإيمان** سقطت أسوار أريحا.

ثم أجمل بولس الرسول أعمال كل جبابرة الإيمان في العهد القديم، جدعون و باراق وشمشون ويَفتاح وداود وصموئيل والأنبياء هكذا:

(ط) **بالإيمان** قهروا ممالك، صنعوا براً، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود، أطفأوا قوة النار، نجوا من حد السيف، تقووا من ضعف، صاروا أشداء في الحرب، هزموا جيوش غرباء.

(ي) **بالإيمان** (كل هؤلاء) لم ينالوا الموعد ... لكي لا يُكملوا بدوننا.

ثم يقف بولس الرسول على أمثلة الإيمان كما جاءت عاليه هكذا:

+ «ولكن بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه،

لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه.» (عب١١: ٦)

+ «في الإيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد، بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيّوها.» (عب١١: ١٣)

ولكي نأخذ صورة متكاملة مبسَّطة عن نماذج عمل الإيمان في العهد القديم التي قدَّمها بولس الرسول، نرى أنه حصر عمل الإيمان في الآتي:

(أ) ربط خلقة العالم بكلمة الله، وخلقة ما يُرى مما لا يُرى، أي من لا شيء.

(ب) ربط **الإيمان بإرضاء الله**. والنتيجة تجاوُز الموت.

(ج) ربط **الإيمان بتصديق أمور موحاة غير منظورة** وتنفيذ أمر الله. والنتيجة نوال البر والخلاص من الهلاك.

(د) ربط **الإيمان بالطاعة** والسير في طريق لا تُعرف نهايته.

(هـ) ربط **الإيمان بالبذل حتى الموت** على أساس قدرة الله على الإقامة من الأموات.

(و) ربط **الإيمان بعمل طقسي** كوسيلة للخروج من العبودية.

(ز) ربط **الإيمان بالدخول في مخاطرة** غير محسوبة العواقب.

(ح) ربط **الإيمان بتدخُّل قوات غير منظورة** لرفع عوائق منظورة.

(ط) ربط **الإيمان بعمل المعجزات** الخارقة اعتماداً على الله.

(ي) وأخيراً ربط بولس الرسول كل أعمال الإيمان في العهد القديم بالرجاء غير المنظور **دون انتظار تحقيق الوعود.**

أساس الإيمان في العهد الجديد:

بولس الرسول لم يضع فاصلاً بين إيمان العهد القديم وإيمان العهد الجديد، ولا وضع تغييراً أو تمييزاً في أي شيء؛ بل أخذ إيمان العهد القديم كنموذج واجب التطبيق. فالإيمان بالله هو الإيمان قديماً وجديداً. وقد اتخذ بولس الرسول إيمان إبراهيم نموذجاً، باعتبار أن تقديمه لابنه حبيبه إسحق، الذي أخذ عنه المواعيد، كذبيحة طاعة لأمر الله دون تفكير أو شك أو أي اهتزاز، كان على أساس إيمانه بأن الله قادر أن يقيمه من الموت ــ بعد ذبحه ــ فهو إيمان بالقيامة من الموت، إيمان بالحياة من بعد موت!! إيمان بالله المحيي!!

وإنه وإن بدا لنا أن هذا تخريج من بولس الرسول لأن الكتاب لم يذكر ذلك، إلاَّ أن إبراهيم، وقبل أن يطلب منه الله تقديم ابنه ذبيحة له، سبق له أن آمن بمواعيد الله وهو ابن مائة عام وامرأته كذلك وقد فقدت القدرة على النسل، لما وعده الله بأنه سيكون له ابن وامرأته ستلد له ولداً، فـ «آمن بالله» ؛ فميلاد إسحق يعني بحد ذاته **إقامة من الموت** بمعنى **إعطاء حياة من بعد موت!!**

على هذا الأساس قال بولس الرسول إننا عندما نؤمن بقيامة المسيح من الموت وبأن الله أقامه من الموت من أجلنا، فهذا هو إيمان العهد الجديد الذي يُحسَبُ لنا برًّا. هذا الإيمان بقيامة المسيح من الموت يُحسَبُ لنا برًّا على نفس الأساس الذي حُسِبَ به البر لإيمان إبراهيم كما قرأناه:

أ ــ إيمان على خلاف الرجاء: وهذا من واقع اعتراف تلميذي عمواس: «ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل، ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك (منذ صلبه).» (لو٢٤: ٢١)

ب ــ إيمان لا يعتبر الأمور الواقعة الملموسة المضادة للعقل: مات وقُبِرَ لثلاثة أيام.

ج ــ إيمان يجعل وعد الله لا يقترب منه الارتياب: ونحن شهود لذلك «الاعتراف الحسن» قام حقاً!!

د ـ **إيمان هو بحد ذاته تمجيدٌ لله:** قام بمجد الآب.

هـ ـ **إيمان يضع وعد الله موضع التنفيذ:** العماد.

إذا انتبهنا إلى هذه العناصر التي يتحتم أن توجد في الإيمان بالمسيح لكي يُحسَبَ لنا براً على أساس البر الذي حُسِبَ لإبراهيم لما آمن بالرب، فإننا نجد أن تعريف الإيمان يشمل هذه العناصر تماماً:

الإيمان هو بخصوص حقيقة فائقة للطبيعة،

وبمساعدة النعمة نحن نؤمن أن **كل الأمور التي استُعْلنت في الإنجيل هي حق!** ليس كأنها في متناول قوى العقل الطبيعي الذي ندرك به المعقولات المادية، ولكن على أساس أن إيماننا هو اعتمادٌ على **سلطان وصدق الله الذي أعلنها.**

أما في تعريف البرِّ بالإيمان:

فنحن نتبرَّر بالإيمان بالله، لأن الإيمان بالله هو أساس كل فعل وتصرف. والتبرير بالإيمان مجاني، لأن لا شيء يساوي الإيمان مهما كان هذا الشيء. فإن كان ليس شيء يفوق الإيمان، فالتبرير بالإيمان يتحتم أن يسبق التبرير بالأعمال ويتفوق عليه.

ولأن التبرير أكمله المسيح عنا مجاناً قبل أن نؤمن أو نعمل، **فالبر المجاني** يسبق كل شيء. فما علينا إلاّ أن نؤمن بالبر ـ أو بالبارّ ـ لكي نتبرر ثم نعمل أعمال البر فنؤهَّل للحياة فيه؛ بمعنى أن البر قائم قبل الإيمان، ولكن يتحتم أن نؤمن به لنناله، فإذا نلناه بالإيمان فلا بد أن نسلك ونعمل به لنحيا فيه.

معنى «الإيمان في المسيح»
و«إيمان المسيح» باعتباره هبة

هذا المعيار اللاهوتي: «في المسيح»[١] الذي يتكرر كثيراً في لاهوت بولس الرسول هو في الحقيقة تعبير عن **خبرة الخلاص المجاني التي وُهِبَت له والتي جازها.** فهي خبرة مُنِحَت له دون أن يسعى إليها، ولكنها بقيت «فيه» تعمل على كافة المستويات، وكان يعبِّر عنها دائماً بأن «المسيح فيه». وعلى نفس المستوى في التعبير عن الخلاص الذي فيه، فهو أيضاً «في المسيح» يعيش.

---

(١) أنظر صفحات ٢٦٤ـ٢٦٦.

هذه الخبرة الخلاصية — كموهبة حصل عليها مجاناً — بقيت فيه وأصبحت طاقة مختزنة تعمل فيه ولا تفرغ؛ أحسَّها بولس الرسول وعبَّر عنها بأنها **قوة** تعمل فيه ويعمل بها.

+ «فبكل سرور أفتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحل عليَّ **قوة المسيح** ἡ δύναμις τοῦ Χριστοῦ ... لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ "أنا قوي"» (٢كو١٢: ٩و١٠).

واضح هنا أن بولس الرسول يفرز ضعفه عن قوة المسيح فيه. فهو ضعيف بنفسه، قويٌّ بالمسيح.

+ «باسم ربنا يسوع المسيح، إذ أنتم وروحي مجتمعون مع **قوة ربنا يسوع المسيح**...» (١كو٥: ٤). فالمسيح في بولس قوة تعمل: «بحسب **القوة** التي تعمل فينا.» (أف٣: ٢٠)

+ هكذا أحس «**بغنى المسيح**» πλοῦτος τοῦ Χριστοῦ أيضاً يفيض فيه:

«أُعطِيتْ هذه النعمة أن أُبشِّر بين الأمم **بغنى المسيح** الذي لا يُستقصى.» (أف٣: ٨)

«وأقامنا معه، وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع، ليُظْهِرَ في الدهور الآتية **غنى نعمته** الفائق باللطف علينا **في المسيح يسوع**.» (أف٢: ٦و٧)

+ كذلك كان يحس «**ببركة (إنجيل) المسيح**»: εὐλογίας τοῦ Χριστοῦ

الترجمة العربية هنا غير دقيقة فهي يجب أن تكون «بركة المسيح» مباشرة، وذلك بحسب أوثق النصوص، وليس «بركة إنجيل المسيح»، فكلمة «الإنجيل» هنا مُزادة: «وأنا أعلم أني إذا جئت إليكم سأجيء في ملء بركة (إنجيل) المسيح.» (رو١٥: ٢٩)

+ وكان يحس أيضاً أن المسيح لما حلَّ في قلبه بالإيمان، حلَّ بملئه — أي **بملء المسيح** πλήρωμα τοῦ Χριστοῦ: «إلى قياس قامة ملء المسيح» (أف٤: ١٣)، «وأنتم مملوؤون فيه.» (كو٢: ١٠)

كل هذه التعبيرات: **القوة، والغنى، والبركة، والملء** التي للمسيح والتي يحسُّها بولس أنها متدفقة من المسيح، هي كلها بحد ذاتها تعبِّر عن «**إيمانه في المسيح**»، وهذه هي تعبيراته عن «الإيمان في المسيح»:

+ «آمنا نحن أيضاً بيسوع المسيح (صحتها: **في المسيح يسوع** εἰς Χριστὸν Ἰησοῦν) لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس.» (غل٢: ١٦)

+ «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان **في المسيح يسوع** ἐν Χριστῷ Ἰησοῦ.» (غل٣: ٢٦)

+ «سمعت بإيمانكم **في الرب يسوع** ἐν τῷ Κυρίῳ Ἰησοῦ ومحبتكم نحو جميع القديسين.» (أف١: ١٥)

+ «قد وُهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا فيه εἰς αὐτὸν πιστεύειν فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله.» (في١: ٢٩)

+ «سمعنا **إيمانكم في المسيح يسوع** = τὴν πίστιν ὑμῶν ἐν Χριστῷ Ἰησοῦ ومحبتكم لجميع القديسين.» (كو١: ٤)

+ «ناظراً ترتيبكم ومتانة **إيمانكم في المسيح** εἰς Χριστόν.» (كو٢: ٥)

+ «لأن الذين تشمَّسُوا حسناً يقتنون لأنفسهم درجة حسنة وثقة كثيرة **في الإيمان الذي في المسيح يسوع** ἐν πίστει τῇ ἐν Χριστῷ Ἰησοῦ.» (١تي٣: ١٣)

+ «تمسَّك بصورة الكلام الصحيح الذي سمعته مني في الإيمان والمحبة التي **في المسيح يسوع** ἐν Χριστῷ Ἰησοῦ.» (٢تي١: ١٣)

+ «وإنك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدسة القادرة أن تُحكِّمك للخلاص **بالإيمان الذي في المسيح يسوع** ἐν Χριστῷ Ἰησοῦ.» (٢تي٣: ١٥)

كما نجده يستخدم لوصف إيمانه أنه:

«**إيمان المسيح** πίστις Ἰησοῦ Χριστοῦ»:

+ «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل **بإيمان يسوع المسيح**، آمنّا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر **بإيمان يسوع**.» (غل٢: ١٦)

+ «فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان **إيمان ابن الله** الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

+ «لكن الكتاب أغلق على الكل تحت الخطية ليُعطى الموعد من **إيمان يسوع المسيح** للذين يؤمنون.» (غل٣: ٢٢)

+ «الذي به لنا جراءة وقدوم **بإيمانه** عن ثقة.» (أف٣: ١٢)

+ «وليس لي برِّي الذي من الناموس بل الذي **بإيمان المسيح**، البر الذي من الله بالإيمان.» (في٣: ٩)

وهذه التعبيرات جميعاً بخصوص الإيمان، عند بولس الرسول، **توضح أن الإيمان عنده هو قوة تكونت فيه نتيجة اتحاده بالمسيح ــ الرب الروح من السماء ــ كما رآه وسمعه واختبره في القلب، وهذا هو سر قوله دائماً «في المسيح»**، كحقيقة عامة إيمانية يطرحها للممارسة العامة وللجميع بلا استثناء.

فإيمانه بالمسيح هو في الحقيقة «اتحاده الدائم بالمسيح»، اتحاده بموته واتحاده بقيامته، لأن

المسيح مات بنا وقام بنا. وليس الإيمان وحسب، بل وكل الصفات ذات المعيار المسيحي هي مستمدة من المسيح بالشركة معه أو الاتحاد به أو الإيمان به، فهي حتماً حصيلة إيمان، لأن الإيمان هو أصل ورأس الاتحاد بالمسيح الرب الروح من السماء.

ومن هذه الصفات التي نستمدها من المسيح بالإيمان به:

محبة المسيح:

+ «لأن محبة المسيح تحصرنا ἡ ἀγάπη τοῦ... Χριστοῦ.» (٢كو٥: ١٤)

هنا محبة المسيح قوة رابطة عامة!

+ «... وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة.» (أف٣: ١٩)

وهنا محبة المسيح هي استنارة روحية عامة فائقة على إدراك العقل.

+ «من سيفصلنا عن محبة المسيح أشدة؟ ...» (رو٨: ٣٥)

هنا الرباط في المسيح جاء بصيغة الجمع وليس خبرة شخصية.

رجاء المسيح:

وأيضاً رجاء المسيح عند بولس الرسول، وحينما يعبِّر أيضاً عن الرجاء الذي فيه، فهو هو **رجاء المسيح** بمعنى الرجاء الذي يناله الإنسان، كل إنسان، من جراء الشركة مع المسيح أو فيه. فهو «**رجاء المسيح** τῆς ἐλπίδος τοῦ... Χριστοῦ» العام وليس رجاء بولس الشخصي.

+ «متذكرين بلا انقطاع عمل إيمانكم، وتعب محبتكم، **وصبر رجائكم** ربنا يسوع المسيح أمام الله وأبينا» (١تس١: ٣)، كله بالجمع.

سلام المسيح:

وكذلك السلام، فهو «**سلام المسيح** ἡ εἰρήνη τοῦ Χριστοῦ» حيث السلام يملك على القلوب ويربطها برجاء واحد ولا يقتصر على قلب واحد:

+ «وليملك في **قلوبكم سلام (المسيح)** الذي إليه دُعيتم في جسد واحد.» (كو٣: ١٥)

والترجمة العربية البيروتية غير دقيقة هنا، فهو «سلام المسيح» وليس «سلام الله»، وذلك حسب أوثق النصوص.

كذلك وداعة المسيح وحلمه ἡ πραότης καὶ ἐπιεικεία τοῦ Χριστοῦ :

+ «ثم أطلب إليكم **بوداعة المسيح وحِلْمِه** أنا نفسي بولس ...» (٢كو١٠: ١)

هنا وداعة المسيح وحِلْمه هبة مطروحة على الكنيسة ككل.

كذلك رقة تعطفات المسيح: «أحشاء المسيح Tender mercies » = σπλάγχνα Χριστοῦ

+ «أشتاق إلى جيعكم في **رقة تعطفات (أحشاء) يسوع المسيح**.» (في١: ٨)

هنا «رقة تعطفات» المسيح تملأ اشتياقات الأفراد نحو الأفراد وتوحِّدها.

كذلك «**صبر المسيح** ἡ ὑπομονὴ τοῦ Χριστοῦ»، حيث صبر المسيح ممنوح لقلوب الجماعة كمحبة الله العامة:

+ «والرب يهدي قلوبكم إلى محبة الله وإلى **صبر المسيح**.» (٢تس٣: ٥)

كذلك «**طاعة المسيح** ἡ ὑπακοὴ τοῦ Χριστοῦ»:

+ «مستأسرين كل فكر إلى "**طاعة المسيح**."» (٢كو١٠: ٥)

هنا طاعة المسيح تأسر الأفكار الشاردة لتوحدها في أسر حق المسيح.

كذلك «**حق المسيح** ἀλήθεια τοῦ Χριστοῦ»:

+ «حق المسيح فيَّ ...» (٢كو١١: ١٠)

هنا «حق المسيح» ينطق في أولاد الله النطق الصادق الواحد.

كذلك «**مخافة المسيح** φόβος Χριστοῦ»:

الترجمة البيروتية هنا أيضاً غير دقيقة فهي «مخافة المسيح» وليس «مخافة الله»، وذلك حسب أوثق النصوص.

+ «خاضعين بعضكم لبعض في **خوف المسيح**.» (أف٥: ٢١)

هنا خوف المسيح يحني الرؤوس المتكبرة، لتخضع الجماعة معاً بعضها لبعض.

كذلك «**ختانة المسيح** ἡ περιτομὴ τοῦ Χριστοῦ»:

هنا ختانة المسيح خرجت عن مفهومها الفردي لتعطي قوة خلع جسم خطايا البشرية.

+ «**وبه أيضاً** خُتِنتم ختاناً غير مصنوع بيدٍ، بخلع جسم خطايا البشرية، **بختان المسيح**.» (كو٢: ١١)

كذلك «**آلام المسيح** τὰ παθήματα τοῦ Χριστοῦ»:

هنا الآلام ليست خبرة شخصية مميَّزة، بل هي خبرة شركة يشترك فيها الجميع لينالوا منها تعزيات تجمع قلوبهم وأرواحهم.

+ «لأعرفه وقوة قيامته **وشركة آلامه** متشبِّهاً بموته.» (في٣: ١٠)

+ «لأنه كما تكثر **آلام المسيح** فينا كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضاً.» (٢كو١: ٥)

كذلك «**شدائد (أحزان) المسيح** αἱ θλίψεις τοῦ Χριστοῦ» :

+ «الآن أفرح في آلامي لأجلكم وأُكمِّل نقائص **شدائد المسيح** في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة.» (كو١: ٢٤)

ويضاف إلى ذلك ما سبق أن أوضحنا في:

«قوة المسيح» ἡ δύναμις τοῦ Χριστοῦ

«غنى المسيح» τὸ πλοῦτος τοῦ Χριστοῦ

«بركة المسيح» ἡ εὐλογία τοῦ Χριστοῦ

«ملء المسيح» τὸ πλήρωμα τοῦ Χριστοῦ

وكلها تحمل معنى توزيع هبات المسيح لتجمع وتوحِّد وتقدِّس.

كل هذه الاصطلاحات أوردها القديس بولس، لا من تفكيره ولا من تصوُّره، لأنها كلها تنافي التصوُّر والتفكير، ولأن صفات المسيح هي للمسيح ولا يمكن بالعقل أن يكون قد وهبها لبولس لتصير صفاتٍ فيه، أي في بولس، ولكن بولس الرسول يوردها بحالها، في المسيح وله بآنٍ واحد، وهذا لا يمكن أن يتأتى إلاَّ إذا كان بولس قد أصبح شريكاً أو مُشترِكاً في كل ما للمسيح بالاتحاد الذي أعطاه «**الإيمان**» الحي بالمسيح، والذي جعله شريكاً في صفات المسيح واختباراته وأعماله. فهو مات معه وقام معه وجلس معه في السماوات، وتألم وصبر وتقوّى، واغتنى وتبارك وامتلأ بما للمسيح. كل هذا لينتهي إلى القول بأننا «مملوؤون فيه.» (كو٢: ١٠)

هذا التعبير عن الإيمان وبهذا الوصف، وعن شركة صفات المسيح وبهذا الوصف أيضاً، لا يمكن أن يُحتسب أنه لاهوت عقلي أو تحليلي ولا جدلي ــ كما يقول العلماء ــ بل ولا هو تصوُّفيٌّ كأنه خبرة شخصية فردية، ولكنه لاهوت الخلاص العام الذي انفتح على الإنسان كهبة إلهية حية وعملية ليحياها الإنسان بالإيمان ويذوق كل مفاعيلها؛ يقدمها القديس بولس بعد أن أدركها وذاقها كنموذج عام للكنيسة ككل.

يُفهم من هذا أن هذا الاصطلاح اللاهوتي المحبَّب جداً عند بولس: «في المسيح»، هو بالنهاية يخدم قضية الكنيسة ككل. فإن كان هو «**فردياً**» فذلك ليكون «**جماعياً**»، إذ لا يمكن أن يكون فردياً ليبقى فردياً. فبولس صار «في المسيح» كنموذج يوضح كيف تصير الكنيسة كلها في المسيح وليس ليبقى بولس وحده في المسيح وحسب. نحن هنا أمام «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» (يو١٥: ٥)، فالغصن يتحتم أن يثبت في الكرمة وإلاَّ فهو لن يثمر ومصيره يكون للقطع ثم للحريق، والكرمة (الكنيسة) لا تقوم ولا تحيا على غصن واحد يثبت فيها؛ بل على الأغصان، كل

الأغصان، مجتمعة ومتحدة معاً ومُشتركة في ثمر واحد!

وبوضوح أكثر، فنحن هنا أمام جسد المسيح وأعضائه، وخبرة العضو وحياته هنا «في المسيح». ولكنها ليست خبرة فردية وحسب؛ بل وخبرة جماعية: «نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح وأعضاء بعضاً لبعض» (رو١٢: ٥)؛ بمعنى أنه مستحيل أن يوجد عضو في جسد المسيح بمفرده دون بقية الأعضاء، فخبرة كل عضو «في المسيح» تمتد وتلتحم بكل خبرة لكل عضو «في المسيح»، وهكذا لا تقوم الكنيسة بدون الفرد ولا يقوم الفرد بدون الكنيسة.

معنى الإيمان «على» المسيح:

كذلك فـ «**الإيمان**» عند بولس قد عبَّر عنه مراراً أنه «إيمان» ليس «**في المسيح**» فقط الذي ترجمته اليونانية εἰς Χριστόν أو ἐν Χριστῷ ؛ بل إيمان «**على**» المسيح ἐπὶ Χριστῷ .

+ «وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي (صحتها «ولكنه مؤمن على الذي» πιστεύοντι δὲ ἐπὶ τόν) يبرر الفاجر فإيمانه يُحسَبُ له براً.» (رو٤: ٥)

+ «بل من أجلنا نحن أيضاً الذين سيُحْسَبُ لنا الذين نؤمن بمن (صحتها «نحن المؤمنين على الذي» πιστεύουσιν ἐπὶ τόν) أقام يسوع ربنا من الأموات.» (رو٤: ٢٤)

+ «وكل مَنْ يؤمن به (وصحتها «**والذي هو عليه مؤمنٌ**» ὁ πιστεύων ἐπ᾽ αὐτῷ) لا يخزى.» (رو٩: ٣٣ و١٠: ١١)

+ «... لكنني لهذا رُحِمْتُ، ليُظهر يسوع المسيح فيَّ أنا أولاً كل أناة مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به (وصحتها «لكل مَنْ سيأتي مؤمناً عليه» μελλόντων πιστεύειν ἐπ᾽ αὐτῷ) للحياة الأبدية.» (١تي١: ١٦)

هنا الإيمان الذي يوضحه بولس بحرف ἐπὶ أي «**على**» هو مثيل إيمان إبراهيم الذي آمن بالله «**متكلاً عليه**». فإيمان بولس هنا هو إيمان الاتكال «**على**» المسيح اتكالاً كاملاً غير مشروط وبلا حدود، ليستظهر على كل التجارب والمحن التي تصدم هذا الإيمان في محاولة لاختباره، مثال الأمر الصادر من الله لإبراهيم ليقدِّم ابنه وحيده الذي يحبُّه ذبيحة! فقدَّمه إبراهيم باتكال كامل **على الله** الذي هو قادر أن يقيم من الموت أيضاً، في مواجهة كل ضعف نفساني أو عاطفي!! هذا النوع من الإيمان **على الله** هو الذي ورَّث إبراهيم البرَّ. وبولس الرسول يطبِّق تمام التطبيق وبكل دقة الإيمان بالمسيح على مستوى هذا الإيمان بالله باعتبار الله أنه هو الذي أقام المسيح من الأموات بالفعل. لهذا اعتبره بولس الرسول أنه يتساوى تماماً مع إيمان واتكال إبراهيم

على الله في تقديم ابنه للموت وهو موقن أن الله حتماً سيُقيمه، ليبقى على وعده. هذا الإيمان المسيحي هو في اعتبار بولس الرسول إيمان «**على المسيح**»: **بمعنى الاتكال الكامل على صدق مواعيد الله فيه التي لن يُخْلفها، لذلك فإن كان إيماننا حقاً هكذا فهو يبرِّر حتماً ويورِّث المواعيد الصادقة والأمينة!**

هنا ينكشف، عزيزي القارىء، أحد أسرار معنى الإيمان العملي المتناهي في الثقة بالمسيح والله عند بولس الرسول، والذي هو حقاً يبرِّر على مستوى إيمان إبراهيم، أي الإيمان **المتكل على المسيح اتكالاً لا يتدخل فيه المنطق والعقل أو الاستحقاق الشخصي.**

بهذا نعود فنفهم كيف ولماذا يقول بولس الرسول إننا نحن «الذي به (بالمسيح) لنا جراءة وقدوم (إلى الله) **بإيمانه** عن ثقة» (أف٣: ١٢). لأننا إن كان «**إيماننا على المسيح**» هو على مستوى إيمان إبراهيم ــ الذي ألقى **كل اتكاله على الله**، فأصبحت نفسه غير محسوبة عنده: «فألقوا رجاءكم بالتمام **على النعمة**» (١بط١: ١٣)، فحينئذ **نكون محمولين بالإيمان على المسيح**، فلا يعود ينظر الله إلى ما هو فينا ولنا أو علينا؛ بل ينظر إلى **ابنه الذي يحملنا ونحن عليه محمولين بالإيمان**، من هنا تكون جرأتنا وقدومنا إلى الله عن ثقة، وهي أصلاً ثقة المسيح في الله.

ثم انظر، أيها القارىء، كيف يجتاز بولس الرسول الزمن السالف كله في لمحة بصر ويختزله ليربط إيمان إبراهيم بإيماننا بمنتهى الوضوح واليقينية.

وإيمان إبراهيم كان فائقاً أو مستحيلاً على العقل هكذا:

+ «**ولا بعدم إيمان ارتاب** في وعد الله (سواء بميلاد إسحق في شيخوخته أو عندما قال له: قدِّم ابنك ذبيحة)؛ **بل تَقَوَّى بالإيمان مُعْطياً** مجداً لله (ثقة مطلقة)، وتيقَّن أن ما وعد به [«بإسحق (ابنك) يدعى لك نسل» (تك٢١: ١٢)، و«بنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض» (أع٣: ٢٥)] هو قادر أن يفعله أيضاً (بأن يقيم إسحق من الموت)، لذلك أيضاً حُسِبَ له برًّا.» (رو٤: ٢٠ــ٢٢)

ثم جاء الناموس غير قادر أن يبرِّر، فتوقف إيمان إبراهيم عن العمل وصار مستحيلاً أن يتبرر أحد أمام الله. **وأخيراً جاء المسيح، فأتاح الله الفرصة للإنسان عامة أن يؤمن بمَنْ هو قادر أن يقيم من الموت أيضاً؛ بل بالذي أقام المسيح من الموت حقاً وفعلاً. حتى إن كلَّ مَنْ يؤمن بالمسيح المُقام من الموت، يكون إيمانه بالله والمسيح على مستوى إيمان إبراهيم!!**

+ «ولكن لم يُكتب من أجله (إبراهيم) وحده أنه حُسب له؛ بل من أجلنا نحن أيضاً الذين

سيُحسَبُ لنا، الذين نؤمن بمَنْ أقام يسوع ربنا من الأموات.» (رو٤: ٢٣و٢٤)

+ «اعلموا إذاً أن الذين هم من الإيمان (بالمسيح)، أولئك هم بنو إبراهيم. والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان (بالمسيح) يبرِّر الأمم، سبق فبشَّر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم. إذاً، الذين هم من الإيمان (بالمسيح) يتباركون مع إبراهيم المؤمن.» (غل٣: ٧—٩)

+ «فإن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة.» (غل٣: ٢٩)

إذاً، فالمسيح أعادنا مرة أخرى إلى مستوى حياة إبراهيم مع الله، ولكن حياة إبراهيم مع الله كانت نموذجاً كتمهيد لكي نبلغه نحن بالمسيح ونعيشه. وذلك على أساس **ذات الإيمان الفائق** الذي وهبه الله لإبراهيم **بالنعمة الفائقة** وكان هذا أيضاً كنموذج، أعطانا المسيح إمكانياته وكل عناصره بموته وقيامته مع نعمة الروح القدس. ولكن **«إيمان المسيح»** يتفوق لأنه **«إيمان ابن الله»**، كونه يقدمنا إلى الله أبيه متحدين بالمسيح: «لأنكم قد مُتُّم (مع المسيح وفيه) وحياتكم (الآن) مستترة مع المسيح في الله.» (كو٣: ٣)

ونعود ونكرر أن هذا الإيمان ليس هو خبرة تصوفية لبولس؛ بل هو خبرة قبولٍ هبةٍ عامة مجاناً للجميع بانفتاح الوعي المسيحي على عطايا المسيح وهباته وبركاته وكل مواعيده. ليس لبولس الرسول فيها أي دور سوى أن الله اختاره ليُظْهِرَ ابنه فيه، ليعلنه هو للجميع، وقد اختاره الله ليس لامتياز فيه؛ بل وهو في أسوأ حالاته:

+ «... ولكن لما سَرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيَّ لأُبشِّر به بين الأمم...» (غل١: ١٥و١٦)

+ «وأنا أشكر المسيح يسوع ربنا الذي قوَّاني، أنه حسبني أميناً إذ جعلني للخدمة، **أنا الذي كنت قبلاً مُجدِّفاً ومُضطهِداً ومفترياً، ولكنني رُحِمتُ لأني فعلت بجهل في عدم إيمان. وتفاضلتْ** نعمة ربنا جداً مع الإيمان والمحبة التي في المسيح يسوع. صادقة هي الكلمة ومستحقة كل قبول **أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليُخلِّص الخطاة الذين أولهم أنا**، لكنني لهذا رُحِمْتُ ليُظْهِرَ يسوع المسيح فيَّ أنا أولاً كل أناة **مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية.**» (١تي١: ١٢—١٦)

الإيمان كمصدر لنوال كل مفاعيل الخلاص والفداء:

إيمان بولس ــ كما قلنا ــ لا يصدر عن فكر فيكون له خط مسارٍ محسوب؛ بل هو خبرة حية ذات انفعالات متعددة. لذلك، فالخلاص عند بولس الرسول ليس نظرية ذات شكل محدد بزوايا تحيط بها، أو هو محدد بدرجات نتسلق عليها؛ بل الخلاص أشعة ذات ألوان متعددة بتعدد الرؤى

والتطلع في وجه المسيح الرب الروح المُطلّ علينا في القلب من السماء وجروحه عليه.

لقد اعتاد اللاهوتيون أن يقسموا تعاليم بولس الرسول إلى نظريات محددة تكاد تنفصل الواحدة عن الأخرى، فنظرية «**الخلاص**» ونظرية «**الفداء**» ونظرية «**التبرير**» ونظرية «**المصالحة**»، إلخ...، وجعلوها معركة عقائد. ولكن هذه «النظريات» المرسومة كمنهج والمُغلَقة كدوائر باردة تكاد لا تمس الواحدة الأخرى، لم تخرج من فكر بولس الرسول هكذا؛ بل لم تخرج من فكره إطلاقاً؛ بل هي من قلبه وروحه ونفسه خرجت مُفْعَمة بالمشاعر الحية الفياضة وبانفعال النعمة، يُزكّيها روح المسيح الذي فيه ويشهد لها، ويُلْهِبها فرحه وانبهاره وتأثُّره بها.

فحينما يتطلع القديس بولس في وجه المسيح الذي أَعْتقنا من عبودية ناموس الخطية واللعنة، يراه بالإيمان فصح «**خلاصنا**» الذي ذُبح لأجلنا ويهيب بنا في تهليل أن نُعيِّد بفطير **الإخلاص**.

وحينما يراه مذبوحاً على الصليب كذبيحة خطية وذبيحة بذل المحبة بآن واحد، فإنما يراه بالإيمان وقد أكمل «**الفداء**» وصار دمه ينضح علينا وفينا «**للتقديس**» و«**التطهير**».

وحينما رآه مُطلًّا عليه من السماء بمجدٍ، وهو الذي صُلِبَ ومات، فقد كان يرى أمامه الفرصة العظمى لنوال «**التبرير**» **بالإيمان** الذي ناله إبراهيم سواءً بسواء لما قدَّم ابنه إسحق، مؤمناً بأن الله قادر أن يقيمه من الأموات: «إذ حَسِبَ أن الله قادر على الإقامة من الأموات.» (عب ١١: ١٩)

وحينما يتطلع بولس الرسول في الوجه اللامع بنور الله **فهو يدرك** بالإيمان أنه هو هو ابن الله الذي أكمل رسالة حب الله لنا بموته وقيامته، فيراه بعين الإيمان وسيط «**المصالحة العظمى**» التي أُكمِلَتْ مع الإنسان. وهو بالإيمان أيضاً يراه رئيس «**السلام**» الذي أعطى لنا سلامه نحياه في القلب بالروح؛ بل ويرى بولس الرسول نفسه أنه سفير المسيح الذي دَفَعه للأمم ليدعوهم: «تصالحوا مع الله!!» (٢كو ٥: ٢٠)

وليدرك القارىء هنا مقدار البساطة التي كان بولس يعلِّم بها لاهوته للأُميين البسطاء الراجعين من الأوثان الحجرية، ومقدار الاهتمام الذي يبذله ليعطيهم قلوباً لحمية تنبض بحب الله الذي وهب لهم أن يعبدوه، لا ليحشوا عقولهم بمناهج فلسفية تقوم على المنطق والجدل وأصول الحوار.

بولس الرسول في لاهوته ليس معلِّماً لأصول لاهوت الخلاص، تبريراً كان أو فداءً أو غفراناً أو

مصالحة أو تبنِّياً أو سلاماً، بل إن بولس يقدِّم نفسه في لاهوته كَمَنْ يعترف ويشهد ويبرهن على حقيقة مَنْ آمن به ومَنْ أحبه وأسلم ذاته من أجله: «أحبني وأسْلَم نفسه لأجلي.» (غل ٢: ٢٠)

إنه يسعى كسفير نشيط ومُخْلص، منفعلاً للمصالحة التي صالحه بها المسيح مع الله: «نسعى كسفراء... نطلب عن المسيح تصالحوا مع الله.» (٢كو٥: ٢٠)، ويكاد يصرخ من فرط انذهاله كيف سقط عنه سلطان الناموس وجبروته لما تطلع في وجه المسيح فعرفه وآمن به!

والصليب الذي كان يثير غضبه وحقده إلى درجة القتل بجهالة، الآن هو يتأوه لما تحقق أن المصلوب عليه صُلِبَ لأجله!! كيف أصابت كلمة الصليب عنده جسم خطيته فأفرغته من سُمِّ الخطية القاتل وأوقفته أمام الله في المسيح كأنه بلا لوم في القداسة والبر، فصار الصليب قوة إيمان بحد ذاتها تعمل فيه، لينادي بها بكل شجاعة ويكرز ويشهد باستعداد الموت لينال الناس، كل الناس، ما ناله هو بالإيمان بالصليب!

كانت رؤية المسيح عنده ليست مجرد صورة انطبعت فيه بمعالم ثابتة؛ بل صورة حية بحياة المسيح ذات تعدُّد بلا عدد، وتمايز بلا تَغَايُر؛ وكلما أصابت روحه وضعاً منها انطلقت منه الأوصاف تتوالى بالتمايز عينه، والتعدد ذاته، بكلمات واصطلاحات ذات أصول نبوية تظهر على التوالي، ولكنها إذا وُضعت جنباً إلى جنب، فهي على التوازي بل التساوي بل الانطباق، كأنوار تنطلق من مصدر واحد تتمايز في الفعل وتتحد في المضمون والجوهر: تبرير، فداء، غفران، مصالحة، تبنِّي، والكل هو خبرة من الإيمان وبالإيمان بالمسيح الميت المقام!

كلٌّ من هذه الأعمال الإلهية المضيئة للمسيح هي، في واقعها عند بولس الرسول، تعكس صورة الإنسان وهو واقف أمام الديَّان، متهماً محكوماً عليه، واقعاً تحت الأَسْر في يد عدو لا يرحم، وبآن واحد هو مديون بديون ثقيلة لا قِبَلَ له بدفعها، محاطٌ بالعداوة من جراء تعدياته على حقوق الله وكرامته، يئن تحت العبودية، عبودية الجهل بسبب البُعد عن الله، عبودية الطبيعة الميَّالة للشر، عبودية الخطية المُثْقِلَة للجسد، عبودية قوانين العدالة التي تطالب ولا تعطي.

الإيمان المسيحي تسليم بالخبر وليس اجتهاداً فكرياً:

الله لما كلّم إبراهيم، انتهى به إلى الإيمان، والله كلّمنا في المسيح: «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبَّر» (يو١: ١٨)، فصار المسيح بحد ذاته كلمة الله لنا للإيمان. الرسل قَبِلوا المسيح ذاته ــ باعتباره كلمة الله ــ وأعطوها لنا بالإنجيل، فصارت كلمة الإنجيل هي المسيح متكلِّماً، أو هي الله متكلماً في المسيح: «من أجل ذلك نحن أيضاً نشكر الله بلا انقطاع، لأنكم

إذ تسلَّمتم منَّا كلمة خبر من الله قبلتموها، لا ككلمة أناسٍ بل كما هي بالحقيقة ككلمة الله، التي تعمل أيضاً فيكم أنتم المؤمنين.» (١تس٢: ١٣)

والذي يهمنا جداً هنا، هو أن نوضح أن الإيمان ليس اجتهاداً شخصياً نبلغه بالعقل أو بالإلهام الفكري، بل هو «تسليم»، تسليم من واقع منطوق كلمة الله لا دخل للإنسان فيها، فإذا قَبِلها باعتبارها **كلمة الله بالحقيقة فإنها تعمل عملها الإيماني وتُبرِّر!**

الإيمان كخبر، قبوله يرافقه قبول الروح:

+ «أريد أن أتعلم منكم هذا فقط، أبأعمال الناموس أخذتم الروح أم بخبر الإيمان.» (غل٣: ٢)

هنا يتضح لنا أن انفتاح الوعي لقبول الإيمان المسيحي بسماع الخبر الإنجيلي، سواء كان ذلك عن قراءة أو سَمَع، يرافقه دخول الروح القدس كعامل أساسي يفتح الذهن لإدراك أعماق الإيمان.

+ «فالذي يمنحكم الروح ويعمل قوات فيكم أبأعمال الناموس أم بخبر الإيمان؟» (غل٣: ٥)

هنا يضيف بولس الرسول عمل القوات مع قبول الإيمان ومعه الروح القدس. من هذا نفهم أن الإيمان المسيحي ليس نظرية أو قانوناً، بل هو طاقة روحية واعية ذات عمل فائق في قلب المؤمن وحياته.

قيمة الإيمان عند الله:

● **الإيمان يُرْضي قلب الله ويدعِّم عمل الإنسان بالمجازاة:**

+ « بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه،

لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن **بأنه موجود** وأنه **يجازي الذين يطلبونه.**» (عب١١: ٦)

عنصران أساسيان يجعلان الإيمان فعَّالاً ومثمراً وقادراً أن يبلغ بالإنسان إلى استرضاء وجه الله:

+ العنصر الأول: **أن الله موجود،**

+ العنصر الثاني: **أنه يجازي الذين يطلبونه.**

إذا خَلَتْ الصلاة من هذين العنصرين، توقفت الصلاة في فمنا وجَفَّ لساننا، ولا تعود تصل إلى أُذُنَي الله.

إذا خلت أعمال المحبة التي نعملها من هذين العنصرين، فهي لا تبلغ قلب مَنْ نحبه ولا تبلغ

قلب الله.

إذا خلت أصوامنا وعبادتنا وأعمال نسكنا من هذين العنصرين، ضعفت وارتدت فارغة.

● **الإيمان مصدر حياة:**

+ « فأجابني الرب وقال: اكتب الرؤيا،
وانقُشْها على الألواح لكي يركض قارئها،
لأن الرؤيا بعدُ إلى الميعاد، في النهاية تتكلم ولا تكذب،
إن توانى فانتظره (المسيَّا) لأنه يأتي إتياناً ولا يتأخر،
و (الإنسان) إن ارتدَّ لا تُسَرُّ به نفسي،
والبار بإيماني يحيا.» (حب٢: ٢ــ٤ عن الترجمة السبعينية).

هذه الآية ذات شأن عظيم عند البروتستانت، ولكنهم يتمادون في تعميمها، والمعنى فيها واضح ويدور حول مجيء المسيح ــ وهو مضمون الرؤيا أو النبوة ــ حيث يقف الإنسان تجاه هذا المجيء أو هذه الرؤيا موقفين، موقف الإنسان المرتد عن هذا الانتظار لا يؤمن به، ويسميه المترجم عن النسخة العبرية الإنسان المنتفخ الذي نفسه غير مستقيمة؛ وموقف الإنسان البار الذي ينتظر الرؤيا أي الوعد بإيمان، و بهذا الإيمان ينال الحياة!

القديس بولس يقرأ هذه الآية التي لحبقوق النبي عن السبعينية في ثلاث مواضع:

+ «لست أستحي بإنجيل المسيح، لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن ...،
لأنه فيه مُعْلَنٌ برُّ الله (مجيء المسيح) بإيمان لإيمان،
كما هو مكتوب **أما البار فبالإيمان يحيا.**» (رو١: ١٦و١٧)

+ «ولكن أن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله، فظاهرٌ،
لأن البار بالإيمان يحيا.» (غل٣: ١١)

+ «لأنه بعد قليل جداً سيأتي الآتي ولا يبطىء،
أما البار فبالإيمان يحيا، وإن ارتد لا تُسَرُّ به نفسي» (عب١٠: ٣٧و٣٨)، وهي مقروءة نصاً على السبعينية.

● **الإيمان يستمد قيمته الفائقة من الله:**

+ « لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان،
وذلك ليس منكم هو عطية الله،
وليس من أعمال كي لا يفتخر أحد.» (أف٢: ٨و٩)

هنا «مخلَّصون» تأتي في اليونانية لتفيد أنكم قد خلصتم بالفعل والآن أنتم سائرون في طريق الخلاص، أو تكمِّلون الخلاص، لأن الخلاص عملية تمت لنا لما قَبِلْنا العماد والروح القدس:

+ «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس.» (تي٣: ٥)

كذلك فالخلاص هو عمل المستقبل الدائم:

+ «لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأَوْلَى كثيراً ونحن مُصَالَحون **نخلص** بحياته.» (رو٥: ١٠)

ومعنى الآية الأُولى (أف٢: ٨و٩) ينصَبُّ على أن الخلاص هو من عمل النعمة، ولكن بالإيمان الذي جَعَلَتْه النعمة وسيلتنا للحصول عليه. **لأن الإيمان أيضاً هو بحد ذاته من عمل النعمة الإلهية.**

والله جعل الخلاص عطية أو هبة من عنده، بسبب عدم قدرة الإنسان في ذاته، وقصور أعماله عن أن تبلغ هذا الخلاص. وإذا أردنا اختزال الآية وتركيز المعنى فيها، فهي تكون كالآتي: **الخلاص بالإيمان ليس منا ولكنه هبة من الله!** وهذا يستلزم حتماً أن يكون الإيمان أيضاً هو هبة أيضاً من الله: **فالإيمان هبة النعمة الإلهية لنا.**

والآن يتبقى الجملة الأخيرة من الآية، وقد حيَّرت العلماء: «كي لا يفتخر أحد»، فهل جاءت كنتيجة للخلاص بالهبة والإيمان بالنعمة؟ أم أنها جاءت كقصدٍ مبدأي قصده الله؟ ونحن نعتقد أن هذه الجملة: «كي لا يفتخر أحد» هي التأمين للهبة والنعمة. لهذا، فإن هذه الجملة هي من صميم فعل الهبة ومن صميم فعل النعمة أيضاً، أي من صميم الخلاص بالإيمان الذي دبَّره الله للإنسان. فالله لم يترك لمجهودات الإنسان فرصة حتى لا يلوِّث عطية الله بافتخاره، فجعل خلاصه وحتى إيمانه ينبع من فوقه ــ فوق الطبيعة ــ وليس من داخله.

ومعروف أن الإيمان هو ثمرة الروح القدس:

+ «وأما ثمر الروح فهو محبة فرح سلام طول أناة لطف صلاح **إيمان**.» (غل٥: ٢٢)

ولكن الإيمان يحتاج إلى مَنْ يستقبله، ويكرِّمه، ويُعلِّيه، ويشهد له وبه، ويعمل عمله ليدوم!

الفصل الثاني

التبرير

البرُّ δικαιοσύνη التبرير δικαίωσις

مفهوم البرِّ في العهد القديم(١):

في التوراة السبعينية (العهد القديم) حُصِرَتْ الكلمة في دائرة المعاملات مع الله وفيما يخص عدله وأحكامه. فالبر هو الميزان الذي يُوْزَن به الإنسان في كل أعماله تجاه عدل الله على أساس قياس الناموس.

لذلك يكون **البارُّ** هو الإنسان الذي يكمل الواجبات تجاه الله والدين بمقتضى الناموس، وبهذا يمكن أن يتواجه مع مطالب الله، حيث يصير معنى «البار» أنه هو الذي يكمل واجبات الله فيصبح في جانب الحق (في الجانب اليمين) أمام الله. حيث «البر» righteousness تعني «يمين» وتعني أيضاً «حق». والذي يوضح معنى «البر» و«البار» في العهد القديم هو معنى الكلمة المستخدمة لما هو ضد «البر» و«البار»:

+ «الرجل **البار** δίκαιος يعلن الحق، والذي يشهد **للظالمين** ἀδίκων غشاش.» (أم١٢: ١٧ حسب الترجمة السبعينية)

+ «عصا **الأشرار** ἁμαρτωλῶν لا تستقر على نصيب **الصدِّيقين (الأبرار)** δικαίων.» (مز١٢٤: ٣)

+ «الفرح يلازم **الصدِّيقين** δικαίοις أما رجاء **الأشرار** ἀσεβῶν فيبيد.» (أم١٠: ٢٨ حسب الترجمة السبعينية)

+ «يتعجب المستقيمون، **والبريء** δίκαιος ينتهض على **الفاجر** παρανόμῳ.» (أي١٧: ٨)

هكذا نرى أنه في مقابل البار δίκαιος جاءت ثلاث صفات هي: **الظالم** ἄδικος، **والشرير** ἁμαρτωλός، **والفاجر** παράνομος.

---

1. Kittel, G., *TDNT*.

الله بارٌّ:

هكذا تأتي صفة البار لله في كل العهد القديم بمعنى **المعصوم عن الخطأ؛ فيما له من كل المعايير والصفات الخاصة به في طبيعته**، وأنه يقيم وعوده ومواعيده وعهوده بلا أي خلل.

وتأتي صفة البرّ عند الله مربوطة بالرحمة: «الرب بار δίκαιος في كل طرقه ورحيم ὅσιος في كل أعماله.» (مز١٤٤:١٧)

كذلك لا تقف حدود البر عند الله في محيط العدل فقط بل تمتد لتشمل الخلاص. على أن «البر» يُعْتَبَر معياراً إلهياً، فالله هو معيار للبر كما هو مصدره. فلا يمكن أن يقع الله تحت قياس، إذ يستحيل علينا أن نقيس برّ الله، مهما أوتينا من سعة فكر وإدراك ورجعنا إلى نصوص وآيات.

فكل الذي نعرفه عن برّ الله هو ما جاء في عروض معاملاته مع شعبه على أساس مواعيده، فلا تزيد معرفتنا عن برّ الله خارج حدود العلاقات التي يتعامل بها مع شعبه. لذلك فإن من أخص خصائص بر الله هو أعمال الخلاص التي يصنعها مع شعبه:

+ «قريبٌ هو الذي يبرِّرني ὁ δικαιώσας με مَنْ يخاصمني لنتواقف. مَنْ هو صاحب دعوى معي، ليتقدم إليّ.» (إش ٥٠:٨)

تأتي كلمة «يبررني» هنا بمعنى: «يخلصني من يد خصومي واتهاماتهم». وعلى العموم فبرُّ الله موصوف دائماً بأنه برٌ خلاصيٌ بالنسبة للإنسان[2].

وبناء على هذا المعيار الإلهي، يصبح **برُّ الإنسان حالة يستمدها الإنسان من تكميله مَسَرَّة إرادة وأحكام برّ الله، وذلك في نظر الله فقط وليس في نظر الإنسان.**

البر في لاهوت بولس الرسول:

يلزم أن ننتبه جداً أن «البر» يبرز كقضية لاهوتية في لاهوت بولس الرسول، **فهو لا يبرز من خلال تعاليمه كمنهج واحد مدروس**، فقد تعرَّض له أولاً أثناء دفاعه ضد اليهود المتنصّرين المتمسكين بالناموس، ولكي يبرىء نفسه أمام نفسه من جهة تمسكه السابق بالناموس ضد المسيح وكيف دفعه الناموس لارتكاب أشنع الجرائم.

ولكن قضية البر بالناموس بلغت إلى أقصى عنفها السلبي بسبب وضع الناموس في مقابل البر

2. Ibid., Vol. 3, p. 196.

بالإيمان بالمسيح. فلو انتبهنا أن بولس الرسول أخذ أقدس معيار لاهوتي عند اليهود ــ وهو البرُّ بالناموس ــ وطرحه تحت أقدام المسيح ليفقد قيمته، لأدركنا سر هذا الالتهاب الذي تخلل كل رسائل بولس، بل وسر كل المآسي التي واجهها في كرازته من اليهود. ولكن يلزم أن ننتبه أن البرَّ **بإيمان المسيح** كان هو نقطة التحوُّل الكبرى من اليهودية إلى المسيحية.

برُّ الله عند بولس الرسول يبدأ من الناموس ثم ينتهي بالمسيح، وذلك على أساس أن الله «قاضٍ بالبر» (رو٩:٢٨). فالناموس أصلاً هو الذي كان يعلن عن برِّ الله. ولكن هذا المعيار انتهى بمجيء المسيح، فصار الإيمان به هو الذي يعطي بر الله وليس الناموس.

+ «الأمم الذين لم يسعوا في أثر البر أدركوا البر (بر الله)، البر الذي بالإيمان، ولكن إسرائيل وهو يسعى في أثر **ناموس البر** لم يدرك ناموس البر. لماذا؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان، بل كأنه بأعمال الناموس.» (رو٩: ٣٠ــ٣٢)

وينحصر البرُّ بالناموس عند بولس الرسول في محيط السلوك، بمعنى أن يكون الإنسان **بلا لوم** بمقتضى أوامر الناموس تجاه الناموس وليس تجاه الله: «من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم» (في٣:٦). ولكن حتى هذا الموقف «بلا لوم» ظهر لبولس الرسول أنه كذب وخداع، لأن هذا الموقف الذي بلا لوم بحسب بر الناموس هو الذي دفعه لقتل المؤمنين وتعذيبهم واضطهاد الكنيسة بجنون!

لهذا انتهى بولس الرسول إلى حقيقة ثابتة ومؤكدة: أنه لا برَّ على وجه الإطلاق في الناموس، والبرُّ الوحيد هو بالإيمان بالمسيح:

+ «لأنه لو أُعطِي ناموسٌ قادر أن يُحْيي، لكان بالحقيقة البرُّ بالناموس. لكن الكتاب ــ الناموس ــ أغلق على الكل تحت الخطية (بحسب أعمال الناموس) ليُعطى الموعد من إيمان يسوع المسيح للذين يؤمنون.» (غل٣: ٢١و٢٢)

والآن هيّا بنا، أيها القارىء العزيز، نتعقب استقصاء حقيقة «البر» عند بولس الرسول خطوة خطوة، برجاء أن يتمعن القارىء كل خطوة ولا ينتقل منها إلاَّ بعد أن يستوعبها، لا فهماً بل بإحساس من يتصوَّر نفسه في داخل هذه القضية لأنها قضية كل إنسان:

+ أول خطوة اتخذها بولس الرسول في الانتقال من بر الناموس إلى بر الإيمان بالمسيح هي تحويله كلمة **«البر»** التي كانت تُستخدم بمفردها ثم مع الناموس، ثم ردُّها إلى أصولها الثابتة **«برُّ الله»**، أي أن برَّ الله هو برُّه له وحده: «إنه ليس بارٌّ ولا واحد.» (رو٣: ١٠)

+ الخطوة الثانية أوضحها في إظهار الله لبرِّه الخاص في شخص يسوع المسيح تجاه البشرية كلها (رو٣: ٢١-٢٦). فظهر برُّ الله لأول مرة أنه قائم على المحبة بعد أن كان قائماً على القضاء بالناموس.

+ ثم استعلان برِّ الله أنه ليس مجرد صفة في الله بل قوة فعَّالة باذلة!

+ قوة برِّ الله الفعَّالة تركزت وأُظهرت بصورة عملية بالنسبة للبشرية في صليب المسيح.

«الذي قدَّمه الله كفَّارة، بالإيمان بدمه،

لإظهار برِّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله.» (رو٣: ٢٥)

«فبالأَوْلى كثيراً ونحن متبررون **الآن** بدمه، نخلُصُ به من الغضب.» (رو٥: ٩)

لاحظ كلمة **«الآن»** فهي تفيد الانتقال الزمني من تحت برِّ الناموس إلى البر بدم المسيح.

+ استعلان **«بر الله»** كاملاً في شخص يسوع المسيح بالقيامة من الأموات:

«بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبرًّا وقداسة وفداء.» (١كو١: ٣٠)

+ استعلان عنصر قضاء عدل الله جنباً إلى جنب مع استعلان برِّه عملياً في المسيح لفتح باب تبرير الإنسان.

«لأنه جعل الذي لم يعرف خطية خطية (بحمل خطايانا على الصليب) لأجلنا، **لنصير نحن برَّ الله فيه.**» (٢كو٥: ٢١)

+ ابتداء دخول الإنسان في فاعلية بر الله أو عمل تبريره على أساس عمل المسيح الذي جعلنا نقف أمامه بلا لوم، من واقع الصفح عن الخطايا بمقتضى سلطانه الأساسي كقاضٍ مطلق الإرادة:

«مَنْ سيشتكي على مختاري الله، الله هو الذي يبرر... المسيح هو الذي مات بل بالحري قام ... يشفع فينا.» (رو٨: ٣٣و٣٤)

هنا الإنسان، ولأول مرة، يقف أمام برِّ الله مبرراً[٣] **عن حكم عدالة من فم الله كقاضٍ لا يُردُّ قضاؤه!!!** وهو ليس عملاً عفوياً، بل حيث يكون الله في موقف القاضي العادل في حكمه، هو أيضاً الأب الرحيم برحمته، والملك المُنعِم بنعمته، هذه الثلاثة معاً. وبالمقابل يقف الإنسان أمامه مبرراً وبلا شكوى عليه، بل ومتبنىً بالرحمة، ومُنعَماً عليه كواحد من الرعية المكرَّمة عنده.

+ إعطاء التبرير للإنسان **«الآن»** في هذا الزمان عِوَض أن كان في مفهوم العهد القديم مؤجَّلاً للآخرة.

---

(٣) لاحظ أن كلمة «البر» تعني ثلاثة معانٍ متداخلة معاً: صح، يمين، حق. لذلك فقول الإنجيل: «اجلس عن يميني» (مز١١٠: ١) معناه في موقع الحق والبرِّ المساوي لله. وقوله للمختارين أن يقفوا عن يمينه والأشرار عن يساره (مت٢٥: ٣٣و٣٤)، معناه تبرير المختارين ببر المسيح ودينونة الأشرار.

«فبالأولى كثيراً ونحن متبرِّرون ("الآن") بدمه نخلص به من الغضب ("الآتي")**.**»

(رو٥: ٩)

«**فإذ قد تبرَّرنا بالإيمان، لنا سلام مع الله** بربنا يسوع المسيح، الذي به أيضاً قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى **هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون**، ونفتخر على رجاء مجد الله.»

(رو٥: ١و٢)

+ ولكن من طرف الإنسان، نجد أن حالة التبرير التي حصل عليها تبقى عطية خالصة وهبة مجانية لم يقدِّم فيها جهداً قيد شعرة، بل إن النعمة داهمته وهو في موت الخطية، والعطيَّة اقتحمته وهو في أسر الظلمة، لكي يعيش بها ليس فقط **«الآن»**، بل هي وثيقة ميراث أبدي يملك بها في الحياة الأبدية:

«الذين ينالون فيض النعمة **وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح.**»

(رو٥: ١٧)

+ والبرُّ الذي نِلْناه كعطية في المسيح لا يستطيع أن يُنْقِصَ عمله، لأنه بالروح، **فهو مؤمَّنٌ** عليه ضد الموت!!

«وإن كان المسيح فيكم فالجسد ميت بسبب الخطية، **وأما الروح فحياة بسبب البر.**»

(رو٨: ١٠)

+ ولكن يظل بولس الرسول وعينهُ مثبتة على البرِّ في أصله وفي منبعه، "بر الله" أولاً وأخيراً، في مقابل **البرِّ الشخصي** الكاذب بالناموس.

«لكي أربح المسيح وأُوجَد فيه، **وليس لي برِّي الذي من الناموس**، بل الذي بإيمان المسيح، **البرُّ الذي من الله** بالإيمان.» (في٣: ٨و٩)

+ الدخول من جهة الإنسان إلى برِّ الله لنوال قوة عمله وفعل نعمته كعطية، **هو الإيمان بالمسيح.**

علاقة البرِّ بالإيمان:

في لاهوت بولس الرسول، نجد البرَّ مربوطاً بالإيمان في كل مواقفه:

+ «**برُّ الله (بواسطة) بالإيمان** بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون.» (رو٣: ٢٢)

هنا البر **بواسطة الإيمان** διά.

+ «الأمم الذين لم يسْعَوْا في أثر البرِّ، أدركوا البرَّ، **البرَّ الذي (من) بالإيمان**» **(رو٩: ٣٠). هنا البر من الإيمان** ἐκ.

+ «وليس لي برِّي الذي من الناموس، بل الذي **بإيمان المسيح** (διά) البر الذي من الله (على) بالإيمان» (في٣: ٩). هنا **البرُّ على** الإيمان ἐπί.

+ «وأخذ علامة الختان **ختماً لبرِّ الإيمان**» (رو٤: ١١). هنا البرُّ للإيمان (مضافاً له أي بتاع τῆς).

+ «إذاً نحسب أن الإنسان **يتبرر بالإيمان** بدون أعمال الناموس.» (رو٣: ٢٨)

+ «لأن الله واحد هو الذي **سيبرِّر... بالإيمان**.» (رو٣: ٣٠) ἐκ...διά

+ «الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس، بل **بإيمان يسوع المسيح**.» (غل٢: ١٦) διά

+ «فرأى أن الله **بالإيمان يُبرِّر الأمم**.» (غل٣: ٨) ἐκ

+ «كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح لكي **نتبرر بالإيمان**.» (غل٣: ٢٤) ἐκ

+ «**لإظهار برِّه** في الزمان الحاضر، ليكون باراً **ويبرر مَنْ هو من الإيمان** بيسوع المسيح.» (رو٣: ٢٦) ἐκ

+ «وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرِّر الفاجر، فإيمانه يُحسَبُ له برًّا.» (رو٤: ٥)

معنى الدخول في برِّ الله بالإيمان بيسوع المسيح:

حينما يتبرر الإنسان بالإيمان بيسوع المسيح يصير مُعداً ومُهيَّئاً ليكون عضواً مُكرَّماً في جسد المسيح (الكنيسة)، في مقابل اليهودي الذي كان يتبرر بالناموس ليَثْبت كعضو في شعب إسرائيل.

هنا التبرير بإيمان المسيح عمل فردي ولا يمكن أن يتم على مستوى الجماعة. فالمعمودية لا تجوز على الجماعة بل هي إجراء فردي خالص حيث يغتسل الفرد من خطاياه ويتقدَّس بالروح ويتبرَّر بهذا الفعل الإيماني، فيصير لائقاً لأن يكون عضواً في جسد المسيح.

+ «وهكذا كان أناس منكم، لكن **اغتسلتم**، بل **تقدَّستم**، بل تبررتم باسم **الرب يسوع المسيح وبروح إلهنا**.» (١كو٦: ١١)

+ «وفيما هما سائران في الطريق أقبلا على ماء فقال الخصيُّ: هوذا ماءٌ **ماذا يمنع أن اعتمد؟** فقال فيلبس: **إن كنت تؤمن من كل قلبك يجوز**. فأجاب وقال: **أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله**.» (أع٨: ٣٦و٣٧)

○ في لاهوت بولس الرسول **المؤمنون يتبررون حينما يعتمدون** و يقبلون الروح القدس بحسب الآية قبل السابقة (١كو٦: ١١).

○ ولكن التبرير عند بولس الرسول لا يُنْظَر إليه كعطية إختيارية، بل **هو مطالبة إلهية والتزام** بمقتضى سلطان الله **الذي يودُّ أن الجميع يخلصون** (١تي٢: ٤).

+ «لأنهم إذ كانوا يجهلون بر الله ويطلبون أن يُثْبِتُوا برَّ أنفسهم، **لم يخضعوا لبرِّ الله**، لأن

غاية الناموس هي (يلزم أن تنتهي عند) المسيح.» (رو١٠: ٣و٤)

هذا البرُّ كالتزام مطروح وكأمر مُلحّ من قِبَلِ الله بمجيء المسيح، يأخذ صفة المطالبة والالتزام بسبب الثمن الباهظ المدفوع لأجله من قِبَلِ الله.

+ **«الذي لم يُشفق على ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، "كيف" لا يهبنا أيضاً معه كل شيء.»** (رو٨: ٣٢)

فإذا كان الناموس وبرُّه لهما صفة المطالبة والالتزام على اليهودي الذي يؤمن بالله، واليهودي لم يكن حُرًّا أن يقبل الناموس أو لا يقبله، فهكذا دخل الإيمان بالمسيح والتبرير على نفس المستوى من السلطان: «إن لم يَزِدْ برُّكم على الكتبة والفريسيين، لن تدخلوا ملكوت السموات» (مت٥: ٢٠). خصوصاً وأن بر الإيمان بالمسيح ظهر مشهوداً له من الناموس والأنبياء.

+ **«وأما الآن فقد ظهر برُّ الله بدون الناموس، مشهوداً له من الناموس والأنبياء، برُّ الله** بالإيمان بيسوع المسيح، إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون، لأنه لا فرق.» (رو٣: ٢١و٢٢)

+ ومن أهم عناصر العلاقة بين الإيمان والبر، أن البرَّ لا يأتي كهبة للإيمان أو يتولّد منه، لأن الإيمان نفسه هبة وعطية من الله. ولكن الإيمان بالمسيح أو **إيمان المسيح يؤهّلنا لبر الله:**

+ «وليس لي برّي الذي من الناموس، بل الذي **بإيمان المسيح، البر الذي من الله** بالإيمان.» (في٣: ٩)

فالإيمان ليس عملاً بحد ذاته حتى يكون له استحقاق، ولكنه هبة توصلنا إلى هبة. فالله هو الذي يبرِّرنا بالإيمان.

فالإيمان هو بدء الطريق الموصِّل إلى التبرير، والله يبرِّر على أساس الإيمان أو في حضوره أو اعتباراً له. فكما وجدنا حروف الجر التي تربط البر بالإيمان إما «عليه» ἐπί أو «منه» ἐκ أو «به» διά ، هكذا الإيمان أداة البر أو كأساس يُبنى عليه. ولكن الإيمان من ذاته لا يُنشيء البرَّ بدون تدخُّل الله. وهذا الأمر واضح في القول: "آمن إبراهيم بالله فَحُسِبَ له برًّا" (رو٤: ٣). فالبرُّ هنا جاء محمولاً على الإيمان. هنا الإيمان وُضع في الحسبان ـــ بمعنى حُسب له الإيمان برًّا ـــ ليقوم عليه البرُّ. **فهنا يستحيل أن يكون الإيمان مساوياً للبر، لأن الإيمان هو من طرف الإنسان، ولكن البرَّ هو من طرف الله. ويستحيل أن ما يقدِّمه الإنسان يساوي ما يقدِّمه الله، وإلاَّ يصبح البرُّ حقاً للإنسان، إذ يكون الإنسان قد قدَّم ما يساويه!! لهذا فالبرُّ يبقى**

نعمة!! لأن رحمة الله تداركت عدم البر في إبراهيم، فأخذت الإيمان فرصة وتُكأة ليغدق الله عليه البرَّ. علماً بأن عطية الله لا يستردها الله ولا يندم عليها، لذلك أصبحت مِلْكاً لإبراهيم، فحُسِبَ إبراهيم باراً ولكن بنعمة الله.

وهنا تأتي القضية التي انحرف بخصوصها كثيرٌ من اللاهوتيين، وهي وضع الفاجر بعد أن برَّره الله في الآية: «وأما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر فإيمانه يُحْسَبُ له برًّا» (رو٤: ٥). هنا يقول هؤلاء اللاهوتيون إن الله بعد ما برَّر الفاجر بقي الفاجر كما هو ولكن مُبرَّراً بنعمة الله.

هذا شطط! فالتبرير الذي وهبه الله للفاجر بسبب إيمانه وهبه له لكي يرفع عجزه ويجبر فجوره، فهبة البرِّ من عند الله فعَّالة ديناميكية لا تهدأ حتى تأتي إلى كمال عملها. والله يهبها كلية من عنده لتصير مِلكاً للفاجر، فكيف يصير الفاجر باراً ويبقى فاجراً؟؟ كيف يعلن الله عن إنسان أنه قد تبرَّر وهو باقٍ فاجراً كما هو؟؟ ثم ما قيمة إيمان هذا الفاجر؟ وكيف قيَّمه الله أنه لائق للبر؟ أليس هذا يُعْتَبَر ضد الأخلاق وتحريضاً على الفجور؟ كما يُحسب أنه تهاون واستهتار من الله في إعطاء أقدس وأثمن مخصصاته لإنسان غير قادر أن يحملها أو ينتفع بها.

ولكن الحقيقة أن الإيمان الذي صرخ به الفاجر من نحو الله اعتبره الله قلباً جيداً يصلح لإلقاء بذرة الحياة في تُرْبته، فألقاها لتنبت: «ونحن **أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح**» (أف٢: ٥). فالله ليس عاجزاً حتى يبرر الفاجر نظرياً ليبقى الفاجر ميتاً بعد تبريره.

والآن يمكن أن نلخص التبرير بالإيمان على هذه الخطوات:

أولاً: الله صاحب المبادرة في كل ما يخص خلاص الإنسان. فهو يبدأ من الداخل ليدعو في القلب والضمير قبل أن يدعو في الخارج بالكلمة المكتوبة أو المسموعة، هذا عمل نعمة الله السبَّاقة.

ثانياً: إذا قَبِلَ الإنسان الدعوة التي تأتيه من الخارج وأطاع الدعوة التي أتته من الداخل، فإن النعمة تسانده في الحال وتعطيه شجاعة نادرة للاستمرار في قبول الصوت. ويُحسَبُ قبوله للدعوة تمجيداً لله لأن الدعوة في حقيقتها هي شهادة مباشرة لله.

ثالثاً: يتدخل الله بنعمة أوفر وبقوة ويَهَبُ الإنسان عنصر الإيمان كعلاقة روحية تربطه بالله مباشرة، وحينئذ يتقوى الإنسان بقوة الإيمان الذي يهيىء له هبة التبرير كمقابلٍ لشهادة الإيمان التي يجاهر بها. وهنا ولو أن الإيمان والشهادة هما من عمل الإنسان إلا أنهما لا يزالان عطية الله. وإذ ينال الإنسان البرَّ كعطية أخرى من الله من داخل عطية الإيمان يبدأ

الإنسان يشعر بقوة الانتصار على كل أنواع الخطايا والضعفات السالفة.

رابعاً: يدخل الإنسان في سباق الأعمال الصالحة بقوة خفية هي قوة الإيمان مضافاً إليها قوة التبرير، وبهذا تسكن النعمة الإنسان وتتآخى معه لتُدخِله في الفضائل المسيحية الواحدة بعد الأخرى.

عمل الروح القدس في التبرير:

الروح القدس يعطي «رجاء البر» في المستقبل الأبدي:

التبرير في الحاضر ـــ الذي يوقفنا في سلام مع الله وبلا لوم في المحبة ـــ يحمل قوة التبرير في المستقبل، فالرجاء عنصر جوهري في البرّ الخلاصي: «الله واحد هو الذي سيبرِّر» (رو٣: ٣٠).

فالتبرير يتجاوز الزمن الذي نعيشه في الحاضر، لأنه يسلب من الزمن أقوى ما في سلطانه وهو الخطية والموت. فالتبرير بالمسيح ينقلنا من ماضي برّ الناموس المشكوك فيه بسبب الخطية المتسلِّطة والذي لم يصلح حتى لزمانه، ينقلنا بالانتصار على العالم الحاضر المؤلم، ليضعنا على عتبة الخلود وقد تجاوزنا الدينونة!! حقاً!

+ «**فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء برٍّ!!**» (غل٥: ٥)

إذاً، فالرجاء في البرّ بالإيمان بالمسيح في الحاضر ليس عقيدة ذات فكرة مهدئة، ولكنه قوة متحركة تتأجج **بالروح** في أعماقنا لننظر إلى فوق حيث المسيح جالس، مُترقِّبين خلاصاً قادماً هذا مقداره، وننظر نصيباً مقدساً محفوظاً لنا في السموات، ونتشبث بالروح وكأننا نقف على أطراف أقدامنا نستطلع الأمجاد المعدَّة، بل ونحصل من الآن على عزاء بما هو آتٍ يفوق العقل: «ماران أثا»!! تعالَ يا رب: «وهكذا نكون كل حين مع الرب، لذلك عزُّوا بعضكم بعضاً بهذا الكلام.» (١تس٤: ١٧و١٨)

الروح القدس عامل أساسي في التبرير:

+ «لكن اغتسلتم، بل تقدستم، بل تبررتم، **باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.**» (١كو٦: ١١)

الروح القدس هنا عامل أساسي في التبرير، فهو يكمل فعل التبرير الذي يبدأ بالإيمان باعتبار الإيمان رباطاً روحياً فائقاً للطبيعة يربط روح المؤمن بالله كروح، فهو رباط روح بروح بعد ما مسَّ المسيح موتنا بموته. هنا يعمل الروح القدس من خلال الإيمان لتوصيل برّ الله الذي اكتسبه المسيح لنا بدمه لنصير في النهاية متحدين ببر الله والمسيح. علماً بأن دم المسيح هو بروح أزلي (عب٩: ١٤)

يطهر ويقدِّس ويبرِّر. لأن البرَّ بالنهاية هو حالة روحية للإنسان يتسربل بها عندما يلبس المسيح في المعمودية ويحيا فيه المسيح بالإيمان.

كذلك الروح هنا يمتد بالتبرير ويطرحه إلى الأمام وإلى فوق بآن واحد ليكون رجاء المستقبل، نتوقعه في يقين الإيمان، لذلك يقول بولس الرسول إننا «بالرجاء خَلَصْنا» (رو٨: ٢٤). فالخلاص بالتبرير، وهو فعلٌ ماضٍ أكمله المسيح على الصليب مرة واحدة، أصبح بالإيمان الحي واقعاً حياً الآن، وهو بالروح رجاء المستقبل (غل٥: ٥). وهكذا نعيش البر والخلاص الآن ونتوقعه بالروح ليكون حياة المستقبل:

+ «هكذا المسيح أيضاً بعد ما قُدِّم مرة لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين ينتظرونه.» (عب٩: ٢٨)

علماً بأن الروح القدس دائماً هو الذي يكمل كل ما نطلبه وكل ما نرجو أن نحققه. لأننا إن كنا لا نعلم ما ينبغي أن نصلي من أجله الآن، والروح يعلمنا ويشفع فينا، فكم ينبغي بالأَوْلَى والأهم أن نصلي ونطلب لكي يُكمِّل لنا الروح القدس أن نحيا البر في المسيح ونوجَد أمام الله بالنهاية في حالة البر، لكي نكون بلا لوم وقديسين أمامه في المحبة حسب وعد الله، بل حسب سَبْق تدبيره لنا!

فإن كنا في المعمودية نلبس المسيح حقاً ونصير بني الملكوت وعلينا بدلة العرس، فبالمسحة المقدسة نلبس البر بالروح القدس:

+ «لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً. بل هو **برٌّ وسلام وفرح في الروح القدس.**» (رو١٤: ١٧)

وانظر، أيها القارىء العزيز، أن البرَّ ليس فكرة أو مجرد نظرية، بل هو طاقة روحية عمَّالة ونشيطة، فلا يوجد البر وحده أبداً بل يأتي ومعه **السلام والفرح**. ولا ينبغي أن يوجد بار وليس له ملء السلام والثبوت الكامل في الفرح والابتهاج!

التبرير والملكوت في لاهوت بولس الرسول:

يضع القديس بولس مقابَلَة بين خطية آدم للدينونة، وهبة المسيح للتبرير، ليوضح كيف أن الخطية سادت في مملكة العالم الحاضر «قد مَلَكَ الموت» (رو٥: ١٤). فدخل الموت تحت الدينونة؛ يقابل ذلك سيادة هبة برِّ المسيح لنملك في الحياة الأبدية. فمقابل الخطية في مُلْك العالم، تقف نعمة المسيح في مملكة الحياة الأبدية بالتبرير:

+ « وأما الهبة فمن جرّى خطايا كثيرة للتبرير،

لأنه إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد،

فبالأَوْلَى كثيراً الذين ينالون فيض النعمة **وعطية البر سيملكون في الحياة (الأبدية)** بالواحد يسوع المسيح. » (رو٥: ١٦و١٧)

هذا هو «مُلْكُ البرِّ» أو مملكة البرّ. فالتبرير ليس حالة مجيدة نعيشها الآن وحسب، بل هي قوة ودوام وجودنا وحياتنا في ملكوت الله وإلى الأبد. لقد صاغ الله قوانين مملكته السماوية على أساس أن عنصر التبرير بالمسيح وفيه هو المظلّة التي يعيش تحتها الإنسان في مُلكِهِ الأبدي:

+ « كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قُدَّامه في المحبة. » (أف١: ٤)

سلطان قوة التبرير على جسد الإنسان وفكره في لاهوت بولس الرسول:

+ « ألستم تعلمون أن الذي تقدمون ذواتكم له عبيداً للطاعة،

أنتم **عبيد للذي تطيعونه**، إما للخطية للموت أو للطاعة للبر،

وإذ أُعْتِقتُم من الخطية، صرتم **عبيداً للبر**،

لأنه كما قدَّمْتم أعضاءكم عبيداً للنجاسة والإثم للإثم،

هكذا الآن **قدِّموا أعضاءكم عبيداً للبر...**

لأنكم لما كنتم عبيد الخطية كنتم أحراراً من البر،

فأي ثمر كان لكم حينئذ من الأمور التي تستحون بها الآن، لأن نهاية تلك الأمور هي الموت،

وأما الآن إذ أُعْتِقتُم من الخطية **وصرتم عبيداً لله، فلكم ثمركم للقداسة والنهاية حياة أبدية.** » (رو٦: ١٦—٢٢)

ألف ألف شكر لله! لأنه إن كان للخطية سلطان على الغرائز لتستخدمها فتستعبد الإنسان لقانون سطوتها في كل نواحي الخطايا، فيصبح الإنسان أسيراً مذلولاً لسلطان الخطية؛ فإن الله أقام لنا بواسطة المسيح وقوة الدم سلطة جديدة روحانية فائقة على الطبيعة، إذا تمسَّك بها الإنسان وأطاع تدبيرها وخضع لصوت إيحاءاتها الخيِّرة في القلب فإنه يدخل بإرادته الحرَّة تحت سلطانها وسطوتها وبأسها بقوة أعلى وأشدّ من سلطان الخطية التي ينفضها عنه ويلقيها أرضاً. وحينئذ يدخل الإنسان في عبودية البرِّ، أي في خدمة البرِّ والقداسة، أي عبودية خدمة الله التي هي أعظم حرِّية عرفها الإنسان، إذ يتحرر من كل قيود واضطرارات وسلطان الجسد بغرائزه الجسدية والنفسية وعاداته التي

قد تكون ملكت واستعبدت الإنسان لتُحْدِره في يأسه إلى الموت والهاوية.

إن ما يريد بولس الرسول أن يقوله لنا هو أن لتبرير الله لنا بدم المسيح قوةً وطاقةً وسلطاناً، وَهَبَها الله لنا لنسود على الخطية مهما تكون قد سادت علينا. فإذا أطعنا تدبير الله وخضعنا لبرِّه، فالله سيملك علينا ببرِّه عِوَضَ الخطية التي تكون قد ملكت علينا غشاً وخداعاً.

وفي مقابل أعمال الخطية الفاضحة وثمرتها المرَّة التي فيها مذاقة الموت، يبدأ الإنسان يثمر للقداسة بأعمال نشيطة تُزيده قُرْباً من الله، فيتذوق الحياة الجديدة.

وباختصار، فالتبرير قوَّة محرِّرة من سلطان الخطية.

لأنها قوة دم لتبرئةٍ إلهية، لا تقدر الخطية أن تقف أمامها.

قوة فكٍّ وربطٍ،

فهي تفكنا من عبودية ظالمة شريرة، لتربطنا بمصدر البر: بالمسيح والآب!

فهي «قوة الله بسلاح البرِّ لليمين واليسار!!» (٢ كو٦: ٧)

البر والأخلاق في المسيحية عند بولس الرسول:

بولس الرسول يضع البر أساس حياة الإنسان الجديدة من جهة السلوك والأخلاق:

+ «... أن **تخلعوا** من جهة التصرف السابق الإنسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور،

وتتجددوا بروح ذهنكم،

وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق.»

(أف٤: ٢٢-٢٤)

أما مصدر تجديد الذهن فهو كلمة الإنجيل لأنها القوة الإلهية الأولى التي ينبعث منها عمل الله:

+ «كل الكتاب هو موحى به من الله، ونافع **للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب** الذي في **البرِّ**.» (٢تي٣: ١٦)

والإكليل النهائي الذي سيخرج به الإنسان من سلوكه وأخلاقه وممارسة التقوى بكل صنوف التعليم والتوبيخ والتوبة، هو «إكليل البر» أي إكليل الشهادة بأنه خدم بر الله وتبرأ من هذا العالم:

+ «**قد جاهدتُ الجهاد الحسن، أكملتُ السعي، حفظتُ الإيمان، وأخيراً قد وُضِعَ لي إكليل البر الذي يَهَبه لي في ذلك اليوم الرب الديَّان العادل.**» (٢تي٤: ٧و٨)

الفصل الثالث

التقديس

في العهد القديم:

«اسم» الله أو «كلمته» أو «روحه» كلها استعلانات شخصية خاصة به. ولكن حينما نقول: «**الله القدوس**»، فهذه الصفة تختص بعلاقة الله بكل ما عداه من مخلوقات، أي تفيد دائرته الخاصة في مقابل دائرة العالم المخلوق سواء في السماء أو على الأرض.

يأتي بعد ذلك كل ما يختص بحلول الله في الخليقة. فالمكان الذي يحل فيه يصير مقدَّساً بمعنى خاص بأن لا يُقترب منه إلاَّ بشروط، كما حلَّ في العُلَّيقة. فعند اقتراب موسى من العُلَّيقة حذره الرب قائلاً: «لا تقترب إلى ههنا، اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة» (خر٣: ٥). ومنذ ذلك الحين وكل مكان يحلُّ فيه الرب يُسمَّى «**بالموضع**». وحتى الآن يذكر الكاهن موضع حلول الله، وذلك في القداس وقت تلاوة سر الإنجيل: «اذكر يارب خلاص هذا **الموضع المقدَّس**[1] الذي لك ...» وهو يعني بذلك بنوع خاص «الهيكل» حيث يحلُّ الرب.

وهكذا ابتدأت تتسحب القداسة على كل ما يخص الله على الأرض، فالهيكل مقدَّس وكل أدواته والأشياء التي فيه، والكهنة الذين يخدمون الهيكل مقدَّسون، والذبائح التي تُقدَّم في الهيكل مقدسة، وأيام الأعياد مقدسة، والسبت مقدس. وبعد ذلك يجيء دور الشعب بأجمعه لأن الله اختاره لنفسه وأحبَّه، فصار له أيضاً خاصَّةً، وبذلك صار شعباً مقدساً، بل وأورشليم كلها ثم فلسطين كلها صارت أرضاً مقدسة لأن الله دعاها أرضه.

---

(١) المسيح نفسه استخدم هذا الاصطلاح: «متى نظرتم رجسة الخراب ... قائمة في **المكان المقدس**.» (مت٢٤: ١٥)
ἐν τοπῳ ἁγίῳ

وبعد ذلك تسحَّبت القداسة لتشمل حتى الجسد وأعضاءه حينما يُنذَر للرب ويتطهر بالبعد عن كل ما ينجسه: «إنه كل أيام انتذاره مقدس للرب.» (عد٦: ٨)

وما يُقال عن كل ما يخص الله على الأرض، يُقال على كل ما يخصه في السماء، فالسماء وكل خلائقها التي تعبده هي مقدسة. والعكس قائم، فكل ما لا يمتُّ إلى قداسة الله ليس مقدساً، أما الذي يتعارض مع قداسة الله فهو النجس.

في العهد الجديد:

تسحَّبت قداسة الله من علاقته بالمخلوقات لتدخل في صميم التعبير عن طبيعته الخاصة، ولكن في إطار مفهوم العهد القديم، وذلك بمعنى الابتعاد والسُموّ. فالعهد الجديد يعتبر أن تسبحة الشاروبيم التي وردت في إشعياء النبي تخصُّ طبيعة الله في ذاته، بل وتُعبِّر عن الثالوث الأقدس: «وهذا نادى ذاك وقال: **قدوس قدوس قدوس** رب الجنود، مجدُه مِلءُ كل الأرض» (إش٦: ٣). لذلك نسمع هذه التسبحة في سفر الرؤيا أيضاً (رؤ٤: ٨).

ومن مضمون تسبحة الشاروبيم في إشعياء النبي التي تمت في سفر الرؤيا والتي فيها يأخذ المسيح صفة «**القدوس**» باعتباره «**رب القوات**»، تسحبت القداسة إلى معنى «كُلّي القوة أو القدرة». «بانتوكراتور» = παντοκράτωρ Pantocrator. وبهذا صارت صفة «كُلّيّ القدرة» هي الصفة الظاهرة الفعَّالة لصفة القداسة في طبيعة الله؛ وانتهى هذا بالتحام صفة «القدوس» بصفة «كُلّيّ القدرة» لتعبِّر عن جوهر الله أو الجوهر الإلهي الفعَّال والمستعلن الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور.

ونجد في إنجيل القديس يوحنا أن هذا التعبير عن قداسة طبيعة الله واضح في صلاة المسيح لله الآب: «**أيها الآب القدوس**» (يو١٧: ١١)، تعبيراً عن طبيعة **الأبُوَّة القدوسة**، ومن هنا تسحبت على **طبيعة الابن بالضرورة**. كذلك في الصلاة الربانية يقول المسيح بتقديس **اسم الله**: «**ليتقدَّس اسمك**.» (مت٦: ٩)

وأخيراً يضم المسيح الآب والابن والروح القدس تحت هذا **الاسم**: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم **الآب والابن والروح القدس**» (مت٢٨: ١٩). وبهذا تحددت عبادة الله في الآب والابن والروح القدس على أساس جوهر الله الواحد المقدس الواجب التقديس، بمعنى التخصُّص من جانب الكنيسة عن العالم، والتطهير والتسامي عن كل ما لا يتناسب مع طبيعة الله المخدومة.

المسيح القدُّوس:

+ «**القدوس** المولود منكِ يُدعى ابن الله.» (لو١: ٣٥)
+ «ما لنا ولك يا يسوع الناصري، أتيت لتُهلكنا، أنا أعرفك مَنْ أنت **قدوس الله**.» (مر١: ٢٤)
+ «فالذي **قدَّسه** الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تُجدِّف لأني قلت إني ابن الله.» (يو١٠: ٣٦)
+ «وأما أنتم فلكم مسحة من "**القدوس**" وتعلمون كل شيء.» (١يو٢: ٢٠)
+ «ولكن أنتم أنكرتم "**القدوس**" البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل.» (أع٣: ١٤)
+ «لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك "**القدوس**" يسوع الذي مسحته، هيرودُس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب إسرائيل.» (أع٤: ٢٧)

ثم تبدأ حلقة الاتصال بين المسيح «**القدوس**» والآب القدوس لتقديس شعب الله الجديد، وذلك في سفر العبرانيين، باعتبار المسيح هو رئيس الكهنة العظيم **الذي دخل الأقداس العليا في السماء بدم نفسه لينضح علينا من السماء. فوجد أو أوْجَدَ لنا فداءً أبدياً، حيث الفداء هنا يأخذ صورة التقديس بالدم المقدَّم على عرش الله في السماء بصفته الفصح الأبدي الذي خرج بنا من العالم ليوصِّلنا إلى كنعان السماوية، وبقي أمام الله كخروف الفصح المذبوح ينضح علينا بدمه ليظل يكمِّل خروجنا حتى نهاية الدهور كلها:**

+ «لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا **قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة** وصار أعلى من السموات.» (عب٧: ٢٦)
+ «...بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى **الأقداس** فوجد فداءً أبدياً.» (عب٩: ١٢)
+ «...دم المسيح، الذي بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب **يطهِّر** ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي.» (عب٩: ١٤)
+ «لأن المسيح لم يدخل إلى **أقداس** مصنوعة بيدٍ أشباهِ الحقيقية، بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا.» (عب٩: ٢٤)
+ «فبهذه المشيئة نحن **مقدسون** بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة.» (عب١٠: ١٠)
+ «**...لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع.**» (عب١٠: ١٩)
+ «فكم عقاباً أشرَّ تظنون أنه يُحسَبُ مستحقاً مَنْ داس ابن الله **وحَسِبَ دم العهد الذي قُدِّس به** دنساً وازدرى بروح النعمة.» (عب١٠: ٢٩)
+ «لذلك، يسوع أيضاً لكي **يقدِّس الشعب بدم نفسه** تألم خارج الباب» (عب١٣: ١٢).

والأصل اليوناني للتعبير «دم نفسه» يجيء τοῦ ἰδίου αἵματος بمعنى دمه الشخصي = his own. هنا انتساب الدم له يأتي مضاعفاً للتأكيد.

واضح هنا التسلسل المتدرج عَبْر الزمن والاستعلان: من الله القدوس إلى الآب القدوس إلى الابن القدوس، إلى المسيح القدوس، إلى الدم المقدس، إلى الدخول إلى الأقداس بالدم المقدس، إلى التقديس بالدم المقدس.

علاقة التقديس بالتبرير:

التبرير: واضح أنه يستمد وجوده وكيانه من **عمليات سلبية** بالدرجة الأُولى. فهو قائم على أساس **غفران الخطايا، والصفح عنها، والتحرير من العبودية تحت الخطية، والتخليص من ديون ثقيلة، والخروج من حالة العداوة إلى حالة تصالح**. فالتبرير يتطلب أولاً عمليات متلاحقة تجريدية من ماضٍ أثيم وجهالة.

التقديس: هو **الحالة الإيجابية التي يدخلها المؤمن بعد التبرير**، فهو عبارة عن عمليات إيجابية متلاحقة تعدُّه للحياة والشركة بالروح مع الله. والتقديس لا بد أن يكون قد استوفى التبرير لأنه يستحيل تماماً أن يُقالَ أن القديس لم تُغفَر خطاياه بعد. لأن العمليتين لا يمكن فصلهما، فهما يبدآن معاً وينتهيان معاً.

فالتقديس لا يمكن أن يوجد بدون تبرير، كذلك التبرير لا يمكن أن يكون بلا تقديس، فالتبرير والتقديس حالتان متلازمتان. وبولس الرسول يقدم لنا تعليماً يشمل هذه الحقيقة الإيمانية:

+ « أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله؟،

لا تضلوا، لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور، ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله،

وهكذا كان أُناس منكم،

لكن اغتسلتم، بل **تقدَّستم**، بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.»

(١كو٦: ٩-١١)

هنا في هذه الآيات ثلاث دوائر للخطية غير مقبولة لدى الله على وجه الإطلاق وأجرتها الرفض واللعنة:

الدائرة الأُولى: هي الدائرة الاجتماعية العامة التي يترأس فيها الإنسان على الإنسان ويقترف الظلم بكل أنواعه.

الدائرة الثانية: هي الدائرة ذات التعامل السري الفردي، إنسان مع إنسان، وتشمل جميع أصناف الزنا.

الدائرة الثالثة: هي دائرة الإنسان النفسية الداخلية التي يصدر منها التعدّي.

كل هذه الخطايا التي اشتهر بها الوثنيون في كورنثوس في القرن الأول المسيحي ــ وللأسف لا تزال لاصقة حتى الآن وحتى بالمسيحيين في القرن العشرين، فهذه كلها تُغسل اغتسالاً ــ وكأنها وسخ الجسد ــ في المعمودية المقدسة التي نأخذ منها بدءاً جديداً لخلقة جديدة لحياة جديدة طاهرة، مبرّرة ومقدّسة، وكأن الإنسان وُلِدَ ولادة أخرى من الله.

فبالمعمودية وبثلاث غطسات في الماء على اسم الثالوث الأقدس، وعلى خلفية من إيمان حيٍّ، يكون المؤمن بالمسيح قد ارتبط فيها موتاً مع موت وحياة مع حياة وتَلامُس الروح بالروح والقلب بالقلب، استعداداً ليسري الدم الأقدس في جسد الخطية فيطهره ويقدسه ليصير الإنسان هيكلاً مقدّساً لله، ويخرج المؤمن من المعمودية ليتناول جسد الرب ودمه شهادة علنية بما تم بالقوة في السرّ غير المنظور.

والذي يستوقفنا هنا في عمليات التخليق الجديد للإنسان في المعمودية، هو موضوع **التقديس**. فالإنسان بعد أن كان في نقع الخطايا والنجاسة ينتقل ليبلغ حالة جديدة بالدخول في دائرة مخصّصات الله ليصير من خاصته، من محبيه، رعيّة مع القديسين، قديساً من القديسين وأهل بيت الله (أف ٢:١٩).

هنا تحددت إقامة الإنسان من العَبَث في شوارع العالم، إلى الانغراس في بيت الله: «مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا يُزهرون» (مز٩٢:١٣)، لقد حُكِّر عليه بعيداً عن ماضي الظلمة وبيتها، صار حِكْراً لله لا ينازعه فيه أحد. يُسيَّج عليه الروح القدس فما يستطيع الإفلات: «لأن محبة المسيح تحصرنا» (٢كو٥:١٤)، «ينقادون بروح الله» (رو٨:١٤)، «مُقيّداً بالروح» (أع٢٠:٢٢)، «مَنَعهم الروح القدس» (أع١٦:٦)، «يقودنا في موكب نصرته» (٢كو٢:١٤). كل هذا يفيد أن القديسين أصبحوا تحت قيادة خاصة مباشرة من الله كجيش خلاص: «كجندي صالح ليسوع المسيح.» (٢تي٢:٣)

ثم يعود بولس الرسول ليُضفي صفة التقديس على الكنيسة بنفس مستوى التقديس للفرد، حيث يُفهَمُ من هذا أن المؤمن الذي يتقدس بالمعمودية والروح والدم إنما يتقدس لحساب الكنيسة وليس لحساب نفسه؛ وعلى القارىء أن ينتبه للنموذج الفردي كيف يطبّقه بولس الرسول عليه ثم

لنموذج الكنيسة:

+ «أحبني وأسْلَم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)
+ «اغتسلتم بل تقدستم ...» (١ كو٦: ١١)
+ **«كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة، وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدسها مُطهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة ... بل تكون مقدسة وبلا عيب.»**

(أف٥: ٢٥—٢٧)

الباب الرابع
الأسرار في لاهوت بولس الرسول

تمهيد

كلمة «سر» sacramentum — μυστήριον هنا هي محاولة لشرح عمل النعمة الخفي بأعمال ظاهرية.

وكلمة «سِرٌّ» باليونانية μυστήριον تفيد «العمل الخفي»، والكلمة المقابلة باللاتينية sacramentum تفيد «العمل المقدس».

وهنا نحن نبتدىء في شرح الأسرار فيما يختص بالثلاثة الأعمال الأُولى التي يتحتم على المؤمن المسيحي أن يؤديها، بأن تجرى عليه لكي يصير عضواً في الكنيسة، أي في جسد المسيح وهي:
(أ) المعمودية. (ب) وضع اليد. (ج) شركة التناول من جسد الرب ودمه. وهذه الثلاثة الأعمال تأتي متعلقة بالإيمان، فهي تحققه عملياً بالسر وتنطقه علنياً بالشهادة، وذلك بحسب لاهوت بولس الرسول:

+ «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء.» (١كو١١: ٢٦)

أي أن هذه الثلاثة الأسرار: المعمودية، مع وضع اليد، والإفخارستيا، المرتبطة بالإيمان، هي أيضاً منبثقة من عمل الفداء الذي أكمله المسيح على الصليب بالموت ثم القيامة، ومنتهية إليه.

أما بقية الأسرار فستأتي بعد هذه الأسرار الثلاثة الأُولى الأساسية. على أننا لسنا هنا بصدد

شرح طقوس وأسرار الكنيسة بنوع عام شمولي ولكننا ملتزمون بتتبع ما جاء في رسائل بولس الرسول فقط، كالنظام الكنسي أي الرئاسات الكهنوتية، والزواج، وربما التوبة باعتبارها صورة من عمل المصالحة.

الفصل الأول

المعمودية Βάπτισμα

معنى «المعمودية»:

كلمة «المعمودية βάπτισμα » لم تَرِدْ كثيراً في رسائل القديس بولس، فقد وردت ثلاث مرات، ولكنه يستعمل أكثر منها كلمة «يعمِّد» βαπτίζειν ، وهي صيغة التكثير من كلمة يغطِّس في الماء βάπτειν .

كلمة «يغطِّس» βάπτειν وردت كثيراً في العهد القديم، بعكس كلمة «يعمِّد» بمعنى «غطَّس كثيراً» التي لم تَرِدْ في كل العهد القديم إلاَّ مرتين:

+ «فنزل وغَطَّسَ سبع مرات (βαπτίζειν) في الأُردن.» (٢مل٥: ١٤)

+ «تاه قلبي وفي الخطية غُطِسْتُ مرات (تعمَّدت) βαπτίζειν ، وغَشِيتْ الرعبة نفسي.» (إش٢١: ٤ السبعينية)

فكلمة «عمَّد» βαπτίζειν في العهد الجديد تفيد «غطَّس عدة مرات»، سواء في معمودية يوحنا أو في معمودية المسيح، أو في الطقس الكنسي: ثلاث مرات. وقد بدأت تأخذ الكلمة «يعمِّد» معاني جديدة بجوار الغَطْس عدة مرات، فهي تعني التطهير بالماء أو الاغتسال.

و «**المعمودية**» وردت في رسائل بولس الرسول، كما سبق وقلنا، ثلاث مرات: اثنتان منها بمعنى الدفن السرِّي، والثالثة بمعنى وحدة الكنيسة:

١ ــ «فدُفِنَّا معه **بالمعمودية** للموت ...» (رو٦: ٤)

٢ ــ «مدفونين معه في **المعمودية** التي فيها أُقِمْتُم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات.» (كو٢: ١٢)

٣ ــ «ربٌّ واحد، إيمان واحد، **معمودية واحدة**.» (أف٤: ٥)

أما كلمة «يعمَّد» فقد وردت في رسائل بولس الرسول ثلاث عشرة مرة.

وهي إما تأتي بصيغة يعمَّد في المسيح εἰς Χριστόν .
أو يعمَّد في **موت المسيح** εἰς τὸν θάνατον .
أو يعمَّد في **جسد** واحد εἰς ἓν σῶμα .
أو يعمَّد في **اسم** ... εἰς τὸ ὄνομα .

وبهذا يكون التعميد إما في المسيح أو في موته أو في جسده، وإما في اسم المسيح. وهذه سنأتي على شرحها فيما بعد.

والأصل والأساس في المعمودية في المسيحية عند بولس الرسول لا يمتُّ إلى معمودية يوحنا لا من قريب ولا من بعيد، بل هو صليب ربنا يسوع المسيح. فموت المسيح على الصليب هو في تعبير المسيح السري «**صبغة المسيح**» **أي معموديته** βάπτισμα، كما جاءت في إنجيل القديس مرقس: «فقال لهما يسوع لستما تعلمان ما تطلبان. أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا وأن تصطبغا **بالصبغة** βάπτισμα التي **أصطبغ** βαπτίζομαι بها أنا» (مر١٠:٣٨). وأيضاً في إنجيل القديس لوقا: «لي **صبغة** βάπτισμα **أصطبغها** وكيف أنحصر حتى تُكمَل.» (لو١٢:٥٠)

فسِرُّ المعمودية في المسيحية هو موت بالدرجة الأُولى حيث ينال الجسد العتيق فعل موت حقيقي. لأن المعمودية عند بولس الرسول هي موت ودفن، هي موت ودفن في المسيح. فالمعمودية هي فعل موت في εἰς موت المسيح لنوال قوة الموت «مع σύν» المسيح لبلوغ غاية موت المسيح وهي الحياة من الموت. فالمعمودية فعلٌ سرِّي إلهي يحمل سر الجلجثة وفعلها ونتائجها.

والمسيح أسس سِرَّ المعمودية المقدسة لهذا الغرض لننال به الاتحاد في موته، ومن خلال صبغة الماء ننال صبغة الدم! وهذا واضح أشد الوضوح في كلام المسيح الذي يتقطَّر سرًّا: «أما الكأس التي أشربها أنا (دم الصليب) **فتشربانها**، وبالصبغة التي أصطبغ بها أنا **تصطبغان** (دم الصليب).» (مر١٠:٣٩)

المعمودية هنا تحقق وعد الرب: «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو١٢:٣٢)، هكذا في المعمودية يجذب المسيح كل المعتمدين في موته ليوحِّدهم فيه بصليبه ودمه.

واضح من تعبير بولس الرسول عن المعمودية أنها بالتغطيس الكلي تحت الماء وذلك من قوله

مدفونين معه: «**مدفونين معه في المعمودية**» (كو٢: ١٢)، «أنه دُفِنَ وأنه قام» (١ كو١٥: ٤).
وكان هذا هو الطقس الرسمي للكنيسة منذ أول تأسيس هذا السر.

اصطلاحات أخرى للتعبير عن سر المعمودية:

وقد عبَّرت الكنيسة عن هذا السر باصطلاحات أربعة أساسية:

١ ــ **حميم مقدس:** وهو يرمز إلى التطهير الداخلي بالروح القدس.

٢ ــ **الاستنارة:** وهو يرمز إلى انفتاح الوعي الروحي على الحق الإلهي في المسيح النور الحقيقي، بعد العمى الروحي في ظلمة العالم.

٣ ــ **الدفن السري:** وهو يرمز إلى الموت للإنسان العتيق والاتحاد بموت الرب.

٤ ــ **القيامة السرية:** وترمز إلى إعادة الخلقة والحياة الجديدة.

ثم أُضيف إلى هذه التعبيرات السرية عن العماد تعبيران جديدان من صميم الإنجيل:

٥ ــ **المسحة بزيت الزيتون:** وهي ترمز إلى تطعيم المولود الجديد في شجرة الزيتون الأصلية.

٦ ــ **ثوب المعمودية الأبيض:** وهو يرمز إلى خلع العتيق مع أعماله ولبس الجديد، أي التحول الأخلاقي.

وهذه التعبيرات كلها واضح أن الكنيسة أخذتها مباشرة من تعاليم بولس الرسول من نصوص الآيات.

واستخدام هذه التعبيرات كلها مبكِّر جداً في الكنيسة، وقد أوردها بتدقيق القديس كيرلس الأُورشليمي (٣١٥ ــ ٣٨٦م) في عظاته للمعمَّدين الجدد والتي ألقاها في ١٨ مارس سنة ٣٤٧م. وهذه العظات هي أهم ما بقي لنا من أعماله. وقد جاءت بالترتيب كالآتي:

(أ) خلع الثوب تماماً من على الجسد بمعنى رفض الإنسان العتيق(١).

(ب) المسْح المبدئي بزيت مقدس (ἐλαίῳ ἐπορκιστῷ) كتطعيم في شجرة الزيتون الأصلية(٢). وهي تختلف عن المسحة المقدسة التي تأتي بعد العماد (μῦρον χρῖσμα) التي للتثبيت(٣).

---

1. *Catech. Mystag.*, II:2; PG XXXIV,1077.
2. Ibid., 1080.
3. *Catech. Mystag.*, III.

(ج) التغطيس تحت الماء ثلاث مرات للموت والدفن(٤).

(د) الخروج من الدفن فوق الماء للتعبير عن القيامة والدخول في الاستنارة(٥).

(هـ) لِبْس الثوب الأبيض للتعبير عن تقديس النعمة(٦): «اللابس النور كثوب.» (مز١٠٤: ٢)

المعمودية استنارة: φωτισμός

يُعتبَر القديس يوستين الشهيد أول مَنْ ذكر الاستنارة في شرح طقس العماد(٧)، ولكن من كلامه يُستَفَاد أنه كان اصطلاحاً شائعاً في الكنيسة ولم يستحدثه.

والكنيسة أخذت الاستنارة كفعل سري في المعمودية من القديس بولس رأساً في قوله: «**مستنيرة عيون أذهانكم** لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين.» (أف١: ١٨)

علماً بأن لحظة العماد هي في الحقيقة إدراك واقعي للدعوة ولغنى مجد ميراث المسيح في القديسين.

كذلك فبالتعميد يصير المعمَّدون أبناءً للنور، وقد دخلوا في نهار المسيح بعد ظلمة ليل العالم.

+ «وأما أنتم أيها الإخوة **فلستم في ظلمة**، حتى يدرككم ذلك اليوم كلصٍّ، جميعكم **أبناء نور وأبناء نهار**، لسنا من ليل ولا ظلمة.» (١تس٥: ٤و٥)

وأبناء المعمودية، وإذ صاروا أبناء النور، أصبح نورهم يضيء العالم كانعكاس من نور وجه المسيح الذي يسطع في قلوبهم حباً وبساطة وقداسة:

+ «لكي تكونوا بلا لوم **وبسطاء أولاداً لله** بلا عيب في وسط جيل معوج وملتوٍ **تضيئون بينهم كأنوار في العالم**.» (في٢: ١٥)

+ «لأنكم كنتم قبلاً ظُلمة وأما الآن **فنور في الرب**. اسلكوا **كأولاد نور**.» (أف٥: ٨)

والمعمودية عند بولس الرسول ملتحمة بلاهوت التبرير والفداء والخلاص:

+ «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن بل بمقتضى رحمته **خلَّصنا** بغسل الميلاد الثاني **وتجديد الروح**

---

4. Ibid., II,2; PG XXXIV,1080,1081.
5. Ibid.
6. Ibid., IV,8; PG XXXIV,1104.
7. St. Just., *Apol.* I.61.

القدس.» (تي٣: ٥)

+ «وهكذا كان أناس منكم، لكن اغتسلتم (المعمودية): ἀπελούσασθε،

بل تقدستم: ἡγιάσθητε،

بل تبررتم: ἐδικαιώθητε،

باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.» (١ كو٦: ١١)

معمودية الكنيسة:

+ «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها **لكي يقدسها، مُطهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة**، لكي يُحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب.» (أف٥: ٢٥ــ٢٧)

كذلك يرى القديس بولس الكنيسة وقد تعمَّدت بالكامل في أشخاص أعضائها ــ وكل يوم بالكلمة بالإنجيل المقروء ــ فصارت مقدَّسة بأولادها القديسين وبإنجيلها المقدس، مجيدة بمجد حضرة المسيح وحلوله فيها كجسده الخاص، لا دنس فيها بسبب كلمة الحياة بالإنجيل وقوة الروح في العماد لبلوغ التقديس: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتُكُم به.» (يو١٥: ٣)

و«لا غضن»، أي لا آثار عتق الأيام وبلاء الخطية، فهي عروس باقية في أَوَج جمال غُرْسها لا يمحوه الزمن.

«مقدَّسة» بسبب حضرة المسيح وملء الروح فيها مع ربوات ملائكة وأرواح القديسين المكمَّلين في المجد الذين لا يفارقونها ليلَ نهارَ وهم في سماء مجد الله بآن واحد.

بولس الرسول يصف هنا الكنيسة هكذا:

+ «أتيتم إلى **جبل صهيون، وإلى مدينة الله الحي، أورشليم السماوية، وإلى ربوات هم محفل ملائكة وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات، وإلى الله ديَّان الجميع، وإلى أرواح أبرار مكمَّلين، وإلى وسيط العهد الجديد يسوع**، وإلى دم رش يتكلم أفضل من هابيل.» (عب١٢: ٢٢ــ٢٤)

ولينتبه القارىء أن كل هذه الصفات التي اكتسبها المؤمن بالمعمودية بالماء والروح والتي نالتها الكنيسة بعماد آخر إضافي بالكلمة، هذا كله قائم على أساس لاهوتي ثابت:

+ «أحبني وأسلم نفسه لأجلي.» (غل٢: ٢٠)

+ «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها.» (أف٥: ٢٥)

هنا الفداء هو القوة الفعَّالة في عماد الفرد والكنيسة.

هنا **الدم** سرُّ الثوب الأبيض الذي يدَّثر به المعمَّد الخارج من بطن المعمودية: «وقد غسَّلوا ثيابهم وبيَّضوا ثيابهم في دم الخروف.» (رؤ٧:١٤)

هنا الدم هو أساس تطهير الكنيسة بالكلمة وغسلها، لأنه دم الكلمة الابن الوحيد. بهذا يلزم أن نربط ربطاً محكماً بين ما يجري في سر المعمودية وما جرى للمسيح على الصليب والقبر والقيامة، حيث يتم للفرد والكنيسة الشركة في الموت والقيامة ونتائجهما.

في مفهوم بولس الرسول عن معمودية الكنيسة يقول: «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يقدِّسها مُطهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة» (أف٥:٢٥و٢٦)، وهو يضع هنا كلمة «**لكي**» حتى يربط بها بين حب المسيح للكنيسة وموته على الصليب من أجلها لكي يقدِّسها، وذلك بتطهير كل عضو فيها. والقصد النهائي أن «يُحضِرها» بمعنى يُعِدُّها لنفسه عروساً طاهرة تماماً ومقدَّسة تماماً. هنا «يحضرها» باليونانية παραστήσῃ تحمل الغرض البعيد النهائي بعد أن تستكمل الكنيسة غسل كل أعضائها على مدى الزمن كله، لكي تبقى له بالنهاية.

لاحظ هنا أن التقديس بالنسبة للكنيسة يأتي باكتمال أعمال المعمودية للأفراد، مضافاً إليها التقديس بالكلمة على الكل في الكنيسة المجتمعة. يقول بعض اللاهوتيين بكلمة الإنجيل فقط، والبعض كالقديس ذهبي الفم يكتفي بنطق الثالوث في التعميد، ولكن الواضح أن تقديس الفرد هو الذي يتم بالعماد بالماء بنطق اسم الثالوث فقط، أما تقديس الكنيسة كجماعة فيضاف إليه التقديس بكلمة الإنجيل: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به.» (يو١٥:٣)

سر الموت والقيامة في المعمودية:

إن كانت المعمودية ميلاداً ثانياً جديداً فلا بد أن يسبقه موتٌ، فالخلاص بالمسيح هو عن طريق الصليب والموت، وهو يخلِّصنا بأن يُشركنا في موته. علماً بأن الموت الذي ماته، ماته في بشريتنا، فليس عسيراً عليه أن يُجريه علينا، وهذا ما يتم في المعمودية:

+ «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته،
فدُفنَّا معه بالمعمودية للموت،
حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة،
لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته،
نصير أيضاً بقيامته،

عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه،

ليُبْطَلَ جسد الخطية كي لا نعود نُستعبد أيضاً للخطية،

لأن الذي مات قد تبرَّأ من الخطية.» (رو٦: ٣-٧)

في هذا الوصف اللاهوتي للمعمودية نلمح ثلاثة محاور أساسية:

(أ) التأثير المباشر للمعمودية.

(ب) مكاسب المعمودية الآن وفي المستقبل.

(ج) الواجبات التي تلقيها علينا المعمودية.

بادىء ذي بدء نُذكِّر القارىء **بانحراف** معظم اللاهوتيين المحدثين ــ إن لم يكن كلهم ــ في اعتبار موت المسيح الكفاري في نظرهم أنه نوع من الإنابة أو الإحلال محلّنا، فهو في عُرْفهم **مات عوضاً عنا** (أنظر صفحة ٢٨٥)، وبذلك يكون التبرير الذي نلناه ــ حسب رأيهم ــ هو منحة والموت الذي جُزْناه مع المسيح هو اعتباريٌّ، أي أن الله بمقتضى إيماننا بالمسيح اعتبرنا أمواتاً كما اعتبر أننا تبرَّرنا، وطبعاً يكون ذلك على أساس أنه لم يحدث شيء داخلنا إنما مجرد أن طوق الخطية انكسر عنا على قدر ثقة الإيمان بالمسيح ويقين الإرادة المتجددة بقوة الإيمان أن المسيح مات من أجل رفع الخطية.

هذا الشرح الذي قدمه آلاف الوعَّاظ ويجاهد الملايين ليعيشوا بمقتضاه هو شرح ينقصه يقينية الواقع الداخلي الشخصي الذي يحسُّه المؤمن المعتمد الذي مات مع المسيح حقاً.

ونحن نصحح المفهوم فنقول: الموت الذي ماته المسيح ماته من **أجلنا** وليس عنّا! لأن المسيح إن كان **مات عني** فأنا غير مُطَالَبٌ ــ بعد ــ أن أموت، ولا أكون قد مُتُّ معه، لأنه كفاني شر الموت إذ مات هو عني! ولكن الحقيقة أنه مات **من أجلي**، فالموت الذي ماته ماته لي خاصة وباسمي «أحبني وأسلم نفسه **لأجلي**» (غل٢: ٢٠). فهو موتي أنا بالدرجة الأولى، وأنا متُّ لما مات المسيح **من أجلي**، بل وأكملتُ الموت بكل كمال أسباب الموت الذي ماته، ماته عن الخطية الأصلية التي فيَّ وخطية أجدادي التي استقرت في ميراثي، وخطية أمسي ويومي وخطية مستقبلي بل وخطايا العالم كله!! هنا واقع الموت في داخلي، وتأثيره يعمل في كل كياني.

ليس هذا فقط بل إن الموت الذي ماته المسيح من أجلي لم يَمُتْه بعيداً عني، لأنه مات في **بشريتنا** التي أخذها منا ليموت فيها، في جسد كل إنسان، أي مات في جسدي، في إنساني الخاطىء. فالموت الذي جازه المسيح جازه فيَّ، فجُزْتُه أنا حتماً معه، فموتي مع المسيح هو موتٌ

يقينيٍّ، هو واقع حياتي أكثر مما هو واقع إيماني، على هذا يقول بولس الرسول بكل يقين الواقع والإيمان معاً:

+ «عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه، ليُبْطَلَ جسد الخطية، كي لا نعود نُسْتعبَد أيضاً للخطية.» (رو٦:٦)

+ «ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات.» (غل٥: ٢٤)

لينتبه القارىء: فهناك فارق كبير وخطير بين أن يكون المسيح **مات عني**، فأكون في حاجة لمن ينقل موت المسيح إليَّ، وبين أن يكون المسيح مات **من أجلي**، **فهو موتي الخاص وليس موته فقط**. ولأنه مات في بشريتنا فنحن أصحاب هذا الموت الفدائي بالملكية معه.

نحن في المعمودية نسترجع شركتنا في موت المسيح على الصليب في أجسادنا، ونتيجة موت المسيح لأجلنا هي بالضرورة نتيجة موتنا مع المسيح، لقد أبطل المسيح الخطية بموته. هكذا يهتف بنا بولس الرسول أن ننتبه:

+ «**احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية**، ولكن أحياءً لله بالمسيح يسوع ربنا.» (رو٦:١١)

فالخارج من جرن المعمودية هو خارج مع المسيح من دفن القبر بعد موت الصليب: «عالمين أن المسيح بعد ما أُقيمَ من الأموات لا يموت أيضاً، لا يسود عليه الموت بعد، لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة والحياة التي يحياها فيحياها لله. **كذلك أنتم...**» (رو٦: ٩-١١). و بولس الرسول يقولها صراحة: «لأن الذي مات قد تبرأ من الخطية.» (رو٦:٧)

المعمودية لا تعدُّنا للطهارة بل قد طهَّرتنا، وهي لا تعدُّنا للقداسة بل قدَّستنا، ولا تعدُّنا للتبرير بل برَّرتنا. فمهما كانت الخطايا، وليس أشنع سجلاً للخطايا من الخطايا التي سردها بولس الرسول على مسامع أهل كورنثوس وفي نهايتها يقول:

+ «وهكذا كان أُناس منكم **لكن اغتسلتم**، بل تقدَّستم، بل تبرَّرتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.» (١كو٦:١١)

المعيار الروحي للإنسان المسيحي المؤمن الخارج من جرن المعمودية أو العائش في سرِّها هو:

+ «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع
السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح.» (رو٨:١)

حيث «السالكين ليس حسب الجسد» يعني بهم الذين يعيشون ليس بالناموس بل بالمسيح.

لأن العائش حسب الجسد هو الذي يتبع الناموس، والعائش حسب الروح هو الذي يتبع المسيح.

+ «إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون.» (رو٨: ١٣)

ويستحيل أن نقوى بالإرادة على إماتة أعمال الجسد والشهوات، إذا لم نلتفت إلى أننا أخذنا قوة الإماتة بالروح. **فالجسد ميت إزاء الروح وبسلطان الروح:**

+ «إن كان المسيح فيكم فالجسد ميِّت بسبب الخطية، وأما الروح فحياة بسبب البر.» (رو٨: ١٠)

لذلك فأخطر جهالة يقع فيها الإنسان هو أن يملِّك الخطية من جديد في جسده الميت، بأن يظل يخضع للخطية مرَّة تلو المرة حتى تملك عليه إرادته وتستنفر غرائزه ليسوقها الشيطان كيفما يشاء:

+ «إذاً لا تَمْلِكَنَّ الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته.» (رو٦: ١٢)

المعمودية ليست في حقيقتها فعلاً زمانياً، صحيح أنها تحدث في زمن ما، يؤرخ له الإنسان كبدء حياة ونور، ولكنها هي فعلٌ سرِّي روحي فائق للطبيعة من جهة واقعه وآثاره، فالموت في المعمودية يلازمه في الحال حياة:

+ «إن كنا قد مُتْنا مع المسيح نؤمن أننا سنحيا أيضاً معه.» (رو٦: ٨)

+ «إن كنا قد مُتْنا معه فسنحيا أيضاً معه.» (٢تي٢: ١١)

إذاً، الحياة التي أستمدُّها من المسيح هي بقدر ما أستمدُّه من قوة الشركة في موته: «لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته.» (في٣: ١٠)

وهكذا بقدر ما نمتد في شركة موت المسيح، بقدر ما نمتد في شركة حياته. الموت هنا في حقيقته فعلٌ حياتيٌّ، فعل روحيٌّ فائق يحمل سر قيامة المسيح وسر حياة الإنسان في المسيح، فهو فعل ديمومة فائق على الزمن والتاريخ والمادة.

ويلاحظ القارىء أنه كما أن الحياة الجديدة لا تكون منظورة من الخارج، كذلك الموت الذي يرافقها في الإنسان العتيق غير منظور أيضاً. «فالموت والحياة» اللذان هما ثمرة المعمودية هما عملٌ سرِّيٌّ فائق غير منظور ولكنه فعل واحد قائم ومستمر بطول حياة الإنسان:

+ «لأنكم قد مُتُّم وحياتكم **مستترة** مع المسيح في الله. متى أُظْهِرَ المسيح حياتنا فحينئذ تُظْهَرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣: ٣و٤)

عجيبٌ حقاً أن الموت والحياة هكذا يجتمعان، الواحد ينبثق من الآخر، فالموت في المعمودية هو الرحم الذي تولد منه الحياة، وهو المهد الذي تأخذ منه الحياة الجديدة ظهورها ونموها:

+ «مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقِمْتُم أيضاً معه، بإيمان عمل الله الذي أقامهُ من الأموات.» (كو٢:١٢)

يلزم أن نفهم هنا أن المسيح لا يزال هو كما هو قائم بفاعلية موته وقيامته، فهو الشخصية السرِّية القائمة بالحقيقة في صميم إيماننا وواقعنا الروحي. فحينما نعتمد له نعتمد فيه، نحن نُغْمَر في كيانه الفعلي والواقعي الحي، نُغْمَر في شخصه السري، نُغْمَر في قُوى الموت الذي ماته فأمات به الموت وسلطانه. **فموته مجال حي قائم فيه لا يزال له قوة إبادة الموت والخطية، وبالمثل قيامته فهي المجال الحي القائم فيه والمنبعث منه الذي له سلطان الإقامة من الموت وإعطاء الحياة الأبدية.**

المعمودية «في المسيح»:

+ «لأن كلكم الذي **اعتمدتم بالمسيح** εἰς Χριστὸν ἐβαπτίσθητε قد لَبِستم المسيح.» (غل٣:٢٧)

هنا اللغة العربية قاصرة جداً في ترجمة المعنى الأصيل، فهنا التعميد ليس بالمسيح بل في المسيح εἰς.

كذلك: «أم تجهلون أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته.» (رو٦:٣)

هنا أيضاً الخروج عن المعنى مرتين بسبب عدم الالتفات للحرف εἰς، فهو لا يعني: «بالمسيح» ولا «لموته» بل «في المسيح» و«في موته»، والترجمة تأتي في الإنجليزية: into أي **«في داخل»**.

لذلك فقول بولس الرسول: **«اعتمدتم في المسيح» و«اعتمدتم في موته» يفيد الدخول الحقيقي في المسيح دخولاً سرياً غير منظور. والدخول في موته هو دخول واقعي في مجال قوة موته دخولاً روحياً حقيقياً إنما سرياً وغير منظور. وهذا هو في الحقيقة صُلْبُ المعنى في «المعمودية»، فالمعمودية المسيحية هي معمودية تغطيس ودفن بمعنى التداخل والاتحاد غير المنظور.**

فالمعمودية في المسيح وفي موت المسيح وفي جسد المسيح هي اتحاد سري في المسيح وفي موت المسيح وفي جسد المسيح، بصورة غير منظورة ولكن في واقع روحي.

لهذا، فإن تكملة القول تُكمِّل المعنى، فقوله: «كلكم الذين اعتمدتم في المسيح **قد لَبِستُم المسيح**» — Χριστὸν ἐνεδύσασθε — هو تحصيل حاصل. **فالذي بالمعمودية والدفن دخل في المسيح في موته، في جسده، لا يخرج بدونه، فهو يكون قد اتحد بالمسيح في جسده وقوة موته، بمعنى أن المسيح قد احتواه، وأنه باقٍ يحيا في داخل المسيح ومن داخل موته، لذلك يقول بولس الرسول: «فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ»** (غل ٢: ٢٠)؛ وإن ظهر هذا في شكل معكوس، لأن بولس الرسول هو الذي يحيا في داخل المسيح وفي داخل موته وحياته.

ولا يتطرق المعنى إلى أن المسيح يُلبَس كثوب فوق إنساننا العتيق، بل لأننا في المعمودية خلعنا الإنسان العتيق بسبب موتنا واتحادنا بجسد المسيح الروحي الحي القائم من الأموات، فحقَّ لنا أن نلبس المسيح فوق ذاتنا — وليس فوق جسدنا — وحينئذ يستطيع المسيح أن يلغي أعمال الجسد وإنسانه العتيق الميتة بموته، ويعطينا جسده السري الروحي الحقيقي لنحيا به: «مع المسيح صُلِبتُ (اعتمدتُ)، فأحيا، لا أنا، بل المسيح — بجسده الروحي — يحيا فيَّ» (غل ٢: ٢٠) = «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف ٣: ١٧) فلا نعود نحيا نحن من ذاتنا بل هو الذي يُحْيِي ذواتنا. فقول بولس الرسول قد «لبسنا المسيح» هو كمن يقول لبسنا النور الذي بدَّد الظلمة من كياننا الداخلي. فلا يعود النور خارجنا وكأنه بمعزل عنّا بل يكون في داخلنا — في الإنسان الباطن — ليضيء قلبنا وفكرنا بنوره الفائق، فنرى ونفهم ونعيش فيما هو فوق طبيعتنا، فقول بولس الرسول:

+ «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع، لأن كلكم الذين اعتمدتم (في) المسيح **قد لبستم المسيح**، ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حرٌّ، ليس ذكر وأنثى، **لأنكم جميعاً واحد "في" المسيح يسوع.**» (غل ٣: ٢٦—٢٨)

وكذلك قوله:

+ «**إذ خلعتم الإنسان العتيق** مع أعماله (بالمعمودية) **ولبستم الجديد** الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه ...» (كو ٣: ٩و١٠)

+ «البسوا المحبة التي هي رباط الكمال، **وليملك في قلوبكم سلام "المسيح" الذي إليه دعيتم في جسد واحد.**» (كو ٣: ١٤و١٥)

واضح هنا أن المسيح ليس ثوباً يلبسه كل فرد بمفرده وحسب، فهذا الثوب هو جسده الإلهي الذي يغمر الكل ويغطي خزي الجميع ويبتلع موتنا فنصير جميعنا فيه واحداً. هذا هو ثوب المعمودية الأبيض بكل معانيه العجيبة والجميلة واللانهائية:

+ «لأنك تقول إني أنا غني وقد استغنيتُ ولا حاجة لي إلى شيء، ولست تعلم أنك أنت

الشقي والبائس وفقير وأعمى وعريان. أُشير عليك أن تشتري مني ذهباً مصفًّى بالنار (الإيمان الحقيقي المختبر) لكي تستغني، **وثياباً بيضاً لكي تلبس فلا يظهر خزي عُرْيتك** (ما قبل المعمودية) ...» (رؤ٣: ١٧و١٨)

هذا يبدو أكثر وضوحاً في قول بولس الرسول لأهل كورنثوس:

+ «لأننا جميعاً بروح واحد أيضاً **اعتمدنا** (في = εἰς) **إلى جسد واحد**، يهوداً كنا أم يونانيين عبيداً أم أحرار، **وجميعنا سُقِينا روحاً واحداً**.» (١ كو١٢: ١٣)

هنا التحام كلّ مَنْ اعتمد في المسيح، في جسده، في موته، في حياته، قد صيَّره واحداً في المسيح. ولكن كل واحد من الذين اعتمدوا في المسيح اتحد هكذا، والمسيح واحد وجسده واحد وموته واحد، فالكل اتحد بالواحد فصار الكل إلى واحد في الواحد.

هنا نعيد الرجاء بأن ينتبه القارىء إلى أن عاملين أساسيين هما اللذان يوثقان الاتحاد السري في جسد المسيح بالمعمودية:

الأول عمل «**المعمودية**» ــ بحد ذاته ــ من حيث أنه تغطيس ودفن، فعليٌّ سري بقوة الروح القدس.

والثاني مفهوم المعمودية أنها «**في المسيح**» εἰς أي «في داخل» المسيح بمفهومها السري أن المسيح القائم من الأموات حاضر وهو الذي يعمد!

المعمودية «في اسم» المسيح:

هنا نأتي إلى مفهوم التعميد في الاسم وعلى الاسم و بواسطة الاسم.

والمواضع التي جاء فيها هذا الاصطلاح هي كالآتي:

في الاسم ἐν τῷ ὀνόματι :

«وهكذا كان أناس منكم. لكن **اغتسلتم**، بل تقدستم، بل تبرَّرتم، **باسم الرب يسوع** وبروح إلهنا» (١ كو٦: ١١). وتترجم على صحتها «في اسم» و «في روح».

في داخل الاسم εἰς τὸ ὄνομα وتأتي في الإنجليزية **Into**.

«... أم باسم بولس اعتمدتم» (١ كو١: ١٣) و يتبعها (١ كو١: ١٥)

ويكون المعنى متوقفاً على مفهوم «**الاسم**» عند بولس الرسول وعند الكنيسة المسيحية، وهو

متوارث من العهد القديم(٨) ويفيد وجود الشخص، أي حضرته بكامل سلطانها.

فيكون معنى أن يعمَّد في اسم المسيح وبه أو بواسطته أو عليه(٩) متوقفاً على معنى الحضور الإلهي لصاحب الاسم أي المسيح وبسلطانه وقوته. ويكون ما جاء في إنجيل القديس متى: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم (في اسم εἰς τὸ ὄνομα) الآب والابن والروح القدس» (مت٢٨: ١٩) يفيد: تلمذوهم بحضرة ووجود الثالوث وذلك بتعميدهم بالدعاء باسم الثالوث، لأن المسيح يؤيد ذلك بتكميل قوله هكذا:

+ **«ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر آمين.»** (مت٢٨: ٢٠)

فحضرة المسيح — التي هي دائماً مع حضرة الآب والروح القدس — مضمونة ومضمون دوامها في الكنيسة بسبب هذا الوعد، كما أنه في هذه الحضرة التي تتم بالدعاء تحدث التلمذة بحدوث العماد. وهذا يعني أنه بالعماد تتم التلمذة، وهذا بدوره يعني أن المعمَّد صار تابعاً خادماً للمسيح، أو على الأصح صار ملكاً للمسيح لأنه صار حيًّا فيه وبه.

فالتعميد في الاسم ينتهي إلى انتقال المعمَّد من تحت ملكية العالم إلى ملكية المسيح — من خدمة عبودية الخطية إلى خدمة عبودية البرّ — من هنا يأتي وضعه كعضو في الكنيسة لأنه صار عضواً في جسد المسيح السري. هذا يُفهم ضمناً من قول بولس الرسول:

+ «فأنا أعني هذا أن كل واحد منكم يقول **أنا لبولس** وأنا لأبلوس وأنا لصفا وأنا للمسيح. هل انقسم المسيح؟ ... **أم باسم بولس اعتمدتم ...»** (١كو١: ١٢و١٣)

واضح هنا أن الذي يعتمد لبولس يعني أنه يتبع بولس، أو يمتلكه بولس وهذا مستحيل. فهم اعتمدوا للمسيح وصاروا له، والمسيح أصبح هو الذي يمتلكهم والمسيح لم ينقسم لكي يكون جزءٌ منه لي وجزءٌ لك. لذلك كل الذين اعتمدوا في المسيح هم واحد بالضرورة وهم خاصته. إذاً، فالاعتماد للاسم أو بالاسم بالنسبة للمسيح يفيد إقامة صلة تبعية ذاتية أي امتلاك كلي.

وحيث الدعاء بالاسم، فالحضرة الإلهية للمسيح تكون عاملة. لذلك تقول الكنيسة الأرثوذكسية إن المسيح هو الذي يُجري سر العماد وهو الذي يعطي جسده ودمه بيده، أما

---

(٨) رجاء الرجوع إلى كتاب «المدخل لشرح إنجيل يوحنا»، ص٢٢٠.

(٩) المعمودية «**على** اسم المسيح» جاءت في سفر الأعمال هكذا:

«توبوا وليعتمد كل واحد منكم **على** ἐπί اسم يسوع المسيح.» (أع٢: ٣٨)

الكاهن فهو خادم السرّ المنظور.

وتنتقل قوة الاسم ــ أي الحضرة الإلهية ــ من عملية التعميد بكل اجراءاتها الداخلية في طبيعة المعتمد من تطهير وتقديس وتبرير، إلى شخص المعتمد ذاته حيث يتقبل بعد العماد **صاحب الاسم** شخصياً أي المسيح ليكون سيداً له.

فإذا عدنا لمنطوق وصية المسيح بتلمذة الأمم بتعميدهم باسم الآب والابن والروح القدس، نفهم كيف ولماذا أعطى المسيح للكاهن السلطان أن يدعو باسم الثالوث. فبحسب الوعد الذي أعطاه المسيح للرسل والكنيسة من بعدهم، فإنه بمجرد الدعاء بالاسم تحل الحضرة الإلهية ويعمل الثالوث. والكاهن يبدأ يخدم السر بسلطان الاسم أي من واقع حضور الثالوث.

ويلزم أن ننتبه أن المُعمَّد نفسه يتحتم عليه (أو على إشبينه) أن يعترف علناً كشهادة بالإيمان باسم الآب والابن والروح القدس، وفي نفس الوقت لا يقرب الكاهن السِرَّ إلاَّ إذا نطق هو أيضاً الشهادة والاعتراف باسم الآب والابن والروح القدس، وهذا يُحسَب أنه التحضير اللازم للحضرة الإلهية لتكميل السر.

من هنا نفهم أن التعميد بالاسم هو التغطيس والدفن في المسيح، المسيح الحاضر بشخصه، المسيح المصلوب والميت والمدفون بآن واحد:

+ «أنا هو الأول والآخر، والحي وكنت ميتاً، وها أنا حي إلى أبد الآبدين آمين.» (رؤ١: ١٧و١٨)

الفصل الثاني

سرُّ المسحة أو التثبيت

+ «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلّصنا **بغسل الميلاد الثاني، وتجديد الروح القدس** الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا.» (تي٣:٥)

بولس الرسول هنا يوضح باختصار بالغ أن عملية **«الخلاص»** تتم بعملين:

الأول: المعمودية التي اعتبرها غسل الميلاد الثاني.

والثاني: تجديد الروح القدس بمعنى إعطاء الحياة الجديدة في سر وضع اليد أو المسحة المقدسة.

وأصل السر كان بوضع اليد على المعمَّد لقبول الروح القدس.

وهذا السر لا يقوم بمفرده، ولا يمكن تتميمه إلاَّ بعد المعمودية، ولو أنه محسوب في الكنيسة أنه سرٌّ قائم بذاته، إلاَّ أنه هو وسرُّ العماد هما إجراء واحد. فكلُّ مَنْ يعتمد يكون مؤهَّلاً لقبول الروح القدس في الحال. لذلك كان سرُّ وضع اليد يُجرى مباشرة على الخارجين من المعمودية، فكان يحل الروح القدس مباشرة وبعلامات واضحة تشهد للحياة الجديدة التي نالها المعمَّد في المسيح.

+ «لكن الذي **يُثبِّتنا** معكم في المسيح وقد **مَسَحَنا** هو الله، الذي ختمنا أيضاً وأعطى **عربون الروح** في قلوبنا.» (٢كو١:٢١و٢٢)

هنا تتركز أوصاف **«المسحة»** χρίσμα كون فعلها هو **«التثبيت»** βεβαιόω، وهي بعمل **«الروح القدس»** المعتَبَر أنه **خَتْم** σφραγίς الحياة الأبدية والتبعية لله، وأنه **«عربون»** ἀρραβών الميراث الأبدي. هذه هي كل أوصاف مسحة التثبيت بالروح، وهي المحسوبة أنها عناصر المسحة المقدسة حتى اليوم:

يوناني	لاتيني	عربي
βεβαιῶν	qui confirmat	يُثَبِّتنا
σφραγισάμενος	qui signavit	خَتَمنا
χρίσας	qui unxit	مَسَحنا

+ **«الذي فيه أيضاً إذ آمنتم خُتمتم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا.»** (أف ١: ١٣و١٤)

وهو يخاطب بها أهل أفسس باعتبارهم نالوا جميعاً المعمودية، وكونه لا يذكر المعمودية هنا معناه أن السرَّين منفصلان وأن المعمودية هي السابقة على التثبيت بالمسحة. وهذا يتضح بالأكثر في سفر الأعمال:

+ « فإذ وجد تلاميذ قال لهم: هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم؟

قالوا له: ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس!

فقال لهم: فبماذا اعتمدتم؟ فقالوا: بمعمودية يوحنا!

فقال بولس: إن يوحنا عمَّد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع،

فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع،

ولما وضع بولس يديه عليهم حلَّ الروح القدس عليهم،

فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبأون. وكان جميع الرجال نحو اثني عشر.» (أع ١٩: ١-٧)

كذلك يتضح من سفر الأعمال (٨: ١٧و١٨) أن السامريين قبلوا الروح القدس بعد العماد. ولكن في كل هذه الحالات التي تأخر فيها حلول الروح القدس عن العماد، كان ذلك بسبب غياب خادم السر المعيَّن من الله والكنيسة. لأن السائد أن المعمودية يتبعها مباشرة وضع اليد لحلول الروح القدس كعنصرين أساسيين في تكميل التلمذة للمسيح.

ويلاحظ في الآية الرئيسية السابقة أن أوصاف التثبيت بالمسحة التي اعتبرها بولس الرسول مشتركة بينه وبين المؤمنين عامة هي نفسها التي أهَّلته للقيام بالخدمة الرسولية فيما بينهم.

كذلك يعطي بولس الرسول تعليماً آخر يوضح فيه عمل الروح القدس الأساسي في المعمودية معطياً عمل وظيفته بصورة قوية وواضحة، كونه يكمل اتحاد المعمَّد بجسد المسيح الواحد، وبذلك

يصنع من المعمَّدين جميعاً وحدة عضوية بالروح تتلاشى فيها العنصرية واختلاف الأجناس الشعوبية واختلاف الجنس الذكر والأنثى، واضعاً دخول الروح القدس في المعمَّد على مستوى السقْي أو الشرب.

+ «لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً. لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً (صحتها في روح واحد) اعتمدنا إلى جسد (صحتها في جسد) واحد، يهوداً كنا أم يونانيين، عبيداً أم أحراراً، وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.» (١كو١٢: ١٢و١٣)

والجملة: «سُقِينا روحاً واحداً» جاءت في كثير من المخطوطات القديمة القبطية والأرمنية والحبشية والقوطية، وحتى في الفولجاتا الأصلية[1]: «**سُقينا واستنشقنا روحاً واحداً**». وهنا كلمة «استنشقنا الروح» لها أصل طقسي تقليدي قديم مطابق لما جاء في هذه المخطوطات. فالخارج من المعمودية ينفخ الكاهن المعمِّد في أنفه نفخة الروح القدس قائلاً: اقبل الروح القدس. وهذا هو نفس الإجراء الذي قام به المسيح بعد القيامة: «ولما قال هذا **نفخ وقال لهم اقبلوا الروح القدس، مَنْ غفرتم خطاياه تُغفَر له** ومَنْ أمسكتُم خطاياه أُمسكت.» (يو٢٠: ٢٢و٢٣)

بهذا يبدو أمامنا الآن طقس المسحة المقدسة ــ سواء بوضع اليد أو بنفخة الروح القدس ــ أنه ينحدر من المسيح رأساً كتسليم رسولي عالي القيمة، حيث يُعتبر أيضاً ــ وعلى مستوى السر المقدس ــ أن المسيح نفسه هو الذي ينفخ الروح القدس لقبول التلمذة ولمغفرة الخطايا.

ولكن لينتبه القارىء، فكلمة «سُقِينا» التي وردت في المخطوطات بمفهوم «سُقينا واستنشقنا» جاءت في المبني للمجهول ἐποτίσθημεν بمفهوم أن الكنيسة هي التي بالروح القدس **الذي فيها** وهبت السقْي واستنشاق الروح للحياة الجديدة في العضو الجديد أي في الجسد أي فيها.

في هذه الآية يصف بولس الرسول كيف يتكون **«الجسد السري»** للمسيح أي الكنيسة. فبالمعمودية يتحد العضو الجديد بجسد المسيح حينما يُدفَنُ معه ليموت بذات الجرن، وحينئذ يأتي دور الروح القدس وهو الآن الروح الساكن في الكنيسة، فهو روح الكنيسة، لتعطيه الكنيسة لإعطاء الحياة الجديدة للعضو. حيث الروح القدس هنا يكمل عمل المعمودية، يكمل اتحاد العضو بالجسد بإعطائه الروح للحياة.

---

1. F. Prat, II,263 n.1.

وهذا التعليم الذي يقدمه بولس الرسول يأتي مطابقاً لما قاله الرب: «إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو٣:٥)

ويُلاحَظ كذلك أن إعطاء الروح القدس بصورة السقي و بصورة الاستنشاق هو من واقع العهد القديم والجديد أيضاً:

+ «**فتستقون** مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص (المعمودية).» (إش١٢:٣)
+ «إلى أن **يُسكَب علينا روحٌ** من العلاء، فتصير البرية (البشرية العتيقة) بستاناً (الإنسان الجديد).» (إش٣٢:١٥)
+ «**أسكب روحي** على نسلك و بركتي على ذُرِّيَّتك.» (إش٤٤:٣)
+ «**وأفيض** على بيت داود وعلى سكان أورشليم روح النعمة والتضرعات.» (زك١٢:١٠)
+ «ويكون بعد ذلك أني **أسكب** روحي على كل بشر...» (يوئيل٢:٢٨)
+ «مَنْ آمن بي، كما قال الكتاب، **تجري من بطنه** أنهارُ ماء حي. **قال هذا عن الروح** الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه.» (يو٧: ٣٨و٣٩)
+ «وإذ ارتفع بيمين الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب، **سَكَبَ** هذا الذي أنتم الآن تبصرونه وتسمعونه.» (أع٢:٣٣)
+ «لا بأعمال في برٍّ عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلَّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس، الذي **سكبه** بغِنىً علينا بيسوع المسيح مخلصنا.» (تي٣: ٥و٦)

وأما كيف **يُعطى** الروح بالنفخة ويؤخذ حتماً بالاستنشاق فتأتي هكذا:

+ «**ونفخ** (الله) في أنفه (آدم) نسمة حياة **فصار آدم نفساً حية.**» (تك٢:٧)
+ «نفخ (المسيح) وقال لهم اقبلوا الروح القدس.» (يو٢٠:٢٢)
+ «**الريح تهبُّ** حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب **هكذا كل مَنْ وُلِدَ من الروح.**» (يو٣:٨)
+ «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة وصار بغتة من السماء صوت كما من **هبوب ريح** عاصفة **وملأ كل البيت** حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم **وامتلأ الجميع من الروح القدس.**» (أع٢: ١-٤)

وهكذا يشترك كلٌّ من العهد القديم والجديد في وصف الروح القدس في الإنسان بوصف **انسكاب الماء** و بوصف **النفخ** أو الاثنين معاً كما جاء في هذه الكلمة: «**سُقِينا واستنشقنا**».

ولو يلاحظ القارىء، يجد أن حلول الروح القدس يوم الخمسين على التلاميذ كان على صورة هبوب ريح عاصف وألسنة كأنها من نار. وهو بحد ذاته كان بدء عملية مسح الكنيسة ككل وتثبيتها علناً واستعلانها ملء جسد المسيح للقيام بنفس الدور الكرازي الذي افتتحه المسيح لما حلَّ عليه الروح القدس:

+ «روح الرب عليَّ لأنه مَسَحَني لأُبَشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأُنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعُمْي بالبصر، وأُرسل المنسحقين في الحرية، وأكرِزَ بسنة الرب المقبولة. ثم طوى السفر وسلّمه إلى الخادم وجلس. وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه. فابتدأ يقول لهم: إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم.» (لو٤: ١٨—٢١)

بهذا نرى في سر المسحة الذي تمنحه الكنيسة بعد العماد مباشرة للمعمَّدين أنه هو امتداد لعمل المسيح:

+ «الذي يُثبّتنا معكم في المسيح وقد مَسَحَنا هو الله.» (٢كو١: ٢١)

الفصل الثالث

الإفخارستيا

النص الإفخارستي في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس:

في المعمودية بالماء والروح ــ كدفن وقيامة ــ نأخذ الميلاد الجديد للإنسان الجديد. **ونشرب الروح القدس ونستنشقه.**

وبالإفخارستيا، أي بالتناول من جسد الرب ودمه، **نأكل المسيح** «خبز الحياة» كطعام الحق مأكلاً ومشرباً.

تصوير السرَّين معاً في العهد القديم في رسالة بولس الأُولى لأهل كورنثوس:

+ « فإني لست أُريد أيها الإخوة أن تجهلوا أن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة

وجميعهم اجتازوا في البحر،

وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر،

وجميعهم أكلوا **طعاماً** واحداً **روحياً**،

وجميعهم شربوا **شراباً** واحداً **روحياً**،

لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح.»

(١ كو١٠: ١ــ٤)

هكذا الشعب القديم اعتمد على مستوى الرمز واشترك في إفخارستيا على مستوى الرمز. وهنا يجدر بنا الانتباه إلى تركيز بولس الرسول على سر الإفخارستيا في رمزه الأول بقوله:

طعاماً روحياً = πνευματικὸν βρῶμα

وشراباً روحياً = πνευματικὸν πόμα

ثم يعود بولس الرسول ليربط بين هذا الرمز القديم كونه بمستوى روحي، وبين ما حققه لنا

العهد الجديد بالواقع الحقيقي لا الرمزي وذلك بقوله: «وهذه الأمور حدثت **مثالاً** لنا» (١كو١٠:٦)؛ بمعنى أن هذا الذي حدث من جهة الأكل الروحي والشراب الروحي، كان هو «المثل» τύπος أو «الأصل الروحي».

ولكن من أين جاء بولس الرسول بالصفة «الروحية» للطعام والشراب الذي باشره الشعب قديماً في «المنّ» و «الماء»؟ الجواب واضح **لأن هذا المنّ كان خبزاً إعجازياً** جاء من السماء بمعجزة، فهو روحي خالص ومادي خالص بآن واحد، فهو مُسمّى بالخبز السمائي وخبز الملائكة من جهة، ومن جهة أخرى أكله الإنسان أكلاً، **كذلك** «الماء»، **فقد خرج من الصخرة بصورة إعجازية**، وزاد بولس الرسول على هذه الصورة الإعجازية لمسة روحية بقوله: «صخرة روحية»، وبقوله: «والصخرة كانت المسيح»، **ليكشف مرة واحدة مفهوم السر في منبعه.**

وقد امتد القديس بطرس من الصخرة الروحية التي كانت المسيح إلى الحجارة الروحية التي نحتت من ذات الصخرة الروحية بقوله:

+ «الذي إذ تأتون إليه "**حجراً حياً**" مرفوضاً من الناس ولكن مختار من الله كريم، كونوا أنتم أيضاً مبنيين "**كحجارة حية**" بيتاً روحياً كهنوتاً مقدساً لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح.» (١بط٢: ٤و٥)

ثم لاحظ كيف جاء المثال τύπος محبوكاً في العهد القديم، **إذ بعد ما اعتمدوا في البحر، شربوا الماء السرّي وأكلوا المن السري.**

ثم عاد بولس الرسول ليشرح لأهل كورنثوس، بعد أن أعطاهم المثل القديم للإفخارستيا **مُطَبَّقاً** روحياً على المن والصخرة، ليقول لهم ما استلمه شخصياً من المسيح نفسه بإعلان عن سر الإفخارستيا الذي قبله الرسل سابقاً هكذا: **«لأنني تسلمت من الرب ما سلّمتُكم أيضاً»** (١كو١١:٢٣أ). ثم ابتدأ يوضح لهم الزمن والظروف التي أسس فيها المسيح سر الإفخارستيا: **«إن الرب يسوع في الليلة التي أُسْلِم فيها...»** (١كو١١:٢٣ب)

وبهذا يقصد بولس الرسول أن يربط ربطاً زمنياً وموضوعياً بآن واحد بين **الإفخارستيا والموت**: «**في الليلة التي أُسلم فيها**». ومن هذا المنطلق، أي الربط بين تأسيس الإفخارستيا وبين موت الرب، أخذ مطلع الإفخارستيا هذا المعيار اللاهوتي عينه أي «الجسد المكسور»: «في الليلة التي **أُسلم فيها**، أخذ خبزاً، وشكر **فكسر**»، ثم ربط بين **الجسد المكسور على الصليب** وبين **السبب المباشر أو الغاية العُظمى من الإفخارستيا ودَيُومتها**: «وقال خذوا كلوا هذا هو

جسدي "المكسور لأجلكم" اصنعوا هذا لذكري.» (١ كو١١: ٢٣و٢٤)

أما سبب الجسد المكسور على الصليب فهو «لأجلكم».

أما الغاية العظمى من الإفخارستيا فهي «خذوا كلوا»، أي ليصير المسيح المذبوح على الصليب طعامنا الروحي الشافي.

أما الديمومة فهي الأمر بتكرار هذا السر الإفخارستي وتكرار الأكل منه. هنا الديمومة تأخذ اكتمالها على مستوى الفعل الظاهري والفعل السري، على مستوى الزمن والروح.

هذا هو جسدي:

ولكن لننتبه، لأن المعروض على التلاميذ هنا هو «سرٌّ» وليس واقعاً مادياً، فالذي يقدمه بيده شيء والذي يقوله شيء آخر. الذي في يده مادة والذي يصفه بها روح. ففي اعتبار المسيح وحسب نُطقه الإلهي، لا الخبز المكسور هو خبز مادي ولا الجسد الذي يشير إليه الرب هنا هو جسد مادي!!

وإلاَّ نقع فيما وقع فيه التلاميذ في رواية إنجيل يوحنا الذين عثروا في القول وتخلَّوا عن الرب ولم يعودوا يسيرون وراءه: «فقال كثيرون من تلاميذه إذ سمعوا إن هذا الكلام صعب مَنْ يقدر أن يسمعه» (يو٦: ٦٠)؛ «من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ولم يعودوا يمشون معه» (يو٦: ٦٦)، بل وكان احتجاج اليهود شديداً، حتى خاصم بعضهم بعضاً: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: **كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟**» (يو٦: ٥٢)

ولكن المسيح كشف الغطاء عن مفهوم هذه المقولة الإفخارستية بقوله: «الروح هو الذي يُحْيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو٦: ٦٣). المسيح هنا يستثني المادة ويتجاوزها إلى السر الإلهي غير المنظور في الخبز والخمر المقدسين: «**الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة** ولكن منكم قوم لا يؤمنون» (يو٦: ٦٣و٦٤). بهذا يكشف المسيح أن الخبز الذي كسره بالروح يحمل سرَّ قوة الخبز الحقيقي النازل من السماء، هذا هو مفهوم الكلام روحياً أو كلام الروح الذي يحمل سر الروح والحياة: «الكلام الذي أُكلمكم به هو روح وحياة».

كذلك يكشف المسيح أن قوله: «هذا هو جسدي»، يُقْصَدُ به الجسد على مستوى الروح والحياة أيضاً: «الجسد الحقيقي» بجوهره الحقيقي المُستَعلن بالقيامة، «الجسد السري» غير المنظور وغير المحسوس الذي لا تحدُّه الحواس، الذي كانت تراه العين شيئاً وهو في حقيقته شيءٌ آخر. فإذا كان لنا الإيمان بأن قول الرب هنا بالنسبة للخبز المكسور، وبالنسبة للجسد الذي يشير إليه الرب هو على مستوى الروح والحياة في سر القيامة، فإننا نأكل في الخبز المادي الخبز الحقيقي النازل من السماء والصاعد إلى السماء، ويكون أكْلُنا بالفم مطابقاً لأكْلِنا بالروح حيث يكون «مأكلاً حقاً» ويكون

هذا هو أكل جسد المسيح السرِّي، أو الأكل السري للمسيح بالروح: «فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦: ٥٧)

ولكن هذا المفهوم السري الروحي لأكل الحق في الخبز، وأكل الجسد بالروح، يحتاج إلى وعي مسيحي **بإيمان** يفرِّق بين المنظور المادي والحق الإلهي غير المنظور القائم بالكلمة في السر. لذلك قال المسيح بعد هذا الشرح: «ولكن منكم قوم **لا يؤمنون**»، أي لا يؤمنون أن الجسد **إلهيٌّ** هو، روح في مادة، ملءُ اللاهوت في جسد ملموس ومنظور، لا يؤمنون أن الكلام يختص بالحياة الأبدية الذي أدركه بطرس الرسول حينما عرضه الرب على بقية التلاميذ: «ألعلَّكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا، فأجابه سمعان بطرس يا رب إلى مَنْ نذهب. **كلام الحياة الأبدية عندك**.» (يو٦: ٦٧و٦٨)

كذلك يلزم أن نقف طويلاً أمام قول الرب على لسان بولس الرسول في رسالة كورنثوس كما في بقية الأناجيل:

«هذا هو جسدي»:

إنجيل متى	**إنجيل مرقس**	**إنجيل لوقا**	**الرسالة الأولى لأهل كورنثوس**
(٢٦: ٢٦)	(١٤: ٢٢)	(٢٢: ١٩)	(١١: ٢٤)
τοῦτό ἐστιν	τοῦτό ἐστιν	τοῦτό ἐστιν	τοῦτό μού ἐστιν
هذا هو	هذا هو	هذا هو	هذا هو
τὸ σῶμά μου	τὸ σῶμά μου	τὸ σῶμά μου	τὸ σῶμα
جسدي	جسدي	جسدي	جسدي
		τὸ ὑπὲρ ὑμῶν	τὸ ὑπὲρ ὑμῶν
		لأجلكم	لأجلكم
		διδόμενον	(المكسور) مضافة في الترجمة العربية.
		المبذول	

فالمعنى يزداد حينما نرجع للنص اليوناني الذي يضع فعل الكينونة الغائب إلزاماً. وهو في الترجمة العربية هكذا:

«**هذا هو** جسدي»: τοῦτό μου «ἐστιν» τὸ σῶμα

وحرفياً: «جسدي هذا هو "**الكائن**" أمامكم»، وهو يشير إلى الخبز المكسور. وهذا ينفي أي التباس في أن يكون الخبز المكسور أمامهم هو مجرد **رمز** أو شَبَه للجسد، بل هو هو نفس الجسد،

جسد ابن الله الوحيد بذاته وكيانه، على أساس أن الخبز المادي المكسور المنظور أمامهم والملموس هو أيضاً بعينه «خبز الحق» النازل من السماء والذي سيصعد كما هو. بمعنى أن المسيح استودع في الخبز والخمر قوة وفعل الجسد السرِّي الإلهي، «ملء اللاهوت» جسدياً.

هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي:

إنجيل متى	إنجيل مرقس	إنجيل لوقا	الرسالة الأولى لأهل كورنثوس
(٢٨:٢٦)	(٢٤:١٤)	(٢٠:٢٢)	(٢٥:١١)
τοῦτο γάρ ἐστιν	τοῦτό ἐστιν	τοῦτο τὸ	τοῦτο τὸ
هذا هو	هذا هو	هذه هي	هذه
τὸ αἷμά μου	τὸ αἷμά μου	ποτήριον	ποτήριον
دمي	دمي	الكأس	الكأس
τῆς καινῆς	τῆς καινῆς	ἡ καινὴ	ἡ καινὴ
διαθήκης	διαθήκης	διαθήκη	διαθήκη ἐστὶν
الذي للعهد الجديد	الذي للعهد الجديد	العهد الجديد	هي العهد الجديد
		ἐν τῷ αἵματί μου	ἐν τῷ ἐμῷ αἵματι
		بدمي	بدمي
τὸ περὶ πολλῶν	τὸ ἐκχυννόμενον	τὸ ὑπὲρ ὑμῶν	
ἐκχυννόμενον	ὑπὲρ πολλῶν	ἐκχυννόμενον	
الذي يُسفك من	الذي يسفك من	الذي عنكم	
أجل كثيرين	أجل كثيرين	يسفك	
εἰς ἄφεσιν			
ἁμαρτιῶν			
لمغفرة الخطايا			

بولس الرسول ينقلنا هنا من الجسد إلى الدم. والفرق في رواية الثلاثة الأناجيل ورسالة بولس الرسول ينحصر في حذف «يُسْفَكُ عنكم». ولكن يلزم أن ننتبه إلى المضمون السرِّي في ترتيب تقديم الجسد والدم:

أولاً: ذكر كلمة **«دم»** بحد ذاتها تفيد مباشرة أن هنا عملية **«سفك»** حتمية، فيها خرج

الدم خارج الجسد ـــ بعامل الذبح ـــ وصار الدم عاملاً قائماً بذاته بجوار الجسد.

ثانياً: ذكر «**الدم في كأس**» يعطي في الحال مفهوم «**الشرب**». فهنا الدم المسفوك صار في وضع إفخارستي قابل للشرب. هنا انتقال من واقع فعلي غير منظور **مستقبلي** وهو ذبح يفضي إلى سفك دم، إلى واقع **حاضر** منظور سري وهو خمر في كأس.

ثالثاً: ذكر «**الدم في الكأس "كعهد" جديد**» يعطي في الحال مفهوم **صلة سرِّية عظمى** بين الله والإنسان تقوم على سفك دم المسيح الذي سيحدث في المستقبل، منقولاً إلى واقع وحاضر سرِّي في صورة خمر في كأس وهو في حقيقته السرِّية دم المسيح، ليصير «**العهد**» الجديد بين الله والإنسان قائماً على مستويين:

مستوى واقعي مأساوي، سيتم فيه ذبح المسيح وسفك دمه فيصير دمه قائماً لعهد جديد بين الله والإنسان في السماء،

ومستوى واقعي سرِّي، فيه يشرب الإنسان كأساً من يد المسيح فيها خمر قد صيَّره المسيح دماً له بسرِّ الخلق (١)، لكي ينال الإنسان دم المسيح بالسر الروحي مما كان يعسر ويستحيل أن يناله بالواقع المادي الحسي.

وبتحويل المسيح الخمر الممزوج في الكأس بكلمة واحدة خالقة إلى دمه المسفوك بصورة غير حسِّية جعل قوة الخمر المتحوِّل إلى دم في الكأس على مستوى قوة الدم المسفوك على الصليب سواء بسواء. **المسيح رَبَط بهذه المقولة «هذا هو دمي المسفوك» بين الواقع السري والواقع التاريخي بلا أي فارق أو خلاف**. وبهذا صار الدم الذي نشربه مجدَّداً على المذبح الأرضي هو هو بعينه الدم الذي دخل به المسيح إلى الأقداس العليا على المذبح الناطق السمائي، فأوجَدَ لنا الفداء الأبدي. **أي أننا نشرب من كأس الإفخارستيا فداءنا مجدداً، تم على الأرض ولا يزال قائماً في السماء.**

رابعاً: فصل تقديم الجسد زمنياً عن تقديم الدم فصلاً بيِّناً واضحاً على مستوى التوقيع الإفخارستي الزمني، حينما قدم المسيح جسده مكسوراً في بدء العشاء ثم هناك بعد العشاء قدم دمه المسفوك في كأس، هذا الفاصل الزمني بحد ذاته يعلن في الحال عن مأساة مروِّعة ستفصل الدم عن الجسد فصلاً، وذلك تعبيراً عن عنف التعذيب الذي سيتم على الصليب الذي ينتهي حتماً بعد نزاع ونزيف بالموت.

---

(١) وهنا يليق أن نُحيل القارىء إلى عرس قانا الجليل في إنجيل القديس يوحنا وكيف حوَّل الماء خمراً بكلمة.

خامساً: أَكْلُنا كلنا من الجسد، ثم بعد ذلك شُرْبنا كلنا من الدم يحقق فينا ــ أي يجعلنا نشترك معاً في ــ هذا الفصل المأساوي العنيف بين الجسد والدم الذي حدث على الصليب، أي نصير شُرَكَاءَ صليبه.

وكأننا نشترك تاريخياً وعملياً بآن واحد في عملية التعذيب حينما نأكل الجسد مكسوراً ثم بعد ذلك نشترك أخيراً بشرب الدم من الكأس فنشترك في الموت!!

لذلك فإن من أعمق التعبيرات ذات الدلالة الموضوعية للإفخارستيا هي تسميته بـ«سر الشركة» κοινωνία = Communion (١كو١٠: ١٦). ففي الإفخارستيا تتم الشركة فعلاً وعلى مستوى حقيقي سرّي في المسيح، في آلامه وموته. فنحن نأكل ونشرب الحَدَثَ الذبحي الأَلمي في عمقه الإلهي وهدفه الفدائي.

فموت الرب الذي ماته، يعطينا إياه سرًّا في جسده المكسور ودمه المسفوك، أي على مستوى الحقيقة والواقع بالكسر وبالسفك. فنحن لا نتناول «خبزاً» بل **«جسداً مكسوراً»** فيه كل أوجاع وآلام وتعذيب الصليب، ولا نتناول «خمراً» بل **«دماً مسفوكاً» فيه قوة الموت الفائق على الموت!**

والموت الذي ماته الرب والذي غلب به الموت والخطية والهاوية وضعف الجسد هو **«موت الغلبة»**. ليس هو موت إنسان بل **موت ابن الله** الذي قيّد به من كان له سلطان الموت أي إبليس، هو موت البأس والقوة، موت ابن الله الذي فضح به الرئاسات المعادية وسلاطين الشر إذ أشهرهم جهاراً:

+ «إذ جرَّد الرياسات والسلاطين أشهرهم جهاراً ظافراً بهم فيه (أي في الصليب).» (كو٢: ١٥)

نفهم من هذا أن كل أعمال الشر وكل ما يحرّض على الخطية والإثم والتعدي سواء من داخلنا أو خارجنا أصبح محكوماً عليه ومفضوحاً ومنهزماً بقوة موت الرب على الصليب: «هذا هو دمي ... لمغفرة الخطايا» (مت٢٦: ٢٨). الرب يسلمنا قوة احتماله لآلام التعذيب حينما يعطينا جسده **«مكسوراً»، بل ويعطينا قدرة أن نؤلّم الجسد بإرادتنا لنحظى بالنصرة على الخطية على مثال ما تألم به هو بإرادته ليُبْطل الخطية:**

+ «فإذ قد تألم المسيح لأجلنا بالجسد، تسلّحوا أنتم أيضاً بهذه النية، فإنَّ مَنْ تألم في الجسد كُفَّ عن الخطية، لكي لا يعيش أيضاً الزمان الباقي في الجسد لشهوات الناس بل لإرادة الله.» (١بط٤: ١و٢)

كذلك فإن الرب حينما يعطينا دمه مسفوكاً، يسلّمنا **قوة** موته التي فيها أبطل الخطية والموت معاً. فقوة موته قوة فائقة على الطبيعة الجسدية بكل ضعفاتها تخضع تحتها كل أعمال الجسد وحركاته. فالشركة في موت الرب هي غلبة ونصرة فوق كل خطية مهما ملكت وكل ضعف جسدي مهما كان:

+ «أين شوكتك ياموت **أين غلبتكِ** يا هاوية، أما شوكة الموت **فهي الخطية**.» (١ كو١٥:٥٥و٥٦)

هذا هو موت الرب الكائن في دمه المسفوك الذي نناله بالإيمان بالسر ليكون أساساً لجهادنا ضد الخطية بل ولإبطال سلطانها في الجسد: «فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض» (كو٣:٥)، «إذاً لا تملكنَّ الخطية في جسدكم المائت.» (رو٦:١٢)

بولس الرسول يركِّز على قيمة هذا الموت الفائق على الطبيعة الذي ماته الرب كمحور أساسي، وكحصيلة نهائية من مفهوم أكل الجسد وشرب الدم هكذا:

«فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس، **تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء**» (١ كو١١:٢٦). ومَنْ ذا الذي يُبَشِّر بالموت إلاَّ الذي ناله!؟

بولس الرسول هنا لا يذكر القيامة على فم المسيح لأنه لا يزال مستغرقاً في مفهوم كسر الجسد وسفك الدم الذي يقف عند حد الموت[٢]! فقوة الإفخارستيا متركزة أصلاً في قوة الموت الفائق الذي يسلّمه المسيح لنا كقوة سرِّية لنغلب بها الجسد والخطية والعالم، ولكن في تكميل الموت تكون القيامة حتماً. ولكن يلزم أولاً أن نموت معه لكي نقوم أيضاً معه!! فإذا لم نَمُتْ، فكيف نقوم؟ فإن مُتْنا حقاً معه، فنحن حتماً قائمون. وبقدر ما نموت، بقدر ما نمارس حياة القيامة: «لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضاً بقيامته.» (رو٦:٥)

الإفخارستيا ذبيحة بحد ذاتها:

حينما سجّل القديس بولس الرسول عن الرب القول بعد تكريس الخبز جسداً والخمر دماً أن **يخبروا** بموت الرب إلى أن يجيء، ظهرت الإفخارستيا باعتبارها **شهادة** عملية لذبيحة الرب.

كذلك حينما قال الرب: «اصنعوا هذا **لذكري**»، ظهرت الإفخارستيا وكأنها **فعل تذكاري**

---

(٢) لقد أضافت الكنيسة في ليتورجيتها «القيامة»: «تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي». وأول من أضافها هو هيبوليتس: «تذكرون الموت والقيامة» = «memoris igitur mortis et resurrectionis». عن:

Hipp. Church Ord. IV.11, cited by C.K. Barrett, op. cit., p. 271.

لذبيحة الرب، ولكنها في الحقيقة هي استحضار **لذبيحة الرب** نفسها على المستوى السري لتمتد كما في الواقع الإلهي كذلك تمتد لتغطي الزمن، لأنها بالأصل ذبيحة فائقة للطبيعة، إلهية في واقعها الروحي، لا تخضع للزمن ولا تنحصر في الماضي ليحجزها التاريخ عن واقعها الدائم، فالتذكار هنا هو استمرار للفعل الفصحي على المستوى الإفخارستي الكنسي، هو استحضارها من الديمومة الروحية الإلهية إلى الامتداد الزمني كشهادة لحقيقة قائمة.

والدليل القاطع على أن الإفخارستيا هي ذبيحة حية فصحية دائمة وممتدة على مدى الزمن، هو قول الرب على العشاء وهو يقدم لهم دمه الإفخارستي في الكأس: **«هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي»** (لو٢٢: ٢٠). فالكأس الإفخارستي بما يحوي من دم الابن الحقيقي المهراق هو هو العهد الجديد القائم الدائم بين الله وبيننا، لا فرق ولا اهتزاز بين دم كأس الإفخارستيا ودم الصليب!! **الزمن** هنا مُلغىً في مواجهة اللازمني!! **والشكل** هنا متجاوز بالعين الروحية، بالإيمان. فساعة الإفخارستيا هي بعينها ساعة عشاء الخميس، وهي هي الساعة السادسة من الجمعة العظيمة.

فالرب لم يقل: «هذه الكأس هي تذكار للعهد الجديد بالدم المسفوك على الصليب»، بل **«هذه الكأس، هي العهد** الجديد بدمي» (١كو١١: ٢٥). هذا معناه أن دم المسيح في كأس الإفخارستيا يصير في أحشائنا ختم العهد الجديد. هنا دم الكأس هو دم ذبيحة حقيقية حية مقدمة على مذبح الله، يسفكه الطقس سراً في ظل المسامير، ونحن هنا لا نأتي جديداً في تأملاتنا، فالقديس لوقا يسجِّل هذا المعنى من فم الرب: «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُسْفَك **(صحتها المسفوك** ἐκχυννόμενον) عنكم (وصحتها **لأجلكم**).» (لو٢٢: ٢٠)

فالدم الإلهي في كأس الإفخارستيا دم مُهْرَاق، دم ذبيحة حية سُفِكَ سرًّا في الكأس بالكلمة والتقديس، **والمسيح يقدمه مسفوكاً!! كحالة واقعة فائقة على الزمن!**

القديس لوقا لا يقول على فم المسيح «الدم الذي سيُسْفَك غداً على الصليب» بل قالها **كواقع حاضر**. فالرب استحضر دمه الذي تخضَّب به يوم الجمعة في كأس!! ويزيد المسيح في الإمعان لتحقيق سفك الدم الذي وقع يوم الجمعة ليكون هو هو الواقع في الكأس يوم الخميس، بأن أعطى للسفك الذي سيتم يوم الجمعة سببه في الحاضر، وهو جالس بين تلاميذه يوم الخميس، وغايته أيضاً في الواقع المنظور **«لأجلكم»**. فالتلاميذ أكلوا وشربوا يوم الخميس كل وقائع يوم الجمعة بكل نتائجها!!

أما قول المسيح «**لأجلكم**» وهو يشير إلى الكأس والدم مسفوك فيه، **ثم إلى التلاميذ** الذين سُفك الدم **من أجلهم**، فهو يعطي بهذا للإفخارستيا المحلية الإحساس بأنها، ولو أنها ذبيحة خاصة بالمتناولين منها، إلاّ أن لها كل مخصصات وطبيعة ذبيحة الصليب العامة، وكأن كل إفخارستيا تقدمها الكنيسة هي بعينها **ذبيحة المسيح المذبوحة حالاً في وقتها على يد خدامها، كهنة وشمامسة ــ بل وعلى وجه الصحة اللاهوتية ــ على يد المسيح نفسه والكاهن خادم للسر وعلى قدر المتناولين منها تماماً كخروف الفصح الذي تذبحه كل عائلة ــ خروفاً على قدر عددها ــ لتأكله كله ولا تُبقي منه شيئاً، يأكلونه وقوفاً وعلى عجلة: «لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبِحَ لأجلنا.»** (١كو٥: ٧)

دم المسيح دم **فصح** متواصل، **خروج** مستمر، سيان منذ أن دفعه الرب في الكأس ليشربوا منه أو منذ أن خرج من عروق المسيح ليجري وإلى الأبد، يضخُّه القلب بالإيمان في شرايين مفديه، ليسكروا منه بخمر الحياة الحقيقية، التي لا تؤول إلى موت بل إلى شهادة وذِكْرٍ دائمين.

آه يا سيد! أعطنا هذا الكأس على الدوام حتى نقوم من رقاد الموت لنحيا بحياتك، لننسى أنفسنا والعالم، ولا نعود نذكر سواك.

متى ينفتح لنا باب سرِّك، وتنكشف لأعيننا قوة الروح في كأسك، نمسكه بكلتا يدينا، بل نحتضنه بكل قوتنا ونظل نشرب دم فصحنا وقوفاً وعلى عجلة، حتى نخرج خروجنا العتيد، وتخرج من بطوننا أنهار الحياة.

من هنا جاء التذكار: «اصنعوا هذا لذكري» ــ أنه تذكار فصحي لا يتم إلاّ بالذبح، بمعنى تقديم ذبيحة الإفخارستيا بكل معانيها وفعلها وأهدافها متواتراً **كعيد فصحي** تقيمه كل كنيسة، لا للذكرى الفكرية، بل ذكر حياة بل وتثبيتاً لبقاء موت الرب الفصحي حقيقة وفعلاً وواقعاً على امتداد الزمن، وذلك لأن موت الرب على الصليب كان عملاً فائقاً على الطبيعة قائماً دائماً يفوق التاريخ ويتعدى الزمن كفعل إلهي، كالمسيح: **«ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر»** (مت٢٨: ٢٠). وهنا يمكن أن نفهم من وصية الرب: «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس **تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء**»، **أن الإفخارستيا هي ذبيحة موت الرب على الصليب، بعينها، ممتدة ومُعَاشَة وفعَّالة، فيها يقدِّم المسيح ذاته على المذبح حاملاً خطيتنا في جسده المكسور وغاسلاً خطايانا بدمه المسفوك في الكأس، يقدمها متواتراً، إلى أن يجيء، وحينئذ لما يجيء سيجيء بلا خطية!**

+ «**هكذا المسيح أيضاً بعد ما قُدِّم مرةً لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا**

خطية للخلاص للذين ينتظرونه.» (عب ٩ : ٢٨)

هذا هو التذكار الذبائحي المتواصل، فهو بعينه هذا الانتظار الحي!

ويلاحظ هنا في هذا التوجيه الإفخارستي بأن يظل التذكار بذبيحة الإفخارستيا قائماً مع الإخبار بموت الرب إلى أن يجيء، أنه مرادف لنص نهاية الاحتفال بالإفخارستيا في الديداخي حينما يصرخ الجميع: «ماران آثا» أي «تعال أيها الرب»، وكأن المحتفلين بالإفخارستيا يقولون: لتكن هذه الذبيحة التذكارية هي الأخيرة وقد انتهت الخطية، فتعالَ يا رب!

سر الإفخارستيا يحمل هيبة الصليب وقداسة جسد الكلمة وكرامة دم ابن الله:

(أ) «إذاً أيُّ مَنْ أكَلَ هذا الخبز أو شرب **كأس الرب** بدون استحقاق،

(ب) يكون مجرماً في «**جسد**» الرب «**ودمه**»،

(ج) ولكن ليمتحن الإنسان نفسه،

وهكذا يأكل من «**الخبز**» ويشرب من «**الكأس**»،

لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق،

(د) يأكل ويشرب **دينونة** لنفسه،

(هـ) غير **مميِّز** جسد الرب.

من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى، وكثيرون يرقدون،

(و) لأننا لو كنا **حكمنا** على أنفسنا،

(ز) لما **حُكِمَ علينا**.» (١ كو١١: ٢٧ــ٣١)

لم يكتب أي كاتب في كل أسفار العهد الجديد، ولا القديس بولس في كل رسائله، تعبيرات تتزلزل أمامها النفس البشرية في مواجهتها لسر المسيح في الإفخارستيا باعتبارها ذبيحته المقدسة، فتخشع أمامها الروح وتنحني ــ بمثل هذه التعبيرات! وكأننا أمام الصليب مرة أخرى وفي مواجهة الجسد المذبوح على الصليب والدم المسفوك يجري منه مدراراً. لقد صبَّ بولس كل مشاعر التجلّة والرهبة والوقار على سر الإفخارستيا محمِّلاً الجسد الإلهي قداسة المسيح، والدم الإلهي كرامة ابن الله. ومَنْ يريد أن يتقدم فليتقدم!

أ ــ بدون استحقاق: ἀναξίως

الاستحقاق هو ما يهيىء الإنسان لقبول عطايا الله لأن كلمة «باستحقاق» ἀξίως في

معناها الأصلي تفيد «التوازن» بين ذراعي الميزان أو تعادل الكفتين للميزان(*). فالاستحقاق يكون بحصول الإنسان على ما يوازي العطية، والعكس صحيح كقول الابن الضال: «لست **مستحقاً بعد** οὐκ ἔτι εἰμὶ ἄξιος أن أُدعى لك ابناً» (لو١٥: ١٩)، وكقول يوحنا المعمدان: «لست بمستحق οὐκ εἰμὶ ἄξιος أن أحلّ سيور حذائه.» (يو١: ٢٧)

ويعطي العهد الجديد انطباعاً بأن أول استحقاق يمكن أن يحوزه الإنسان يكون بقبوله **«الإنجيل»**، فإذا قَبِلَ الإنجيل صار مستحقاً لعطايا الله فيه: «وأية مدينة أو قرية دخلتموها، فافحصوا مَنْ فيها **مستحق** ἄξιος وأقيموا هناك حتى تخرجوا. وحين تدخلون البيت سلّموا عليه. فإن كان البيت **مستحقاً** فليأتِ سلامكم عليه، ولكن إن لم يكن **مستحقاً** فليرجع إليكم.» (مت١٠: ١١—١٣)

فإذا رفض الإنسان «الإنجيل» أي «كلمة الحياة»، يكون قد حكم على نفسه أنه **«غير مستحق»** للحياة الأبدية:

+ «كان يجب أن تُكَلَّموا أنتم أولاً **بكلمة الله**، ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم **غير مستحقين** للحياة الأبدية هوذا نتوجه إلى الأمم.» (أع١٣: ٤٦)

ويوضح بولس الرسول صلة **«قبول الإنجيل»** بـ**«الاستحقاق»** بصورة واضحة في رسالته إلى فيلبي:

+ «**فقط عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح** (أو كما يستحق الإنجيل من الحياة)، ἀξίως τοῦ εὐαγγελίου τοῦ Χριστοῦ حتى إذا جئت ورأيتكم أو كنت غائباً أسمع أموركم أنكم تثبتون في روح واحد، مجاهدين معاً بنفس واحدة **لإيمان الإنجيل**.» (في١: ٢٧)

كذلك يعبِّر بولس الرسول عن قبول الإنجيل بقبول الدعوة هكذا: «فأطلب إليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما **يحق للدعوة** ἀξίως τῆς κλήσεως التي دُعيتم بها.» (أف٤: ١)

هنا لو يأذن لنا بولس الرسول لنستمد من سفر الرؤيا معنى شاملاً **للاستحقاق** مصيره أن يستعلن في السماء، نقول:

+ «عندك أسماء قليلة في ساردس **لم ينجِّسوا ثيابهم**، فسيمشون معي **في ثياب بيض** لأنهم **مستحقون**.» (رؤ٣: ٤)

(*) وواضح أن من مشتقاتها كلمة «الأكس» بالعربية، وهما الذراعان اللذان يحملان حلين متساويين أو يرتكز تحتهما عجلتان، وهي باليونانية ἄξων.

والمعنى هنا مستتر، فالذين لم ينجسوا ثيابهم هم الذين احتفظوا بثوب المعمودية الجديد: «لأن كلكم الذين اعتمدتم في المسيح، **قد لبستم المسيح**» (غل٣: ٢٧). والثياب البيض هي ثياب الملكوت، بمعنى الطبيعة البشرية التي استمدت من مجد المسيح مجداً ومن بهاء المسيح بهاءً. هنا الاستحقاق هو من واقع المحافظة على التطهير والتقديس الذي يناله الإنسان في **المعمودية ليعيشه في** إنجيل المسيح.

وبهذا الوضوح في فهم كلمة «مستحق» وهي هكذا مستمدة دائماً من قبول الإنجيل والحياة بمقتضاه، يكون **«الاستحقاق»** في أكل وشرب جسد الرب ودمه قائماً على أساس **«قبول الإنجيل»** على مستوى الحياة، فيكون لضمير الإنسان شهادة داخلية بذلك، لذلك يأتي بعد هذا القول **ليمتحن الإنسان نفسه!!**

ب ــ يكون مجرماً في جسد الرب ودمه:

كلمة «مجرم» ἔνοχος تعبير شرعي قضائي، فهي تحمل إتهاماً يفضي إلى القتل، كتعدٍّ موجَّه لجسد الرب ودمه!

والكلمة أصلها العبري hyyab[3] (خيَّاب). والمعنى هنا ينسحب على الذين صلبوا الرب يسوع وأشهروا جسده على الصليب وازدروا بدمه ليُهْرَق على الأرض. لأنه يلزم لنا جداً أن نفهم ونحس أن الإفخارستيا ذبيحة تُقدَّم في ظل الصليب وعلى مرمى من الصالبين والمستهزئين، ليغشاها الاحساس بالمهانة التي من عمقها انكسر الجسد وسُفِكَ الدم، فالجو مشحون بعواطف الصليب ولكن على خلفية الرجاء بالقيامة والفرح القادم، على وزن: «... يسوع الذي من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب» (عب١٢: ٢). فذبيحة الإفخارستيا تبتدىء بمشهد الصليب، برنة الحزن وعواطف الانسحاق، تستمر حتى التناول حيث يستعلن المسيح قائماً. حينئذ يبدأ التسبيح بالشكر في ملء بهجة القيامة. الإنسان في الإفخارستيا ليس له أن يخلط بين تهليل القيامة وأحزان الصليب؛ يلزم أن نستوفي أحزان الصليب بوقار حتى نبلغ فرح القيامة.

فالإجرام والجناية هنا تكون بالاستهانة بجلال الحَدَثِ وقداسة الجسد وكرامة الدم! سواء من داخل القلب بالازدراء، أو بالسلوك الخارجي بالاستهتار والانحلال، بمعنى أن الذي يتقرَّب إلى الجسد والدم وهو على غير مستوى الإنجيل القائم على قداسة الجسد وكرامة الدم، **إيماناً وتصديقاً بكلمة الإنجيل، وهيبةً ووقاراً ومجداً وإكراماً للصليب والموت المقدس، وطهارة بشهادة الضمير**، يكون قد تساوى مع الذين استهزأوا بصليبه!

---

3. C.K.Barrett, *First Epistle to the Corinthians*, p. 272.

الكنيسة تحيا هذا الجو الرهيب وتدخل المؤمنين فيه لحظة أن يرفع الكاهن القربان على رأسه منادياً في بدء رفع القرابين: [مجداً وإكراماً، إكراماً ومجداً للثالوث الأقدس، الآب والابن والروح القدس ...].

وهنا أيضاً يلزمنا أن نفهم ونحس أن الإفخارستيا هي أيضاً وفي الحقيقة وليمة الملكوت، تَحْضَرها كل الأجناد السماوية ملتفّة حول الرب:

[فلنقف حسناً، لنقف بتقوى، نقف باتصال، نقف بسلام
نقف بخوف الله ورعدة وخشوع،
أيها الإكليروس وكل الشعب، بطلبة وشكر **بهدوء وسكوت،**
ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق،
لتنظروا المذبح وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعَيْن عليه،
والملائكة ورؤساء الملائكة قيام،
الساروفيم ذوو الستة الأجنحة **والشاروبيم** الممتلئون أعيناً،
يسترون وجوههم من بهاء عظمة مجده غير المنظور ولا منطوق به،
يسبِّحون بصوت واحد صارخين قائلين:
قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت السماء والأرض مملوءتان من مجدك الأقدس].

هذا هو هتاف الشماس عند رفع الغطاء من فوق الجسد والدم (عن كتاب: «خدمة الشماس والألحان»، ١٩٨٨، ص ٨٢).

ثم لا يغيب عن البال قول المسيح على العشاء التقديسي للسر وهو ممسك بالكأس: «هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي». فالإفخارستيا بحد ذاتها وثيقة وعقد للعهد الجديد — من داخل جسد مكسور ودم مسفوك للابن الوحيد — بين الله والإنسان. فهي بحد ذاتها تحمل هيبة عهد الله الجديد مع الإنسان.

وإليك أيها القارىء العزيز صورة واقعية لقيام أول عهد لله مع الإنسان، حينما قطعه الله مع إبراهيم من وسط الذبيحة المقدَّمة هكذا:

+ «فقال له خذ لي عِجْلَة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة. فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه ... ولما صارت الشمس إلى المغيب (ساعة الفصح وساعة العشاء الأخير وساعة انزال الجسد من على الصليب) **وقع على**

أبرام سُبات وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه، فقال لأبرام اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ... ثم غابت الشمس **فصارت العتمة وإذا تنور (فرن) دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع، في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً...**»
(تك١٥: ٩-١٨)

ولا يغيب عن البال أن المسيح لم يقل: العهد الجديد بدمي الذي سيُسفك على الصليب، بل «هذه الكأس» أي أن العهد الجديد قائم حاضر الآن في هذه الكأس، كأس الإفخارستيا والدم فيها «مسفوك» جاهزٌ، دم ابن الله، دم الصليب بعينه. كل هذا ليس على مستوى التاريخ والمادة واللمس والحس، بل على مستوى الروح والواقع الإلهي السرِّي غير المنظور والذي هو الحق عينه.

ج ــ ليمتحن الإنسان نفسه:

«ليمتحن»: δοκιμαζέτω وتأتي بمعنى الامتحان أي محاكمة الضمير والتحقق منه أن يكون طاهراً.

هذا يوضحه بولس الرسول في رسالته الثانية لأهل كورنثوس أيضاً:

+ «جرِّبوا أنفسكم **هل أنتم في الإيمان، امتحنوا أنفسكم** δοκιμάζετε ، أم لستم تعرفون أنفسكم **أن يسوع المسيح هو فيكم** إن لم تكونوا مرفوضين؟» (٢كو١٣: ٥)

هنا واضح أن بولس الرسول لا يقصد أن يراجع الإنسان نفسه من جهة سلوكه الظاهري أو حالته الجسدية الظاهرية، بل يتجه مباشرة إلى وجود المسيح في القلب، فإن كان المسيح حالاً بالإيمان بالروح في القلب والفكر ــ وهذا يكون له شهادة داخلية في الضمير لا تخطىء: «لأن مَنْ من الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه» (١كو٢: ١١) ــ فهنا التقدم للجسد والدم للأكل والشرب يكون له واقع وشهادة مماثلة في الداخل. فالمسيح في الداخل يستقبل المسيح الذي في الخارج. الإيمان بالروح في الداخل يتعانق مع العطية الإلهية القادمة من الخارج. أكل الكلمة بالروح يسبق ليحتضن أكل جسد الكلمة بالفم.

د ــ يأكل ويشرب دينونة لنفسه:

دينونة: κρίμα

يلاحظ هنا أن الدينونة لا تقع من الخارج على الذي أجرم في قداسة الجسد وكرامة الدم ــ إذ هو أكل وشرب بدون استحقاق ــ بل تدخله الدينونة مع أخذه الجسد وشربه الدم!! هنا يأخذنا

الهلع والرعدة، فهذا هو ما حدث بالحرف الواحد مع يهوذا الإسخريوطي الذي خنق نفسه:
«فغمس (المسيح) اللقمة وأعطاها ليهوذا سمعان الإسخريوطي. فبعد اللقمة دخله الشيطان ... فذاك لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان ليلاً.» (يو١٣: ٢٦—٣٠)

هذا الواقع الخطير يكشف لنا ما هو هذا الجسد المكسور، وما هو هذا الدم المسفوك!! الدينونة دخلت يهوذا بدخول لقمة الإفخارستيا من يد الرب!! فالاقتراب من الرب إما يقدّس وإما يصعق. هذه حقيقة ظهرت منذ فجر العلاقات مع الله، مثل قصة ابني هرون اللذين قرّبا بخوراً أمام الله بدون استحقاق فماتا في الحال:

+ «وأخذ ابنا هرون ناداب وأبيهو، كلٌّ منهما مجمرته وجعلا فيهما ناراً ووضعا عليها بخوراً وقرّبا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها. فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب.» (لا١٠: ١و٢)

وكان تعليق الرب على هذا التعدي هكذا:

+ «فقال موسى لهرون هذا ما تكلم به الرب قائلاً: **في القريبين مني أتقدّس** وأمام جميع الشعب أتمجّد.» (لا١٠: ٣)

وواضح من موت وَلَدَيْ هرون ومن قول الرب أن الاقتراب من الرب يقدّس إن كان بالحق وبحسب الترتيب والاستحقاق، وإلاَّ فعوض التقديس سَحْقٌ وصَعْقٌ. كذلك أيضاً لنا في قصة رجوع التابوت بعد أسره عظة:

+ «وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب (رقص ديني توقيعي) بكل أنواع الآلات ... ولما انتهوا إلى بيدر ناخون، مدَّ عُزَّة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت. فحمي غضب الرب على عُزَّة وضربه الله هناك لأجل غَفَلِه. فمات هناك لدى تابوت الله ... وخاف داود من الرب في ذلك اليوم وقال كيف يأتي إليَّ تابوت الرب.» (٢صم٦: ٥—٩)

بهذا المعنى صار الاقتراب من الرب يحتاج إلى امتحان النفس وتفتيش الضمير، لأن الاقتراب منه بغير استحقاق هو الموت بعينه، وبنفس المعيار صار الاقتراب من مقدسات الرب كتقديم البخور بغير استحقاق وترتيب، أو الاقتراب من تابوت الله الذي يحمل قسط المن (الخبز من السماء) وعصا هرون (الكهنوت) **وغطاء التابوت** = الإيلاستيريون (الكبّوراه) أو «الكفّارة»، حيث ينضح دم الذبائح للتكفير، وحيث يعلوه حضرة الله وقت الخدمة. هذا في مجمله هو محتوى قدس

الأقداس! هذا تصوير مهيب لمعنى الاقتراب من المقدسات في العهد القديم مع أنها كانت كلها مادية رمزية!!

ثم عودة مرة أخرى إلى أكل الجسد وشرب الدم بدون استحقاق كيف ينشىء دينونة أي قضاءً ومحاكمة لا يتبرأ منها الإنسان، لأن الذي أخطأ الإنسان في حقه هو الرب ممثلاً بالجسد والدم، اللذان هما في الأصل وبحد ذاتهما مصدر الغفران!!

هـ ــ غير مميِّز جسد الرب:

«مميِّز»: διακρίνων ، وبالـلاتينية discernere . والجملة تعني لا يميِّز بين شيئين أو شخصين أو لم يفرِّق بينهما. هنا المعنى ينصبُّ بقوة على عدم تفريق المتناول من الجسد والدم بين الواقع المادي المنظور أمامه خبز وخمر ممزوج في الكأس، وبين واقع السِّرِّ الإلهي غير المنظور، حيث الخبز هو في واقعه الإلهي السري جسد الرب، والمزيج في الكأس هو دمه الأقدس: المسيح بذاته!!

فلأنه لم يميز بين الخبز وحقيقة الجسد وبين الخمر وحقيقة الدم، فإنه إذ يُهيِّأ له أنه يتناول خبزاً وخمراً ويستهين بما أكل وبما شرب، يكون في الحقيقة قد أكل مُقدَّسات هي بعينها حضرة إلهية، ولكنها إذ لا تجد فيه فرصة للتقديس، توجد له فرصة للمحاكمة.

و ــ لأنه لو حكمنا على أنفسنا:

«حكمنا»: διεκρίνομεν هي نفس الكلمة التي تُرْجِمَت «مميزاً» ولكن في موقعها هنا تفيد الامتحان بالتدقيق الذي يحمل معنى الحكم والإدانة معاً. وذلك من جهة الاستحقاق للتقدُّم للجسد والدم، حيث كما سبق وأوضحنا أن الاستحقاق يتوقف بالدرجة الأُولى على الصلة بالمسيح، الصلة الداخلية بالتصالح معه من جهة الضمير، ووجوده الفعَّال في الداخل بشهادة الحياة اليومية، وبالصلاة.

ز ــ لما حُكِمَ علينا:

هنا الحكم وقع بالأكل والشرب من الجسد والدم بدون استحقاق وحسب، أي لا ينصبُّ المعنى على الاستهانة أو الخيانة، لذلك أنشأ فقط حسب الآية (١كو١١: ٣٠) مجرد حالة ضعف ومرض، أو الموت المعجَّل قبل الميعاد. هذا الحكم لا يُطبَّق بصورته التي جاءت في العهد القديم أو كما حدث على يهوذا، فهو لا يشمل القصاص الحرماني من الله أو الهلاك الأبدي، لأن الدم المسفوك نفسه يقف حاجزاً مانعاً من الهلاك. فالخطية مهما تعاظمت، لا تستطيع أن تبتلع الدم الإلهي. ولكن هنا الحكم والدينونة ينصبَّان على جسد الإنسان لا على روحه، فيتعرض **الجسد**

للتأديب سواء بالضعف أو المرض أو حتى الموت لكي تخلص النفس في يوم الرب، كما حكم بولس الرسول على الذي زنى مع امرأة أبيه: «باسم ربنا يسوع المسيح، إذ أنتم وروحي مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح، أن يسلّم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد، لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع.» (١ كو٥: ٤و٥)

وهذا هو القرار الأخير الذي انتهى إليه بولس الرسول بالنسبة للذين استهانوا بالمقدّسات ووقعوا تحت تأديبات الله:

+ «ولكن إذ قد حُكِمَ علينا، **نؤدَّب** من الرب، لكي لا نُدان مع العالم.» (١ كو١١: ٣٢)

فالرجاء بالخلاص القائم لم يتوقف بسبب التأديب، إن بالمرض أو حتى بالموت المعجَّل.

وقفة قصيرة في نهاية الإفخارستيا:

إذا كانت الإفخارستيا هكذا ذات واقع إلهي سرِّي يُحسَبُ له ألف حساب، وإن كان المتقرِّب من الجسد والدم بغير استحقاق هكذا يجلب على نفسه عقوبة ومضرة، فكم بالحري يكون التقرُّب إليهما باستحقاق صلة الحب والتقوى والصلاة والخشوع لله؟ كم يجلب من «شِبَع سرور»، **وملء** الروح، **ونعيم** حياة، **وثبوت** إيمان، **وشركة** في الروح القدس، **وتقديس** سيرة لله الحي مكتوبة في السماويات!!

الفصل الرابع

سِرُّ وضع اليد

للرسامات

وضع اليد في العهد القديم:

أول ما نسمع عن وضع اليد، في العهد القديم، حينما أمر الرب موسى أن يضع يده على يشوع بناءً على طلب كريم من موسى لله، نصُّه الجميل كالآتي:

+ «فكلَّم موسى الرب قائلاً ليوكِّل الرب إله أرواح جميع البشر رجلاً على الجماعة، يخرج أمامهم ويدخل أمامهم ويُخرجهم ويُدْخِلهُم لكيلا تكون جماعة الرب كالغنم التي لا راعي لها. فقال الرب لموسى: خذ يشوع بن نون رجلاً فيه روحٌ، وضَعْ يدك عليه وأوقفْه قدام أَلِعازار الكاهن وقدام كل الجماعة وأَوْصِهِ أمام أعينهم، واجعل من هيبتك عليه لكي يسمع له كل جماعة بني إسرائيل ... ففعل موسى كما أمره الرب.» (عد٢٧: ١٥—٢٢)

ويعود سفر التثنية يعقِّب على هذه الحادثة مؤكداً أن يشوع امتلأ من روح الحكمة بسبب وضع اليد: «ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه، فسمع له بنو إسرائيل...» (تث٣٤: ٩)

هنا يستلفت نظرنا الآتي:

١ — وضع يد موسى على يشوع كان لتسليم الرئاسة والرعاية على جماعة الرب.

٢ — أن يشوع اختير ليوضع عليه اليد على أساس أنه رجل فيه روح.

٣ — أن طقس وضع اليد للرئاسة كان أمام أَلِعازار الكاهن لأن يشوع صار في درجة أعلى من درجة الكاهن.

٤ — أن وضع اليد كان أمام كل الشعب، وأنه أمام أعين الشعب وأسماعهم تمت التوصية لنقل الرئاسة.

٥ ــ أن وضع اليد نقل من هيبة موسى إلى يشوع ليصير مُهَاباً وليستمع إليه الشعب.
٦ ــ أن وضع اليد كان بيد واحدة.

ولكننا لا نعثر في كل العهد القديم على «وضع يدٍ» للشفاء، إلاَّ أننا نعثر على وضع يد للبركة، بمعنى تسليم بركة الآباء للأبناء، وهذا ما صنعه يعقوب لابنَيْ يوسف في مصر، بصورة مؤثرة وبكلمات جميلة، إذ جعل ابنَيْ يوسف يَرِثان البركة التي ليعقوب ليُحْسَبَا كابنَيْ يعقوب فيكون لهما أَنْصِبَة مع الأسباط الاثني عشر في تقسيم أرض كنعان. وقد تم هذا بالفعل:

+ «وقال يعقوب ليوسف: الله القادر على كل شيء ظهر لي في لوز في أرض كنعان وباركني...، والآن ابناك المولودان لك في أرض مصر قبلما أتيت إليك إلى مصر هما لي ...، فقال قدمهما إليَّ ...، فقرَّبهما إليه **فقبَّلهما واحتضنهما** ... وسجد أمام وجهه إلى الأرض...، فمدَّ إسرائيل يمينه ووضعها على رأس أفرايم وهو الصغير ويساره على رأس مَنَسَّى (وهو البكر) ... ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه، ونسله يكون جمهوراً من الأمم (نبوة عن أفرايم). وباركهما في ذلك اليوم قائلاً، بِكَ يُبَارِكُ إسرائيلُ قائلاً: يجعلك الله كأفرايم وكمنسَّى، فقدَّم أفرايم على منسَّى.» (تك٤٨: ٣ــ٢٠)

ونلاحظ في وضع اليد للبركة هنا الآتي:
١ ــ يعقوب إسرائيل ينقل بركة الله له إلى ابنَيْ يوسف بوضع اليد اليمنى واليسرى.
٢ ــ ولكن «وضع اليد اليمنى» كان ذا دلالة على البركة الأكثر!
٣ ــ إسرائيل احتضن الولدين وقبَّلهما قبل أن يضع يديه.
٤ ــ إسرائيل سجد على الأرض قبل أن يضع يديه.
٥ ــ إسرائيل نطق بالبركة وسلَّمها للنسل من بعده.

وضع اليد في العهد الجديد:

○ للبركة:

بدأ «وضع اليد» في العهد الجديد بالمسيح نفسه، حينما طُلِبَ منه أن يضع يديه على الأولاد ليباركهم.

+ «حينئذ قُدِّم إليه أولادٌ لكي يضع يديه عليهم ويصلي، فانتهرهم التلاميذ، أما يسوع فقال دَعُوا الأولاد يأتون إليَّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات. **فوضع يديه عليهم** ومضى من هناك.» (مت١٩: ١٣ــ١٥)

+ «**فاحتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم.**» (مر١٠: ١٦)

o **للشفاء(١):**

كذلك طُلِبَ منه أن يضع يديه على المرضى ليُشفوا، وهناك أمثلة كثيرة على مدى الإنجيل:

+ «وعند غروب الشمس جميع الذين كان عندهم سقماء بأمراض مختلفة قدموهم إليه، **فوضع يديه على كل واحد منهم وشفاهم.**» (لو٤: ٤٠)

o **للإقامة من الموت:**

كذلك بإيمان كبير تقدم إليه رئيس وطلب من المسيح أن يضع يده على ابنته لتحيا إذ كانت قد ماتت.

+ «إذا رئيس قد جاء فسجد له قائلاً: إن ابنتي الآن ماتت، **لكن تعالَ وضَعْ يدك عليها فتحيا** ... وأمسك بيدها فقامت الصبية.» (مت٩: ١٨و٢٥)

o **آية للمؤمنين:**

ثم في نهاية الإنجيل نسمع أن الرب قبل صعوده أوصى تلاميذه أن يشفُوا المرضى، على أن شفاء المرضى بعد ذلك تكون آية يصنعها المؤمنون أنفسهم:

+ «وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها ... وهذه الآيات تتبع المؤمنين ... **يضعون أيديهم على المرضى فيبرأون.**» (مر١٦: ١٥و١٧و١٨)

والأمثلة كثيرة على مدى الأسفار كلها.

وتفسير وضع اليد للإبراء من الأمراض المختلفة تشرحه قصة المرأة نازفة الدم حينما لمست أهداب ثوب المسيح فشُفِيَتْ، فكان تعليل الرب المحسوس هو: «**فقال يسوع قد لمسني واحد لأني علمت أن قوة قد خرجت مني**» (لو٨: ٤٦)، علماً بأن قوة المسيح على الشفاء لم تتوقف على وضع اليد بل إن مجرد كلمة منه ومن على بُعْدٍ كانت كافية لتشفي وتُحْيي (يو٤: ٤٣—٥٤).

o **حلول الروح القدس:**

في كل حالات العماد في زمن الرسل، كان وضع اليد بعد المعمودية هو واسطة لحلول الروح القدس:

+ «أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا، اللذين لما نزلا صلّيا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس ... حينئذ وضعا الأيادي عليهم فقبِلوا الروح القدس.» (أع٨: ١٤—١٧)

---

(١) وقد رسخ هذا السر في الكنيسة منذ أيام الرسل، وسُمّي بعد ذلك بـ «سر مسحة المرضى»، وكان له زيتٌ خاص مُصلًّى عليه في مجمع الأساقفة يسمى «زيت الغاليلاون»، ولكن أُهمل هذا الشرط وصارت الكنيسة تُجْرِيه بأي زيت كان. وهذا خطأ بحسب التقليد، فعلى الأقل يتحتم أن يكون زيت زيتون.

○ **إعطاء قوة إضافية للخدمة والإرسالية:**

وهي حالات نادرة ولكن هامة للغاية، وتفيد ضرورة احترام موهبة الخدمة لتجديد القوة ومواهب الخدمة بالنسبة للمرسومين سابقاً بوضع اليد:

+ «**وبينما هم يخدمون** الرب ويصومون، **قال الروح القدس:** أفرزوا لي برنابا وشاول (مرسومين سابقاً) **للعمل الذي دعوتهما إليه. فصاموا** حينئذ **وصلّوا، ووضعوا عليهما الأيادي** ثم أطلقوهما، فهذان إذ أُرسلا من الروح القدس ...» (أع١٣: ٢-٤)

فهنا تكرارٌ لوضع اليد، ولكن ليس للرسامة، بل للعمل الذي دعاهم الروح القدس أن يعملاه بعد الرسامة وهو المبادرة بالسياحة للتبشير خارج مقر وجودهم، وهذا يُعتبَر إرسالية فوق العادة بالنسبة للأسقف، وهي تحتاج بالفعل إلى قوة روحية إضافية من الروح القدس، بل وتحتاج أصلاً إلى دعوة صريحة من الروح القدس يمكن أن تُسْمَع تحت الأصوام والصلوات الكثيرة واستلهام مشورة الروح القدس: «وبينما هم **يخدمون** الرب **ويصومون**». وحتى بعد أن تلقوا صوت الروح القدس عادوا فصاموا وصلوا قبل وضع اليد. وهذا يوضح عظم شأن الإرسالية في الكنيسة وأنها تحتاج إلى وضع يد للحصول على موهبة χάρισμα إضافية فوق مؤهلات الأسقف العادي. وهذا نسمعه بوضوح في وصية بولس الرسول إلى تيموثاوس إذ استودعه الله نعمة خاصة مع موهبة وضع اليد، بمقتضاها دعاه بولس الرسول ليقوم بالتبشير: «اعمَلْ عمل المبشِّر.» (٢تي٤: ٥)

وضع اليد للرسامة:

إن أول وأهم إجراء لطقس وضع اليد للرسامة في العهد الجديد، تم بواسطة الرسل مجتمعين لرسامة سبعة شمامسة، أي خدام διάκονοι، وإن كان الغرض الأساسي من وضع اليد قد انحصر في موضوع خدمة الاحتياجات المادية من مال وطعام وتوزيع، إلاَّ أنه بمجرد أن تم وضع يد الرسولية ظهر انسكاب الروح القدس للكرازة والتعليم بصورة قوية وعالية ونشطة، باتجاه تحرُّري واضح من التقاليد الناموسية العتيقة، وباتجاه مباشر وبجرأة للمناداة بالإيمان بالمسيح بدون الالتزام بوصايا الناموس وطقوسه. وإن كان هذا الاتجاه يُعْزَى بنوع ما إلى أن السبعة الشمامسة كانوا من اليهود الذين في الشتات، أي اليهود الذين استوطنوا بلاد اليونان:

+ «وفي تلك الأيام إذ تكاثر التلاميذ حدث تذمُّر من اليونانيين على العبرانيين أن أراملهم كُنَّ يُغفَل عنهنَّ في الخدمة اليومية. فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا: لا يُرضي أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد، فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم مشهوداً لهم ومملوئين من

الروح القدس وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة. فحسن هذا القول أمام كل الجمهور فاختاروا إستفانوس رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس،

وفيلبس و برخوروس ونيكانور وتيمون و برميناس،

ونيقولاوس دخيلاً أنطاكياً (من أصل وثني).

الذين أقاموهم أمام الرسل فصلّوا **ووضعوا عليهم الأيادي**. وكانت كلمة الله تنمو ...»
(أع٦: ١–٧)

ولينتبه القارىء، فهنا مطابقة ذات أصالة وفهم وتدقيق مع ما حدث في إقامة يشوع في العهد القديم ووضع موسى اليد عليه، وهذا يُنبىء بأن هذا الطقس ظل محفوظاً في الوعي اليهودي بدقة. والمعروف أن جماعة الربيين كانوا يقيمون هذا الطقس منذ زمن بعيد قبل الميلاد، ووصلت بعض المخطوطات التي توضح بالأسماء أنه أُجريَ على الكتبة عند إقامتهم بوضع اليد(٢).

وإليك أيها القارىء العزيز مقارنة توضيحية:

وضع اليد في العهد القديم	وضع اليد في العهد الجديد
١ – «ليوكِّل الرب إله أرواح جميع البشر **رجلاً على الجماعة** يخرج أمامهم ويدخل ... **لكيلا تكون جماعة الرب كالغنم التي لا راعي لها**».	١ – «**فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم** مشهوداً لهم ومملوئين من الروح القدس وحكمة **فنقيمهم على هذه الحاجة**».
٢ – «فقال الرب لموسى خذ يشوع بن نون **رجلاً فيه روح**».	٢ – «**فاختاروا إستفانوس رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس ...**»
٣ – «**وضَعْ يدك عليه وأوْقِفه قُدَّام ألِعازر الكاهن** وقدام كل الجماعة ... **واجعل من هيبتك عليه لكي يسمع له كل جماعة بني إسرائيل**».	٣ – «الذين أقاموهم **أمام الرسل فصلوا ووضعوا عليهم الأيادي، وكانت كلمة الله تنمو** ... وأما إستفانوس فإذ كان مملوءاً إيماناً وقوة **كان يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب**».

2. Kittel, G., *TDNT*, vol. IX, p. 433.

أولاً: المطابقة هنا في شرط الرسامة الأول أن يكون بالانتخاب:

«ليوكل» الرب الإله (وصحتها ينتخب)	«انتخبوا أيها الإخوة»
ἐπισκέψασθε	ἐπισκεψάσθω

ثانياً: الرجل المنتَخب يلزم أن يكون مشهوداً له:

في القديم كانت الشهادة من الله رأساً:	في العهد الجديد أُعطي الشعب وحده الانتخاب
«خذ يشوع بن نون رجل فيه روح وضَعْ يدك عليه».	مع بيان الشرط المُلْزِم: **أن يكون رجلاً مملوءاً من الإيمان والروح القدس.**

ثالثاً: وضع اليد يلزم أن يكون **بحضور الكاهن** الرئيس **وأمام كل الشعب**، في الحالتين في القديم والجديد، حيث في الجديد لزم حضور الرسل الاثني عشر.

رابعاً:

تخصيص وضع اليد في رسامة يشوع بن نون، لم تكن لممارسة الكهنوت بل الرئاسة على كل الشعب وقيادته.	تخصيص وضع اليد على السبعة الشمامسة ولو أنه لم يكن للقيام بأعباء الرسولية بل كان على خدمة الموائد، إلاَّ أنه امتد إلى الكرازة وإتيان المعجزات. فممكن تقييد الاختصاص ولكن لا يمكن تقييد عمل الروح القدس.

بهذا نستخلص أن رسامة السبعة الشمامسة كانت بمثابة وضع أول نموذج لطقس الرسامة بوضع اليد في المسيحية، إنما على مستوى نفس شروط ونمط الطقس القديم. والذي زاد في العهد الجديد هو انسكاب الروح الرسولية لخدمة البشارة بالإنجيل، في مقابل هيبة القيادة للجماعة في القديم.

اشتراك الشعب في الاختيار:

واضح منذ البدء في العهد القديم أن الله أعطى لموسى الحرية أن يختار من الشعب من يراه صالحاً ليكون مساعداً له وتحل عليه روح التدبير التي نالها موسى (أنظر عد ١١:١٦)، وذلك باعتبار أن الشعب يستطيع أن يختار ما يناسبه، وفي ذلك يقول القديس ذهبي الفم:

[تحديد العدد سبعة، ووضع اليد عليهم كان محفوظاً لهم (أي للرسل) ولكن اختيار الرجال أعطوه للشعب حتى لا يُعتبروا أنهم (أي الرسل) يتصرفون من عندهم، تماماً كما أن الرب سلَّم لموسى أن يختار من الشيوخ مَنْ يعرفهم (عد ١١:١٦)].

[والشعب هو الذي قادهم لمكان الرسامة وليس الرسل «الذين أقاموهم أمام الرسل»،

ولاحظوا أن لوقا يتحاشى كل الأمور الثانوية، فلا يذكر بأية طريقة تم هذا ولكن يذكر أنهم رُسموا ــ «وُضعت عليهم الأيادي» ــ ἐχειροτονήθησαν . فاليد البشرية توضع على الإنسان ولكن العمل كله من الله، وإن يده هو هي التي تلمس رأس الذي يُرسم، إن كان يُرسم كما يجب.](٣)

العدد سبعة:

اعتبرت الكنيسة على مرّ الدهور أن اختيار الرسل القديسين العدد سبعة للشمامسة اللازمين للكنيسة أنه طقس إلهامي أخذت به الكنائس في كل العالم، وبالأخص روما(٤)، وظل معمولاً به إلى أزمنة كثيرة. ولكن للأسف اختل ليس العدد سبعة فقط بل كل الطقس الكنسي بالنسبة للشمامسة ورسامتهم وخدمتهم، حتى صار يُرسَم شمامسة وهم أطفال.

الظروف التي أحاطت بالرسامات عند بولس الرسول:

عامل صوت الروح القدس أي صوت النبوة:

وهذا واضح في رسامة تيموثاوس:

+ «هذه الوصية، أيها الابن تيموثاوس، أستودعُك إياها **حسب النبوات التي سبقت عليك** لكي تحارب فيها المحاربة الحسنة.» (١تي١: ١٨)

+ «**لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك بالنبوَّة** مع وضع أيدي المشيخة (القسوسية)(٥).» (١تي٤: ١٤)

+ «**أذكرك أن تُضرِمَ أيضاً موهبة الله** τὸ χάρισμα τοῦ θεοῦ **التي فيك بوضع يديَّ.**» (٢تي١: ٦)

هنا اعتراف قوي وصريح أن وضع اليد سِرٌّ من الأسرار الهامة جداً في الكنيسة:

١ ــ واضح هنا أن رسامة تيموثاوس تمت **«بوضع يد بولس»** مع أيدي القسوس πρεσβυτερίου . وهنا يلزم التفريق بين وضع يد القسوسية ووضع يد بولس، ولو أن وضع اليد تم بالاثنين معاً، أي بولس مع القسوس، على رأس تيموثاوس. والفرق توضحه اللغة اليونانية:

---

3. NPNF, 1st ser., vol. XI, p. 90.

4. Ibid. p. 91.

(٥) القديس يوحنا ذهبي الفم يشرح كلمة «المشيخة» أو «القسوسية» أنها تعني الأساقفة، لأنه من غير الصحيح أن يضع القسوس أيديهم على من يُرسم أسقفاً. عن: NPNF, 1st Series, Vol. XIII, p. 449.

فوضع يد بولس جاء هكذا: «διά» τῆς ἐπιθέσεως τῶν χειρῶν μου

ووضع يد القسوس جاء هكذا:

«μετά» ἐπιθέσεως τῶν χειρῶν τοῦ πρεσβυτερίου

حيث معنى διά (= بواسطة) في وضع اليد تفيد الفعل المباشر الفعّال وهو الضروري والأساسي في الطقس. وحيث μετά (= مع) في وضع اليد تفيد المصاحبة أو التبعية، وهو ليس أساسياً ولكن إضافياً، للتثبيت والشهادة في انتقال القوة التكريسية.

٢ ــ أن الرسامة سبقتها نبوة جاءت من أحد الذين لهم موهبة النبوة.

٣ ــ أن مضمون النبوة هو أن تيموثاوس مستحق أن يقام «أسقفاً»، لذلك اشترك القسوس (ربما الصحيح أساقفة) مع بولس الرسول في وضع اليد. وهنا نجد شرط الرسامة الذي وضعه الله في العهد القديم في رسامة يشوع بن نون بأن يكون وضع اليد أمام ألعازر الكاهن، يتم هنا عملياً بأن صار أمام و بحضور و بوضع يد القسوس (الأساقفة).

٤ ــ اقتران «الموهبة»، «بوضع اليد»: «الموهبة التي فيك ... مع "وضع أيدي" القسوس»، يفيد بأنه بوضع اليد ينال المرسوم موهبة خاصة للقيام بالخدمة تنحصر في القوة الروحية المتكلمة والعاملة بالوعظ والتفسير وعمل الأشفية والمعجزات. أما «وضع اليد» كعطية من الله فهي ثابتة لا تزيد ولا تنقص، ولكن الموهبة المضافة هي لعمل الخدمة، فهي إذا أُهملت نقصت وتوقفت وصار الأسقف مجرد مدبِّر على مستوى الحاجة للعمل أي مُنظِّر، ولكن الأسقف في وضعه الصحيح «ناظر»، ناظر من فوق = ἐπίσκοπος (٦) وهي وظيفة الله (أنظر ١بط ٢: ٢٥) للحراسة والرعاية والرؤية الشاملة لحاجة الرعية، بمعنى موهبة روحية فائقة للطبيعة. لأن الرعية، وهي تحيا حياة مسيحية فائقة للطبيعة، تحتاج إلى ما هو أكثر من الخدمة الجسدية.

لذلك يحاصر بولس الرسول ابنه تيموثاوس من جهة هذه الموهبة لخطورة عملها.

أولاً: لا تهمل الموهبة التي فيك (١تي ٤: ١٤)؛

ثانياً: اضرم موهبة الله التي فيك (٢تي ١: ٦).

أما **الإهمال** فيأتي من تزاحم الأعمال والاهتمامات المادية والطقسية وفتور الروح.

أما **الإضرام** فيأتي بالصلاة ــ قبل كل شيء ــ ثم القراءة والتعليم.

6. Liddell & Scott's *A Greek-English Intermediate Lexicon, s.v.*

وقد أوضحها القديس بولس في توصياته لتيموثاوس هكذا:

+ «... لكي يكون **تقدُّمك** ظاهراً في كل شيء. **لاحظ نفسك والتعليم وداوم على ذلك،** لأنك إذا فعلت هذا تخلِّص **نفسك** والذين **يسمعونك أيضاً.**» (١تي٤: ١٥و١٦)

+ «اعكف على **القراءة والوعظ والتعليم.**» (١تي٤: ١٣)

ونلمح من **الرسامة بوضع اليد** للأسقف في الكنيسة الأُولى، أنها أخذت طابعاً يفوق طابعها الأول في العهد القديم في رسامة يشوع بن نون، لأن هذا أُقيم ليكون **مدبِّراً للجماعة فقط**، غير مسئول عن أية ممارسات دينية وإن كان مسئولاً عن تهيئة عملها وضمان تكميلها. ولكن في العهد الجديد جمع الأسقف في العصور الأُولى **التدبير للجماعة** «مع» **الخدمة الدينية**. لذلك نسمع بوضوح عن **الموهبة** χάρισμα **بجوار** وضع اليد، حيث ينصبُّ معنى الموهبة على الامتلاء بالروح للقيادة **الروحية**، بجوار وضع اليد **للتدبير** οἰκονομία ومعناها إدارة شئون البيت وهي من أهم خصائص الأسقف:

+ «فيجب أن يكون الأسقف ... "**صالحاً للتعليم**" ... "**يدبر بيته حسناً**" ... **وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته فكيف يعتني بكنيسة الله.**» (١تي٣: ٢و٤و٥)

وأخيراً، يهمنا أن نوضح هنا أن «**سِرَّ**» وضع اليد للأسقفية هو سِرٌّ فائق على كافة الأسرار في الخدمة، لأنه يعطي للأسقف القوة الروحية «ليضع يده» هو الآخر، إنما ليس لكي يرسم مثيلاً له، لأن قانون انتقال قوة الروح القدس يلزم أن تكون من الأكثر للأقل وليس من الأقل للأكثر، ولا من المثيل للمثيل. فالأسقف ليس له ولا في طاقته الروحية أن يرسم أسقفاً، بل له في حدود قوة الروح القدس أن يرسم كاهناً.

كما يلزم هنا توضيح أن الموهبة الروحية الخاصة التي يأخذها الأسقف مع موهبة وضع اليد للأسقفية قابلة للانطفاء: «اضرم الموهبة التي فيك التي أخذتها ... "مع" وضع اليد». فالموهبة هنا نعمة روحية χάρισμα وهي التي تحفظ الأسقف من عثرات الخدمة وتُلهبُهُ بالروح للاستنارة والتعليم. فإذا أهملها الأسقف بقي أسقفاً ولكن بدون نعمة χάρισμα. وهذا برهان من البراهين القوية على أنه مع الطقس الكنسي توهب نعمة، وأن الخدمة قوامها نعمة الروح القدس كعطاء وحِفْظ!

رسامة القسوس بوضع يد الأسقف:

+ «من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة

شيوخاً (قسوساً أي كهنة) πρεσβυτέρους كما أوصيتُك.» (تي ١:٥)

تيطس كان أسقفاً على كريت، وواضح من كلام بولس الرسول أنه هو الذي رسمه أسقفاً:

+ «إلى تيطس الابن الصريح حسب الإيمان المشترك.» (تي ١:٤)

وهنا لا يفرق بولس الرسول في الاسم ولا في الصفات اللازمة للرسامة بين الأسقف والقس، ولكن اعتبار أن القس شيخ من الشيوخ، فهذا يعني أنه ليس في رتبة الأسقف عملياً.

كذلك يوصي بولس الرسول تيموثاوس الأسقف أن لا يضع يده على الشيوخ πρεσβυτέρους بتسرُّع حتى لا يكون مسئولاً عن خطاياهم وأخطائهم:

+ «أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح والملائكة المختارين أن تحفظ هذا بدون غرض ولا تعمل شيئاً بمحاباة: لا تضع يداً على أحد بالعَجَلة، ولا تشترك في خطايا الآخرين. احفظ نفسك طاهراً.» (١تي ٥: ٢١و٢٢)

وقد ضاعف بولس الرسول من كرامة القسوس، ولكن على نفس درجة القسوسية، إذا تبيَّن أن خدمتهم صارت أفضل بشهادة الآخرين ـــ وذلك بقوله:

+ «أما الشيوخ (القسوس) المدبِّرون حسناً، **فليُحْسبوا أهلاً لكرامة مضاعفة، ولا سيما** الذين يتعبون في **الكلمة والتعليم**.» (١تي ٥:١٧)

وواضحٌ هنا الاتجاهان في خدمة الكاهن: **«التدبير»** و**«التعليم»**. ولكن التدبير هنا له كلمة خاصة تعني **إدارة شئون الكنيسة وضبطها** = προεστῶτες . أما الاتجاه الآخر والأهم، فهو خدمة الكلمة بالوعظ والتعليم وعلى أساسهما يطلب بولس الرسول أن يعطى للقس درجة كرامة **مضاعفة** = διπλῆς (أي دوبل)، وهو ما نسميه الآن في الكنيسة بدرجة الإيغومينوس وهي درجة القس الخادم بالكلمة والوعظ.

درجة الشموسية العامة:

اسم **«شماس»** ورد في الأناجيل كلها ٨ مرات، وورد في رسائل بولس الرسول ٢٢ مرة. وقد استخدم بولس الرسول الكلمة للتعبير عن رئيس الدولة: «لأنه خادم διάκονος الله للصلاح» (رو١٣:٤)، كما استخدمه للتعبير عن عمل المسيح: «يسوع المسيح قد صار خادم διάκονος الختان» (رو١٥:٨)، كما استخدمه للتعبير عن خدمة بولس وأبلُّوس: «بل خادمان آمنتم بواسطتهما» (١كو٣:٥)، ويفتخر بولس الرسول بهذا اللقب لنفسه: «الذي صرت أنا خادماً له (للإنجيل)» (أف٣:٧)، كما أعطاه لتيموثاوس: «إنْ فكَّرْت الإخوة بهذا تكون خادماً صالحاً

ليسوع المسيح» (١تي٤: ٦)، كما أعطى هذا الاسم أو اللقب لامرأة هي «فيبي»: «أوصي إليكم بأختنا فيبي التي هي خادمة διάκονον الكنيسة التي في كنخريا.» (رو١٦: ١)

وقد استخدم بولس الرسول هذا اللقب عند تنظيم الكنيسة كدرجة من درجات الرئاسة الكهنوتية؛ فهو يرسل تحياته للشمامسة: «إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيلبي مع أساقفة وشمامسة» (في١: ١)، ووضع شروط رسامتهم، التي هي ليست كلها بوضع اليد. ويشترط في الشمامسة أيضاً أن يكونوا قد دبَّروا بيوتهم وأولادهم حسناً: «لأن الذين تشمَّسوا διακονήσαντες حسناً يقتنون (يحصلون) لأنفسهم درجة (وظيفة) حسنة وثقة كثيرة في الإيمان الذي بالمسيح يسوع» (١تي٣: ١٣). وهي درجة محصورة داخل الكنيسة التي تشمَّسوا عليها. ويُستثنى من هذا الوضع السبعة الشمامسة الذين رسمهم الرسل بوضع اليد ليخدموا ويبشروا أيضاً في كل الأنحاء.

وهكذا يكون في الكنيسة درجتان للشموسية: درجة بوضع اليد، وهي في عملها قريبة جداً من درجة الأساقفة، فيما عدا أنه ليس لهم الحق في وضع اليد، فهي درجة **خادمة، ومدبِّرة، ومبشِّرة**. وحدود عملها قد يزيد عن التدبير والخدمة المحلية في كنيسة واحدة لأنها ذات موهبة للتبشير، كما رأينا في السبعة الشمامسة. أما الدرجة الأخرى فبدون وضع يد. وهنا لا يسعفنا الوضع لكي نشرح درجات الشمامسة المعمول بها في الكنيسة لأننا ملتزمون بنصوص رسائل بولس الرسول.

ولكن واضح من وصف بولس الرسول لـ«فيبي» أنها شمَّاسة رسمياً لكنيسة كنخريا، أي أن نظام الشمَّاسات بدأ ظهوره في كنائس بولس الرسول.

مراجعة لما نعرفه عن الرسامات في عصر بولس الرسول:

وعلى العموم كان وضع اليد في الكنيسة الأُولى في عصر بولس الرسول منضبطاً بصورة عامة بهذه الأمور التقليدية:

أولاً: يُعيَّن المقدَّم للرسامة بدعوة صريحة من الله، سواء بالنبوة كما سمعنا من بولس الرسول فيما يخص تيموثاوس: «لا تهمل الموهبة التي فيك المعطاة لك **بالنبوة** "مع" وضع أيدي المشيخة (القسوسية)» (١تي٤: ١٤)، «حسب **النبوات** التي سبقت عليك ...» (١تي١: ١٨)، أو بصوت واضح من الروح القدس كما صار في أنطاكية بالنسبة لإرسالية برنابا وبولس التي سافرا بعدها إلى قبرص للتبشير: «قال الروح القدس أفرزوا لي برنابا وشاول ...» (أع١٣: ٢)

ثانياً: أو يُعيَّن باختيار عام من الشعب، وتقديم مَنْ يقع عليه الاختيار بواسطة الشعب للرئاسة الكنسية سواء كانوا الرسل أو الأساقفة بعد ذلك. وهو تدبير إلهي، الأصل فيه وصية من الله في العهد القديم لموسى في اختيار السبعين، ثم من الرسل: «فانتخبوا أيها الإخوة سبعة رجال منكم.» (أع٦:٣)

ثالثاً: شرط المقدَّم للرسامة هو أن يكون: «مشهوداً لهم (من الشعب) ومملوئين من الروح القدس وحكمة» (أع٦:٣)، ومشهوداً لهم من غير المؤمنين أيضاً: «ويجب أيضاً أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج لئلا يسقط في تعيير وفخ إبليس.» (١تي٣:٧)

رابعاً: إقامة الصلوات والأصوام قبل وبعد الرسامة (أع١٣: ٢و٣).

خامساً: لرسامة الأسقف يحضر جميع «الرسل»، وبعد عصر الرسل كل الأساقفة لظهور هيبة الكنيسة، ثم الشعب الخاص بالكنيسة.

سادساً: يُعطَى الوصايا أمام بقية الأساقفة وكل الشعب الحاضر، لتحل هيبة (موسى) وبالتالي (الرسولية) وبالتالي (الأسقفية) على المرسوم أسقفاً ليخضع له الشعب ويطيعه.

سابعاً: قانون تسليم الخدمة لا يحتمل تسليم الأقل للأكثر ولا المثيل للمثيل، إذ يلزم أن الحاصل على القوة الروحية العليا للخدمة هو الذي يعطيها لمن هو أقل وفي حاجة إليها، ليس شكلاً بل موضوعاً. لأن قوة الروح القدس ليست خاضعة للشكليات ولا للاعتبارات الشخصية.

وفي ختام حديثنا عن «سر وضع اليد في الكنيسة» نود أن نلفت نظر القارىء أننا لسنا بصدد بحث عام عن الرسامات والدرجات في الكنيسة بصورة مطلقة وشاملة، بل نحن محاصرون في أضيق الحدود التي تسمح لنا بها النصوص التي وردت في رسائل بولس الرسول، وما ينبغي أن نستقرئه منها وعلى ضوئها(٧).

---

(٧) وسنعود إلى موضوع الدرجات الكنسية حينما نعرض **للإدارة الكنسية** بحسب مفهوم بولس الرسول (أنظر الباب الخامس ــ الفصل الثاني ــ ص٤٨٥).

الفصل الخامس

سر الزيجة

سر الزيجة وعلاقة المسيح بالكنيسة:

بولس الرسول رفع موضوع الزيجة من المستوى البشري الحسّي والجنسي إلى المستوى الروحي، آخذاً منهج المسيح. فالمسيح ردَّ الزيجة إلى الله الذي خلق الإنسان ذكراً وأنثى (مت١٩: ٤و٦)، أي أنه وضع أساس تدبيره الإلهي في الإنسان أنه يقوم على الزيجة. وقد أوضح الله ذلك بجلاء في قوله لهما بعد خلقتهما: «وباركهم الله وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض» (تك١: ٢٨). هنا إكليل زواجهما باركه الله بنفسه مع النسل.

وجاء بولس الرسول واتخذ من هذا البحث اللاهوتي في الزيجة — في وضعها كخليقة عتيقة — أساساً ليضع صيغته التي تتناسب مع **الخليقة الجديدة**. فانتقل من آدم الأول إلى آدم الثاني المسيح، وانتقل من حواء الأولى إلى حواء الجديدة أي الكنيسة.

أما فيما يخص آدم الأول بالنسبة لعلاقته بحواء الأولى، فمعروف أن الله أوقع سُباتاً على آدم فنام، وأخذ ضلعاً من أضلاعه: «وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم هذه **الآن** عظم من عظامي ولحم من لحمي» (تك٢: ٢٢و٢٣). وهكذا التصق آدم بحواء التصاق الكل بالجزء.

فجاء بولس الرسول ونقل طبيعة هذه الخليقة العتيقة للمرأة بالنسبة للرجل، أي آدم الأول، إلى وضعها الجديد في الخليقة الجديدة للكنيسة بالنسبة للمسيح، فرأى واستعلن هذه الحقيقة المدهشة، أن الكنيسة خرجت من جنب المسيح المطعون وصارت من لحمه وعظامه!! حيث الكنيسة في الواقع شملت الخليقة الجديدة، الرجل والمرأة معاً لا فرق: «**ليس ذكر وأنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع**» (غل٣: ٢٨). وهكذا صرنا جميعاً من لحم المسيح وعظامه: «لأننا أعضاء جسمه (الكنيسة) من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

فإن كان المسيح كرأس للخليقة ومدبِّرها قد ذكر عنه بولس الرسول من جهة علاقته بالكنيسة، أن الزيجة هي أصلاً صورة رمزية لعلاقة المسيح والكنيسة، فالزيجة بالتالي موجودة في فكر الله وتدبيره منذ قبل إنشاء العالم.

وهكذا استطاع بولس الرسول أن يستعلن حقيقة آدم وحواء مرة أخرى **في وضعهما الجديد كخليقة جديدة أنهما من عظم واحد ولحم واحد هو «لحم المسيح وعظامه»، هذا يصيران من داخل سر الكنيسة جسداً واحداً!!!**

فإن كان قد حقَّ لآدم والتزم أن يلتصق بامرأته حواء لأنها كانت عَظْماً من عظمه ولحماً من لحمه، فقد صار حقاً والتزاماً بالأكثر جداً للرجل في المسيح أن يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته التي أخذها من الكنيسة من جسد المسيح السري. فهي وهو صارا من لحم واحد وعَظْم واحد هو لحم المسيح وعظامه. لذلك تحتم أن يكونا بسر الزيجة في المسيح جسداً واحداً.

هذا ويرجع علينا بولس الرسول لئلا نظن أنه منشغل أساساً بعلاقة الرجل بالمرأة في ذاتهما وبصورة منفصلة، فأخذ ينبهنا أنه يستعلن علاقتهما من داخل علاقة أعلى وأعظم، هي على مستوى السر الأعظم وهو المسيح والكنيسة:

+ «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه و يلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. **هذا السر عظيم، ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.**» (أف ٥: ٣١و٣٢)

ولكن هذا لا ينفي أن سر الزيجة هنا وعلى هذا الأساس هو سِرٌ عظيم، ولكن ليس في حد ذاته بل بانتمائه كلياً وجزئياً بسر المسيح والكنيسة. بمعنى أن سر الزواج هو سر عظيم طالما هو مرتبط بسر المسيح والكنيسة، سر الجسد السري الواحد الذي يجمع الرجل بالمرأة في وحدانية غير منفصلة.

ومن هنا صار الطلاق بالنسبة للسر على هذا المستوى أمراً لا يُطاق، لأنه يمسُّ سر الوحدة الذي تقوم عليه الكنيسة والذي يمنحه المسيح بجسده الواحد، والذي لا يُطاق أن نراه منقسماً.

الرب أعطى إمكانية الطلاق لعلة الزنا، لأن الذي يزني من الطرفين يكسر سر الوحدة تلقائياً، لأن الزنا محسوب أنه انفصال عن الله! فهنا الذي يزني قد فصل نفسه عن الله والكنيسة، أي خلخل السر المقدس وأخرجه خارج الكنيسة والجسد الواحد، فلم تعُدْ الوحدة السرِّية مع الآخر قائمة، فالطلاق هنا تحصيل حاصل.

والآن، على أي الأسس يقوم سر المسيح والكنيسة الذي ينبثق منه سر الزيجة؟

معروف أن المسيح لكي يخطب لنفسه كنيسة (شعباً جديداً مُبرَّراً)، كلَّفه ذلك الحب الباذل حتى الصليب والدم. لقد «**اشترى**» المسيح الكنيسة بدمه، ويقال أيضاً أنه «اقتناها» كعروس بدمه.

ثم كيف صارت الكنيسة عروساً مقتناة للمسيح؟ بولس الرسول يعني هنا الكنيسة حينما قال بصيغة الجمع المخاطب: «اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١ كو٦: ١١)، أو كما قال أيضاً في موضع آخر: «لكي يقدِّسها مُطهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة لكي يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك بل تكون مقدسة وبلا عيب.» (أف٥: ٢٦)

هذه الالتزامات عينها تقع على عاتق الرجل الذي يطلب لنفسه امرأة لتكون معه **جسداً واحداً**. فالتزام الصليب هو ضمين الوحدة وحارسها، بمعنى الحب الباذل حتى الدم. وهذه الالتزامات نفسها تقع على عاتق المرأة التي تطلب ضمان الجسد الواحد وتوثيقه: «بهذا قد عرفنا المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا، فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الإخوة (الزوج).» (١يو٣: ١٦)

فسرُّ وحدة الجسد الواحد بين المسيح والكنيسة يبقى هو عينه سر وحدة الجسد الواحد للرجل والمرأة.

ليلتفت القارىء، لأن السر المقدَّس الذي انبثقت منه الكنيسة قام على التزامات واضطرارات مريرة من جهة المسيح، أشدُّها وأمرُّها التخلية وإنكار الذات حتى الصليب، والتي قبِلَها بسرور ليقتني كنيسة واحدة وحيدة متحدة به. هذه الالتزامات قائمة تلقائياً في كل سرٍّ من أسرار الكنيسة لكي ينشىء مع المسيح نفس الوحدة أو ليعيش الإنسان فيها.

فسرُّ الزيجة لا يمنح الرجل والمرأة نعمة من تلقاء تتميم السر ولكن من خلال الالتزامات التي على أساسها عُقِدَ هذا السر المسجل بروح الكنيسة، أي خلفية الصليب. بمعنى أنه بمقدار ما يبذل الزوج والزوجة كلٌّ منهما للآخر، بقدر ما تتولد النعمة من السر. ثم بقدر إنكار الذات كل واحد للآخر بقدر ما تضطرم المحبة وتتوثق الصلات وتقوى الوحدة ويستعلن السر. فسرُّ الزيجة هو مشروع مسيحي مضمون الربح على أساس تنفيذ بنوده، وبنوده يكتبها الاثنان معاً كل يوم باتفاق ومودة على ضوء الكلمة والصلاة ومن واقع مشاكل وأتعاب الحياة التي لا تنتهي!

الطلاق عند بولس الرسول:

الزواج سرٌّ إلهي غير منفصم إلاَّ بالموت!

+ «وأما المتزوجون فأُوصيهم لا أنا بل الرب (بالاستعلان الخاص) أن لا تفارق المرأة رجلها،

وإن فارقَتْه، فلتلبث غير متزوجة،

أو لتُصالح رجلها!!!

ولا يترك الرجل امرأته!» (١كو٧: ١٠و١١)

هذا يؤكد أن سر الزيجة هو سر وحدة في المسيح في جسد سري واحد لا يُنقض، فحتى لو أصبحت الحياة لا تُطاق بين الزوجين فليفارق الواحد منهما الآخر ولكن يبقى عقد الزيجة، كسرٍّ لا ينحل، قائماً لا يُمسُّ. فلا المرأة يُسمَح لها بالزواج الثاني ولا الرجل يُسمَح له بالزواج الثاني. ولا يكون أمامهما إلاَّ الصلح أو البقاء في الفراق. ليس هذا تعسُّفاً من بولس الرسول ولكن تقديساً للسر المقدس وتقويماً صادقاً لمفهوم قوة الوحدة التي تمت مرة واحدة وأنشأت جسداً واحداً في المسيح.

الموت يفصم عقد السر:

+ «المرأة مرتبطة بالناموس ما دام رجلها حيًّا، ولكن إن مات رجلها فهي حرة لكي تتزوج بمن تريد في الرب فقط.» (١كو٧: ٣٩)

انكسار قوة السر هنا بموت أحد الطرفين يكشف عن أمر غاية في الأهمية، وهو أن سر الزيجة ولو أنه سر إلهي إلاَّ أنه واقع في حدود الجسد والحياة الجسدية ولا يتعدى الجسد إلى الروح أو الحياة الأخرى.

فالمنطوق الموحى به بالآية واضح: «ويكون الاثنان جسداً واحداً» ولا يقول جسداً واحداً وروحاً واحداً. فقد أبقى بولس الرسول الوحدة بالروح وخصصها للالتصاق بالمسيح فقط: «وأما من التصق بالرب فهو روح واحد.» (١كو٦: ١٧)

هذه الحقيقة أوضحها المسيح عندما سألوه بشأن المرأة في السماء في الآخرة التي تزوجت سبعة رجال بسبب موتهم الواحد تلو الآخر، فكان رد المسيح أن لا أزواج ولا زوجات في السماء ولا يمارسون هناك حياة الزواج، تمكيناً من حقيقة الزواج أنه لحياة الجسد في العالم: «فأجاب يسوع وقال لهم تضلُّون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله، لأنهم في القيامة لا يُزوِّجون ولا يتزوجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء.» (مت٢٢: ٢٩و٣٠)

قداسة الزواج تنتقل لتشمل غير المقدس!

+ « إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضي أن تسكن معه فلا يتركها،
والمرأة التي لها رجل غير مؤمن وهو يرتضي أن يسكن معها فلا تتركه،
لأن الرجل **غير المؤمن مقدَّس** في المرأة،
والمرأة **غير المؤمنة مقدَّسة** في الرجل،
وإلاَّ فأولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدَّسون!» (١كو٧: ١٢—١٤)

هنا الزيجة تطير بجناح واحد! فهي لا تقوم على أساس تقديس متبادَل أو على إيمان مشترك، بل تنطلق من إيمان طرف واحد وقداسة طرف واحد. فهنا غياب سر الوحدة واضح وغياب الجسد الواحد، لغياب العنصر الذي يجمع ويوحِّد. والذي بقي من سر الزيجة هو اتحاد أحد الطرفين بالكنيسة وبالجسد الواحد الذي ليسوع المسيح، حيث التقديس منحصر في طرف واحد يشمل الآخر، ولكن لا ينفذ إليه وإنما ينفذ إلى الأولاد وحسب. لذلك فهذا زواج محلول بطبيعته لا يربطه رباط سري ولا التزامي: «ولكن إن فارق غير المؤمن فليفارق. ليس الأخ أو الأخت مُستعبَداً في مثل هذه الأحوال ولكن الله قد دعانا في السلام» (١كو٧: ١٥). وكان هذا الوضع الاستثنائي للزواج وارداً باستمرار في الكنيسة الأُولى حينما كان يقبل أحد الزوجين الإيمان المسيحي ويرفضه الآخر، فكان هذا التصريح الفريد من نوعه ناتجاً من حكم الواقع الاضطراري وليس تفريطاً في شأن الزواج.

حقوق الطرفين وواجباتهما بحكم سر الزيجة المسيحي:

تعاليم بولس الرسول تؤكد على تساوي الحقوق والواجبات بين الأزواج والزوجات في الأمور الجسدية التي تختص بالعلاقات الزوجية. فقانون **الواجب** يقطع على الاثنين بالخضوع المتبادل:

+ «ليوفِ الرجل المرأة حقها **الواجب**، وكذلك المرأة أيضاً الرجل. ليس للمرأة تسلُّط على جسدها بل للرجل وكذلك الرجل أيضاً ليس له تسلط على جسده بل للمرأة. لا يسلب أحدكم الآخر إلاَّ أن يكون على موافقة إلى حين لكي تتفرغوا للصوم والصلاة ثم تجتمعوا أيضاً معاً لكي لا يجرِّبكم الشيطان لسبب عدم نزاهتكم.» (١كو٧: ٣—٥)

علماً بأن أي إخلال متعمَّد بحق كل طرف عند الآخر ينشىء حتماً خللاً في قوة سر الوحدة للجسد الواحد. لأن في سر الزيجة على وجه الخصوص تتأثر المستويات الروحية بالمستويات الجسدية بشكل حساس وخطير.

ولكنها ليست حرية مطلقة، فلا توجد الحرية المطلقة في الحياة المسيحية على وجه العموم

وبالأخص في رباط سر الزيجة، لأن المسيحي حرٌّ ولكنه خاضع لقانون الحرية الملتزم بالخضوع والطاعة لصاحب القانون ومعطيه. فالإنسان المسيحي عليه التزامات لكي يكون له حقوق. فحق الحرية هو قائم في إطار التزامات تجاه الله والآخرين. هكذا في سر الزيجة فالخضوع لله والآخر أساسي لقيام وبقاء سر الوحدة والجسد الواحد في الزيجة.

١ ــ «أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح وأما رأس المرأة فهو الرجل.» (١كو١١: ٣)

هنا عدم التساوي جاء لحساب الخضوع، والخضوع جاء لحساب قيام صحة الجسد الواحد وثباته. وهكذا يرتد عدم التساوي لداعي أعلى من التساوي وهو بقاء سلامة وصحة الوحدة في الجسد الواحد.

٢ ــ «لأن الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل،

ولأن الرجل لم يُخْلَق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل.» (١كو١١: ٨و٩)

هنا، فإن عدم التساوي الذي أوْجَبَ عمل الخضوع ليس مصطنعاً أو مفروضاً بإرادة بشرية، بل هو عنصر طبيعي منبثٌّ في الخلقة وله في التركيب الخَلْقي أسباب ومسبِّبات، أوضحها الله في بدء الخلقة حينما تسرعت حواء وتصرفت تصرفاً خاطئاً ومشيناً دون أن تُشْرِك زوجها، فوقعت في الخطية والتعدّي وأوْقَعَتْ زوجها: «وقال (الله) للمرأة تكثيراً أُكثِّر أتعاب حَبَلِك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك» (تك٣: ١٦). لقد تعالت حواء على آدم وأخلّت بواجبات التساوي في التصرف والمسئولية وسادت عليه برأيها الخائب، فسحب الله منها حق التساوي المطلق وجعل لزوجها حق السيادة عليها. ولكي لا يجعل هذه السيادة غير مفروضة بالعنف والإرادة، ثبَّتها في غريزة المرأة لكي تسعى المرأة بنفسها لسيادة الرجل عليها بحكم طبيعتها: «إلى رَجُلِكِ يكون اشتياقك». وبذلك ارتدت هذه السيادة، أي عدم التساوي، لحساب بقاء الوحدة والأُلفة بين المرأة والرجل شديدة ومستمرة بحكم الطبيعة.

وقد تسحَّب هذا الحكم بعدم التساوي الذي يعمل لحساب قيام ودوام وحدة سر الجسد الواحد في المسيح إلى التزامات على المرأة وعلى الرجل:

+ «لتتعلَّم المرأة بسكوت في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة أن تعلِّم ولا تتسلَّط على الرجل (في الكنيسة) بل تكون في سكوت. لأن آدم جُبِلَ أولاً ثم حواء، وآدم لم يُغْوَ لكن المرأة أُغويت فحصلت في التعدي.» (١تي٢: ١٣و١٤)

هنا بولس الرسول لا يستخدم الأوضاع قَسْراً ليثبت رأيه بل يستمد تعليمه من واقع طبيعة المرأة

والرجل قبل وبعد الغواية والسقوط في التعدي. **فطبيعة المرأة أقرب لغواية العدو من الرجل ــ وقد انتهز الشيطان هذه الطبيعة والتجأ إلى حواء وليس آدم** ــ وهذا يحرمها من حق المبادرة في تعليم الرجل ويعطي للرجل حق السيادة في التعليم الصحيح، هذا من ناحية التعليم. أما من ناحية الظهور برأس مكشوفة في الكنيسة، فبولس الرسول يستمد تعليمه من واقع قدرة المرأة هي بذاتها على الغواية، فهي سقطت من جراء غواية الحية أولاً **ثم أغوت هي زوجها بالتالي، فأسقطته وأوقعته في الخطية ــ وهو قائم في الفردوس عند الله!!!** ــ فبولس الرسول هنا يضبط عنصر الغواية **داخل كنيسة الله** (١كو١١: ٥و٦).

ولكن يعود بولس الرسول ويصحح هذا التمايز الحادث اضطراراً في عدم التساوي بين الرجل والمرأة من جراء ذات الطبيعة التي فرّقت بين الرجل والمرأة سواء قبل السقوط أو بعده، بتأكيد عدم التمايز في الحقوق الروحية في المسيح وبالتالي وبالضرورة في الروح والأمور الأبدية على وجه العموم:

+ «غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل **في الرب**.» (١كو١١:١١) وهذا هو الأهم والأعظم من كل حقوق أرضية زائلة.

+ «ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد **في المسيح يسوع**.» (غل٣:٢٨)

وبالنهاية، فالزيجة في المسيحية تعبِّر من واقعها الفائق في الارتباط السرِّي بحقيقة الجسد الواحد وما يُنْشئه من وحدة الفكر والحب والخضوع والبذل المتبادل، تعبيراً ينطق بقداسة هذا السر الفائق.

الزواج والبتولية عند القديس بولس:

بقدر تفوُّق سر الزيجة في علو شأنه ومكانته في الحياة المسيحية، تبقى للبتولية عند بولس الرسول أفضلية من واقع الاختيار الحر والاستطاعة على تحمُّل التكاليف!:

+ «ولكن أقول لغير المتزوِّجين وللأرامل أنه حَسَنٌ لهم إذا لبثوا كما أنا.» (١كو٧:٨)

+ «لكن أقول هذا على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر.» (١كو٧:٦)

+ «لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا، لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله.» (١كو٧:٧)

+ «وأما العذارى فليس عندي أمر من الرب فيهن، ولكنني أُعطي رأياً كمن رحمه الرب أن يكون أميناً،

فأظن أن هذا حسن لسبب الضيق الحاضر أنه حسن للإنسان أن يكون هكذا،

أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال، أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة،

لكننك وإن تزوَّجْتَ لم تخطىء، وإن تزوَّجتْ العذراء لم تخطىء، ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق في الجسد،
وأما أنا فإني أُشفق عليكم.» (١ كو: ٢٥–٢٨)

+ «فأريد أن تكونوا بلا همٍّ، غير المتزوج يهتم في ما للرب كيف يرضي الرب.» (١ كو٧: ٣٢)
+ «غير المتزوجة تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً.» (١ كو٧: ٣٤)
+ «هذا أقوله لخيركم، ليس لكي أُلقي عليكم وهقاً (كَبْتاً) بل لأجل اللياقة والمثابرة للرب من دون ارتباك.» (١ كو٧: ٣٥)
+ «وأما مَنْ أقام راسخاً في قلبه وليس له اضطرار بل له سلطان على إرادته وقد عزم على هذا في قلبه أن يحفظ عذراءه، فحسناً يفعل.» (١ كو٧: ٣٧)
+ «إذاً مَنْ زوَّج فحسناً يفعل، ومَنْ لا يُزوِّج يفعل أحسن.» (١ كو٧: ٣٨)

o نخلص من هذا أن الزيجة كسرٌ مقدس هي ارتباط بالله والجسد،
وأما البتولية فهي ارتباط بالله لتقديس الروح والجسد،
من أجل هذا نشأ امتياز البتولية عند القديس بولس!!
o فإذا انحاز المتزوج للجسد من دون الله أخلَّ بالسرِّ وفَقَدَ قدسيته.
o وإذا انحاز البتول للجسد من دون الله أتلف صلته بالله وفقد امتياز تقديس الروح والجسد كليهما!!

الباب الخامس

الكنيسة في لاهوت بولس الرسول

الفصل الأول

الكنيسة بالمفهوم الروحي

القديس بولس الرسول هو أول مَنْ وضع الاسم الوصفي للكنيسة ليعبِّر عن معنى تركيبها ووجودها وصفاتها بصورة شاملة: **فالكنيسة هي جسد المسيح**، والمؤمنون فيها هم **أعضاء لجسد المسيح**، وهؤلاء الأعضاء هم **القديسون** أو المقدَّسون من واقع خروجهم جميعاً من معمودية واحدة كشركة في موت المسيح وقيامته، ومن واقع مَسْحهم جميعاً بالروح القدس لتثبيتهم ثم تناولهم جميعاً من الجسد الواحد للغفران والتقديس والاتحاد بالروح وتجديد العهد.

الكنيسة هي جسد المسيح:

بولس الرسول هو الذي استعلن هذا السر. على أي أساس؟ على أساس أن المسيح عندما بدأ يتألم وعندما مات على الصليب وعندما دُفن وعندما قام من الأموات، لم يكن ليتألم ويموت ويُقبر ويقوم بمفرده بل كان يحمل البشرية المُفدَّاة. لذلك جاز لنا أن نقول إننا تألمنا ومُتنا ودُفنَّا وقمنا معه بل وجلسنا معه في السموات.

ولكن كيف يكون الجميع واحداً؟ أي كيف يصير الأفراد المؤمنون بالمسيح وهم فرادى في وجودهم وحياتهم، كيف يصيرون واحداً، جسداً واحداً وكنيسة واحدة؟ الرد على ذلك يقوله بولس الرسول في الآية: «مَنْ التصق بالرب فهو روح واحد» (١كو٦: ١٧)، في مقابل: «مَنْ التصق بزانية هو جسد واحد لأنه يقول يكون الاثنان جسداً واحداً» (١كو٦: ١٦). فالأفراد المؤمنون بالمسيح لا يصيرون واحداً بإمكانياتهم الذاتية الشخصية أو حتى الروحية، ولكن لأن كل واحد قد التصق بالمسيح وصار مع الرب روحاً واحداً، هكذا يصير الجميع في الرب أيضاً جسداً واحداً.

فالوحدة تتم في المسيح أولاً، وعندما تتوثق وحدة المؤمنين في المسيح فرداً فرداً، تعود هذه الوحدة التي هي بعينها الكنيسة الواحدة ليتمتع أفرادها بالوحدة القائمة بينهم في المسيح.

ويُلاحظ أن بولس الرسول حينما يقول إن «مَنْ التصق بالرب فهو روح واحد»، فإنه لا يقصد أنه روح بلا جسد، بل هو جسد روحاني، بمعنى أنه جسد يعيش القيامة، ليعيش بالروح ويسلك بالروح، فهو يقصد الجسد القائم من الأموات الذي يجمع فيه كل المقدَّسين موحَّدين فيه.

فالكنيسة أعضاء مختلفة ذات مواهب مختلفة وذات اختصاصات وأعمال مختلفة، ولكن لأن كل عضو فيها متحدٌ أصلاً بالمسيح وقد صار مع الرب أو في الرب روحاً واحداً، فقد صار بل تحتم أن يكون جميع أعضاء الكنيسة جسداً واحداً للمسيح.

فالكنيسة في نفسها هي أعضاء كثيرة متباينة ومختلفة ومتمايزة، ولكن في المسيح أعضاء متحدة معاً بجسد واحد، والمسيح يسوسها كرأس لها.

+ «وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً.» (١كو١٢:١٢)

+ «فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز (الجسد) الواحد.» (١كو١٠:١٧)

+ «هكذا نحن الكثيرين جسد واحد في المسيح، وأعضاء بعضاً لبعض كل واحد للآخر.» (رو١٢:٥)

+ «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبدٌ ولا حرٌّ، ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع.» (غل٣:٢٨)

+ «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام، جسدٌ واحدٌ وروحٌ واحدٌ.» (أف٤: ٣و٤)

في هذه الآية الأخيرة، الوحدانية التي للجسد الروحي موجودة وقائمة في المسيح، لا نصنعها نحن، ولكن المطلوب أن نجتهد لنحافظ عليها. أما وجودنا في الجسد فيراه بولس الرسول أنه وجود اتصالي واقعي حيٌّ كوجود الغصن في الكرمة كما قال المسيح (يو١٥:٥). من هنا يأتي تعبير بولس الرسول «في المسيح» أي في الجسد، في جسده تصالحنا (كو١:٢٢)، وفي ختانته اختُتنَّا (كو٢:١١)، وفي المسيح صرنا قريبين وبلا لوم (أف٢:١٣)، وفيه نأخذ حياتنا (رو٦:١١)، وفي المسيح نلنا الفداء (رو٣:٢٤)[1]، الذي فيه لنا الفداء والغفران (كو١:١٤)، وفيه تبرَّرنا

---

(١) يلاحظ في هاتين الآيتين (رو٦:١١) و(رو٣:٢٤) أن عبارة: «بالمسيح يسوع» و «بيسوع المسيح» هي في الأصل اليوناني: «في ἐν المسيح يسوع»، و «في ἐν يسوع المسيح».

(غل٢:١٧)، وفيه تقدَّسنا (١كو١:٢)، «وأقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات في المسيح يسوع.» (أف٢:٦)

ومن هذه الشواهد وأمثالها التي تزيد عن المائة والستين(٢) يتضح منهج بولس الرسول في تعريف الكنيسة كجسد المسيح الذي فيه يحيا المؤمنون كأعضاء فيه. فالصلة التي تربط المؤمنين بالمسيح هي صلة عضوية حية قابلة للنمو والإثمار وغير قابلة للموت أو الانحلال: «وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.» (مت١٦:١٨)

وهذا الفكر نجده معبَّراً عنه تعبيراً واقعياً عند بولس الرسول في تشبيه المؤمنين من الأمم بأفرع زيتونة بريّة قُطعت من أصولها المرة وطُعِّمت على الزيتونة الجيدة (رو١١:١٦ــ٢٤)، حيث الزيتونة الجيدة هي جسد المسيح بلا شك، على أنه لم يَخْفَ على بولس الرسول الخطأ الطبيعي في هذا الوصف النباتي (لأن الفرع المُر يُنتج زيتوناً مرًّا)، لذلك يصحح الوصف بقوله: «بخلاف الطبيعة» قاصداً أنه أمر إعجازي حقيقي. هنا في هذا الوصف يتضح الاتحاد العضوي الحادث بين المؤمنين والمسيح، وبالتالي بين المؤمنين بعضهم مع بعض، حيث المؤمنون يستمدُّون وحدتهم وألفتهم وحبهم معاً من المسيح وليس من أنفسهم أو تقواهم. وكل ما يفرضه بولس الرسول على المؤمنين هو أن يجتهدوا لحفظ هذه الوحدانية بالصلح والتسامح والصفح والغفران قدر ما أُوتوا من نعمة. أما حبهم بعضهم لبعض فهو من رصيد محبة الله التي تنسكب في قلوبهم بالروح القدس المعطى لهم، ومن توسط دم المسيح الذي سكبه طاعة لحب الآب وحبنا. على أن المؤمنين لم يعودوا يعيشون لأنفسهم بعد بل لأجل الذي مات من أجلهم وقام (٢كو٥:١٥)، وصار الكل في الكل (كو٣:١٠).

على أن الكنيسة باعتبارها المؤمنين المعتبرين جسداً متحداً، هي جسد عضويّ حي بالروح له صفة النماء. ونمو الأعضاء المتحدين هو نمو في المسيح ومن داخل المسيح: «صادقين في المحبة ننمو في كل شيء فيه εἰς αὐτόν (وليس "إلى" كما جاء في الترجمة العربية)» (أف٤:١٥)، فالكنيسة كمؤمنين متحدين فإن نموها ضرورة حتمية لأنها جسد حي، ونموها يكون في المسيح وفيما للمسيح.

والكنيسة حينما تُخْلص في إيمانها (أي الأعضاء المؤمنون فيها) وتحيا وتنمو فيما للمسيح وتمتد فيه حقاً، فإنها (أي الكنيسة) لا تعود تعيش لذاتها أو بذاتها ولكن المسيح يعيش فيها وبها. وهذا

---

(٢) أنظر صفحة ٢٦٤.

ما عبَّر عنه بولس الرسول معطياً نفسه نموذجاً لهذا التصوُّر: «مع المسيح صُلبتُ فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيَّ. فما أحياه الآن في الجسد فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبَّني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢: ٢٠). بولس الرسول هنا يتكلم في الحقيقة بلسان الكنيسة ككل وبلسان كل مؤمن حي فيها.

لذلك فكل الأسماء والتعبيرات القديمة التي كانت تخص شعب الله في القديم وتسحَّبت إما بالمعنى أو بالنص على الكنيسة الجديدة في العهد الجديد، فإنها تكون قد فقدت قدرتها على التعبير اللاهوتي الصحيح عن الكنيسة من واقع صلتها بالمسيح الفادي.

فهي ليست شعب الله بمفهومه في العهد القديم، بل هي شعب الله المَفْدِي.

وليست هي جماعة الرب بمفهومها القديم، بل هي جماعة القديسين المتحدين بجسد الرب.

وهي أيضاً ليست جماعة المختارين، بل هي جماعة المختارين المقدَّسين في المسيح.

وهكذا فكل صفة من صفات الكنيسة في الماضي ـــ حتى اسم الكنيسة نفسه الذي استُخدم في السبعينية للتعبير عن شعب الله ـــ لم يَعُد يصلح للتعبير عن واقع الكنيسة في العهد الجديد باعتبارها جسد المسيح وبالتالي هيكل الروح القدس. والمؤمنون فيها هم الجسد الحقيقي السرِّي للمسيح، والمسيح نفسه هو رأس الكنيسة.

+ «المسيح أيضاً رأس الكنيسة وهو مُخلِّص الجسد.» (أف٥: ٢٣)

+ «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

+ «وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده ملء الذي يملأ الكل في الكل.» (أف١: ٢٢و٢٣)

+ «صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس «المسيح» الذي منه كل الجسد مُركَّباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصلٍ حسب عملٍ على قياسِ كل جزء، يُحصِّلُ نموَّ الجسد لبنيانه في المحبة.» (أف٤: ١٥و١٦)

أما كيف تكوَّن هذا الجسد السرِّي للكنيسة لكي يكون هو نفسه جسد المسيح الحقيقي، فيشرحه بولس الرسول مُعطياً المعمودية نقطة الخلق الجديد لهذا الجسد السرِّي:

+ «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع،
لأن كُلَّكم الذين اعتمدتم بالمسيح (في المسيح) قد لَبِستم المسيح.» (غل٣: ٢٦و٢٧)

+ «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد.» (١كو١٢: ١٣)

+ «حيث ليس يوناني و يهودي، ختان وغُرْلة، بربريٌّ سكيثيٌّ، عبدٌ حرٌّ، بل المسيح الكل وفي الكل.» (كو٣: ١١)

+ «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام، جسد واحد وروح واحد، كما دُعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد، ربٌّ واحد، إيمان واحد معمودية واحدة، إله وآب واحد للكل الذي على الكل و بالكل وفي كلكم.» (أف٤: ٣–٦)

ومن هذا الواقع والأساس، تأخذ الكنيسة صفاتها الجوهرية: **مقدسة**، لأن جسد المسيح مقدس؛ **وجامعة**، لأن جسد المسيح يجذب الجميع: «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض أجذبُ إليَّ الجميع» (يو١٢: ٣٢)؛ **ورسولية**، لأن المسيح بناها على صخرة إيمان الرسل: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» (مت١٦: ١٨). كذلك من منطلق تكوينها السري كجسد المسيح فهي مُتغرِّبة على الأرض ووطنها الحقيقي في السماء، لذلك فجزؤها الذي يجاهد عَبْر الزمن هو الجسد المتألم بعد، وجزؤها الذي أكمل الجهاد والسعْيَ وأخَذَ إكليل البرِّ الأبدي في السماء هو جزؤها الممجَّد والمنتصر، الذي يبشر الآن لدى السمائيين بعمل المسيح الذي صار لنا حكمة من الله وقداسة وفداء: «لكي يُعرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة، حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا.» (أف٣: ١٠و١١)

و بهذا تكون الكنيسة بصفتها جسد المسيح المتألم والممجَّد هي ملء السماء والأرض، و بهذا أيضاً يكون أعضاء الكنيسة المجاهدون على الأرض لهم سحابة شهود في السماء تُعِين وتشجِّع الذين يحاضرون بالصبر في الجهاد الموضوع أمامهم حتى الدم. فالكنيسة تحيا الآن وتتحرك على مَرْأى من كنيسة أورشليم السماوية مدينة الله الحي، نصفها الأعلى كنيسة أبكار (أبكار قيامة) مكتوبين في السموات وأرواح أبرار مكمَّلين. والكل هنا وهناك جسد واحدٌ من لحمه وعظامه: «وأما أورشليم العليا التي هي أُمُّنا جميعاً فهي حرَّة» (غل٤: ٢٦). فأنين الأرض يُسمع في السماء، وتهليل السمائيين يشدِّد أزْر الأرضيين ويهتف بنا أن تعالوا:

+ «أنا يسوع أرسلت ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس،
أنا أصل وذُرِّية داود، كوكب الصبح المنير،
والروح **والعروس** يقولان **تعال**،
ومَنْ يسمع فليَقُلْ تعال. ومَنْ يعطش فليأتِ. ومَنْ يُرِدْ فليأخذْ ماءَ حياةٍ مجاناً.»

(رؤ٢٢: ١٦و١٧)

و بذلك تتحرك الكنيسة ككل نحو استعلانها الأخير في ملكوت الله.

القديس بولس هو أول مَنْ استعلن الكنيسة في المسيح قبل باقي الرسل جميعاً، وأعطاها هذه المعايير القائمة على الفداء وسفك دم المسيح. فالكنيسة عند بولس الرسول «اقتناها الله بدمه»، والتي رآها القديس يوحنا في رؤياه بعد ذلك ــ بما يقرب من أربعين سنة ــ أنها مُشْتراة بالدم: «لأنك ذُبِحْتَ واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة، وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة...» (رؤ٥: ٩و١٠). والدم الذي اشترانا به المسيح لم يَسْفكه على الأرض هباءً حسب الظاهر، بل سكبه بالروح والحق الذي فيه في قلوبنا، وسَرَى في دمائنا فقدَّسنا ووحَّدنا بالوحيد:

+ «كأس البركة التي نباركها، أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبز واحد جسد واحد لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد.» (١كو١٠: ١٦و١٧)

فالسرُّ المقدس صار سرَّ كياننا الحقيقي المنظور لديه في السماء. فقد صرنا من لحمه ومن عظامه: «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

كذلك، فالقديس بولس هو أول مَنْ ربط الكنيسة بالروح القدس، وجعله عمودها الفقري وهيكل تكوينها الذي نَبَتَ عليه لحمُها وعظمُها من لحم المسيح وعظمه:

o **سواء على مستوى كل فرد بمفرده:**

+ «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم! ... لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو!!» (١كو٣: ١٦و١٧)

+ «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشتُريتُم بثمن، فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله.» (١كو٦: ١٩و٢٠)؛

o **أو على مستوى الكنيسة ككل، كمجموع، لهذا النموذج الفردي المتقدِّس بالروح:**

+ «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب،
الذين فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً، **مسكناً لله في الروح.**» (أف٢: ٢٠ــ٢٢)

كذلك، وعلى أساس تقديس الروح في المعمودية لكل مَنْ تعمَّد، صار أعضاء الكنيسة مقدَّسين، لائقين بالحق أن يكونوا أعضاءً في جسد المسيح، وهكذا يُدْعَى المؤمنون بالمسيح قديسين بلا حرج.

+ «وهكذا كان أُناس منكم، لكن اغتسلتم (تعمدتم)، بل تقدستم، بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا.» (١ كو٦: ١١)

كذلك وعلى مستوى الكنيسة ككلٍّ، فإن بولس الرسول تصورها وقد عمَّدها المسيح وغسلها بيده، وطهَّرها بدمه وبالكلمة، لكي يُحضرها لنفسه عروساً بلا دنس ولا عيب، مجيدة، كشريكة في مجده:

+ «كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها، لكي يقدسها مُطهِّراً إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يُحضرها لنفسه كنيسة مجيدة لا دنس فيها ولا غَضَن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدسة وبلا عيب.» (أف٥: ٢٥—٢٧)

وهنا يبلغ بولس الرسول أروع التعبير عن سرِّ جمع المؤمنين كفرادى، حيث صيَّرهم المسيح واحداً في جسده كنيسة واحدة وحيدة أحبها المسيح ككل، فبعد أن وحَّد أفرادها بدمه وجسده، وحَّدهم بحبه.

هنا يرمي بولس الرسول التشبيه إلى بعيد، فكما أُخذ من جنب آدم ضلع من ضلوعه وملأه الله لحماً فصار حواء وصارت حواء من لحمه وعظامه، هكذا المسيح أطعمنا جسده ودمه — الخارج من جنبه — فصرنا من لحمه وعظامه وصرنا كنيسة، وأحبها المسيح كما أحب آدم امرأته لأنها من لحمه وعظامه. وكما أن آدم أخذ حواء امرأة له وصار الاثنان واحداً لأنهما من جسد واحد، هكذا المسيح أخذ الكنيسة له عروساً، ولكن حواء فقدت عذراويتها بخداع الحية، أما الكنيسة فقد حفظها عذراء عفيفة بلا دنس، إذ قدَّسها بدمه وجعلها واحداً معه لأنها من جسده، بل هي جسده!! (٢كو١١: ٢):

+ «وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي.» (تك٢: ٢٢و٢٣)

هكذا أتقن بولس الرسول الرؤيا وفسَّر الاستعلان بقوله:

+ «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

ونحن إذا أردنا تعريف الكنيسة في وضعها الآن في العهد الجديد، نقول إنها «جسد المسيح»، ولا نرى إمكانية الاكتفاء بتشبيهات ومسمَّيات الكنيسة في العهد القديم التي كانت كلها محاولات للتعبير عن الحقيقة التي تعيشها الكنيسة الآن باستعلان عمل الفداء. فحتى الكرمة في العهد القديم التي شرحها المسيح بأنه هو الكرمة ونحن الأغصان، أو الحظيرة التي كانت تُشبَّه

شعب إسرائيل بالخراف وشرحها المسيح بأنه هو الراعي الحقيقي ونحن الخراف، أو حتى محاولة بولس الرسول لتقليد أمر الكرمة بتشبيه الآباء والأنبياء بجذر حيٍّ وساق مقدَّسة لزيتونة أصلية، ونحن فروع لزيتونة برِّية طُعِّمنا على الأصل وصرنا شركاءَ في دسم الجذر والساق. هذه كلها انتهت إلى استعلان بلغ أقصى التعبير والصحة عن واقع الكنيسة السرِّي، أننا **جسد المسيح وأعضاء من لحمه وعظامه**، كنيسة هي في حقيقة استعلانها عروس من السماء:

+ «ثم جاء إليَّ واحد من السبعة الملائكة ... وتكلم معي قائلاً: هلم فأُريك العروس امرأة الخروف، وذهب بي بالروح إلى جبل عظيم عالٍ وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله لها مجد الله.» (رؤ٢١: ٩–١١)

+ «وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مُهيَّأة، كعروس مُزيَّنة لرجلها.» (رؤ٢١: ٢)

وبولس الرسول لم تَفُتْ عليه هذه الرؤية، فهو واحد من الذين زَفُّوا هذه العروس لعريسها:

+ «فإني أغار عليكم غيرة الله، لأني خطبتُكُم لرجلٍ واحدٍ، لأُقدِّم عذراء عفيفة للمسيح. ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء بمكرها هكذا تُفْسَدُ أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.» (٢كو١١: ٢و٣)

وزواج المسيح للكنيسة كلحم من لحمه وعظم من عظامه هو السرُّ الأعظم الذي اطَّلع عليه بولس الرسول فانعكس على روحه بأشعة أضاءت له كل خفايا علاقة الإنسان الجديدة بالله:

+ «هذا السرُّ عظيم، ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.» (أف٥: ٣٢)

ولكن للمعمدان يعود قَصَب السَّبْق في التعبير عن المسيح كعريس لعروس قبل أن تظهر في الوجود:

+ «أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح بل إني مُرْسَلٌ أمامه. مَنْ له العروس فهو العريس، وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه يفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً فرحي هذا قد كمل.» (يو٣: ٢٨و٢٩)

أما المسيح فوافق على أنه هو العريس بالفعل، وافق مَنْ سَبَقَ فاستعلنه في عتمة الزمان، كالمعمدان، ومَن سَبَقَه من الأنبياء، ومَنْ سيستعلنه مستقبلاً في نور وجهه الذي أشرق علينا من السماء كبولس الرسول — وذلك حينما طرح المسيح أولاً رؤية الملكوت القادم في صورة كنيسة صغيرة نصفها عذارى جاهلات ونصفها الآخر عذارى حكيمات، حيث العذراوية هنا على مستوى النفوس التي أخذت ختم الخليقة الجديدة. فنصفها نفوس حفظته على مخزون زيت النسك والعبادة،

ونصفهـا الآخر بدَّدته ولم تختزن زيتاً. وأخيراً جاء العريس ببوق وهتاف، فلاقتْه كنيسة الأبكار ودخلوا معه وأُغلق عليهم الباب. هذا هو منظر الملكوت الآتي، وفيه المسيح كعريس يقود كنيسته إلى مجدها المُعدّ.

كذلك، فالمسيح كان يرى نفسه على الأرض عريساً مع بني العرس، جاء ليخطب عذراء جديدة عوض الشعب الذي سلَّمه كتاب طلاق: «أين كتاب طلاق أُمكم التي طلقتُها ... من أجل ذنوبكم طُلِّقتْ أمكم.» (إش٥٠: ١)

+ «فقال لهم يسوع هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام **العريس** معهم، ولكن ستأتي أيام حين يُرْفَعُ العريس عنهم فحينئذ يصومون.» (مت٩: ١٥)

أما كل هذه الصور التي تحكي وتصف علاقة الرب بالإنسان عامة وخاصة، كنيسة وأفراداً، علاقة الالتصاق الشديد والاتحاد حتى إلى صورة العريس والعروس والجسد الواحد، فهذه كلها مردُّها إلى مصدرها الأول السرِّي للغاية حينما «صار الكلمة جسداً». لقد اتحدت الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية في زيجة أبدية غير منفصمة ولكن خلْواً من خطية. هذا هو الاتحاد السري العجيب الذي انبثق منه كل مفهوم للاتحاد! فحينما «ظهر الله في الجسد»، ظهر في الحال عُرْسُ الله على أرض الإنسان، كانت أشابينه ملائكةً في السماء تُهلِّل، ومدعووه حكماء يسجدون ويقدِّمون الهدايا ورعاةٌ مُتبدُّون يحرسون حراسات الليل الطويل، وخِدْرُه كان عذراءً قديسة حلَّ عليها روح الله! كان المسيح طفل المذود هو هو كنيسة المهد، وعلى الصليب كنيسة الفداء المخضَّبة بالدماء، وفي اليوم الثالث كنيسة القيامة وقد ثبَّتت وجهها نحو السماء حيث ميراثها المحفوظ لها قبل كل الدهور.

كان تاريخ العُرْس العلني هو يوم الخميس، حيث كان عشاء العرس السرِّي حينما قدَّم الرب المهرَ دَمَه في الكأس، وفي يوم الجمعة زُفَّ على الصليب، وفي اليوم الثالث خرج العريس من حِجَاله متجلياً متحداً بعروسه، حيث أخذها إلى المواطن العليا إلى أن يُكمِّل أبناؤها، جيلاً بعد جيل، حتى تمام الفداء لغُربة الإنسان على أرض الشقاء.

الكنيسة والكنائس:

«**الكنيسة**» بتعبير القديس بولس الرسول هي «ملءٌ» في حد ذاتها، كاملة ومُكتمِلَة بجسد المسيح، توجد في كل مدينة، بل وفي كل بيت: «سلِّموا على الإخوة ... وعلى نمفاس **وعلى الكنيسة التي في بيته**» (كو٤: ١٥)، وهي في ذات الوقت موجودة في السموات، بل ولها وجود خارج عن

المكان والزمان، فهي كيان سرّي قائم بقيام جسد المسيح. لذلك يقول بولس الرسول إنها ملء المسيح الذي يملأ الكل: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة ــ التي هي جسده ــ ملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف ١: ٢٢و٢٣). وتصحيح ترجمة هذه الآية يكشف عمق معناها بحسب اليونانية: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة ــ التي هي **جسده ملؤه** (أو ملء ذاك) الذي يملأ الكل في الكل».

فالكنيسة كجسد الرب تماماً بتمام. إذا تناول منه الإنسان جزءاً مهما كان يسيراً، فهو قد تناول جسد المسيح كله بالتمام. والجسد يُقدَّم كل يوم على مذبح، آلاف وملايين المذابح، وهو جسد واحد لا يتجزأ. هكذا الكنيسة، هي كلٌّ يتجزأ شكلاً ويتسمى باسم كل مدينة، وفي ذات الوقت هي كيان روحيٌ كلّي قائم في كل كيان جزئي ظاهري.

فهي ليست جماعة مؤمنين وحسب، ولا هي مجموع كلي لكل المؤمنين فحسب، لأنها تفوق التجميع وتتعدّاه إلى الوحدة، فهي كلٌّ في كل جزء. لذلك يقول بولس الرسول مُعبِّراً عن هذه الحقيقة بلفظ سهل عفوي، مثلاً: «كنيسة الله التي في كورنثوس» (١كو١: ٢)، فهي كنيسة الله في كل مكان، وهي كنيسة واحدة وحيدة بحسب كيانها الجوهري، لأنها «عروس المسيح» و«جسده» و«هيكل الروح القدس».

معايير الكنيسة اللاهوتية الأربعة

واحدة، مقدسة، جامعة، رسولية

واحدة: كما سبق وقلنا تستمد الكنيسة واحديتها الوحيدة كونها **«جسد المسيح»**، بمفهوم «والكلمة صار جسداً»، أي بملء اتحاد الطبيعة اللاهوتية والناسوتية.

وهذا يتفرع من كونها **«عروساً واحدة»**، مع أنها تحوي في كيانها كل البشرية المُفدَّاة فرداً فرداً، كل واحد باسمه، وكل واحدة باسمها.

كذلك هي واحدة لأنها **«هيكل الروح القدس»** مع أن هذا الهيكل الواحد يحوي كل هيكل لكل إنسان حلَّ فيه الروح القدس وقدَّسه للرب.

مقدَّسة: لأن الكنيسة في مضمونها الإلهي «هيكل الله الجديد»، والله ساكنٌ فيه، هذه

الحقيقة المستمدة من قول المسيح عندما سبق وأشار إلى انتقال المعنى والمبنى من هيكل أورشليم الحجري إلى هيكل جسده: «وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو٢: ٢١)، وجسده معروف أنه «هيكل الكلمة» و«**الكلمة صار جسداً**»، والكلمة معروف أنه الله من جهة طبيعته «**وكان الكلمة الله**». فجسد المسيح هو بالحق هيكل الله. وهو هو البشرية الجديدة المفدّاة: «**فإنكم أنتم هيكل الله الحي، كما قال الله، إني سأسكن فيهم ...**» (٢كو٦: ١٦)

جامعة: كالمسيح: «لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السموات وما على الأرض في ذاك.» (أف١: ١٠)

وقد صار هذا بالفعل. فالكنيسة تملأ السماء الآن كما ملأت الأرض وصارت صورة حية لملكوت الله، تعلنه في ذاتها وتستعلنه بتعليمها وتسبيحها.

رسولية: فالرسل هم حجارة الأساس الكريمة التي ابتدأ هيكل الله وملكوته يتشكل بهم أولاً على الأرض: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» (مت١٦: ١٨)، وثانياً في السماء: «مبنيِّين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية» (أف٢: ٢٠)؛ «وسور المدينة (أورشليم السماوية كنيسة الله الحي) كان له اثنا عشر أساساً وعليها أسماء رسل الخروف الاثني عشر» (رؤ٢١: ١٤)؛ «فقال لهم يسوع الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسيّ مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر.» (مت١٩: ٢٨)

١ ــ كنيسة واحدة:

المسيح هو رأس الكنيسة جسده، فإذا كانت الرأس واحدة فالجسد واحد. فالكنيسة واحدة حتماً ولا تقبل التقسيم أو الانفصال بأي حال من الأحوال. فهنا الوحدة مستمدّة لاهوتياً من شخص المسيح السرّي الذي يشكّل كيانها الروحي:

+ «مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام،

جسد واحد، وروح واحد، كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد

رب واحد، إيمان واحد، معمودية واحدة،

إله وآب واحد للكل، الذي على الكل، وبالكل وفي كلكم.» (أف٤: ٣-٦)

هنا لينتبه القارىء كيف يبني بولس الرسول تعليمه التهذيبي الروحي على أساس عقائدي راسخ. فهو يطلب من المؤمنين في أفسس أن يلتزموا روح الوحدة والمحبة التي تجمعهم معاً في

(٣٥–١٠٧م)(٣). ويقصد بها مسكونية شاملة على أساس تصوير الأنبياء قديماً والذي أُكمل واقعياً بالبشارة بالإنجيل حسب أمر الرب: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس.» (مت٢٨: ١٩)

وكلمة «**جامعة**» تشير في كل مواضعها ــ بحسب معناها ــ سواء في قول الرب «جميع الأمم» (مت٢٨: ١٩)، أو «الخليقة كلها» (مر١٦: ١٥)، أو «يسفك من أجل **كثيرين**» (مر١٤: ٢٤)، أو «لست أسأل من أجل هؤلاء فقط (الاثني عشر) بل أيضاً من أجل **الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً**» (يو١٧: ٢٠و٢١)، أو «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت **تأتي بثمر كثير**» (يو١٢: ٢٤)، أو «إن ارتفعتُ عن الأرض **أجذب إليَّ الجميع**» (يو١٢: ٣٢). كل هذه التعبيرات عن «**الجميع**» إنما تشير وتوحي بأن عهد محدودية الكنيسة بشعب إسرائيل قد انقضى:

+ «إن ثبتُّم على الإيمان متأسسين وراسخين وغير منتقلين عن رجاء الإنجيل الذي سمعتموه المكروز به في **كل الخليقة** التي تحت السماء.» (كو١: ٢٣)
+ «أم الله لليهود فقط؟ أليس للأمم أيضاً؟ بلى للأمم أيضاً، لأن الله واحد هو الذي سيبرِّر الختان **بالإيمان**، والغُرْلة **بالإيمان**.» (رو٣: ٢٩و٣٠)
+ «لأن الكتاب يقول: كلُّ مَنْ يؤمن به لا يُخزَى. لأنه لا فرق بين اليهودي واليوناني لأن رباً واحداً **للجميع**، غنياً **لجميع** الذين يدعون به.» (رو١٠: ١١و١٢)

لقد أصبح «جسد المسيح» ملتقى كل الأمم، فجمعت الكنيسة وشملت كل الأجناس والشعوب والألوان: «لأنك ذُبحت **واشتريتنا لله**، بدمك، **من كل** قبيلة ولسان وشعب وأمة.» (رؤ٥: ٩)

هذا هو ملكوت الله، مُستعلن وقائم في كنيسة الله يجمع البشرية في صورة العالم كله في جسد المسيح. فإن كانت هذه هي الصورة الختامية للكنيسة في استعلانها الحقيقي كجامعة للبشرية كلها وشاملة للكل، تحتَّم أن يكون لها في طبيعتها وعملها وصميم رسالتها قوة التجميع. و«جامعة» كصفة جوهرية لا تقف جامدة في طبيعة الكنيسة بل فعَّالة، فهي جامعة لأنها تجمع، وتجمع على

---

(٣) القديس إغناطيوس ويُدعى بـ«لابس الإله» θεόφορος، هو ثاني أسقف على أنطاكية حيث القديس بطرس هو المعتبر أول أسقف رسول على أنطاكية. وذلك بحسب العلاّمة أوريجانس، أما المؤرخ يوسابيوس القيصري فيقول إنه الثالث بعد بطرس والثاني بعد إيفوديوس Evodius. وقد استشهد في روما، وكان يتحرّق شوقاً للاستشهاد. وكتب سبع رسائل يشجع فيها أساقفة البلاد على الإيمان، وأن لا يعطله أحد عن تتميم شهوته أن يموت شهيداً.

أساس الوحدة كفاية نهائية: «ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو١٧: ٢١)

علماً بأن الكنيسة المفداة المغسولة بالدم المخلوقة بحسب صورة خالقها في القداسة، لها في جميع أفرادها فرداً فرداً طبيعة واحدة جديدة، فكلُّ الذين ماتوا في آدم وأحْيَتهم في المسيح، أسقتْهم روحاً واحداً وألبَستْهم جميعاً وبلا استثناء ثوباً واحداً بهياً نقياً وهو المسيح بذاته: «كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح (في المسيح) قد لبِسْتُم المسيح» (غل٣: ٢٧). فالكنيسة المستعلنة بالروح بهيَّة جميلة مرهبة: «أنتِ جميلة يا حبيبتي كترصة (حسناء εὐδοκία) حسنةٌ، كأورشليم، مُرهبةٌ كجيشٍ بألويةٍ.» (نش٦: ٤)

وبولس الرسول إذ يجمع بين الوحدة والشمولية، أي الجامعة، فهو يهدف إلى عمل الكنيسة الأخلاقي بالدرجة الأُولى، فهي لا تفرق بين جنس وجنس ولا شعب وشعب ولا رجل وامرأة ولا عبد وحرّ (غل٣: ٢٨ وكو٣: ١١)، وبمعنى آخر، فإن عملها بالأساس هو رفع الفوارق التي تفرِّق وتقسِّم وتمزِّق الإنسان. فالكل يتحتَّم أن يكون فيها ثم يتحتم أن يكونوا واحداً. هذا الضمُّ بين الكل والواحد أو في الواحد هو عمل الكنيسة الذي تسهر عليه. شغلها الشاغل كيف ترفع الفوارق العنصرية والاجتماعية والجنسية، لا بأن «تلغي» هذه التمايزات التي خلقها الله في الإنسان أو التي اقتحمت طبيعة الإنسان، ولكنها «ترفع» هذه الفوارق كعائق يوقف وحدة الروح والفكر والعبادة. لهذا يشدد بولس الرسول على «**الصلح**» و«**السلام**» و«**المحبة**» و«**البذل**» و«**الاتضاع**» و«**الإخلاء**». هذه هي أدوات جاهزة في الخليقة الجديدة مستعدة للعمل مباشرة إذا أُضرمت بالروح، لتبني الكنيسة «الواحدة الجامعة».

+ «لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع،
لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح (في المسيح) قد لبستم المسيح،
ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى،
لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع.» (غل٣: ٢٦—٢٨)

+ «ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه،
حيث ليس يوناني ويهودي، ختان وغُرْلة، بربري سكيثي، عبدٌ حرٌّ،
بل المسيح الكل في الكل.» (كو٣: ١٠و١١)

هذه هي الفوارق الهائلة التي تواجهها الكنيسة والتي وُضع عليها أن تعالجها وتكسر حدَّتها وتُطوِّعها لوحدة نقية، لبشرية جديدة في روح واحد هو روح المسيح، وفكر واحد هو فكر المسيح، وجسد واحد هو جسد المسيح. المسيح الذي صُلِب ليقدِّم البشرية فيه ذبيحة لله ميتة عن العالم

وحيَّة لله. إن مركز القوة الروحية الفائقة التي حازتها الكنيسة لرفع هذه الفوارق بل وإلغائها على المستوى الروحي الواقعي، حازته بسرِّ المعمودية كشركة في موت المسيح وقيامته وسر الشركة في جسد الرب ودمه. فالكل يدخل المعمودية بعنصره الخاص الموروث وجنسه الخاص الذي يعتزُّ به ووضعه الاجتماعي الذي اكتسبه أو الذي فُرض عليه، ليخرج من المعمودية وله روح المسيح وشكله وفكره، وبالإفخارستيا يصير شريكاً في طبيعة واحدة ومُواطَنة واحدة سمائية. هذه «الخليقة الجديدة حسب صورة خالقها» هي هبة الله العظمى بالمسيح للبشرية لتعود وتتوحَّد فيه لتأخذ طبيعتها وصورتها الجديدة منه.

هذه هي القوة الإلهية الجديدة التي دخلت طبيعة الإنسان ليس فقط لكي ترفع الفوارق الهائلة التي أفرزها العالم فيه والتي صنعتها الخطية في كيانه، بل ولتلغي أيضاً فعلها الهدَّام بأثر دائم.

ولينتبه القارىء، إذ لم يَبْقَ عذر لإنسان أن يحتفظ لنفسه من جهة هذه الفوارق الطبيعية، لا بتفوُّق الجنس أو العنصر أو المكانة الاجتماعية، ولا أن يئن بنقص في هذا كله!

بل وبالأكثر جداً لم يَعُدْ عذر لإنسان أن يعيش في هذه الفوارق مستعبَداً لتسلُّطها في فكره أو ضميره أو أخلاقه وسلوكه. فلا يكره أو ينتقص من وضع إنسان بسبب عنصره أو جنسه أو شكله أو صفاته أو وضعه الاجتماعي، وبالتالي لا يتفاخر ويعتدّ بما له من ميزة في هذه كلها.

ولكن لنتمعن هذه الحقيقة ــ حقيقة الفوارق ــ فهي أصعب ما يواجه النفس التي تسعى لتعيش في صورتها كخليقة جديدة، بل هي أشقُّ وأمرُّ ما يمكن أن يصادف الإنسان لكي يصفح عن الجميع ويسالم الجميع ويحب الجميع، وهو المطلب الإيماني الأول والأخير لمن يريد أن يكون تابعاً للمسيح:

+ « بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعض.» (يو١٣: ٣٥)
+ « أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضاً لأن المحبة هي من الله،
وكلُّ من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله،
ومَنْ لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة.» (١يو٤: ٧و٨)

واضح أن الذي «وُلِدَ من الله» هو الذي يستطيع أن يحب، يحب أخاه، ويحب عدوَّه، ولا يقف أي عائق في وجهه ليمنعه من أن يحب، يحب الإنسان كل إنسان في ذاته وفي روحه خُلْواً من عنصره وجنسه ولونه وشكله وفكره ودينه وطباعه وسلوكه! «لأن المحبة تحتمل كل شيء!!» و «لا تسقط أبداً.» (أنظر ١كو١٣: ٧و٨)

ولكن لنتنبه، لأن ما معنى: «المولود من الله»؟ هنا القصد هو إضرام روح المعمودية بما تشمله كسرٍّ يشمل الإيمان والمسحة وملء الروح القدس للتجديد، أي خليقة جديدة.

وهكذا تتبلور أمامنا قوة الكنيسة في قدرتها على رفع الفوارق في أسرارها وفي تعليمها بالكلمة. ولكن نعود ونؤكد أن الخليقة الجديدة التي نلناها في المعمودية مع مسحة الروح القدس تحمل في طيَّاتها القوة الإلهية المذخرة في الإنسان الجديد، القادرة على تجاوز كل معوِّقات المحبة «برباط السلام» إزاء كل الفوارق التي تعترض المحبة وبالتالي الوحدة. وهذه تحتاج لمن يُضرمها بالروح لتنطلق من عقالها كأعظم قوة قادرة أن ترفع الإنسان فوق كل الفوارق وتلغيها من روح الإنسان أولاً ثم من فكره ثم من سلوكه:

+ «لأنه هو سلامنا الذي جعل الاثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط، أي العداوة، مُبْطِلاً بجسده ناموس الوصايا في فرائض لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً صانعاً سلاماً، ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلاً العداوة به.» (أف٢: ١٤—١٦)

وهذه هي بعينها القوة الكاثوليكية (الجامعة) في الكنيسة الواحدة.

٣ ـــ كنيسة رسولية:

رسولية بمعنى أنها على الأساس الإنجيلي سواء المكتوب أو التعليم الشفاهي. علماً بأن الأناجيل لم تُكتَب إلاَّ بعد صعود المسيح بحوالي ثلاثين سنة، فيها كانت الكنيسة تعتمد اعتماداً كلياً على النقل والتسليم الشفاهي والحفظ عن ظهر قلب. لذلك لما سجَّل بولس الرسول لنا قوله أننا مبنيون على أساس الرسل، فقد كان يعني التعليم المسلَّم شفاهاً آنئذ:

+ «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية.» (أف٢: ٢٠)

واضح أن المسيح هو الذي وضع الرسل أساساً لبناء كنيسته: «أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» (مت١٦: ١٨). لذلك نسمع بولس الرسول يقول: «كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كو١١: ١). فالرسل بأشخاصهم وبتعاليمهم صاروا الأساس الذي بنى عليه كل إنسان إيمانه. وخارجاً عن الرسل ليس كنيسة. فالرسل معناهم لنا الآن الإنجيل المدوَّن والتقليد المحفوظ، بل والروح القدس المسلَّم لنا باليد في المعمودية. فنفخة الروح القدس التي قبِلَها التلاميذ من المسيح ليلة أحد القيامة، هي الساكنة الآن في الكنيسة والتي نستنشقها وننفخها لمغفرة خطايانا. والروح القدس الناري الذي حل على التلاميذ يوم الخمسين هو الذي نولَد منه في

المعمودية حتى اليوم، وهو الذي توارثته الكنيسة بوضع يد الكهنوت وفي الأسرار.

ثم الأنبياء هنا ليسوا هم أنبياء العهد القديم، ولو أن بطرس الرسول يعتمد عليهم بالدرجة الأولى في قوله: «وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم، عالمين هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص، لأنه لم تأتِ نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس.» (٢بط ١: ١٩—٢١)

ولكن بولس الرسول يقصد التسلسل الرسولي من الرسل إلى أنبياء العهد الجديد كما وضح ذلك في بنيانه المسلسل:

+ «وهو أعطى البعض أن يكونوا رسلاً، والبعض أنبياء، والبعض مبشِّرين، والبعض رعاة ومعلمين.» (أف ٤: ١١)

والأنبياء فئة مباركة نشأت بجوار الرسل على أثر حلول الروح القدس، لأن الروح حلَّ على جميع الذين كانوا حاضرين. ويقول القديس لوقا في سفر الأعمال: «وكان عدة أسماء معاً نحو مائة وعشرين» (أع ١: ١٥)، بهذا يكون منشأ الأنبياء في العهد الجديد هو الروح القدس الذي حلَّ مباشرة دون وسيط سوى الصلاة.

وبولس الرسول يعتبر أن الرسل والأنبياء دخلوا ليس بتعاليمهم فقط بل وبأشخاصهم كأساس حي في بناء هيكل الله أي الكنيسة، لأنه يذكر المسيح كحجر الزاوية لهذا الهيكل، والمؤمنين «حجارة حيَّة»:

+ «الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح.» (أف ٢: ٢٢)

وهكذا، وبهذا الوصف الإنشائي الهندسي، ندرك الصلة الكيانية التي تربطنا بالرسل وبالمسيح، ونفهم معنى وقيمة الأساس الذي بُنِيَتْ عليه الكنيسة.

٤ ــ كنيسة مقدسة (٤):

إن أول تقديس عرفه الإنسان خارج الله كان في المكان، في أمر العُلَّيقة:

+ «ناداه الله من وسط العليقة وقال: موسى موسى. فقال: هاأنذا. فقال: لا تقترب إلى ههنا،

---

(٤) بخصوص التقديس عموماً راجع ص٣٨٣—٣٨٨.

اخلع حذاءك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة.» (خر٣: ٤و٥)

ومن مكان العليقة إلى مكان حلول الله في الخيمة، فتقدست الخيمة ثم الهيكل، فصار الهيكل مقدساً لأن الله يحلُّ فيه. وهكذا بدأت الأشياء التي في الهيكل تصير مقدسة، لأنها محجوزة لخدمة الله، والكهنة صاروا مقدَّسين لأنهم يخدمون الله. بعد ذلك نسمع أن روح الله يحلُّ على الأنبياء فيتنبأون ويصير الأنبياء قديسين.

ولكن لأول مرة في تاريخ علاقة الله بالإنسان، نسمع أن الروح القدس يحل على عذراء ليقدِّسها، وقوة العلي تخيِّم في أحشائها ليأخذ الله منها جسداً يولَد به، والمولود يدعى قدوساً وهو ابن الله. وبهذا وُلِد للإنسان ولدٌ هو ملء اللاهوت في جسد إنسان. وهذا كان قمة التقديس بالنسبة للإنسان الذي صار به ليس مقدَّساً فحسب بل قدوساً. هكذا اعتُبر في المسيح أن جسد الإنسان صار هيكلاً لله، لا لمجرد سُكْنَى وإقامة بل اتحاد لدوام أبدي. والمسيح أعلن بوضوح أن الهيكل القديم الذي كان محسوباً أنه مجرد بيت الله للصلاة: «بيتي بيت الصلاة يدعى» (مت٢١: ١٣)، سيُنْقَض ليحل محلّه «هيكل جسده». هذا هو أول مفهوم للكنيسة. لأن الذي حدث هو أن المسيح أعطى جسده هذا بعينه للإنسان ليتحد به، فصرنا بدورنا «جسد المسيح»، وهذا أول تعبير واقعي أننا نحن الكنيسة جسد المسيح: «وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده.» (أف١: ٢٢و٢٣)

هذا هو مصدر قداسة الكنيسة، فهي ليست قداسة مكتسبة على مستوى هيكل أورشليم، أو قداسة موضع على الأرض، أو قداسة أشخاص بحلول الروح القدس؛ بل إن قداسة الكنيسة هي طبيعة مستمدة من طبيعة المسيح. لذلك، فالكنيسة ليست فقط مقدسة بل وقادرة أيضاً على التقديس. الكنيسة تنفخ من فم الأسقف لتعطي الروح القدس، وتضع اليد بواسطة الأسقف فتقدِّس قديسين للخدمة. وبحسب الإيمان الأرثوذكسي، ليست يد الأسقف هي التي تقدِّس بل هي يدُ المسيح الممدودة فوق يده؛ ولا الكاهن الذي يعمِّد وينفخ بل هو المسيح الذي يعمِّد؛ وليس خادم الذبيحة هو الذي يقدِّس الخبز والخمر بل المسيح، وهو الذي يعطيه بيده جسداً ودماً لكل مَنْ يتناول منه. فالكنيسة تقدَّسَتْ بطبيعتها وتُقدِّس بمسيحها وبالروح القدس الساكن فيها.

ألم يقل بولس الرسول إن الله جعل المسيح رأساً للكنيسة التي هي جسده، فمن ذا الذي يدبِّر إلاَّ الرأس، ومَنْ ذا الذي يتكلم ويعلِّم ويمسح ويرسم ويعمِّد ويقسِّم الجسد؟ ألم يقل بولس الرسول: «... الكنيسة التي هي جسده ــ **ملؤه** ــ الذي يملأ الكلَّ في الكل» بحسب الترجمة

اليونانية الصحيحة. فالمسيح في كنيسته هو الذي يملأ الكل، أي كل ما له مِنْ عطايا وتقديس في الكل، أي كلّ مَنْ يتقدّم به إلى الله.

بذلك يكون في قولنا أن **الكنيسة مقدسة** أمرٌ يعنينا، لأنه خاص بتقديسنا فيما مضى عندما تعمَّدنا ومُسِحنا بالروح. والآن طالما نحن ملتصقون بها، نتناول من أسرارها عابدين خاشعين مسبِّحين، فنحن قديسون، وذلك بحسب لاهوت بولس الرسول.

الكنيسة وشخص المسيح:

حينما يقول بولس الرسول إننا أعضاء جسد المسيح:

+ «لأنه كما أن الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة، وكل أعضاء الجسد الواحد إذا كانت كثيرة هي جسد واحد، كذلك المسيح أيضاً.» (١ كو١٢:١٢)؛
+ «أما أنتم فجسد المسيح وأعضاؤه أفراداً.» (١ كو١٢:٢٧)؛

وحينما يقول بولس الرسول إننا إن اعتمدنا نُدْفَنُ معه في المعمودية ونقوم لابسين المسيح:

+ «أننا كل مَنْ اعتمد ليسوع المسيح (في المسيح يسوع) اعتمدنا لموته فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت.» (رو٦:٣و٤)؛
+ «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح (في المسيح) قد لَبِسْتُم المسيح.» (غل٣:٢٧)؛

فهنا يتكلم بولس الرسول عن المسيح كشخصية حيَّة عاملة، يتغلغل حياتنا إنما بصورة غير منظورة، يرافقنا في كل مراحل حياتنا، ويحس بكل ما نعانيه، وكأنما يعاني معنا كل المعاناة. وليس أوضح من ذلك قوله لشاول على طريق دمشق: «لماذا تضطهدني»، وكأنه هو الذي كان يتلقى الضرب والموت على يد شاول، مع أن الكنيسة هي التي كانت تتعذب، بحسب اعتراف شاول بعد أن اكتشف سر المسيح في كنيسته: «إني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط» (غل١:١٣). منذ هذه اللحظة أدرك بولس الرسول وجود المسيح وجوداً حيًّا فعَّالاً في الكنيسة، إنما بصورة لا يراها غير المؤمن ولكن المؤمن يعيشها ويحسُّها.

المسيح نفسه ألمح إلى هذه الصورة الخفية التي ارتبط فيها بالمؤمنين ليكون معهم جسداً واحداً حينما قال عن نفسه ــ ليس على سبيل المثال أو الرمز أو التشبيه، ولكن عن واقع حيٍّ غير منظور: «أنا الكرمة وأنتم الأغصان» (يو١٥:٥). هذا أبلغ تصوير عن وجود المسيح في الكنيسة، أو وجود الكنيسة في المسيح، سيَّان، لأنهما جسدٌ واحدٌ. الفرع يتغذى من الكرمة محمولاً عليها متحداً بها يثمر لحساب الكرَّام الآب السماوي.

لقد مرَّ المسيح على الوجود المنظور والمحسوس سواء في ميلاده أو تعليمه أو آلامه وموته ثم قيامته، هذه كلها أعمال المسيح المنظور، ولكن بعد الصعود بدأ المسيح وجوده وحضوره وعمله غير المنظور، إنما بصورة قوية وشاملة ومالئة للوجود الكلي سماءً وأرضاً: «فتقدم يسوع وكلَّمهم قائلاً: **دُفع إليَّ كلُّ سلطان في السماء وعلى الأرض،** فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلِّموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به، **وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر آمين.**» (مت٢٨: ١٨ـ٢٠)

كان هذا الإعلان الإلهي من فم المسيح هو بدء تحقيق الوجود غير المنظور في العالم، ولكن بصورة أساسية في الكنيسة. بولس الرسول رأى ذلك وبنى عليه لاهوته:

فالمسيح المنظور أكمل لنا الفداء المنظور على الصليب بالدم المسفوك؛ والمسيح غير المنظور يعمِّدنا ويُطعمنا جسده ودمه، ويقدِّسنا في سر الكنيسة.

المسيح المنظور مات على الصليب الموت المنظور المُشاهَد لأجلنا؛ والمسيح غير المنظور يحيا الآن فينا بالإيمان ونحيا نحن به.

المسيح المنظور صعد إلى الآب ودمه عليه، فصنع لنا صلحاً مع الآب بعد قطيعةٍ؛ والمسيح غير المنظور يوحِّدنا بنفسه والآب، ويقدِّمنا إلى الله كقديسين بلا لوم في المحبة.

المسيح المنظور كان بالنسبة لبناء الكنيسة حجر الزاوية؛ والمسيح غير المنظور هو رأسها وهي جسده.

فالكنيسة كجسد المسيح السرِّي، وهو رأسها الذي يشعر ويحس بها ويدبِّر كل أمورها هي في لاهوت بولس الرسول واقعٌ حيٌّ بدأ منذ أن صعد المسيح وجلس عن يمين الآب وأرسل الروح القدس ليبدأ عمله الكبير في كل عضو في الكنيسة بمفرده ثم في الأعضاء مجتمعين.

فلكل عضو أعطى المسيح جسده: «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠)، وأعطى فِكرَه: «أما نحن فلنا فكر المسيح» (١كو٢: ١٦)، وأعطى المسيح روحه: «إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك (المسيح) ليس له.» (رو٨: ٩)

هذا تم أيضاً على مستوى الأعضاء مجتمعين، أي الكنيسة ككل، فالمسيح صار جسدها وصار رأسها وأعطى الروح القدس أن يكون روحها الذي تتنفس به: «لأننا جميعاً بروح واحد (في روح واحد) أيضاً اعتمدنا إلى (في) جسد واحد» (١كو١٢: ١٣)، «وجميعنا سُقينا روحاً واحداً.» (١كو١٢: ١٣)

لذلك تُعتبر الكنيسة أنها «شركة في الروح القدس»، جسم واحد من أعضاء كثيرة ولكن ملتحمة في شركة الروح القدس خاضعة لتدبير **الرأس المسيح**، وتتحرك وتنمو نحو مِلْئه بعمل المسيح في الداخل وبسَعْي الأعضاء من الخارج:

+ « صادقين في المحبة ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو **الرأس المسيح**،
الذي فيه كل الجسد مركباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصل،
الذي أعطى ليعمل حسب قياس كل جزء،
لينمو الجسد، ويُبنى في المحبة.» (أف٤: ١٥و١٦) ترجمة حرفية من اليونانية.

هنا المسيح « **كرأس** » الجسد أي الكنيسة، عمله هو جمع أعضاء الجسد الواحد، معطياً لكل عضو القدرة أن يتآخى ويقترن بكل عضو آخر بالنعمة كعطية خاصة حرّة، أو كنعمة معطاة لأشخاص موهوبين يخدمون فيها، التي يشبهها بولس الرسول بالمفصل الذي يربط العضو بالجسد. قدرة المسيح هذه متفوّقة للغاية، شبّهها بولس الرسول بقدرة الرأس في الجسد على التحكم في حركة الأعضاء بانسجام حتى يتحرك الجسد صحيحاً وينمو صحيحاً.

والمواضع الأخرى التي ذكر فيها بولس الرسول عمل المسيح في الكنيسة كرأس يمكن حصرها كالآتي:

(أ) «فإنه فيه يحلُّ كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه،
الذي هو **رأس** كل رياسة وسلطان.» (كو٢: ٩و١٠)

(ب) «الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل،
وهو **رأس الجسد الكنيسة**.» (كو١: ١٧و١٨)

(ج) «لأن الرجل هو رأس المرأة،
كما أن المسيح أيضاً **رأس الكنيسة** وهو مخلِّص الجسد.» (أف٥: ٢٣)

(د) «وأخضع كل شيء تحت قدميه،
وإياه جعل **رأساً** فوق كل شيء للكنيسة،
التي هي جسده،
وملؤه الذي يملأ الكلَّ في الكلِّ.» (أف١: ٢٢و٢٣)

(هـ) «لا يُخسِّركم أحد الجعالة راغباً في التواضع وعبادة الملائكة متداخلاً في ما لم ينظره منتفخاً باطلاً مِنْ قِبَلِ ذهنه الجسدي،
وغير متمسك **بالرأس** الذي منه كل الجسد، بمفاصل ورُبُط متوازراً ومقترناً ينمو نمواً من الله.» (كو٢: ١٨و١٩)

هنا نستطيع أن نستجلي الصفات العملية التي رآها بولس الرسول في المسيح باعتباره رأساً:

(أ) وظيفة الرأس هنا للمسيح عامة للتعبير عن التفوّق والرئاسة العليا **على كل الخلائق السماوية**. وهنا نلمح التفوق المطلق خُلْواً من اتحاد، إذ ليس هنا جسد يربط المسيح بهذه الخلائق، ولكن هو تفوُّقه من جهة طبيعته الإلهية وقدراته اللانهائية، أما الرابطة التي تربط هذه الخلائق الروحانية العالية بالرأس فهي رابطة التدبير بحكم كونه الخالق والمدبِّر، لذلك يدعوه العهد القديم برب القوات، رب الصباؤوت، أي رب الجنود السماوية. وهذه الصفة الإلهية للمسيح تتسحَّب على الكنيسة، كونه «المدبِّر» صاحب السلطان الأعلى والوحيد، والمسيح يعبِّر عن ذلك بنفسه في قوله: «دُفِعَ إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت٢٨:١٨). وعلى هذا الأساس من السلطة الفائقة: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم... وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به» (مت٢٨:٢٠). وهنا يبدو أن عمل الكنيسة الممتد عَبْر العالم والدهور داخل تحت تدبير سلطان المسيح الفائق.

(ب) واضح في هذا البند أن صفة المسيح كرأس للكنيسة تقوم على أساس أنه صاحب البدء فيها، كما هو الذي يقوِّم الكنيسة، فهي تستمد قوامها وكيانها منه.

(ج) هنا المسيح كرأس الكنيسة يأخذ عمل الرجل بالنسبة للمرأة، فهو مركز حب الكنيسة واشتياقها وهو الذي يُخصبها بروحه لتنجب أولاداً لله. وهو الذي يحميها ويخلّصها.

(د) هنا المسيح كرأس تخضع له الكنيسة خضوعاً طبيعياً، لأنه هو الذي يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً، يعود فيملأها بكل المواهب الإلهية التي تجعلها كنيسة الله، يملأها ككل ويملأ كل عضو فيها على حدة.

(هـ) هنا المسيح كرأس هو بمثابة المركز الأعلى المحرِّك للهيكل العظمي والعصبي في جسم الإنسان، فبنفس الحكمة التي يتحرك بها الجسد وينمو ليبلغ نضجه في عمره على الأرض، هكذا يشدُّ المسيح أزر الكنيسة، لا على الواقع المحدود الزمني بل على طول المدى عبر آلاف السنين حسب حكمة المسيح ليجعل من الكنيسة جسداً حيًّا واحداً مترابطاً ينمو نمواً ثابتاً في الله ومن الله، من جيل إلى جيل، وهدفه أن تأخذ الكنيسة بالنهاية: «ملء قامة المسيح»، وكأنها إنسان واحد في المسيح من جهة الانسجام والترابط في الفكر والروح والعمل. فلا خوف على الفردية داخل الكنيسة الواحدة طالما هي خاضعة تماماً لتحريك المسيح بالروح، ولا خوف على التعدُّد الشكلي والاسمي للكنيسة على وجه الأرض طالما كل كنيسة تتحرك

بوعي روحي حسب قصد المسيح وتدبيره، فالكل مترابط بصورة سرِّية يدبره المسيح كرأس واحد لهذا الجسم الهائل.

وبولس الرسول يعطي هذه المعلومة لأهل كولوسي بسبب قيام الهراطقة المضلِّين يروِّجون لبدعة عبادة الملائكة، بمعنى علوِّ مركز الملائكة عن المسيح وتوسُّطهم في الخلق، وهذا كفيل بأن يُخرجهم نهائياً خارج الإيمان الصحيح بالمسيح. وهنا يعطي بولس الرسول التحديد القاطع أن المسيح هو الرأس الوحيد للكنيسة كرأس الإنسان الوحيدة بالنسبة لجسده، فلا توجد أية إمكانية لتدخُّل عناصر روحية وسيطة تربطنا بالله سوى المسيح وحده الذي يجعل الكنيسة: «تنمو نمواً من الله»، وهذا مطابق تماماً للتعبير العميق الذي قصده المسيح من قوله: **«بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً»** (يو١٥: ٥). هنا يضع المسيح نفسه في الكنيسة والفرد مكان الرأس للجسد تماماً!!

الآن يمكن تلخيص الوصف العضوي لمكانة الرأس في الكنيسة، فهو السلطة الرئاسية والآمرة في الكنيسة كجسد يتحرك بمقتضى كلمته التي قالها والتي يقولها في وقتها، سواء كلمة التعليم التي تسجلت بالروح والتي يشرحها الروح لتستجيب لها الكنيسة، أو كلمة الفعل الذي يباشره هو سرًّا على الجسد لتشكيل الكنيسة حسب قصد الدهور كخالق، بعمل الروح القدس الذي يأخذ مما للمسيح ويشكِّل الكنيسة حسب هذا القصد.

والمسيح بذلك وكرأس، هو في حقيقته الحامل لشخصية الكنيسة ومركز وَعْيها الذي تنبثق منه كل الاستعلانات التي تستعلنها الكنيسة على ممر الدهور لبنيانها.

كذلك، فالمسيح كرأس الكنيسة، فهو كما يمدُّها بالفكر والفعل والاستعلان الإلهي لتتغيَّر وتُبنى بمقتضاه، فهو أيضاً الذي يتلقى عنها ضربات العالم والشرير وكل مصادمات القوى المعاكسة على ممر الدهور ويحوِّلها لها إلى معرفة وتجديد وصبر ونمو.

بقي أن ندرك أن بولس الرسول، ليس بإحساس اختياري منه أدرك وظيفة المسيح كرأس في الكنيسة، ولا هو مجرد فكر تصوري تصوَّره من ذاته عن عمل المسيح في الكنيسة؛ ولكنه نُطْق نَبَوي أخذه باستعلان؛ فهو حقيقة المسيح في ذاته وفي الكنيسة، ينطبق تماماً على كل ما عمل المسيح ويعمل، ويجيء مُكمِّلاً كل أوصاف الأنبياء في القديم للمسيح كحكمة، ووَصْف المسيح لذاته كعريس ملتصق بالكنيسة ودوام وجوده الشخصي كل الأيام وعمل روحه في الداخل، واستعلان المسيح للرسل «ككلمة» (لوغُس) وهو التعبير عن العقل الفعَّال.

وكما سبق أن قلنا، فهناك علاقة سرِّية قوية بين اصطلاح المسيح كرأس الكنيسة جسده،

وبين الاصطلاح الذي يكرِّره بولس الرسول مئات المرات بقوله: «في المسيح» (٥) ἐν Χριστῷ فهو يؤمن في المسيح، ويعتمد في المسيح، ويقوم في المسيح، ويثق في المسيح، ويحيا في المسيح، وكل عمل يعمله هو في المسيح. فبولس الرسول إذ يرى نفسه عضواً في هذا الجسد السري الذي للمسيح، فهو لا يعمل شيئاً ولا يفكر بشيء إلاَّ وهو متصل بالمسيح الرأس الذي له السلطان والتوجيه والتدبير على كل الجسد بكل أعضائه. فقوله «في المسيح» هو تعبير عن عمل المسيح كرأس في الكنيسة، والقصد الواضح هو «مخلِّص الجسد». وهذا هو مضمون «السر الأعظم» عند بولس الرسول الذي كان معروفاً لدى الله منذ الأزل قبل كون العالم والآن أعلنه لرُسُله القديسين بالروح أن الأمم شركاء في الميراث والجسد، أي الكنيسة، الذي صار بولس الرسول خادماً له أي لهذا السر في الأمم (أف٣: ٥و٦). فالسر في مضمونه هو «معرفة الخلاص» التي كانت مخفية في الله، والآن «مُعْلَنَة في المسيح» ومُطبَّقة ومتصلة ومتحدة اتحاداً مطلقاً بكل الأمم، لأن الأمم صاروا **شركاء الجسد**، والشركة اتحاد. فالمعرفة الإلهية الخلاصية صارت قائمة الآن في الجسد. وهذا هو المسيح «رأس الكنيسة ومخلِّص الجسد.» (أف٥: ٢٣)

الروح القدس في الكنيسة(٦):

إن كان مركز المسيح في الجسد السري للكنيسة هو الرأس، فالروح القدس هو «النفس» في جسد المسيح السري أي في الكنيسة. فكما أن نفس الإنسان هي مركز حياته، كذلك الروح القدس هو الذي يُحْيي الكنيسة كجسد سري. وكما أن نفس الإنسان عزيزة جداً عنده، فالروح القدس هو أعزُّ ما تملك الكنيسة وكل فرد فيها، ففوق أنه يُحييها ويُحيي أعضاءها فهو يعزِّيها ويُفرحها في آلامها وضيقاتها واضطهاداتها الموضوعة عليها كُلًّا وأفراداً.

كذلك، فالروح القدس في الكنيسة هو بمثابة الضيف المعزِّي السمائي الذي يحمل للكنيسة عطايا وهدايا ومواهب ونِعَماً يسقيها لأعضائها سَقْياً لحساب الجسد ككل.

فالروح القدس باتصاله المباشر بأعضاء الكنيسة القديسين، يُدخلهم في دائرة الحياة الفائقة على الطبيعة باستعلاناتها ومعرفتها الفائقة ورؤيتها الممتدة وإلهاماتها فيما يخص الكلمة وشرحها، وبذلك يُثْري فكر الكنيسة برفع معرفتها الإلهية. وليس ذلك فقط ولكنه يقود القديسين في حياة

---

(٥) أنظر ص ٢٧٠ و ص٤٥١.

(٦) بخصوص عمل الروح القدس فينا راجع ص٢١٨—٢٢٦ وهامش (١) ص٢٢٦.

وطباع وسلوك وسيرة السمائيين، وبذلك يمدُّ الكنيسة بنماذج حياةٍ ترفع من حياة الكنيسة ككل وتُعلّي شأنها في العالم والسماء.

الروح القدس أرسله المسيح من عند الآب بعد أن هيأ الكنيسة بجسده السري اللائق لسُكْنى الروح القدس، فهو يسكن الكنيسة عن لياقة و يرتاح في أعضائها بمسرَّة، لا كمجرد سُكنى الوجود المنعزل عن طبيعتها، بل الملتصق بها التصاق الروح بالجسد، ليرفع الجسد إلى مستواه ليصير هيكل الجسد كله هيكلاً لله، هيكل عبادة وتقديس وسجود بالروح والحق، سواء في الكنيسة ككل، أو في جماعة داخلها متحدة ومتآلفة بالروح، أو في فرد أفرز نفسه للتقوى واقتناء الروح القدس بهيام وعشق إلهيين.

+ «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله، وأنكم لستم لأنفسكم. لأنكم قد اشتُريتُم بثمن، فمجِّدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله.» (١ كو٦: ١٩و٢٠)

+ «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحْيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم.» (رو٨: ١١)

والآن إن كان روح المسيح وروح الآب ساكناً فينا، فقد صرنا بالفعل هيكلاً حقيقياً لله:

+ «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم.» (١ كو٣: ١٦)

+ «إن كان أحدٌ يُفسد هيكل الله، فسيُفسده الله، لأن هيكل الله مقدس الذي أنتم هو.» (١ كو٣: ١٧)

+ «فإنكم أنتم هيكل الله الحي، كما قال الله إني سأسكن فيهم ...» (٢ كو٦: ١٦)

+ «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية،
الذي فيه كل البناء مركباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب،
الذي فيه أنتم أيضاً مبنيُّون معاً مسكناً لله في الروح.» (أف٢: ٢٠—٢٢)

+ «لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم.» (أف٣: ١٦و١٧)

يحلو لبعض الآباء الكبادوكيين أن يعبِّروا عن من يحيا في الروح القدس بقولهم إنه: «يتنفس الروح القدس»، وهذا تعبير صادق لأن بولس الرسول يعتبر أننا نحيا بنفخ الروح القدس أو نحيا بالروح، فالروح هو «روح الحياة»: «روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية.» (رو٨: ٢)

والقديس يوحنا يسميه بفم المسيح «**الروح المحيي**»: «**الروح هو الذي يحيي** أما الجسد فلا يفيد شيئاً.» (يو٦: ٦٣)

وعلى نفس المنوال يقول بولس الرسول: «لأن الحرف يقتل ولكن **الروح يحيي**» (٢كو٣: ٦)؛ «**سيحيي** أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم.» (رو٨: ١١)

بولس الرسول يرى الروح القدس وقد وقف يُفْرز لنفسه من جسد الكنيسة أعضاءً متميزين، ثم ابتدأ يخصص لكل واحد بمفرده ما يراه الروح مناسباً لقامته الروحية على مستوى إيمانه وحبه وصبره، وكأنه يكشف كشف لياقة ويعطي الدرجات ويخصص المواهب والنعم:

+ «لكل واحد يُعْطَى إظهار الروح للمنفعة. فإنه لواحد يُعْطَى بالروح كلام حكمة، ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد. ولآخر إيمان بالروح الواحد. ولآخر مواهب شفاء بالروح الواحد، ولآخر عمل قوات، ولآخر نُبوَّة، ولآخر تمييز الأرواح، ولآخر أنواع ألسنة، ولآخر ترجمة ألسنة. ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء.» (١كو١٢: ٧-١١)

وواضح من كلام بولس الرسول كيف أن الروح القدس خصَّ الرسل القديسين باستعلان السر الأعظم الذي هو أساس مُحْتَوى الإنجيل، كاشفاً ما كان مخفيًّا في أعماق الله منذ الأزل:

+ «... بسر المسيح الذي في أجيال أُخر لم يُعرَّف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح، ...
السرُّ المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع بيسوع المسيح.» (أف٣: ٥و٩)

+ «نتكلم بحكمة الله في سرٍّ. الحكمة المكتومة التي سبق الله فعيَّنها قبل الدهور لمجدنا التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر...،
فأعلنه الله لنا نحن بروحه، لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله، ...
هكذا أيضاً أمور الله لا يعرفها أحد إلاَّ روحُ الله.» (١كو٢: ٧-١١)

كما أن الروح القدس متواضع فهو يسير مع أصغر أعضاء الكنيسة ويقودهم، حتى الأطفال والبسطاء من الرجال والنساء يقودهم، وكأنه يُمسك بيدهم ويسير معهم ويتمشى مع كل مستوى!! وبالأخص مع الذين يطلبون السيرة المقدسة.

+ «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله.» (رو٨: ١٤)
+ «إن كنتم بالروح تُميتون أعمال الجسد فستحيون.» (رو٨: ١٣)

أما أطايب الروح القدس التي يُشبِعُ بها السالكين في دروبه والمتدربين على سماع همساته في القلب والخاضعين لإيحاءاته بالروح والمستجيبين لأول هاتف له بالتحرُّك في اتجاه البذل والمحبة، فقد أعدَّ منها لكل نفس ما يُسرُّها ويُبهجها ويُدْخلها في نشوة الحياة الفائقة للطبيعة:

+ «وأما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفف.» (غل٥: ٢٢و٢٣)

وهكذا يضطلع الروح القدس برفع قدرات أعضاء الكنيسة ليعيشوا خبرات الدهر الآتي ويستجلوا نسيم الحياة الفائقة للطبيعة كسبق تذوُّق واستنشاق الحياة الأبدية ذاتها. وبهذا تصير أعضاء الكنيسة أعضاء روحية لائقة بالجسد السرِّي تتنفس بروح المسيح وحياته.

وبولس الرسول لا يحسب أبداً أن عطايا ومواهب الروح القدس إنما تُعْطَى بلا سؤال أو جزافاً، بل يحضُّ المؤمنين للأخذ والاستزادة من نعمة الروح القدس وبلا ملل، مجاهدين أن لا ينطفىء منهم اشتعال الروح:

+ «هكذا أنتم أيضاً، إذ إنكم غيورون للمواهب الروحية اطلبوا لأجل بنيان الكنيسة أن تزدادوا.» (١ كو١٤: ١٢)
+ «اتبعوا المحبة ولكن جدُّوا للمواهب الروحية ...» (١ كو١٤: ١)
+ «امتلئوا بالروح.» (أف٥: ١٨)
+ «لا تطفئوا الروح ... امتنعوا عن كل شبه شر.» (١تس٥: ١٩و٢٢)
+ «لا تُحزِنوا روح الله القدوس الذي به خُتمتُم ليوم الفداء.» (أف٤: ٣٠)

علماً بأن كل عضو من أعضاء الكنيسة، كل من اعتمد للمسيح، قد نال الروح القدس إنما كعربون، على أن يستكمل الملء منه على مدى الحياة:

+ «ولكن الذي يُثبِّتنا معكم في المسيح وقد مَسَحَنا هو الله.
الذي خَتَمَنا أيضاً، وأعطى عربون الروح في قلوبنا.» (٢ كو١: ٢١و٢٢)
+ «إذ آمنتم خُتِمتُم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا ...» (أف١: ١٣و١٤)

الروح والمسيح في الكنيسة:

حينما بلغ بولس الرسول إلى التعبير أن الكنيسة وأفرادها الملتحمين معاً بجسد المسيح السري الواحد يصيرون في الحقيقة «هيكل الله»، فهذا معناه أنه يوجد هنا وجود أو حضور كلي لله الآب والابن والروح القدس، لأنه من المحال أن يوجد شخص واحد من الأقانيم الثلاثة دون تواجد

الكل، كما أنه غير معروف ــ في لاهوت بولس الرسول ــ عن تواجد جزئي لا للروح ولا للمسيح؛ بل إن الاتحاد يتم بصورة لا تمييز فيها بين الأقانيم.

ولكن الذي استطاع أن يميِّزه الآباء اللاهوتيون الأوائل في الكنيسة من جهة الاتحاد بالأقانيم، هو أن الاتحاد يتم أولاً كمبادرة من جهة الله الآب والابن والروح القدس كلٌّ في مجاله، إنما بصورة لا يعيها الإنسان. ولكن بعد ذلك يبدأ الأشخاص الأقانيم يعملون ويتعاملون مع الطبيعة البشرية، حيث **تتقدس طبيعة الإنسان بسبب الحلول وليس العكس أبداً، أي لا يكون التقديس شرطاً للحلول**. وهذه معلومة لاهوتية عملية غاية في الخطورة من جهة الإيمان والسلوك والتعامل مع الله. فالله دائماً أبداً هو صاحب المبادرة في الحلول والتقديس، وهو لا يطلب منا إلاَّ أن نعي ذلك ونصدِّقه ونؤمن به ونعمل بمقتضاه. فالله كان هو صاحب المبادرة مع إبراهيم حينما مسَّ مواته في الصميم وحلَّ بنعمته في صُلْبه لتنبثق الحياة من الموت، فآمن إبراهيم بالله، وبالنهاية حُسِبَ له إيمانه برًّا.

فالله لما شاء أن يقدِّس البشرية له أرسل ابنه، ولما شاء أن يقدس روح الإنسان وهب ابنه الوحيد المحبوب كوسيط لكل إنعامات الله. والابن، بدوره، لكي يهب قداسته الخاصة أرسل الروح القدس من عند الآب. وهكذا يتم تقديس الإنسان بحسب موضع الله منّا وعلاقة الأقانيم بنا كما استعلنها الله بالتدبير.

غير أن الواقع الذي نحسُّه ونتعامل معه بالحضور الإلهي هو العكس. فنحن نحسُّه أولاً بالروح القدس، فهو أول مَنْ يتعامل معنا في أعماق النفس، فنحسُّه بالفكر من جراء الاتصال المؤثر في النفس. هنا الواقع النفسي المسجَّل في إحساس النفس ليس معناه أن أوَّل تعامُلنا مع الثالوث يكون بالروح القدس، ولكن بحسب الأصالة اللاهوتية المحققة والثابتة فإن الآب هو أولاً بلا نزاع: «لا يقدر أحد أن يُقْبِلَ إليَّ، إن لم يجتذبه الآب.» (يو٦: ٤٤)

ولكن الذي يهمنا توضيحه هنا، هو مقدار التلازم الشديد بين عمل الروح القدس وعمل المسيح داخل النفس أو في الكنيسة، سواء للتقديس أو التأهيل لسُكنى الله.

وقد رصد القديس إبيفانيوس هذه العلاقة المشتركة القائمة بين الروح القدس والمسيح من جهة عملهما في الطبيعة البشرية، فيقول:

[إن المسيح أُرسل من الآب، والروح القدس أُرسل أيضاً من الآب؛ والمسيح يتكلم في القديسين، والروح القدس يتكلم أيضاً؛ المسيح يشفي والروح القدس يشفي بالمثل؛ المسيح

يقدِّس وهكذا يعمل الروح القدس بالمثل.] (٧)
ثم يعود ويجمع لهذه الحقيقة شواهدَ كثيرة تؤكد صحة هذا القول.

والمعروف من واقع الأسفار عامة ورسائل بولس الرسول على وجه الخصوص، أن كل المواهب χαρίσματα سواء هبة البنوة لله، أو الأعمال الصالحة، أو الخلاص ذاته، أو المجد المُنعَم به مع كل الاستعلانات الخاصة بالحياة الجديدة تُنْسَب مرَّة للمسيح ومرة للروح القدس دون تحديد أو حصر أو تمييز.

+ فبولس الرسول يضع التوازي بين **عمل المسيح والروح القدس بالنسبة لحياتنا** هكذا:
فالمسيح هو حياتنا: «متى أُظهر المسيح حياتنا.» (كو٣:٤)
وأيضاً نحن نحيا بالروح: «إن كنا **نعيش بالروح** فلنسلك أيضاً بحسب الروح.» (غل٥:٢٥)
«لكن اهتمام **الروح هو حياة** وسلام.» (رو٨:٦)
«وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات **سيُحْيي أجسادكم** المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم.» (رو٨:١١)

+ كذلك **يضع المواهب** χαρίσματα **بين عمل المسيح والروح القدس** بالنسبة لنا هكذا:
المسيح: «ولكن لكل واحد منا أُعطِيَت النعمة حسب قياس هبة المسيح.» (أف٤:٧)
الروح القدس: «ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء.» (١كو١٢:١١)

+ كذلك يضع **موهبة التبني** بالذات بالتساوي بين عمل المسيح وعمل الروح القدس:
المسيح: «ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنِّي.» (غل٤:٥)
«إذ سبق فعيَّننا للتبني بيسوع المسيح...» (أف١:٥)
الروح القدس: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله.» (رو٨:١٤)

7. Epiphan. Ancoratus 68 (XLIII,140).

+ من جهة قيامة الأموات يضعها بولس الرسول بين عمل المسيح وعمل الروح القدس:

المسيح: «فإنه إذ الموت بإنسان (آدم)، بإنسان أيضاً (يسوع المسيح) قيامة الأموات.» (١كو١٥:٢١)

الروح القدس: «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم.» (رو٨:١١)

+ كذلك استخدام الاصطلاح اللاهوتي " ἐν " في المسيح ἐν τῷ Χριστῷ وفي الروح ἐν τῷ πνεύματι، فإن بولس الرسول يضعهما في موازنة متساوية هكذا:

ἐν τῷ Χριστῷ	ἐν τῷ πνεύματι
في المسيح	**في الروح القدس**

التقديس: «اغتسلتم بل تقدستم بل تبرَّرتُم باسم الرب يسوع، وبروح إلهنا.» (١كو٦:١١)

البناء: «الذي فيه (المسيح) كل البناء مُركَّباً معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب، الذي فيه أنتم أيضاً مبنيُّون معاً مَسْكناً لله في الروح.» (أف٢:٢١و٢٢)

الختم: «... إذ آمنتم، خُتِمْتُم فيه، بروح الموعد القدوس.» (أف١:١٣)

(هنا الترجمة حرفية مصحَّحة على اليوناني).

الفرح: «افرحوا في الرب كل حين، وأقول أيضاً افرحوا.» (في٤:٤) «لأن ليس ملكوت الله أكلاً وشُرباً، بل هو برٌّ وسلامٌ وفرح في الروح القدس.» (رو١٤:١٧)

السلام: «فإذ قد تبررنا بالإيمان، لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح.» (رو٥:١) «وليملأكم إله الرجاء كل سرور وسلام ـــ في الإيمان لتزدادوا في الرجاء ـــ بقوة الروح القدس.» (رو١٥:١٣)

ماذا إذاً؟ هل المسيح والروح مرادفان لأقنوم واحد؟ هذا غير صحيح.

أو هل الروح هو تعبير، مجرَّد تعبير، عن عمل المسيح؟ خطأ.
أو هل أن المسيح لما ارتفع إلى السماء صار روحاً؟ خطأ شديد.
أم ماذا؟

معروف أن المسيح قبل تجسُّده لم يُعرف قط بأنه كان روحاً؛ بل أقنوماً، أي شخصاً كاملاً.

والمسيح لما تجسد وعاش على الأرض على مستوى الزمن والتاريخ لم يُعرف أنه كان روحاً قط.

والمسيح في عمل الفداء على الصليب والقبر والقيامة لم يعرف أنه كان روحاً قط.

إذاً، فمناسبة اقتران ذِكْر المسيح والروح القدس معاً في عمل واحد، أو ذِكْر كلٍّ منهما يعمل عمل الآخر، تنحصر فقط في حالة استعلانه في المجد وهو يعمل لبناء الكنيسة روحياً. وأيضاً في هذه المناسبة لا يمتد الالتقاء بين عمل الروح القدس وعمل المسيح في حالة تواجده عن يمين الآب، أي فيما يخص المسيح نفسه، ولكن ينحصر اقتران عمل المسيح الممجد والروح القدس معاً في العمل في الكنيسة، وهو بشخصه غير المنظور أي في عمله السري لبناء الجسد أي الكنيسة.

وهكذا ينحصر عمل المسيح والروح القدس معاً وكأنه عمل واحد يقوم به كلٌّ منهما عِوَض الآخر، أو يقوم به كلاهما معاً، في أمر تقديس الفرد كعضو في الجسد وتقديس الكنيسة كجسد واحد. حيث يأخذ الروح القدس من جسد المسيح ويقدِّس الأعضاء الجدد، ويأخذ الأعضاء الجدد ويقدِّسهم في وحدة الجسد. فالمسيح يقدِّس بإعطاء نفسه لما يعطي جسده، والروح القدس يقدِّس بتثبيت العضو في الجسد المقدس فيتقدَّس، ويوحِّد الأعضاء في الجسد الواحد فتتقدَّس الكنيسة. لذلك، فكل قداسة للفرد أو الكنيسة هي **من المسيح، وبصُنْع الروح القدس**.

علماً بأن الروح القدس، وهو ملء المسيح، يُحسَبُ أنه روح المسيح، كما هو في الآب يُحسَب روح الآب. أي أنه في الابن يعمل كروح البنوَّة، وفي الآب يعمل كروح الأُبوَّة. في المسيح يقدِّم الإنسان إلى الآب في خضوع بنوَّة المسيح، وفي الآب يعطي التبنِّي.

لذلك قيل إن **الروح الذي أقام المسيح من الأموات، يُقيمنا**، إن كان هو ساكناً فينا (رو ٨: ١١).

ولهذا قيل إن «آدم الأخير (المسيح المُقَام) صار **روحاً محيياً**» (١ كو ١٥: ٤٥)، وذلك بعد أن أكمل الفداء وصار الإنسان مؤهَّلاً للحياة الأبدية. وهذا الأمر يوضحه بولس الرسول بجلاء بقوله: «ثم بما أنكم أبناء (بعد تكميل الفداء والإيمان بالمسيح الذي يؤهِّلنا أن نكون أبناء الله)، أرسل

الله **روح ابنه** إلى قلوبكم صارخاً يا أبا الآب» (غل ٤: ٦). **هنا روح الابن هو الروح القدس كروح البنوّة في الله.** وهنا روح الابن فينا يصرخ فينا وعنا إلى الآب بدالة فائقة للعقل والتصور، ويخاطبه: «يا أبّا» وهو نطق الدَّالة الخاص جداً والفريد جداً بين الابن والآب في الله!

هكذا نحيا الآن كأبناء في المسيح وفي الروح القدس بآن واحد. الابن يعطينا جسد بنوّته في ملء طاعة وخضوع الابن لله أبيه، والروح القدس الذي هو روح الابن يُحيينا كأبناء ويتكلَّم فينا بكلام لائق بكلام البنين اللائق لتقديمه للآب. لأننا في الحقيقة كما يقول بولس الرسول: «لسنا نعلم ما نصلي لأجله (لدى الآب) كما ينبغي، ولكن الروح نفسه (روح البنوة الذي فينا) يشفع فينا بأنَّاتٍ لا يُنطَقُ بها (أي بلغة يفهمها الآب ويقبلها عنا)» (رو٨: ٢٦)، وهذا يكرر شرحه في موضع آخر:

+ «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل **أخذتم روح التبني** الذي به نصرخ يا أبا الآب.» (رو٨: ١٥)

ثم علينا أن نلاحظ أن الله الآب يعطينا روحه ــ وهو الروح القدس عينه ــ **روح الأُبُوّة!!** لنصير **أبناءً** بالتبني؛ والمسيح يعطينا روحه ــ وهو الروح القدس عينه ــ روح البنوة **كإخوة له** وفيه كأبناء لله أبيه.

لذلك، فالروح القدس الذي فينا يشهد فينا للمسيح والآب بآن واحد، ويشهد لنا أننا في المسيح أبناء وورثة معه للآب.

هكذا، يا قارئي العزيز، يكون عمل كلٍّ من المسيح والروح القدس يسيران فينا جنباً إلى جنب، الواحد يكمِّل الآخر، والاثنان يبنيان إنساننا الجديد اللائق لميراث الخلود، وفي الكنيسة لتكميل وحدة الإنسان حسب قصد الدهور.

ومن أجل هذا، نفهم لماذا كان لا بد أن يقوم المسيح من الأموات وينطلق ليعطينا الروح القدس **لنبلغ إلى ملئه** في التقديس والتبنّي: «فإنه فيه يحلُّ كل ملء اللاهوت جسدياً وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢: ٩و١٠)، لنقوم معه ونحيا معه لملء هذا الجسد السري العظيم الذي له، الذي هو ملء الكنيسة. هذا هو الإنسان الجديد الذي يعيش حياة ما فوق الطبيعة، وهذا هو الجسد السرِّي الذي بأعضائه يملأ السماء والأرض كواقع حيٍّ فعَّال غير منظور، ولكن بيقين يفوق المنظور: «... ربوات هم محفل ملائكة وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات ... أرواح أبرار مكمَّلين» (عب١٢: ٢٢و٢٣)، شركة قديسين، سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا!!

الكنيسة كهيكل لله:

أحد التعبيرات الهامة للقديس بولس عن الكنيسة أنها هيكل، وبناء، وهو ينسبه إما إلى الروح أو الله هكذا:

+ «فإننا نحن (بولس وأبولس) عاملان مع الله وأنتم فلاحة الله، **بناء الله**، حسب نعمة الله المعطاة لي كبنّاءٍ حكيم، قد وضعتُ أساساً وآخر يبني عليه. ولكن فلينظر كل واحد كيف يبني عليه، فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضِعَ الذي هو يسوع المسيح.» (١كو٣: ٩ـــ١١)

+ «أما تعلمون أنكم **هيكل الله**، وروح الله يسكن فيكم، إن كان أحد يفسد هيكل الله فسيُفسده الله، لأن هيكل الله مُقدّس الذي أنتم هو.» (١كو٣: ١٦و١٧)

+ «أم لستم تعلمون أن جسدكم هو **هيكل للروح القدس** الذي فيكم، الذي لكم من الله.» (١كو٦: ١٩)

+ «فإنكم أنتم **هيكل الله الحي**، كما قال الله، إني سأسكن فيهم وأسير بينهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً.» (٢كو٦: ١٦)

+ «مبنيين على أساس الرسل والأنبياء، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل **البناء** مركباً معاً ينمو **هيكلاً مقدساً في الرب**، الذي فيه أنتم أيضاً مبنيُّون معاً **مسكناً لله** في الروح.» (أف٢: ٢٠ـــ٢٢)

واضح هنا أن القديس بولس يتحاشى أن ينسب الهيكل أو البناء المقدس بأنه هيكل المسيح، بل هيكل الله والروح؛ حيث المسيح فيه حجر الزاوية الذي يربط تركيب البناء معاً. والمسيح أيضاً هو الأساس فيه.

هنا لا يغيب عن بالنا أن جسد المسيح هو أصلاً ذبيحة مُقدَّمة لله، وبالتالي تصبح الكنيسة ويصبح كل ما فيها بل وكل فرد فيها ذبيحة في ذبيحة المسيح لله. فإن عبَّر بولس الرسول عن الكنيسة أنها هيكل الله وروح الله ساكن فيها، وهي في آن واحد المؤمنون بأشخاصهم، فهو يقصد بهيكل الله وبناء الله ومسكن الله، المؤمنين الذين يسكن فيهم الروح القدس والذين هم من جسد المسيح، من لحمه ومن عظامه. أما بناؤهم فهو بالكلمة والتعليم، وأما نموهم ففي النعمة والحق، وأما الأساس فهو المسيح مصلوباً وقائماً، وأما حجر الزاوية فهو التجسد الذي جمع ما للإنسان وما لله، إذ أمسك أطراف الهيكل ما بين الأرض والسماء وربطه برُبُطٍ ومآزرَ ومفاصلَ التي هي العلائق الأزلية والأبدية التي ارتبط بها اللاهوت بالناسوت، لذا فلن يؤول إلى انحلال أو انفصال،

الفصل الثاني

الإدارة الكنسية

أولاً: الدرجات الكهنوتية(١)

إذا عُدنا إلى المراجع الكنسية في بداية القرن الثاني الميلادي، وعلى وجه الخصوص رسائل القديس إغناطيوس أسقف كنيسة أنطاكية، وهي أول كنيسة أُمّ تأسست بعد كنيسة الرسل في أورشليم ــ وقد تأسست على يد القديس بطرس والقديسين برنابا وبولس أيضاً ــ نجد أن نظام الرئاسات والامتيازات الإدارية في الكنيسة قد بلغت نضجها الواضح، حيث تتحدد بثلاث درجات:

١ ــ الأسقف: وهو واحد دائماً، إذ نسمع في رسالة القديس إغناطيوس إلى كنيسة أفسس عن «أنسيمُوس» أسقفها الوحيد، وفي سميرنا «بوليكاربوس»، وفي كنيسة ترال «بوليبيوس»، وفي كنيسة ماغنيزيا «داماسوس». وكل أسقف من هؤلاء كان له كرسيه وقد تثبَّت على كنيسته يديرها بمفرده.

٢ ــ القسوس: وهؤلاء كانوا يُعتبَرون المتعاهدين معاً، ومع الأسقف، ومتحدون. وكان القسوس يكوِّنون معاً ما يسمى بالمشيخة πρεσβυτέριον (١تي٤: ١٤)، أو على حد تعبيرنا الآن «مجلس القسوس» Sacerdotal College، كما يعبِّر عنها القديس إغناطيوس في رسالته إلى أفسس. وقد ألحَّ على هذا التعبير في رسالته هذه أكثر من ١٥ مرة، مما يفيد أنه كان ذا وجود فعَّال ونشيط.

٣ ــ الشمامسة: وهم الدرجة الصغرى في الإدارة الكنسية ويخضعون للقسوس والأسقف في كل تدبيرهم.

(١) راجع ما سبق أن أوردناه عن الرسامات الكهنوتية ص٤٣٣ــ٤٤٠.

والأسقف مع الكهنة والشمامسة يكونون معاً ما يسمى «بالإكليروس» Clergy. والإكليروس مع الشعب يكونون «الكنيسة» [الرسالة إلى ماغنيزيا (١:١٣) وإلى سميرنا (٢:١٢)].

أما الاختصاصات فتنقسم كالآتي:

الأسقف يقوم بالخدمة أو يترأس على إقامة طقس المعمودية والأغابي والاحتفال بسر الزواج، وفوق كل ذلك تقديس الإفخارستيا، ولكن له أن يعيِّن من يقوم عنه من القسوس لأداء هذه الخدمات.

أما القسوس والشمامسة فلا يقومون بأي خدمات دون علم وتدبير الأسقف [الرسالة إلى سميرنا (١:٨—٢) وبوليكاربوس (٢:٥) وسميرنا أيضاً (١:٩)]. وأما العلمانيون، فهم أصحاب هذه الخدمات، فهم المخدومون وليس الخادمين في الكنيسة. هذا كله عند القديس إغناطيوس في بكور القرن الثاني.

ولكن إذا عدنا لرسائل القديس بولس وخاصة الرسائل الراعوية، وهي الرسالتان إلى تيموثاوس والرسالة إلى تيطس ــ وهذه التسمية للرسائل الراعوية Pastorals، أي الخاصة برعاية الشعب، بدأت في منتصف القرن الثامن عشر وهي تسمية غير موفَّقة وغير سعيدة لأنها أفرزت هذه الرسائل وكأنها لا تمتُّ إلى جسم الرسائل الأخرى، وكان ذلك تمهيداً للحطِّ من أصالتها، الأمر الذي وقفت ضده الكنيسة بقوة منذ البدء وأثبتت أصالتها وخاصة بأقلام أقدم وأجلّ أساقفتها الأوائل القديسين: برنابا، وكلمندس الروماني، وإغناطيوس، وبوليكاربوس، ويوستين، وهيجيسيبوس، الذين أخذوا بكل محتواها وقدَّسوها كباقي الرسائل تماماً ــ نقول إن هذه الرسائل الثلاث تعطي صورة أكثر بداءة للدرجات الكنسية عمَّا جاء في رسائل القديس إغناطيوس أسقف أنطاكية في بكور القرن الثاني. وهذا طبيعي بل وثمين ومفيد للغاية، لأنه يحدد بالتالي زمن كتابة هذه الرسائل الثلاث وينفي في نفس الوقت القول بأنها من مدوَّنات متأخرة في القرن الثاني. ولكن الملاحظ بوضوح أن هذه الرسائل الثلاث تحوي البذرة الأُولى لتكوين الدرجات الثلاث في الكنيسة: الأسقف والقس والشماس. أما التقدم في تخصيص الدرجات وخدمتها فجاء ــ بعد ذلك ــ من واقع حاجة التنظيم ومن إلهام الروح القدس الذي أُعطي أن يدبر الكنيسة من علٍ.

ولكن من المفيد جداً أن نستعرض المعاني المتعددة وتخصصاتها المتعددة غير المحددة للأسماء الثلاثة التي أصبح يقوم عليها النظام الكنسي ككل، الأسقف والقس والشماس، وذلك عند القديس بولس.

١ ــ الأسقف: ἐπίσκοπος

وقد ورد الاسم كما هو خمس مرات في أسفار العهد الجديد، أربع منها كتعبير كهنوتي عن درجة في الكنيسة، ولكن الخامسة وردت بتعبير مجازي كتشبيه فقط فيما يخص عمل المسيح في الكنيسة، والأربع المرات الخاصة بالدرجة الكنسية تفيد رسالة الأسقف كحارس للكنيسة، أو الناظر من فوق، أو الفاحص، أو الوكيل المؤتمن.

١ ــ «احترزوا إذاً لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها **أساقفة** ἐπισκόπους ، لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه.» (أع ٢٠:٢٨)

هنا الأسقف هو الناظر من فوق كحارس وراعٍ، وهو مُطالَب بنفسه أولاً ثم بالرعية.

٢ ــ «بولس وتيموثاوس عبدا يسوع المسيح إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيلبي مع أساقفة وشمامسة ἐπισκόποις καὶ διακόνοις.» (في ١:١)

واضح هنا أن بولس الرسول يخاطب الكنيسة ككل. ولكن يُلاحَظ كيف وضع الشعب: «القديسين في المسيح» قبل الأساقفة والشمامسة؛ المخدومون ثم الذين يخدمونهم. هنا الضغط واقع على مسئولية الأساقفة بالدرجة الأُولى ومنحصرة في حالة الشعب، وهكذا قدَّم الشعب بصفته أهم ما يهتم به الأسقف.

٣ ــ «فيجب أن يكون الأسقف ἐπίσκοπον بلا لوم...» (١تي ٣:٢)

٤ ــ «لأنه يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله...» (تي ١:٧)

أما المرَّة الأخيرة، فوردت في رسالة بطرس الرسول الأُولى عن المسيح:

٥ ــ «لأنكم كنتم كخراف ضالة، لكنكم رجعتم الآن إلى راعي نفوسكم وأسقفها.» (١بط ٢:٢٥)

والملاحظ بوضوح أن اسم الأسقف والقسيس (الشيخ) عند بولس الرسول يأتي متداخلاً ومترادفاً، وأحياناً يعني نفس العمل. ولكنه أحياناً أخرى يحدد بعض الأعمال لكل درجة. وهذا واضح في المثل (٢) في تحيته لكنيسة فيلبي، حيث يذكر «أساقفة مع شمامسة» فقط؛ حيث الأساقفة مع الشمامسة فقط يكوِّنون الجسم الكهنوتي. ولكن كونه يذكر الأساقفة بالجمع فهنا واضح أنه يجمع في هذه الكلمة الشيوخ أيضاً (القسوس)، لأنه غير معروف قط أنه كان يوجد في فيلبي ــ وهي مدينة صغيرة ــ عدة أساقفة، ومن غير المعقول أن يذكر «أساقفة» ولا يذكر «قسوس»، وكان يوجد قسوس بالفعل.

هذا الأمر يزداد وضوحاً في قوله لتيطس (تي١: ٥ــ٧) أن يقيم قسوساً في كل مدينة واضعاً شروط لياقة القسيس. ثم يزيد على تأكيد الشروط الخاصة بالقسيس واصفاً القسيس مرة أخرى بالأسقف، مما يفيد أن القسيس والأسقف لم يكونا قد تحدّدا بعد كوظيفتين أو درجتين في الكهنوت متميزتين بعضهما عن بعض.

وهنا يظهر أيضاً أن الأسقف لم يكن يحتل المكانة الواحدة الوحيدة والفريدة في ذهن بولس الرسول كما ظهر بعد ذلك عند القديس إغناطيوس، وإلا ما كان يذكر الأسقف بصيغة الجمع، فوجود أساقفة في الكنيسة الواحدة لا يعني أن «وحدة درجة الأسقف» كانت معروفة بمفهومها الذي عند القديس إغناطيوس أو التي عندنا الآن في الكنيسة.

كذلك في خطاب بولس الرسول للقسوس، وهو في ميليتس، الذين استدعاهم من أفسس داعياً إياهم بالقسوس، ينتهي الأمر أمامنا بكل وضوح أن بولس الرسول لم يكن قد تحدد في ذهنه قط الحد الفاصل بين القسوس والأساقفة: «ومن ميليتس أرسل إلى أفسس **واستدعى قسوس الكنيسة**، فلما جاءوا إليه قال لهم: أنتم تعلمون من أول يوم دخلت آسيا كيف كنت معكم...،

كيف لم أُؤخر شيئاً من الفوائد إلاَّ وأخبرتكم وعلَّمتكم به جهراً وفي كل بيت...،

والآن ها أنا أعلم أنكم لا ترون وجهي أيضاً...،

لذلك أشهدكم اليوم هذا إني بريء من دم الجميع...،

احترزوا إذاً لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه.» (أع٢٠: ١٧ــ٢٨)

كذلك نرى أن الشروط التي وضعها لاختيار الأسقف هي عينها نفس الشروط التي وضعها للقسيس، كأنها رتبة واحدة في ذهن بولس الرسول، إذ لم يميز بينهما في الشروط. ولكن في العمل نجد أحياناً تخصيصاً.

الشروط التي يلزم توافرها في الأسقف أو القس:

ذلك باعتبار أنها رتبة واحدة لم يتم انفصالها إلى رتبتين في أيام القديس بولس. فمرة يضعها كأساس لاختيار الشخص تحت اسم الأسقف وهي تقريباً التي يضعها لاختيار الشخص تحت اسم القسوس.

ولكن من روح مخاطبة بولس الرسول لكلٍّ من تيموثاوس وتيطس وكلاهما كانا في درجة الأسقفية من تحت يد بولس، ندرك أنه كان يلزم للأسقف فضائل ينبغي أن تتوفر له لكي يكون

كفؤاً لتأدية رسالته ـــ وهي الغيرة والتقوى والأمانة، والشجاعة في المواقف الصعبة، والحزم في القطع بالأمور، **وروح الإيمان**. وربما هذه الفضيلة الأخيرة هي التي تحبس كل الفضائل، إذ يعني بها القوة المستمدة من الاتصال المباشر بشخص المسيح، مع إنكار الذات والبذل.

أما الشروط التي وضعها بولس الرسول في قائمة الاختيار للقسوس الذين أسماهم أيضاً أساقفة، فقد جاءت على مرتين، قائمة وردت في رسالته الأُولى لتيموثاوس أسقف أفسس آنئذ (٣: ٢ــ٧)، وقائمة أخرى وردت في رسالته الوحيدة إلى تيطس أسقف كريت آنئذ.

القائمة الأُولى: (١تي٣: ٢ــ٧)

+ « يجب أن يكون الأسقف ἐπίσκοπον (القسيس العادي وذلك من متابعة الكلام)

بلا لوم،

متزوجاً مرَّة واحدة، صاحياً، عاقلاً، مُحتشماً، مُضيفاً للغرباء، صالحاً للتعليم، غير مُدمن الخمر، ولا ضرَّاب، (ثم إضافة في الترجمة العربية غير موجودة في الأصل اليوناني ولكنها مقتبسة من القائمة الثانية: "ولا طامع في الربح القبيح").

بل حليماً، غير مُخاصِم، ولا مُحب للمال،

يدبر بيته حسناً، له أولاد في الخضوع بكل وقار: وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته فكيف يعتني بكنيسة الله؟

غير حديث الإيمان: لئلا يتصلَّف فيسقط في دينونة إبليس،

ويجب أيضاً أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم من خارج، لئلا يسقط في تعيير وفخ إبليس».

القائمة الثانية: (تي١: ٥ــ٩)

+ « تركتك في كريت لكي... تقيم في كل مدينة شيوخاً (قسوساً) كما أوصيتك،

إن كان أحد:

بلا لوم،

تزوج مرة واحدة، له أولاد مؤمنون، ليسوا في شكاية الخلاعة ولا متمردين،

لأنه يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل الله،

غير مُعجَب بنفسه، ولا غضوب، ولا مدمن الخمر، ولا ضرَّاب، ولا طامع في الربح القبيح،

بل مُضيفاً للغرباء، مُحبّاً للخير، متعقلاً، باراً، ورعاً، ضابطاً لنفسه،

ملازماً للكلمة الصادقة التي بحسب التعليم (التقليد)، لكي يكون قادراً أن يعظ بالتعليم

الصحيح (المسلّم)، ويوبِّخ المناقضين».

وقد وجدنا من المفيد للذين يحبون الفحص والتعمق أن نضع هاتين القائمتين على التوازي، لكي نستطيع أن نُلمّ بمقدار التداخل والامتداد لهذه الشروط في قلب بولس الرسول بإلهام الروح لبلوغ الشخص المختار ليكون على منتهى اللياقة الأخلاقية والروحية.

(إلى تيموثاوس الأولى ٣: ٢ــ٧)		(إلى تيطس ١: ٦ــ٩)	
بلا لوم	ἀνεπίλημπτον	**بلا لوم**	ἀνέγκλητον
تزوج مرة واحدة		**تزوج مرة واحدة**	
صاحياً	νηφάλιον	ضابطاً لنفسه	ἐγκρατῆ
عاقلاً	σώφρονα	**متعقلاً**	σώφρονα
مضيفاً للغرباء	φιλόξενον	**مضيفاً للغرباء**	φιλόξενον
صالحاً للتعليم	διδακτικόν	قادر أن يعظ بالتعليم الصحيح	
غير مدمن الخمر	μὴ πάροινον	**غير مدمن الخمر**	μὴ πάροινον
غير ضرّاب	μὴ πλήκτην	**غير ضرّاب**	μὴ πλήκτην
حليماً	ἐπιεικῆ	غير غضوب	μὴ ὀργίλον
غير مُخاصِم	ἄμαχον	غير مُعجَب بنفسه	μὴ αὐθάδη
غير محب للمال	ἀφιλάργυρον	غير طامع في الربح القبيح	μὴ αἰσχροκερδῆ
يدبر بيته حسناً		له أولاد مؤمنون	
له أولاد في الخضوع بكل وقار		ليسوا في شكاية	
+ محتشماً	κόσμιον	+ محباً للخير	φιλάγαθον
+ غير حديث الإيمان	μὴ νεόφυτον	+ باراً	δίκαιον
+ له شهادة حسنة من الذين هم من خارج		+ ورعاً	ὅσιον

ومن الموازنة بين القائمتين يتضح التوافق. وتنفرد القائمة الأُولى بثلاث خِصال وضعناها في النهاية، يقابلها ثلاث خصال أخرى تنفرد بها القائمة الثانية. وقصد الروح ــ طبعاً ــ أن يضيف هذه إلى تلك. كذلك نجد خمس صفات متطابقة حرفياً، كما نجد سبع صفات بعبارات متشابهة. ولكن العجيب أن التشابه يمتد ليشمل التكامل بينهما:

القائمة الأولى		القائمة الثانية
غير طامع في الربح القبيح	← .... أكمل من	غير محب للمال،
صاحياً (متزناً) التي تعني في اليونانية:		
ضابطاً لنفسه (متعفف)	← .... تكملها	قنوع في الأكل والشرب،
غير غضوب	← .... أكمل من	حليماً (باشاً ذو مودة)
غير معجب بنفسه التي تعني في اليونانية: فظاً قاسياً	← .... أكمل من	غير مخاصم (مسالم)،
		بلا لوم وتعني حرفياً باليونانية أن لا يعطي لأحد فرصة أن يتشكك في سلوكه وهي
بلا لوم التي تعني حرفياً باليونانية أن يكون سلوكه لا غُبار عليه	←	أكمل من

ولكن انظر معي، عزيزي القارىء، كم يجهد الإنسان ويشقى ليجد واحداً من وسط كنيسة من بين ربوة يقدمه إلى الله ليضع يده عليه! ولكن هذا شأن الذين يختارهم الله، فبالعودة إلى شاول المدعو أيضاً بولس، نرى كيف اختاره الرب بنفسه من السماء واحداً من وسط إسرائيل كلها، وجده حسب قلبه!

وقد اعتاد الشُرَّاح ورجال الكنيسة أن يهتموا بشروط دون شروط، أو يضعوا الشروط الأساسية التي يلزم توافرها تاركين الباقي. ولكن في الحقيقة نرى أن أي إخلال بشرط من هذه الشروط يودي بالكل.

أما بخصوص تضارب الأقوال فيما يخص شرط أن يكون قد «تزوج امرأة واحدة»، فهو لا يفيد قط أن يكون متزوجاً كما نحى بعض شُرَّاح البروتستانت، ولكن الواضح البيِّن الذي أخذ به الآباء جميعاً أن لا يكون قد تزوج بامرأة أخرى قبل اختياره للرتبة المقدسة.

ويتضح هذا المعنى بكل تأكيد حينما نقارنه بقول بولس الرسول بالنسبة للأرملة المكتتبة أن تكون «امرأة رجل واحد» (١تي٥: ٩)، بمعنى أن لا تكون قد تزوَّجت مرتين.

والقصد الواضح الذي يقصده القديس بولس من هذا الشرط هو ضمان سمو النفس وترفُّعها عن حياة الدنيا. بالإضافة إلى مفهوم سر الزيجة أنه على مستوى المسيح والكنيسة (الواحدة).

٢ ــ الشماس:

الشروط التي يلزم توافرها في الشماس:

+ «كذلك يجب أن يكون الشمامسة ذوي وقار لا ذوي لسانين، غير مُولَعين بالخمر الكثير، ولا طامعين بالربح القبيح، ولهم سر الإيمان بضمير طاهر، وإنما هؤلاء أيضاً ليُختَبروا أولاً ثم يتشمسوا إن كانوا بلا لوم. كذلك يجب أن تكون النساء ذوات وقار غير ثالبات، صاحيات (قناعة) أمينـات في كل شيء، ليكن الشمامسة كلٌّ بعلَ امرأة واحدة مدبرين أولادهم وبيوتهم حسناً، لأن الذين تشمَّسوا حسناً يقتنون لأنفسهم درجة حسنة وثقة كثيرة في الإيمان الذي بالمسيح يسوع.» (١تي٣: ٨ــ١٣)

بولس الرسول هنا يركِّز على «اللسان» بالنسبة للشماس، و«اللسانين» ترمي إلى معنى النفاق أي يقول قولين: قول لك في وجهك؛ وقول عليك في غيبتك. يمدحك علناً، ويذمك سرًّا. يدَّعي الصداقة والمودة؛ ويخفي الخيانة والغدر. وأخطر ما في الأمر هو الإيقاع بين الشعب، وتبليغ الأسقف بلاغات مُغرضة ليُفسد الجو على البعض، ويُزكّي البعض الآخر، إما للمنفعة أو الكيد أو النقمة أو عن الأخلاق المنحطة بحد ذاتها. وهكذا تصبح خدمة الشماس من أخطر الخدمات المُجْلبة للعثرات، حيث الوقيعة بين الشعب، وبين الشعب وأسقفه.

كما يركِّز بولس الرسول على «الطمع» في الربح المالي بالنسبة للشماس، لأنه سيفتح باب استغلال الوظيفة للوشاية والإساءة والمحاباة والمحسوبية وتقديم ما لا يجب تقديمه ومنع ما لا يجب منعه. وهكذا تختل موازين العدالة عند الرؤساء بعلم أو بدون علم، مما يجرح جسد المسيح ويُدْميه.

وبقية الشروط تضمن سمعة الشماس ورزانة سلوكه.

أما قوله أن يكون له «سرُّ الإيمان بضمير طاهر»، فعلينا أن نتذكر قول إستفانوس المثل الأعلى لكل شماس كيف كان له «سر الإيمان» في الشهادة والاعتراف العلني بقلب أسد، وفي طهارة ضمير لا يخشى لومة لائم ولا السيف القائم.

كذلك وضع بولس الرسول الشروط اللازمة لاكتتاب الأرامل اللائي بدأنَ يخدمن في الكنيسة، ولكن خارج دائرة الكهنوت، حيث تخصَّصن للخدمة وسط النساء فقط (١تي٥: ٩و١٠).

نظرة عامة إلى الدرجات الكنسية في عصر بولس الرسول:

ولكن وبالرغم من عدم وضوح الحدود الفاصلة بين الدرجات الكهنوتية عند بولس الرسول، إلاَّ أن الترتيب أو التدبير في الرئاسات الكنسية أخذ صورته الأُولى في حياة بولس الرسول. ولعلَّ أقوى

صورة معبِّرة عن علو شأن عملية اختيار المسئولين في الكنيسة، ما ذكره القديس لوقا في سفر الأعمال عند اختيار بولس وبرنابا، وهما رسولان، «**لعمل المبشِّر**». فالأسقف وإن أخذ درجته كناظر على الكنيسة ومدبِّر، إلاَّ أن خروجه للبشارة خارج دائرة أسقفيته يحتاج لعملية روحية أخرى لا تقل في أهميتها وتخصُّصها وطلب المواهب الخاصة عن رسامته أسقفاً:

+ «فصاموا حينئذ وصلُّوا ووضعوا عليهما الأيادي، ثم أطلقوهما.» (أع١٣: ٣)

+ «وانتخبا لهم قسوساً في كل كنيسة ثم صلَّيا بأصوام واستودعاهم للرب الذي كانوا قد آمنوا به.» (أع١٤: ٢٣)

وتُعتبر هذه الترتيبات أول «طقس ليتورجي» للكنيسة في رسامات الدرجات الكنسية والذي أصبح سمة جوهرية من سمات إنشاء الكنيسة الروحية.

أما الواجبات الملقاة على الأعضاء العاملين في خدمة الكنيسة فتوضحها الرسالة الأُولى إلى أهل تسالونيكي:

+ «ثم نسألكم أيها الإخوة أن تعرفوا الذين يتعبون بينكم ويدبِّرونكم في الرب ويُنذرونكم، وأن تعتبروهم كثيراً جداً في المحبة من أجل عملهم ...،
أنذروا الذين بلا ترتيب، شجعوا صغار النفوس، أسندوا الضعفاء تأنَّوا على الجميع ...»
(١تس٥: ١٢—١٤)

وبحسب التقليد(٢) المنحدر لنا من أوريجانوس، فإن أول أسقف على كنيسة تسالونيكي في ذلك الوقت هو نفسه غايُس الذي قال عنه بولس الرسول: «**مُضَيِّفي ومُضَيِّف الكنيسة كلها**» (رو١٦: ٢٣)، حينما نزل عنده بولس وهو في كورنثوس.

وحينما نعود إلى وضع الرئاسات الكنسية في فيلبي، وهي الكنيسة التي أرسل إليها رسالة من سجن روما سنة ٦٢م، أي بعد بدء خدمته التبشيرية (سنة ٤٨م) بأربع عشرة سنة، فنفهم منها أنه قد استقر وضع «الأساقفة والشمامسة» حيث هنا بحسب التقليد يكون إيبافروديتس Epaphroditus هو الأسقف الأول:

+ «وأثق بالرب أني أنا أيضاً سآتي إليكم سريعاً، ولكني حسبتُ من اللازم أن أُرسل إليكم أبَفرودِتُس أخي، والعامل معي، والمتجنِّد معي، "**ورسولكم**"، والخادم لحاجتي.» (في٢: ٢٤و٢٥)

2. F. Prat, *op. cit.*, vol. II, p. 300.

كذلك كان من ضمن هؤلاء الأساقفة أكليمَندُس الذي صار فيما بعد أسقفاً على روما بحسب ما كتب بولس أيضاً إلى فيلبي:

+ «نعم أسألك أنت أيضاً، يا شريكي المخلص، ساعدْ هاتين اللتين جاهدتا معي في الإنجيل مع **أكليمندس** أيضاً وباقي العاملين معي، الذين أسماؤهم في سفر الحياة.» (في٤:٣)

فنحن إذ نسمع بعد ذلك عن ترتيبات كليمندس أسقف روما في كنيسته، ندرك كيف بدأ التقليد يأخذ أصالته، منحدراً من الترتيب الرسولي.

ومن الرسالة التي أرسلها بولس الرسول إلى تيموثاوس في أفسس، ندرك مدى خطورة عمل الأسقف بصفته الرئاسية المُهابة التي استلمها من الرسل، لأن مقاومة الهراطقة من أصعب المواجهات التي واجهتها الكنيسة المبتدئة:

+ «كما طلبت إليك أن تمكث في أفسس، إذ كنتُ أنا ذاهباً إلى مكدونية، لكي توصي قوماً أن لا يُعلِّموا تعليماً آخر، ولا يصغوا إلى خرافاتٍ وأنسابٍ لا حدَّ لها تُسبِّب مباحثاتٍ دون بنيان الله الذي في الإيمان.» (١تي١: ٣و٤)

+ «هذه الوصية، أيها الابن تيموثاوس، أستودعُك إياها حسب النبوات التي سبقت عليك **لكي تحارب فيها المحاربة الحسنة.**» (١تي١:١٨)

أما تنقُّل الأساقفة فكان في البدء وارداً بحيث يحل واحد محل واحد لكي تبقى الكنيسة محدودة التدبير غير منقسمة، هذا نقرأه بخصوص كنيسة كريت وأسقفها تيطس:

+ «حينما أُرسل إليك أرتيماس أو تيخيكس، بادر أن تأتي إليَّ إلى نيكوبوليس لأني عزمتُ أن أُشتِّي هناك.» (تي٣:١٢)

والملاحَظ لو تتبعنا الترتيبات الكنسية منذ أول خدمة بولس الرسول حتى النهاية نجد أن النمو في التحديد بالنسبة للدرجات وارد، ولكن النمو في التحديد بالنسبة للاختصاصات غير واضح. ولكن الكنائس كانت تُخدم بمجمع قسوس أو أساقفة πρεσβύτεροι, ἐπίσκοποι ثم الشمامسة، وذلك كله تحت رعاية بولس الرسول المباشرة. وهذا هو السر في عدم وضوح درجة الأسقف بمفهومها الفردي كمترئس على الإكليروس، في كل الرسائل، إذ يرجع ذلك إلى أن القديس بولس كان هو المدبِّر الوحيد — على مدى خمسة عشر عاماً — لجميع الكنائس والمتصرِّف في كل ترتيباتها (٢كو١١:٢٨). لذلك لم يكن من الممكن أن يأخذ أي فرد من الإكليروس سواء سُمِّي قسيساً أو أسقفاً صلاحيات الأسقف كمدبِّر وحيد، طالما كان بولس الرسول هو المسئول.

ولكن بمجرد أن سلَّم بولس وديعته وانطلق إلى من أحبه، ظهر في الحال الأساقفة: غايس في كورنثوس، تيطس في كريت، تيموثاوس في أفسس، وربما لوقا في فيلبي، وكليمندس في روما، وأبفرودتس في فيلبي، وظهرت معهم طبقة من الكهنة ثم الشمامسة كدرجات واضحة.

أما في كنيسة أورشليم وأنطاكية وروما (والإسكندرية منذ سنة ٤٥م) فقد بدأت الدرجات الثلاث: الأسقف والقسيس والشماس مع قيام هذه الكنائس وفي وجود الرسل. فنحن نعرف أن القديس مرقس الإنجيلي أسس كنيسة الإسكندرية سنة ٤٥م، وعيَّن فيها إنيانوس أول أسقف منذ دخوله مصر قادماً إليها من القيروان في ليبيا.

كذلك لا نستطيع أن نغفل عمل المواهب النشطة في الكنائس المبتدئة التي كانت تُغْني كثيراً عن وظائف التنظيم والتعليم، لأنها كانت مواهب تختص بذلك بالدرجة الأُولى، كما نرى ذلك في كنيسة كورنثوس سنة ٥٧م، التي يخاطبها بولس الرسول معترفاً بغنى النعمة والمواهب العاملة فيها:

+ «أشكر إلهي في كل حين من جهتكم على نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح،
أنكم في كل شيء استغنيتم فيه في كل كلمة، وكل علم،
كما ثُبتت فيكم شهادة المسيح، حتى إنكم لستم ناقصين في موهبة ما.» (١كو١: ٤-٦)

ولكن هذا النشاط «الخارِزْماتك» أي الموصول بالمواهب لم يَدُمْ كثيراً في الكنائس الأُولى.

ثانياً: التدبير الكنسي

قوة الضبط والربط في الكنيسة:

بمجرد أن نشأت الكنيسة كجماعة متحدة مترابطة ذات حياة خاصة وأهداف واحدة، أصبح من الطبيعي أن يكون لها سلطان أن تحكم وتضبط به نفسها لتستمر وتنمو. وسلطان انضباط وحكم الكنيسة يأتيها من الله.

+ «احترزوا إذاً لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه.» (أع ٢٠:٢٨)

هنا الروح القدس هو المدبِّر الأول والأعلى، الذي عيَّن واختار هؤلاء الأساقفة، وهو الذي بالتالي يضبط ويحكم. هذا اعتراف بولس الرسول الأخير وهو يودِّع هؤلاء القادة، لكي لا يراهم مرَّة أخرى، فهو يسلمهم لليد العليا التي سترعاهم بالدرجة الأولى. أما رعايتهم هم للشعب فهي من تحت هذه اليد وبمقتضى قيادتها ومشورتها.

هنا سلطان الأساقفة واضح أنه متعلق بالدرجة الأولى بمدى طاعتهم لصاحب السلطان الحقيقي الذي أقامهم وائتمنهم. إذاً يلزم التفريق بين السلطان الذي يدبر الكل وعلى طول المدى بالنسبة للكنيسة وهو الله، والسلطان المحلي والمؤقت الذي يباشره الأسقف من تحت سلطان الله وبمشورة منه. هذا نتعلَّمه ونستمد معرفته من بولس الرسول، الذي كان يستمد معرفته وتصرفه من المسيح نفسه:

+ «وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل **الرب** ...» (١ كو٧:١٠)
+ «وأما الباقون فأقول لهم **أنا لا الرب** ...» (١ كو٧:١٢)
+ «وأما العذارى **فليس عندي أمرٌ من الرب فيهن**، ولكنني أعطي رأياً ...» (١ كو٧:٢٥)

على أن سلطان الأسقف أولاً وأخيراً هو قائم على أساس مقدار تمسكه بوصايا صاحب السلطان الأعلى الذي يستمد منه سلطانه، وذلك إزاء كل تعليم مخالف:

+ «إن كان أحد يحسب نفسه نبياً أو روحياً فليعلم ما أكتبه إليكم **أنه وصايا الرب.**» (١ كو١٤:٣٧)
+ «لذلك أكتب بهذا وأنا غائب لكي لا أستعمل جَزْماً وأنا حاضرٌ حسب **السلطان** الذي

أعطاني إياه الرب للبنيان لا للهدم.» (٢ كو١٣: ١٠)

+ «إذ أسلحة محاربتنا ليست جسدية بل قادرة بالله على هدم حصون. هادمين ظنوناً وكل عُلوٍّ يرتفع ضد معرفة الله، ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح، ومستعدين لأن ننتقم على كل عصيان، متى كملت طاعتكم.» (٢ كو١٠: ٤ــ٦)

واضح هنا سلطان الله الذي يعمل من تحته بولس الرسول بكل ثقة وأمانة وحزم معاً.

على أن سلطان الكنيسة لا يعمل خارج الكنيسة، وإن عمل فهو في حدود المناداة بالحق فقط:

+ «لأنه ماذا لي أن أدين الذين من خارج. ألستم أنتم تدينون الذين من داخل؟ أما الذين من خارج فالله يدينهم، فاعزلوا الخبيث من بينكم.» (١ كو٥: ١٢و١٣)

+ «لأننا نحن لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا.» (أع٤: ٢٠)

+ «فأجاب بطرس والرسل وقالوا: ينبغي أن يُطاعَ الله أكثر من الناس.» (أع٥: ٢٩)

أما السلطان الذي للكنيسة للحكم على المؤمنين الذين فيها فهو مسنود بحق الروح الذي أعطته الكنيسة للمؤمنين ليكونوا أعضاء فيها بالمعمودية، التي وهبتهم الحياة الجديدة، والإفخارستيا التي وهبتهم مغفرة الخطية، فهي لها أن تحاسب بعد ذلك:

+ «أكتبُ للذين أخطأوا من قبل وللجميع الباقين، أني إذا جئتُ أيضاً لا أُشفق.» (٢ كو١٣: ٢)

+ «لأني أخاف إذا جئتُ أن لا أجدكم كما أريد وأُوجَد منكم كما لا تريدون ...، أن يذلني إلهي عندكم إذا جئت أيضاً، وأنوح على كثيرين من الذين أخطأوا من قبل ولم يتوبوا عن النجاسة والزنا والعهارة التي فعلوها.» (٢ كو١٢: ٢٠و٢١)

+ «لا تقبل شكاية على شيخ إلاَّ على شاهدين أو ثلاثة شهود. الذين يخطئون، وبِّخهم أمام الجميع لكي يكون عند الباقين خوف.» (١تي٥: ١٩)

أصناف التأديب وأنواع العقوبة:

كانت العقوبات عند القديس بولس تنحصر في ثلاث: التوبيخ، العزل المؤقَّت، الحرمان أو القطع.

أ ــ التوبيخ:

كان من أولى مسئوليات أساقفة الكنيسة توبيخ كل من تسوِّل له نفسه عمل الشر والخروج عن الحدود. وكانت هناك طريقتان للتوبيخ:

الأولى: التوبيخ الحبي الأبوي أو الأخوي ويجري في كتمان بين المسئول والمخالف (١تي ٥: ١و٢).

والثانية: التوبيخ العلني الجماعي (١تي٥: ٢٠) وينفذ رسمياً في وسط الجماعة بتعيين الوقت والإعلان عن ذلك مُسْبقاً، وهو إجراء أقسى من الإجراء السالف، وغالباً يلجأ إليه الرئيس بعد فراغ صبره واستنفاذ فرص التوبيخ الخاص.

وهذان النوعان من التوبيخ، إنما يُمهّدان لإجراء عقوبة أشد خطورة.

ب ــ العزل:

+ «الرجل المبتدعُ αἱρετικὸν بعد الإنذار مرة ومرتين، أعرض عنه عالماً أن مثل هذا قد انحرف، وهو يخطىء محكوماً عليه من نفسه.» (تي٣: ١٠)

ج ــ الحرمان أو القطع:

وهذا الإجراء له أيضاً شكلان:

الأول: وضع المشاغب أو مثير الشجار أو المؤذي بكثرة عثراته، تحت الحَجْر، أي الملاحظة والمتابعة، مع قطع مؤقت من الشركة وعدم الخلطة مع الآخرين حتى ينصلح حاله ويتوب.

+ «فاعزلوا الخبيث من بينكم.» (١كو٥: ١٣)

+ «وإن كان أحد لا يطيع كلامنا بالرسالة فسِمُوا هذا ولا تخالطوه لكي يخجل، ولكن لا تحسبوه كعدو بل أنذروه كأخ.» (٢تس٣: ١٤و١٥)

+ «أفأنتم منتفخون وبالحري لم تنوحوا حتى يُرفَع من وسطكم الذي فعل هذا الفعل، فإني أنا كأني غائب بالجسد ولكن حاضرٌ بالروح، قد حكمتُ كأني حاضر في الذي فعل هذا هكذا:

باسم ربنا يسوع المسيح، إذ أنتم وروحي مجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح، أن يُسلَّم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تَخلُصَ الروح في يوم الرب يسوع.» (١كو٥: ٢ــ٥)

الثاني: وهو الحرمان الكلي والقطع النهائي. ولكن هذا يلوّح به القديس بولس الرسول ولكن لم يستخدمه قط، فهو في الآية (١كو٥: ٢ــ٥) الذي حكم بتسليم هذا الفاجر الذي يزني مع امرأة أبيه ولا يتوب، أسْلَمه للشيطان لهلاك الجسد. هذا حسن ولكن عاد هو نفسه وسحب هذا الحكم العنيف المخيف بكلام يذوب محبة ولطفاً وإشفاقاً ودموعاً:

+ «مثل هذا يكفيه هذا القصاص الذي من الأكثرين (العزل والتوبيخ) حتى تكونوا بالعكس تسامحونه بالحري، وتعزونه لئلا يُبتَلَع مثل هذا من الحزن المفرط. لذلك أطلب

أن تُمكِّنوا له المحبة ... لئلا يطمع فينا الشيطان لأننا لا نجهل أفكاره.» (٢كو٢: ٦-١١)

من هذا نفهم روح الضبط والربط في الكنيسة عند بولس الرسول، فهي حارسة على الحق ولا تستعرض قوتها وسلطانها خُلْواً من محبة وإشفاق وعطف ولطف فائق على أخطى الخطاة!! ليس للتخويف والإرهاب تعاقب، ولكن لتمكين التوبة وإعادة السيرة الطاهرة. فالكنيسة عند بولس الرسول هي «عمود الحق وقاعدته» (١تي٣: ١٥)، وليست محكمة وجلادين ورجم حجارة كالذي عند اليهود. فوصايا المحبة التي سلَّمها العريس لا تصلح أن تكون بنود تعذيب!!!

نظرة عامة لحياة الكنيسة الفتيَّة في أيام بولس الرسول:

كانت الكنائس كلها خاضعة لتدبير بولس الرسول، بأساقفتها وقسوسها وشمامستها، ولأن يد بولس الرسول كانت هي العليا، لم تظهر أنشطة الدرجات، وإن ظهرت أسماؤها بتحديد. علماً بأن أقدم الكنائس في أيام بولس لم يتعدَّ عمرُها اثنتي عشرة سنة منذ الإنشاء، لذلك لم يكن من المعقول أن تظهر الكنيسة بكامل صورتها التي في ذهننا الآن.

ولكن أوضح معالم الكنيسة الجديدة في أيام بولس الرسول هي المواهب التي سكبها الله على هذه الكنائس بسخاء، وخاصة عامة الشعب، حيث ظهرت فيه جميع فئات المواهب الخادمة والعاملة بصورة مذهلة للعقل:

+ « فإن اجتمعت الكنيسة كلها في مكان واحد وكان **الجميع يتكلمون بألسنة** ...، ولكن إن **كان الجميع يتنبأون** ...،

متى اجتمعتم، **فكل واحد منكم له مزمور، له تعليم، له لسان، له إعلان، له ترجمة**، فليكن كل شيء للبنيان.

إن كان أحدٌ يتكلم بلسانٍ، **فاثنين اثنين**، أو على الأكثر **ثلاثة ثلاثة**، وبترتيب، **وليُتَرجِمْ واحد!** ...،

أما الأنبياء فليتكلم اثنان أو ثلاثة وليحكم الآخرون،

ولكن إن أُعلن لآخر جالس فليسكت الأول!

لأنكم **تقدرون جميعكم أن تتنبأوا** واحداً واحداً، ليتعلم الجميع ويتعزَّى الجميع،

وأرواح الأنبياء خاضعة للأنبياء.» (١كو١٤: ٢٣-٣٢)

والقديس بولس يعطينا صورة واضحة جداً لحال الكنيسة وهيئتها من الداخل بالنسبة لجميع

الفئات العاملة ودرجاتها الروحية الناشطة فيها هكذا:

+ «فوضع الله أناساً في الكنيسة أولاً رسلاً، ثانياً أنبياءَ، ثالثاً معلمين ثم قوات، وبعد ذلك مواهب شفاء، أعواناً تدابير وأنواع ألسنة.» (١كو١٢: ٢٨)

وبسبب وجود هذا النشاط الروحي المكثَّف من الشعب وبالشعب كانت حاجة الكنيسة آنئذ إلى شيء واحد فقط هو التنظيم والربط بين المواهب للاستفادة الصحيحة، والردع للخارجين عن التعليم الصحيح، والضبط والربط، حتى لا يفلت زمام الخدمة. أما الخدمة بحد ذاتها، فكان الشعب يخدم بالروح مباشرة وتنتقل المواهب بينهم بسرعة وبلا وسيط. ولكن لم تَدُمْ هذه الحالة إلاَّ لزمن محدود يسمى في التاريخ الكنسي بزمن الأنبياء، وهو الذي يلي زمن الرسل مباشرة قبل أن يستقر في يد الأساقفة والإكليروس. ولكن ظلت المواهب تعمل في الكنيسة في وسط الشعب إلى زمن ليس بقليل.

ومعروفٌ أن قيام الأنبياء في الكنيسة ظهر منذ يوم الخمسين عندما حلَّ الروح القدس على جميع الحاضرين (١٢٠ نفساً)، وقد أعطى الله الأنبياء كل مواهب الرسل في الإعلان عن المسيح بالروح:

+ «الذي في أجيال أُخر لم يُعرَّف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرسله القديسين **وأنبيائه** بالروح.» (أف٣: ٥)

+ «مبنيِّين على أساس الرسل **والأنبياء**، ويسوع المسيح نفسه حجر الزاوية.» (أف٢: ٢٠)

صورة الكنيسة الروحية في ذهن بولس الرسول:

+ «... كيف يجب أن تتصرف في بيت الله οἴκῳ θεοῦ الذي هو كنيسة الله الحي عمود الحق وقاعدته.» (١تي٣: ١٥)

الكنيسة هنا هي كنيسة الله الحي، هي عائلته. فالبيت هنا لا يأتي إطلاقاً بمعنى البناء المادي، حيث عمود الحق هو المسيح الذي يحمل الكنيسة ككلٍّ. والقاعدة هنا هي قاعدة الحق المؤسَّسة على استعلان الآب والابن. والمهم هنا هو كلمة «بيت» فالكنيسة عائلة، أهل بيت الله (أف٢: ١٩) القديسين، عائلة موحَّدة في الرأس. هنا نشعر كيف جمع بولس الرئاسات الكنسية مع الشعب في أُلفة الأسرة الخاضعة لبعضها، والكلُّ خاضع للرأس. وهي تسير معلنةً عن **الحق** الذي فيها، نحو الأبدية، وضد تيارات العالم المعاكِسة، ولن يقوى عليها العالم، فأبواب الجحيم لن تقوى عليها، لأن عمودها الذي يسير بها قاعدته في السماء.

الباب السادس

الحياة المسيحية والأخلاق

عند القديس بولس[١]

---

(١) سبق أن عرضنا أكثر من مرة في الفصول السابقة بعض النواحي من «أخلاقيات بولس الرسول» واتصالها بالموضوعات الأخرى:

أنظر صفحات ١٠٤–١٠٨ «الأخلاقيات عند القديس بولس تنبع من ظهور الرب له».

صفحات ٢٧٣–٢٧٦ «القيم الأخلاقية لسر الفداء».

صفحة ٣٨٣ «البر والأخلاق في المسيحية عند بولس الرسول».

الفصل الأول

الأسس الأُولى للأخلاقيات

عند القديس بولس

بقبول المسيح ربًّا ومُخلِّصاً، بحسب بولس الرسول، ينتهي ناموس موسى(٢) بكل مذَّخراته في الأدب والأخلاق والسلوك. هذا يوجبه الانتقال من ناموس العبودية بوصايا تختص بالمستعبدين للخطايا، إلى ناموس الحرية المختص بأولاد الله.

+ «إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذْتُم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب. الروح نفسه أيضاً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله.» (رو٨: ١٥و١٦)

كان ناموس موسى له روح التأديب ــ من نحو العبيد ــ بالعصيِّ والسوط والرجم بالحجارة حتى الموت، ولكن في المسيح انتهى عهد التأديب وجاء زمان الحب. والمحبة أقوى من الموت.

+ «إذاً قد كان الناموس مؤدِّبنا إلى المسيح، لكي نتبرر بالإيمان. ولكن بعد ما جاء الإيمان، لسنا بعد تحت مؤدِّب، لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع.» (غل٣: ٢٤ــ٢٦)

قانون التأديب بناموس موسى الخاص بعبيد الخطية والأموات فيها، أنشأ بوصاياه الثقيلة عقوبات لا حد لها؛ هذه مزَّقها المسيح على الصليب ليُنْهي عهد العبيد.

+ «إذ محا الصكَّ الذي علينا في الفرائض الذي كان ضدًّا لنا، وقد رفعه من الوسط (ما بين الإنسان والله) مسمِّراً إياه (في جسده) بالصليب (على الصليب).» (كو٢: ١٤)

+ «ونقض حائط السياج المتوسط (القائم بالناموس بين اليهود والأمم)، أي العداوة، مُبطِلاً

---

(٢) حينما يُقال «ناموس موسى» فهذا بالتحديد هو الخمسة الأسفار لموسى فقط وهي الخاصة بالتقنين للخارجين من مصر، ولا يدخل فيه بقية أسفار العهد القديم: يشوع والقضاة والملوك والأنبياء والمزامير.

بجسده ناموس الوصايا في فرائض، لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً.»
(أف ٢: ١٤و١٥)

وهكذا بموت المسيح على الصليب انتهت كل علاقة تربطنا بناموس التأديب الأخلاقي الخاص بالعبيد، عبيد الخطية.

+ «إذاً، يا إخوتي، أنتم أيضاً قد مُتُّم للناموس بجسد المسيح، لكي تصيروا لآخر (لغير الناموس)، للذي قد أُقيم من الأموات لنُثمر لله.» (رو٧:٤)

+ «وأما الآن فقد تحررنا من الناموس، إذ مات الذي كنا مُمسَكين فيه (الجسد العتيق)، حتى نعبد بجِدَّة الروح لا بعتق الحرف.» (رو٧:٦)

إذاً، فالمسيح بموته حررنا من ناموس العبودية والموت، وأصبح علينا أن لا نعيش فيه:
+ «فاثبتوا إذاً في الحرية التي قد حررنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضاً (ثانية) بنير عبودية.» (غل٥:١)

ولكن إلى أي مدى يستمر الإنهاء والاستغناء عن ناموس موسى؟
يقول الكثيرون من الشُرَّاح، بحسب تفكيرهم، إن ناموس موسى شقَّان: شقٌّ ذبائحي احتفالي، وشق أخلاقي، وأن الذي انتهى هو الذبائحي والذي يبقى هو الأخلاقي. ولكن بولس الرسول لا يرى ذلك ولم يقل به، فناموس موسى كلٌّ لا يتجزأ، عاش بحذافيره وانتهى بحذافيره.

لقد انتهى بولس الرسول من ناموس موسى ككلٍّ، يوم أن استُعْلِن له المسيح، وجاهر بذلك علناً بعد مجمع الرسل الأول في أورشليم سنة ٥٠م، وقبل أن يكتب سطراً واحداً في أية رسالة من رسائله، وظل ثابتاً على ما استقر عليه حتى النهاية. وكان ذلك بشهادة وموافقة من الرسل في أورشليم:

+ «حينئذ رأى الرسل والمشايخ مع كل الكنيسة ... وكتبوا بأيديهم هكذا: الرسل والمشايخ والإخوة يهدون سلاماً إلى الإخوة الذين من الأمم ... إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مُقلِّبين أنفسكم وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس، الذين نحن لم نأمرهم، رأينا وقد صرنا بنفس واحدة ... لأنه قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة: أن تمتنعوا عما ذُبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا، التي إن حفظتم أنفسكم منها فنعمّا تفعلون. كونوا معافين.» (أع١٥: ٢٢—٢٩)

ولكن قد خيَّب بولس ظنَّ كل مَنْ تصور أنه حتماً سيضع ناموساً للمسيحية أفضل من الناموس الذي وضعه موسى، على مثاله أو مستمداً منه. هذا لم يخطر حتى على بال بولس الرسول، بل وضع في مقابل الناموس في العهد القديم بجملته نعمة المسيح في العهد الجديد، حيث الناموس الأول قيود والنعمة الجديدة حرية:

+ «فإن الخطية لن تسودكم، لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة.» (رو٦: ١٤)
+ «ولكن قبلما جاء الإيمان، كنا محروسين تحت الناموس مُغْلَقاً علينا.» (غل٣: ٢٣)
+ «ولكن إذ انقدْتُم بالروح، فلستم تحت الناموس.» (غل٥: ١٨)

ولكن النعمة عند بولس الرسول هي «دائرة حكم الله» التي يدخلها البنون، فهي أيضاً ذات التزامات، ولكن يا لها من التزامات! فالقانون الذي يضبطها هو المحبة الإلهية وقيادة الروح القدس والمواهب والعطايا المجانية من عند أبي الأنوار. فالنعمة ناموس، ولكن ناموس الروح لا الحرف؛ وهي قانون، ولكن قانون الحياة وليس الموت. قانون الحياة لحياة فوق الطبيعة، حياة في الله ومعه:

+ «لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئاً ولا الغُرْلة، بل **الخليقة الجديدة**. فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى إسرائيل الله.» (غل٦: ١٥و١٦)

ولكن الخليقة الجديدة، وهي الإنسان الجديد الحائز على حرية البنين لله، لها ناموسها الذي انبثقت منه أي «الصليب»: «احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح» (غل٦: ٢). هنا، عِوَض ثقل الناموس القديم الذي «لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (أع١٥: ١٠)، استبدله بولس الرسول بثقل الصليب، أي البذل الذي هو عمل المحبة. وثقل الصليب سبق أن عبَّر عنه المسيح أنه هيِّن وخفيف إذا قيس بناموس موسى: «احملوا نيري عليكم وتعلَّموا مني ... لأن نيري هيِّن وحِمْلي خفيف.» (مت١١: ٢٩و٣٠)

لأنه وإن كانت النعمة في المسيح قد وهبت الحرية ــ عوض عبودية الناموس ــ ولكنها ليست حرِّية لاستخدام الجسد بل هي حرِّية الروح الذي يعمل ضد الجسد، يخضعه ويقمعه ويستعبده: «فإنكم إنما دُعيتم للحرية، أيها الإخوة. غير أنه لا تصيِّروا الحرية فرصة للجسد، بل بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً.» (غل٥: ١٣)

ضابط الحرية في ناموس المسيح "الضمير":

الضمير عند بولس الرسول هو مركز النبض الروحي، إنه يضخُّ دم المسيح في عروق الإنسان الجديد بالروح الأزلي، روح الحياة في المسيح القادر على التطهير الفعلي. وضمير الإنسان، كل إنسان، هو مستعبد للخطية، والخطية يستحيل أن يتحرر منها الإنسان إلاَّ بالموت. وهكذا كلُّ مَنْ

نـال قوة الموت في موت المسيح، فإنه يكون قد تحرر من الخطية وذاق حرية مجد أولاد الله. والمعمودية تعطي جواز هذه الحرية كصكٍّ تغيير طبيعة وانتقال من حالة العبودية للخطية إلى حالة حرية البنين في المسيح. فالإنسان المسيحي حرٌّ بمقدار تحرُّر ضميره من عبودية الخطية والخوف من الموت.

الضمير في مفهوم بولس الرسول هو **أن يعرف الإنسان نفسه**، على مستوى أن يعرف كيف يدين الإنسان نفسه أخلاقياً، ليس على مستوى الناموس بعد. لأنه على مستوى تتميم وصايا الناموس، يمكن أن يكون الإنسان باراً، بينما على مستوى الإحساس الأُخلاقي نجد أن الضمير يصرخ. وهذه المفارقة الخطيرة بين برّ الناموس الشكلي وبرِّ الحق في الضمير، عانى منها بولس الرسول بشدة، فهو في الوقت الذي يشهد لنفسه أنه كيهودي **قد أكمل البر الذي في الناموس بلا لوم (في٣:٦)**، يعود هو نفسه ويصرخ من جهة الضمير: «ويحي أنا الإنسان الشقي مَنْ ينقذني من جسد هذا الموت.» (رو٧:٢٤)

لذلك استطاع بولس الرسول أن يعطف على الأممي ويكتشف في ضميره ناموساً ممكن أن يتبع الحق: «فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس، هم ناموس لأنفسهم، الذين يُظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم، شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة.» (رو٢: ١٤و١٥)

بهذا ابتدأ عمل الضمير عند بولس الرسول يتضح ليأخذ صورة ذات فعالية في المسيحية، يضبط بها الحرية الموهوبة للإنسان الجديد ليسلك فيها:

+ «أقول الصدق في المسيح، لا أكذب، **وضميري** شاهد لي بالروح القدس.» (رو٩:١)

+ «لأن فخرنا هو هذا **شهادة ضميرنا** ...» (٢كو١:١٢)

وبولس الرسول يجعل الضمير قيِّماً على الوصية عوض الناموس الحرفي ومعلِّميه كتبة وفريسيين:

+ «وأما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر **وضمير صالح** وإيمان بلا رياء.» (١تي١:٥)

+ «هذه الوصية أيها الابن تيموثاوس أستودعُك إياها ... لكي تحارب فيها المحاربة الحسنة ولك إيمان **وضمير صالح**.» (١تي ١٨و١٩)

+ «كذلك يجب أن يكون الشمامسة ... ولهم سر الإيمان **بضمير طاهر**.» (١تي٣: ٨و٩)

هنا شرط إقامة الشماس على الخدمة ينتقل من الامتحان والفحص بواسطة آخرين إلى **شهادة ضمير الشخص نفسه**. بهذا يأخذ ناموس المسيح وخدمته أخطر مراقب وأقدر قاضٍ وأصدق شاهد: ضمير الإنسان!

هنا إدخال الضمير كشاهد على أعمال الإنسان وسلوكه وأخلاقه، يرفع مستوى الناموس الذي يعيش به ويعيش له إلى أعلى الآفاق، فالضمير يستمد وَحيه من الحق الإلهي وروح الكلمة في الإنجيل.

هكذا يبدأ بولس الرسول يتخذ من ضمير المسيحي مراقباً أخلاقياً وسلوكياً يُحْسن الحكم والتصرف، وهو يضعه كأساس للتعامل مع الدولة وخُدَّامها: «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلاَّ من الله، والسلاطين الكائنة هي مُرتَّبة من الله حتى إن مَنْ يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ... لذلك يلزم أن يُخضَع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً **بسبب الضمير.**» (رو١٣: ١ــ٥)

هكذا يرفع بولس الرسول مستوى الضمير كرقيب فوق تصرفات الإنسان فيما يخص العلاقات التي تمس الله وترتيبه ووصاياه. وواضح من الأمثلة السالفة أن بولس الرسول يقرن الضمير بالروح القدس والإيمان، وكأنه عطية جديدة انفتحت على الإنسان بنوال حرية البنوَّة لله. **فالضمير هنا أعلى من الحرية**، وهو رقيب عليها، مع أنه عطيتها الأُولى والكبرى للإنسان الجديد. فالضمير والحرية هما من تكوين الخليقة الجديدة، يسيران معاً على درب الإيمان ــ بقيادة الروح القدس ــ إذا اختلَّ أحدهما، اختل الآخر.

وهكذا يقف ضمير الإنسان الجديد الذي تحرَّر وذاق حرية أولاد الله وتطهَّر بالروح من الأعمال الميتة على مستوى النقاوة التي لا يشوبها زيف الخطية: «... فكم بالحري يكون دم المسيح، الذي بروح أزلي قدَّم نفسه لله بلا عيب، **يطهِّر ضمائركم من أعمال (الخطية)** ميتة لتخدموا الله الحيّ» (عب٩: ١٤)؛ وذلك في مقابل الضمير الذي لا يزال يعيش في عدم إيمان بفكر نجس وأعمال ميتة ولم ينتفع بدم المسيح: «فلهذا السبب وبِّخهم بصرامة لكي يكونوا **أصحَّاء في الإيمان**، لا يُصغون إلى خرافات يهودية ووصايا أناس مرتدين عن الحق. كل شيء طاهر للطاهرين وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً بل قد تنجَّس ذهنهم أيضاً **وضميرهم.**» (تي١: ١٣ــ١٥)

واضح هنا أن الإيمان الصحيح يُطهِّر القلب من أعمال الخطية وتصوراتها وخوفها وعبوديتها، ويعطي للضمير صحة ونقاوة وطهارة، فهو يصلح لأن يكون حَكَماً وقائداً في المسيرة الأخلاقية للحياة المسيحية.

وبولس الرسول يعطينا صورة لضمير شاهد في ملء ناموس النعمة على كل تصرفات الإنسان:

«لأن فخرنا هو هذا **شهادة ضميرنا**، أننا في بساطة وإخلاص الله ــ لا في حكمة جسدية ــ بل في نعمة الله **تصرَّفنا في العالم** ولا سيما من نحوكم.» (٢كو١: ١٢)

ولكن يعود بولس الرسول في موضوع الأكل من الذبائح المقدَّمة للأوثان، ليعطي قانوناً آخر يهيمن على حرية الإنسان وعلى حكم ضميره وهو عثرة الآخرين.

فمهما كانت حريتي في المسيح وطهارة ضميري بحسب الإيمان الصحيح والعلم الصحيح، يلزم أن لا استخدمها بالنسبة للآخرين خاصة لذوي الضمائر الضعيفة نظراً للإيمان الضعيف الذي يتغذى عليه ضمائرهم، وهو يعطي بذلك المثل: أنه ولو كان لي ضمير صالح لإيمان صالح في حرية المعرفة الصحيحة أن ما ذُبح للأوثان هو مجرد لحم لا علاقة له بالوثن والوثن بحد ذاته خرافة، وأنه ممكن أن آكل منه غير فاحص بضميري أشياء مثل هذه، **إلاَّ أنه** لا يصح لي أن آكل من هذا اللحم لا أمام ذلك الذي قدمه لي وهو عالم أنه للوثن لئلا يُحكَم فيَّ أني أوافق الوثن، ولا أمام إنسان ضعيف الضمير ضعيف الإيمان ضعيف المعرفة، يظن أن الذي ذُبح للأوثان محرَّماً، وإلاَّ فإني أُعثره وأجرح ضميره أو أشجِّعه لكي يأكل الحرام بحسب اعتقاده فيتنجَّس ويهلك:

+ «كل ما يُباع في الملحمة كُلُوه غير فاحصين عن شيء **من أجل الضمير**.» (١كو١٠: ٢٥)

+ «ولكن إن قال لكم أحد هذا مذبوح لوثن، فلا تأكلوا من أجل ذاك الذي أعْلَمكم، **والضمير...**،

أقول الضمير، ليس ضميرك أنت بل **ضمير الآخر**، لأنه لماذا يُحكَمُ في حريتي من ضمير آخر.» (١كو١٠: ٢٨و٢٩)

+ «كونوا بلا عثرة **لليهود، ولليونانيين**، ولكنيسة الله.» (١كو١٠: ٣٢)

+ «فلا نحاكم أيضاً بعضنا بعضاً، بل بالحري احكموا بهذا أن لا يوضع للأخ مصدمة أو معثرة.» (رو١٤: ١٣)

+ «فإن كان أخوك بسبب طعامك يُحزَن فلست تسلك بعد حسب المحبة، لا تُهلِك بطعامك ذلك الذي مات المسيح لأجله، فلا يُفْتَرَ على **صلاحكم**.» (رو١٤: ١٥و١٦)

+ «كل الأشياء طاهرة، لكنه شرٌّ للإنسان الذي يأكل بعثرة.

حسنٌ أن لا تأكل لحماً ولا تشرب خمراً ولا شيئاً يصطدم به أخوك أو يعثر أو يضعف،

ألك إيمان (ضمير) فليكن لك بنفسك أمام الله، طوبى لمن لا يدين نفسه في ما يستحسنه،

وأما الذي يرتاب فإن أكل يُدان، لأن ذلك ليس من الإيمان. وكل ما ليس من الإيمان فهو خطية.» (رو١٤: ٢٠ــ٢٣)

في الآية الأخيرة التي من رسالة رومية، يأتي «الإيمان» موضع «الضمير» في رسالة كورنثوس، وكلاهما إفراز للحرية التي وهبها المسيح. وهنا «الذي يرتاب» واضح أنه لم يبلغ إلى ملء الإيمان الذي يبلغ ملء الحرية على أساس المعرفة الصحيحة.

نستطيع أن نخرج من هذا أن بولس الرسول يقيِّم الحرية في المسيح على مرآة الضمير، حيث يرى المؤمن أعماق نفسه على قياس الفداء والبر الذي بالمسيح ومقدار التطهُّر الحادث بالإيمان: «ولم يميِّز (الله) بيننا وبينهم بشيء إذ طهَّر بالإيمان قلوبهم» (أع١٥: ٩)، وبهذا يشعر المؤمن بالمسيح بضمير بلا لوم أمام الله (أف١: ٤).

والحرية التي ينالها المؤمن وإن كانت تجعله حُرًّا من أحكام الآخرين، ولكنها لا تبرِّره أمام الله. فضمير المسيحي لا يزال يغتسل كل يوم ولا يكف عن الاغتسال: «أنسَى ما هو وراء وأمتدُّ إلى ما هو قدام» (في٣: ١٣)، «وأما الروحيُّ فيحكم في كل شيء وهو لا يُحكَمُ فيه من أحد» (١ كو٢: ١٥)؛ «وأما أنا فأقل شيء عندي أن يُحكَمَ فيَّ منكم أو من يوم بشر، بل لست أحكم في نفسي أيضاً، فإني لست أشعر بشيء في ذاتي لكنني لستُ بذلك مبرَّراً.» (١ كو٤: ٣و٤)

فحتى ولو كان شعور الضمير بأنه ليس فيه ما يخالف الله لكن هذا الحكم لا يبرِّره أمام الله.

وبولس الرسول يحذر من أن **الضمير ليس هو الأداة التي تُعرِّفنا ما هي مشيئة الله**، مهما كان الضمير صالحاً، وذلك في القضايا الأخلاقية التي تواجه المؤمن. ولكن وظيفة الضمير أنه يذكِّر الإنسان بقضاء الله وينصحه أن لا يتعدى حدود حريته. **فالضمير محاسب ورقيب، ولكن ليس مصدر إدراك وتقنين.**

كذلك، فعمل الضمير كمراقب ومحاسب على الحرية التي نلناها في المسيح ليس هو صاحب الكلمة الفصل. فكفاءة حُكْمِه محدودة بمحيط إدراكنا لما هو نافع ومناسب ولائق، أما الحكم النهائي فهو لقضاء الله:

+ «فإني لست أشعر بشيء (خطأ) في ذاتي، لكنني لست بذلك مبرَّراً،
ولكن الذي يحكم فيَّ هو الرب،
إذاً لا تحكموا في شيء (فيما يخص الآخرين وضمائرهم) قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام ويُظْهِر آراء القلوب، وحينئذ يكون المدح لكل واحد من الله.»
(١ كو٤: ٤و٥)

إن غاية ما يبلغ إليه بنا الضمير الذي تصفَّى واغتسل بدم المسيح، هو أن لا يلومنا في موقف ما

بمفرده. ولكنه لا يمكن أن يتخطّى إلى كل المواقف. وهو حينما لا يلومنا تجاه موقف ما، فغاية ما نبلغه ليس أن نزداد دالة بل أن تزداد ثقتنا بالله، والكلام هنا للقديس يوحنا: «أيها الأحباء إن لم تَلُمْنَا قلوبنا، فلنا ثقة من نحو الله.» (١يو٣: ٢١)

وهكذا تتبلور قيمة الضمير في السلوك الأخلاقي في المسيحية كونه المرآة الداخلية التي يرى فيها المسيحي حريته في المسيح ويفتخر بها، لا من جهة حرية الفعل الأخلاقي، بل حريته من جهة الإحساس بالحرية من الخطية وبالتالي من الدينونة:

+ «إذاً لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح.» (رو٨: ١)

حيث يكون الضمير الأخلاقي في أوج سعادته.

+ «لأنه إن ظن أحد أنه شيء وهو ليس شيئاً فإنه يغش نفسه، ولكن ليمتحن كل واحد عمله وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط، لا من جهة غيره، لأن كل واحد سيحمل حمل نفسه.» (غل٦: ٣-٥)

ملامح ناموس الحرية في المسيح:

الحرية عند بولس الرسول ليست فعلاً أخلاقياً أو أدبياً بل طبيعة جديدة للإنسان، تحررت من عبودية الخطية والموت. فالخطية قوة، وقوة الخطية ذات سلطان وسيادة واستعباد كما قال المسيح بالحرف الواحد: «كل مَنْ يعمل الخطية، هو عبدٌ للخطية» (يو٨: ٣٤). والتحرير من الخطية يستحيل أن يبلغه الإنسان لا بالفكر ولا بالتصور ولا بالنُسك ولا بكل أنواع العبادة والصلاة. فالإنسان لا يتحرر من الخطية إلاَّ بالموت، والموت وحده هو الذي يحرر الإنسان من الخطية. المسيحي ينال قوة هذا الموت المحرِّر من الخطية بالإيمان، وبقوة سر العماد الذي يحمل قوة الجلجثة وفعل صبغة المسيح بالدم وموته ليتحرر من الخطية كقوة سالبية وطبيعة قاتلة. فهكذا إذ نموت حقاً في سر المعمودية، أي بالشركة في موت المسيح ودفنه ونقوم، فنحن نكون بالحقيقة قد مُتْنا عن الخطية فصرنا أحراراً، وهكذا يتم قول المسيح بالحرف الواحد: «فإن حرَّركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨: ٣٦). هكذا نتخلَّص من قوة الخطية وسلطانها بفعل دم المسيح الإلهي السري الذي يتغلغل كياننا حتى أعماق الضمير: «فكم بالحري يكون دم المسيح (بصبغة المسيح، أي معموديته) ... يطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي.» (عب٩: ١٤)

والحرية المسيحية عند بولس الرسول ليست معياراً فلسفياً كأنها إحدى المُدْركاتِ العقلية، بل هي حالة سعادة حقيقية وفرح، بل وتهليل وترنيم في القلب لا ينقطع، وشكر في كل حين على كل

شيء. فالحرية المسيحية تحمل برهانها فيها الذي يطفح بالبِشْر والمسرة على الدوام وفي أشقِّ الأتعاب والضيقات والاضطهادات. ولا يغيب عن بالنا أن سرَّ هذه السعادة التي ترافق الحرية وتدعِّمها يكمن في رفع ثقل الخطية من فوق الضمير ونوال عربون الحياة الجديدة بالروح، التي هي كلها إفرازات تنبع على الدوام من دم المسيح الذي يسري في عروقنا.

وهكذا أضْفَتْ الحرية في المسيحية، بطبيعتها الفَرِحة السعيدة والمترنمة على الدوام والشاكرة على كل شيء وفي كل حين، أجمل وأبهج صورة للأخلاق البشرية.

وبها ارتفعت مستويات الحياة الإنسانية الجديدة إلى مستوى الخلاص من رَبْقة الخطية، وهذه هي بعينها حياة الطهارة بجمالها وعبيقها العَطِر في شموخ الاستقامة.

لكن حرية أولاد الله ليست تصريحاً مفتوحاً بلا حدود وقيود. فالخروج من تحت عبودية الناموس كسيد قاسٍ لا يرحم، لا يوصلنا إلى حرية شخصية بلا رقيب، لأننا لم ننَلْ الحرية باجتهادنا، بل المسيح أدْخَلَنا فيها، فدخلنا تحت سيادته كسيد رفيق ورحيم ومحبوب:

+ «فإنكم إنما دُعيتم للحرية، أيها الإخوة، غير أنه لا تُصيِّروا الحرية فرصة للجسد ...» (غل ٥: ١٣)

فالمسيح لما رفع بنود ناموس موسى لم يتركنا في فراغ وكأنه لا ناموسَ أخلاقياً لنا؛ بل كان واضحاً أنه هو قد صار لنا المعلِّم والسيد عِوَض الناموس. فإن كان الناموس مُعلِّماً، فقد كان هو المعلم والسجَّان معاً؛ أما المسيح فقد أطلق سراح المسجونين ثم جلس يعلِّمهم كأحرار. فبدلاً من الناموس الذي قال: «عينٌ بعين، وسنٌّ بسنٍّ»، جاء المسيح يقول: «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مُبْغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم.» (مت ٥: ٤٤)

وهكذا ظل المسيح يفنِّد حرفيات الناموس الذي يتعامل مع الأعمال الظاهرية للإنسان، بناموس أرقى وأكثر شمولية يتعامل مع الضمير من داخل النفس على أسس مَنْ تحرروا فعلاً من عبودية الخطية والموت.

فإذا لمحنا هذا الناموس الجديد لهذا السيد المبارك من جهة سموِّه الأخلاقي، أدركنا معنى قول المسيح: «لا تظنوا أني جئتُ لأنقضَ الناموس أو الأنبياء. ما جئتُ لأنقض بل لأُكمِّل οὐκ ἦλθον καταλῦσαι ἀλλὰ πληρῶσαι.» (مت ٥: ١٧)

إذاً، فقد أرسى المسيح ناموساً آخر يتعامل لا بالحرف بل بالروح مع ضمير الإنسان، ومن الداخل على مستوى أعلى وأكمل وأشمل. هذا الناموس أسْمَاه بولس الرسول بناموس النعمة —

ناموس المسيح ـ لأن الإنسان الجديد الذي خلقه المسيح بموته وقيامته لم يَعُدْ يُحكم جسدياً، بل بالروح من الداخل حيث تقوده النعمة وترشده، تعنِّفه وتدينه، تلقيه على تراب التوبة وتقيمه جديداً مجدداً: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو٨: ١٤)، «فإن الخطية لن تسودكم لأنكم لستم تحت الناموس بل تحت النعمة.» (رو٦: ١٤)

هكذا يتضح أن ناموس الحرية لأولاد الله الذي تصنعه النعمة وتحكم به، تدين للتوبة وتُبرِّيء للمجد؛ فليس هو امتداداً لناموس موسى، ولا هو مأخوذ منه، ولا هو حتى من طبيعته، بل إنه لا يمتُّ إليه بصلة على الإطلاق. فذاك ناموس يقتل وهذا ناموس يُحْيي؛ ذاك يتعامل مع الجسد وهذا مع الروح.

وبولس الرسول يطلق حدود ناموس حرية أولاد الله حتى لا تكاد تحصره تحت فكر أو بند:

+ « أخيراً أيها الإخوة: كل ما هو حق، كل ما هو جليل، كل ما هو عادل،
كل ما هو طاهر، كل ما هو مُسِرٌّ، كل ما صيته حسن،
إن كانت فضيلة، وإن كان مدح، ففي هذه افتكروا.» (في٤: ٨)

ثم يعود بولس ويضع منهج الهيكل العام لهذا الناموس الذي تقوده النعمة وتحكمه في الضمير، بأن يكون التعليم الذي سلَّمه إليهم هو مرجعهم النهائي باعتباره إنجيله الذي استعلنه من المسيح مباشرة: «وما تعلمتموه وتسلمتموه، وسمعتموه، ورأيتموه فيَّ، فهذا افعلوا. وإله السلام يكون معكم.» (في٤: ٩)

هنا بولس الرسول يرسي قاعدة التقليد الأخلاقي الكنسي الذي سلَّمه للكنيسة والذي على الكنيسة أن تُسلِّمه للأجيال دون انحراف أو نشاز. وهذا ما تم وصار.

الخضوع الحرّ لناموس حرية أولاد الله:

منذ أن قَبِلَ المسيحي الإيمان واعتمد للمسيح وخرج إنساناً جديداً روحياً، صارت طاعته لمن خلّصه وفداه ضرورة حتمية ليقوده المسيح في طريق النور والخلود. ولكنها ضرورة تُحتِّمها فرحة الإنسان بخلاصه. هو التزام النفس الجديدة للروح الذي نفخ فيها الحياة: «إلى مَنْ نذهب، كلام الحياة الأبدية عندك.» (يو٦: ٦٨)

+ «ألستم تعلمون أن الذي تقدمون ذواتكم له عبيداً للطاعة، أنتم عبيد للذي تطيعونه، إما للخطية للموت أو للطاعة للبر. فشكراً لله أنكم كنتم عبيداً للخطية ولكنكم أطعْتُم من القلب صورة التعليم (الإيمان) التي تسلمتموها. وإذ أُعْتِقْتُم من الخطية صرتم عبيداً للبر...

فلكم ثمركم للقداسة والنهاية حياة أبدية.» (رو٦: ١٦–٢٢)

هنا يحمل الكلام معنى أن الذي نال الحرية للحياة بعد عبودية الخطية والموت صار خاضعاً خضوعاً كلياً ومباشراً لإرادة الله الذي حرره.

وبولس الرسول يربط بين الطاعة الكاملة لله وبين الحرية، منتهى الحرية، التي يدخل بها الإنسان إلى الإيمان بالمسيح ليعتمد ويصطبغ بصبغة المسيح ويصير له خاضعاً طائعاً بل عبداً، ولكن من مركز الحرية التي دخل بها، وإزاء الحرية الإرادية التي يدخل بها الإنسان إلى الإيمان ليصير عبداً للمسيح بإرادته، يعطيه المسيح حرية أولاد الله ويُلْبسه زيَّ الجندي السمائي ويسلِّمه أسلحة المحاربة بالروح ضد قوات الظلمة لهذا العالم، ليدافع عن حريته العليا ويدوم فيها بالروح:

+ «فاشترك أنت في احتمال المشقَّات، **كجندي** صالح ليسوع المسيح. ليس أحد وهو **يتجنَّد** يرتبك بأعمال الحياة (بل يجاهد) لكي يُرْضي مَنْ جنَّده. وأيضاً إنْ كان أحد يجاهد، لا يكلَّل إنْ لم يجاهد قانونياً.» (٢تي٢: ٣–٥)

+ «ولكنني حسبتُ من اللازم أن أرسل إليكم أبَفْرودِتُس أخي والعامل معي **والمتجنِّد** معي ...» (في٢: ٢٥)

+ «... وأرخبُّس **المتجند** معنا وإلى الكنيسة التي في بيتك.» (فل٢)

أسلحة الدفاع الأخلاقي:

وإن كانت **الجندية** هي أشرف مهنة لدى بولس الرسول ليصوِّرها كرتبة روحية تخدم المسيح المدعو قديماً «رئيس جند الرب»، فأسلحة الجندية السماوية هي المنوط بها الدفاع عن الحرية الأخلاقية اللائقة بالمواطن السمائي. وقد اقتبس بولس الرسول فكرتها من إشعياء النبي حينما كان يصف المسيح وهو متجند للخلاص (إش٥٩: ١٦و١٧):

+ «وأما نحن الذين من نهار فلْنصْحُ **لابسين درع الإيمان والمحبة، وخوذة هي رجاء الخلاص** ...» (١تس٥: ٨)

+ «**البسوا سلاح الله الكامل**، لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس. فإن مصارعتنا (الأخلاقية) ليست مع دم ولحم بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات. من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تقاوموا (أخلاقياً) في اليوم الشرير، وبعد أن تتمموا كل شيء أن تثبتوا، فاثبتوا ممنطقين أحقاءكم بالحق،

ولابسين درع البر،

وحاذين (يلبس الحذاء) أرجلكم باستعداد (البشارة) إنجيل السلام،
حاملين فوق الكل ترس الإيمان الذي به تقدرون أن تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة،
وخذوا خوذة الخلاص،
وسيف الروح الذي هو كلمة الله،
مُصلّين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح،
وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبة لأجل جميع القديسين.» (أف٦: ١١—١٨)

ونلخص هذه الأسلحة في ستة أنواع:

١ ــ **حزام الوسط** (منطقة على الحقوين) الذي يُعلّق فيه السيف الذي يرمز إلى **الحق**:
«ويكون البرُّ مِنْطَقَةَ مَتْنَيه، والأمانة (الصدق والحق) مِنْطَقة حَقْوَيه.» (إش١١: ٥)
هذا السلاح «**الحق**» من أهم أسلحة المحاربة الخلقية (للبر) الذي به يُميِّز المسيحي ويُفرِزُ حيل الكذاب وأبي كل كذاب.

٢ ــ **درع البر**: θώραξ ، «البرُّ» هنا يعني مجمل الفضائل اللازمة لحماية القلب والضمير مركز الحياة الأدبية:
«فرأى أنه ليس إنسان، وتحيَّر من أنه ليس شفيع فخلَّصَتْ ذراعه لنفسه، وبرُّه هو عضده،
فلبس البرَّ كدرع، وخوذة الخلاص على رأسه ولبس ثياب الانتقام كلباس واكتسى بالغيرة كرداء.» (إش٥٩: ١٦و١٧)

٣ ــ **الحذاء** (الصندل ــ النعلين)، وهو خفيف ومُحْكَم على القدم تعبيراً عن الهمة والاستعداد السريع للسفر.

٤ ــ **ترس الإيمان**: θυρεός وهو الترس العريض (٤ قدم × ٢٫٥ قدم)، مصنوع من البرونز ومُغطّى بالجلد، وهو الحامي من ضرب السهام وحد السيف، وهو يحمي الجسم كله ما عدا الساقين.

٥ ــ **خوذة الخلاص**: περικεφαλαία (إش٥٩: ١٧) رمز الخلاص أو رجاء الخلاص ليحمي العقل من صواعق الأفكار التي يقذفها العدو من فوق الإنسان وأعلى من تصوره. فرأس الإنسان هدف مكشوف للعدو وأول مكان يلقي فيه سمومه.

٦ – **سيف الروح:** μάχαιρα قوة الله المذخرة في كلمته، وهو ليس السيف الطويل ξίφος ذا الحدّ الواحد، ولكنه السيف القصير العريض ذو الحدين. وهو الفعّال في مصادمة الهجوم الذي ينطوي على الغش والباطل والخداع؛ حيث بالكلمة الفاحصة الكاشفة بقوة الروح تتعرّى حيل العدو وتَبْطل.

بولس الرسول كان يعيش بإحساس من تجنَّد بالحق في خدمة جيش الخلاص تحت إمرة رئيس جند الرب: «أنا الله القدير – إيل شدَّاي» (تك١٧: ١)، وقد وقف رافعاً يده نحو السماء مؤدياً القَسَم أن يكون أميناً على حياة سيده وخدمته، رافعاً راية الخلاص حتى يقع ميتاً في ساحة الفداء. فكانت صور الحرب والنزال مع العدو المختفي لا تفارق فكره:

+ «من **تجنَّد** قط بنفقة نفسه؟» (١كو٩: ٧)

فكان يستلم قوته وثباته وإيمانه وفرحه وصبره من يد الرب يوماً فيوماً:

+ «في كلام الحق، في قوة الله **بسلاح البرِّ** لليمين ولليسار.» (٢كو٦: ٧)
+ «لأننا وإن كنا نسلك في الجسد، لسنا حسب الجسد **نحارب. إذ أسلحة** محاربتنا ليست جسدية بل قادرة بالله على **هَدْم حصون**، هادمين ظنوناً وكل عُلْو يرتفع ضد معرفة الله، **ومستأسرين** كل فكر إلى طاعة المسيح، ومستعدين لأن ننتقم على كل عصيان متى كملت طاعتكم.» (٢كو١٠: ٣–٦)
+ «**سلبتُ** كنائس أخرى آخذاً أجرة لأجل خدمتكم.» (٢كو١١: ٨)
+ «ولا تقدِّموا أعضاءكم **آلات** إثم للخطية، بل قدِّموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات، وأعضاءكم **آلات** بر لله.» (رو٦: ١٣)
+ «قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس **أسلحة النور.**» (رو١٣: ١٢)
+ «إذ لكم **الجهاد** عينه الذي رأيتموه فيَّ والآن **تسمعون فيَّ.**» (في١: ٣٠)
+ «... أُرسِلُ إليكم أبفرودِتُس أخي والعامل معي **والمتجنِّد معي.**» (في٢: ٢٥)
+ «الأمر الذي لأجله أتعب أيضاً **مجاهداً** بحسب عمله الذي يعمل فيَّ بقوة.» (كو١: ٢٩)
+ «فإني أريد أن تعلموا أي جهاد لي لأجلكم ...» (كو٢: ١)
+ «يسلِّم عليكم أرسْترخس **المأسور** (أسر محبة المسيح) معي ...» (كو٤: ١٠)
+ «وأرخبُّس **المتجنِّد** معنا ...» (فل٢)
+ «أبفراس **المأسور** معي في المسيح يسوع.» (فل٢٣)

+ «هذه الوصية أيها الابن تيموثاوس أستودعُك إياها ... لكي **تحارب** فيها **المحاربة** الحسنة.» (١تي١: ١٨)

+ «**جاهد جهاد** الإيمان الحسن وأمسك بالحياة الأبدية.» (١تي٦: ١٢)

+ «فاشترك أنت في احتمال المشقات **كجندي** صالح ليسوع المسيح، ليس أحد وهو **يتجنَّد** يرتبك بأعمال الحياة لكي يرضي مَنْ جنَّده،

وأيضاً إن كان أحد **يجاهد لا يُكلَّلُ إن لم يجاهد** قانونياً.» (٢تي٢: ٣-٥)

+ «قد **جاهدتُ الجهاد** الحسن، أكملتُ السعي، حفظتُ الإيمان، وأخيراً قد وُضِعَ لي إكليل (عقد من الزهور يوضع حول عنق القائد المنتصر الراجع من معمعة الحرب) البرِّ، الذي يَهَبَه لي في ذلك اليوم الرب الديَّان العادل.» (٢تي٤: ٧و٨)

وبهذه الآية الأخيرة يتضح تماماً أن الحياة المسيحية كانت عند بولس الرسول «جهاداً» فَرَضَه علينا العالم بقواته الخفية ومحارباته العلنية والسرِّية، وأن الخطية ـــ كعنصر شرير ـــ لها أسلحتها المدمِّرة، لولا أن الله قد ادَّخر لنا في طبيعتنا الجديدة قدرة على المقاومة المشمولة بالنعمة والمؤمنة بالنصرة، وسلَّمنا بالروح القدس أسلحة أقواها وأمضاها كلمة الله: «اذهب يا شيطان لأنه مكتوب ...» (لو٤: ٨)، «قاوموا إبليس فيهرب منكم.» (يع٤: ٧)

والمتجنِّد للمسيح لا يعود مِلْكاً لنفسه، وهو مُنفِّذ لإرادة سيده لأن منها مسيرته وحياته ونصرته: «ولا تشاكلوا هذا الدهر بل تغيَّروا عن شكلكم **بتجديد أذهانكم (بالكلمة)، لتختبروا ما هي إرادة الله الصالحة المرضيَّة الكاملة.**» (رو١٢: ٢)

ذخيرة الكنيسة من تعاليم الرسل الأخلاقية:

الديداخي: διδασκαλία أو διδαχή وهو كتاب تعاليم الرسل بأجزائه المختلفة، والمتحقق تاريخياً، فيه تعليم الأخلاق والسلوك «كاتيشِزمْ Catechism»، وهو منسَّق، ومنضبط. ونحن نقرأ عن أصوله الأولى هكذا:

+ «لذلك أرسلتُ إليكم تيموثاوس الذي هو ابني الحبيب والأمين في الرب الذي يذكِّركم **بطُرُقي في المسيح، كما أُعلِّم** διδάσκω **في كل مكان،** في كل كنيسة.»

(١كو٤: ١٧)

ولدينا صور مبدعة عن أحوال المبتدئين الداخلين إلى المعمودية، كيف كانوا يُلقَّنون أصول الأخلاق المسيحية بأصالة وبصفة رسمية وهيبة قبل أن ينالوا نعمة التجديد.

فيقص علينا التاريخ المنحدر من العصور الأولى على يد «بليني الصغير»[3] سنة ١١٢م، مسجِّلاً أن المسيحيين (غالباً الداخلين إلى العماد) كيف يأخذون على أنفسهم عهداً بقَسَم أن لا يقترفوا السرقة أو الاختلاس أو الزنى أو الغش. كما يفيدنا القديس الشهيد يوستين أن الذين قبلوا العماد [هم الذين اقتبلوا حق تعاليمنا وآمنوا بما نؤمن ووضعوا ذواتهم ليحيوا بمقتضاها][4]. كما تفيد الديداخي أن محتويات كتاب «الطريقين»[5] كان يتحتم قراءته للموعوظين قبل عمادهم.

وينقل لنا التقليد أن الرسل كانوا بعد ما يخاطبون الشعب يقولون هكذا: «توبوا واعتمدوا»، وهو نفس ما نقله لنا سفر الأعمال:

+ «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح.» (أع٢:٣٨)؛
+ «فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم.» (أع٣:١٩)؛
+ «فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل.» (أع١٧:٣٠)؛
+ «شاهداً لليهود واليونانيين بالتوبة إلى الله والإيمان الذي بربنا يسوع المسيح.» (أع٢٠:٢١)؛
+ «... أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله عاملين أعمالاً تليق بالتوبة.» (أع٢٦:٢٠)

وقد اهتم الرسل بوضع التعاليم الخاصة **بالتوبة والرجوع عن الأعمال الميتة** كما نقرأ ذلك بوضوح:

+ «لذلك ونحن تاركون كلام بداءة المسيح، لنتقدم إلى الكمال، غير واضعين أيضاً **أساس التوبة من الأعمال الميتة والإيمان بالله.**» (عب٦:١)

وكان يتحتم على الموعوظين الجدد، بعد أن يعتمدوا، أن يبقوا تحت تعاليم الرسل المقولة والمكتوبة: «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل ...» (أع٢:٤٢). وكانت الطاعة المخلصة لتعاليم الرسل حتمية: «ولكنكم أطعتُم من القلب صورة التعليم التي تسلَّمتموها.» (رو٦:١٧)

وكان كل من يخرج على تعاليم الرسل يُفْرَز ولا يُخالَط: «وأطلب إليكم أيها الإخوة أن تلاحظوا الذين يصنعون الشقاقات والعثرات خلافاً للتعليم الذي تعلمتموه، وأعرِضوا عنهم.» (رو١٦:١٧)

---

3. Pliny, *Epist.* X,96, cited by Prat, *op. cit.*, II, p. 35.
4. *Apol.* I,61.
5. *Doct. apostol.* VII,1.

وكانت هذه التعاليم منذ البدء مكتوبة وموجودة في كل كنيسة يُلقَّن فيها المبتدئون، ويُرْجَعُ إليها كمرجع نهائي للقطع بالرأي الصحيح في كل ما يمكن أن يواجهه المبتدىء في الحياة المسيحية. وكان مجمل تعليم الرسل هذا يُسمى «بالطريق» أو «الطريقين» أو «سُبُل الله المستقيمة»:

+ «يا عدو كل برٍّ، ألاَ تزال تُفْسِد **سُبُل الله المستقيمة**» (أع١٣: ١٠)؛

+ «كان هذا خبيراً في **طريق الرب**. وكان وهو حارٌّ بالروح يتكلم ويعلِّم بتدقيق» (أع١٨: ٢٥)؛

+ «هؤلاء الناس هم عبيد الله العليِّ الذين ينادون لكم **بطريق الخلاص**» (أع١٦: ١٧)؛

+ «واضطهدت هذا **الطريق** حتى الموت.» (أع٢٢: ٤)

+ «فلما سمع هذا فيلكس، أمهلهم إذ كان يَعْلَم بأكثر تحقيق **أمور هذا الطريق**.» (أع٢٤: ٢٢)

وقول بولس الرسول في (١كو٤: ١٧): «يذكركم بطُرُقي في المسيح كما أُعلِّم في كل مكان في كل كنيسة»، هنا كلمة «طُرُقي» تحمل بكل تأكيد التعاليم المسيحية الخاصة بالسلوك والتصرف اللائقَيْن بالحياة الجديدة للمؤمنين؛ أو بأكثر وضوح «**المنهج**» الأخلاقي المسيحي. فكلمة «منهج» هي بعينها كلمة «طُرُق» لأن «النهج» هو «الطريق». و «منهج بولس الأخلاقي» واضح أنه مستمد من العقيدة الإيمانية، ومنطبق على المسيح: فكر المسيح، صبر المسيح، احتمال المسيح، محبة المسيح، إيمان المسيح، طهارة المسيح، قداسة المسيح. «كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح» (١كو١١: ١). ومجموعة التعاليم التي أرسلها بولس الرسول مع تيموثاوس إلى كورنثوس هي بعينها التي ترسبت ذخيرة في الكنيسة بعد بولس الرسول وتيموثاوس، كمنهج أخلاقي دخل في صميم التقليد الكنسي للتعليم والتهذيب على مدى الأجيال.

وواضح أن هذا المنهج الأخلاقي أُرسل للكنائس كما يقول بولس الرسول: «**في كل مكان في كل كنيسة**»، وكان هو العامل الأساسي في تنشئة المسيحية على منهج أخلاقي موحَّد. وهذا نسمعه من بولس الرسول وهو يخاطب أهل مدينة روما قبل أن يزورها:

+ «فشكراً لله أنكم كنتم عبيداً للخطية ولكنكم أطَعْتُم من القلب **صورة التعليم التي تسلمتموها**.» (رو٦: ١٧)

وعلينا أن نلاحظ كلمة «صورة» Type فهي تفيد طابعاً أخلاقياً مميَّزاً واضحاً محدداً لا اجتهاد فيه ولا مزايدة، بل أُخذ مأخذ الإنجيل!

وبولس الرسول كان يتشدد جداً في الحفاظ على حدود التعاليم الأخلاقية التي سلمها للكنائس في كل مكان ويقطع بعزل وعدم مخالطة كل من يخرج عن حدودها:

+ «ثم نوصيكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخ يسلك بلا ترتيب وليس حسب التعليم الذي أخذه منا، إذ أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثَّل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم.» (٢تس٣: ٦و٧)

+ «وأطلب إليكم أيها الإخوة أن تلاحظوا الذين يصنعون الشقاقات والعثرات خلافاً للتعليم الذي تعلمتموه وأعرضوا عنهم.» (رو١٦: ١٧)

وكل الكلمات المتداولة في الكنيسة اليوم الخاصة بهذا التعليم الأخلاقي صادرة أصلاً من بولس الرسول: **الطريق، التقليد، التعليم، صورة التعليم، الديداسكاليا،** وحتى كلمة «كاتِشِزم Catechism» وإنما في صورة اسم الفاعل هكذا: «ولكن ليشارك الذي يتعلَّم [κατηχούμενος = كاتيشومينوس] الكلمة (مع) الذي يُعلِّم [κατηχοῦντι = كاتيشونتي] في جميع الخيرات.» (غل٦: ٦)

هذه الاصطلاحات كلها من قلم بولس الرسول وروحه، وظلَّت حية إلى اليوم في الكنائس التقليدية.

وهكذا انطبعت إرادة الله الآب كما تممها وعلَّم بها الابن جهاراً، وحملها الرسل سفراء عن المسيح: «نسعى كسفراء عن المسيح» (٢كو٥: ٢٠)، وبثُّوها شفاهاً وكتابة في قلوب المؤمنين وأفكارهم بل سلوكهم وحياتهم، وتناقلتها الأجيال. بهذا اليقين والتحديد بخصوص الأصل الذي عنه أخذ الرسل وعلَّموا، يقول بولس الرسول: «هادمين ظنوناً وكل عُلو يرتفع ضد معرفة الله، ومستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح.» (٢كو١٠: ٥)

وهكذا استلم المؤمنون الجدد تعاليم أخلاقية وروحية ثابتة الأصل والمنهج.

كان بولس الرسول يعتبر أن الدعوة إلى الإيمان بالمسيح لها حقوق، لها أصول، لها واجبات، لها قوانين متعارف عليها ويلزم أن يَخضَعَ لها مَنْ يدخل الدعوة ويطيعها ليأخذ استحقاقاتها. وبولس يعبِّر عن **حق الدعوة واستحقاقها بوضوح** ويعدِّد حقها وواجباتها بحسب روح الدعوة والداعي، باعتبارها استحقاقات «أكسيوس»:

+ «فأطلب إليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا **كما يحق** (كاستحقاق) للدعوة التي دُعيتم بها ἀξίως τῆς κλήσεως ἧς ἐκλήθητε بكل تواضع ووداعة وبطول أناة محتملين بعضكم بعضاً في المحبة، مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام.» (أف٤: ١-٣)

هذا هو حق الدعوة. كذلك توجد حقوق تستند إلى حق الداعي لهذه الدعوة:

كما يحق للقديسين: «كي تقبلوها في الرب **كما يحق** (استحقاق) **للقديسين**.»
ἀξίως τῶν ἁγίων (رو١٦: ٢)

كما يحق للإنجيل: «فقط "عيشوا" **كما يحق (استحقاق) لإنجيل المسيح**.»
ἀξίως τοῦ εὐαγγελίου (في١: ٢٧)

كما يحق للرب: «"لتسلكوا" كما يحق للرب (استحقاق).»
ἀξίως τοῦ Κυρίου (كو١: ١٠)

كما يحق لله: «ونشهدكم لكي "تسلكوا" كما يحق (استحقاق) لله.»
ἀξίως τοῦ Θεοῦ (١تس٢: ١٢)

وهكذا تكون الدعوة المسيحية عند بولس الرسول سلوكاً محصوراً في إطار استحقاقات تجعلها ذات أصول وواجبات، وذات عطايا ومواهب بآن واحد. لا كأنها ضغوط وأحمال، ولكن باعتبارها أيضاً منافذ لقبول حق النور وحق القوة وحق الحياة. فحق القديسين يعطي استحقاق شركة في الكنيسة، وحق الإنجيل يعطي استحقاق بشارة الفرح، وحق الرب يعطي استحقاق النور، وحق الله يعطي استحقاق الحياة. فالسلوك في المسيحية أخذٌ وعطاء بآن واحد، بلغ منتهى نضجه على أيدي الرسل، وانحدر إلينا شفاهاً، ولا يزال مسجَّلاً في الكنيسة حتى اليوم من داخل كتاب تعاليم الرسل ورسالة برنابا.

الفصل الثاني

بداية قبول الدعوة المسيحية

التجديد بالمعمودية

قد يتطرق إلى الذهن أن الدعوة المسيحية ذات أثقال، على غرار أثقال الناموس. ولكن الحقيقة هي العكس. فالمسيح نفسه دحض مثل أي تصور من هذا القبيل حينما قال لمتعوبي اليهود وحاملي أثقال الناموس: «تعالوا إليَّ يا جميع المُتعَبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم وتعلموا مني ... لأن نيري هيِّن وحِملي خفيف» (مت١١: ٢٨–٣٠). وهنا المسيح يضع المسيحية مقابل اليهودية وجهاً لوجه. فعماد المسيحية منذ اللحظة الأُولى يقوم على حلول الروح القدس، والروح القدس يَحْمِل الإنسان حملاً كما على أجنحة النعمة.

الروح القدس كعنصر أساسي في المنهج الأخلاقي لا يتطلب أكثر من الطاعة لصوته الداخلي لكي يقدم عمله المجاني ومؤازرته الفائقة للطبيعة. فالمسيحي بمجرد أن يقبل العماد ويستنشق الروح القدس، يدخل في غنى قانون النعمة أو ناموسها المؤازر المجاني، لا نقول «يدخل تحت قانون النعمة»، فقانون النعمة ليس — كناموس موسى — ثقلاً يوضع كنير على رقبة اليهودي، ولكنه حياة جديدة يدخلها المعمَّد أو تدخل هي إليه، تماماً كما يولد الإنسان من أُمّه حاملاً حياة الجسد بكل ما لها وعليها. هكذا يولد المسيحي من الماء والروح، يولد لحياة جديدة بالروح. فليست حياة المسيحي هي حياة محسَّنة لحياته الأُولى، ولا هي على مستوى التغير أو التجلي أو التجديد للحياة الأُولى، ولكنها **حياة أخرى** تماماً، مختلفة كل الاختلاف عن حياته الأُولى في مصدرها، فهي من فوق من السماء؛ وفي منهجها، فهي سيرة سماوية مكتوبة في السموات؛ وفي غايتها ونهايتها، فهي لله ومع الله تكون. وبكلمة واحدة واضحة هي **خليقة جديدة**:

+ « إذاً إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة،

الأشياء العتيقة قد مضت،

هوذا الكل قد صار جديداً، ولكن الكل من الله.» (٢ كو٥: ١٧و١٨)

وهكذا يدخل المسيحي في **حقوق جديدة، وواجبات جديدة** من واقع الحياة الجديدة:

+ «أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته، فدُفِنَّا معه بالمعمودية للموت. حتى كما أُقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة، لأنه إن كنا قد صرنا متحدين معه بشبه موته نصير أيضاً بقيامته. عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صُلب معه ليبطل جسد الخطية.» (رو٦: ٣-٦)

هنا المعمودية تعطي حق الميلاد الجديد كخليقة جديدة سماوية إلهية مع المسيح وفيه:

+ تعطينا قوة الموت عن حياتنا السالفة بأخطائها وخطاياها وجسدنا الذي مات بالخطية بالاشتراك الفعلي في قوة موت الرب.

+ تعطينا قوة قيامة الرب، كحياة جديدة تماماً، لا علاقة لها بالحياة السالفة بالاتحاد في جسد المسيح السري القائم من الأموات.

+ تُلبسنا النعمة التي لحياة السمائيين، لنسلك «في جِدَّة الحياة».

واضح هنا أن السلوك الأخلاقي في جِدّة الحياة ليس مستمداً من إمكانيات الإنسان الأُولى لحياته الأُولى بجسده العتيق الأول. ولكن يستمد واجباته وقوته على التنفيذ من النعمة والروح القدس الذي صار «روح الحياة (الجديدة) في المسيح يسوع.» (رو٨: ٢)

إذاً، فالسلوك الأخلاقي في الحياة الجديدة في المسيح يسوع ليس ثقلاً بعد مُلقى على عاتق إمكانيات الإنسان الأُولى الجسدية الضعيفة والمريضة بالخطايا، بل مُلقى على الروح والنعمة ولا يتطلب من الإرادة البشرية إلاَّ الخضوع والطاعة.

إذاً، في المنهج الأخلاقي المسيحي يلزم جداً أن يتعرف الإنسان المسيحي ماذا صار له بالمعمودية فيتعرف على إمكانياته الجديدة وواجباته الجديدة والعوامل الجديدة التي يتكل عليها ويستخدمها في جهاده اليومي. فالمعمودية هي في حقيقتها **صَكُّ ميراث سماوي** يحوي حقوقاً جديدة فوق إمكانية الإنسان، ليسلك بها كإنسان جديد روحي يسعى نحو ميراثه المحفوظ له في السماويات.

ولكن صَكَّ الميراث السماوي ببنوده وحقوقه ـــ في المعمودية ـــ المنصوص عنها في الإنجيل والرسائل، ليست سوى الحروف الأُولى من الصكِّ الكامل ومن البنود العجيبة فيه. فبمجرد أن يبدأ المسيحي في العمل، تبدأ الحياة الجديدة تلقِّن الإنسان أسرار الحياة الأخرى غير المكتوبة وتستعلن له

الإمكانيات التي تفوق تصوُّر الإنسان، ليجاهد فيدوس الخطية والجسد والشهوات ويغلب، وحتماً سيغلب لأن المسيح غلب:

+ «فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض: الزنا، النجاسة، الهوى، الشهوة الردية، الطمع ... فاطرحوا عنكم أنتم أيضاً الكل: الغضب، السخط، الخبث، التجديف، الكلام القبيح من أفواهكم. لا تكذبوا بعضكم على بعض إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله (بالمعمودية) ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه (بالمعمودية)، حيث ... المسيح الكل في الكل.» (كو٣: ٥-١١)

على أن الحقوق الفائقة التي يعطيها صكُّ ميراث المعمودية كختم على الجسد يحمل عربون العطية بالكامل. فمثلاً عن المعمودية يقول بولس الرسول إننا نلبس المسيح «كحقٍّ» من حقوق المعمودية: «لأن كلكم الذين **اعتمدتم** بالمسيح قد **لبستم المسيح**» (غل٣:٢٧). ولكن هذا الحق كعربون يحتاج إلى تحقيق عملي في الحياة كل يوم وكل ساعة:

+ «قد تناهى الليل وتقارب النهار، فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور. لنسلك بلياقة كما في النهار. لا بالبَطَر (تهييص وعربدة κῶμοις) والسُّكر، لا بالمضاجع والعَهَر، لا بالخصام والحسد؛ بل البسوا الرب يسوع المسيح. ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات.» (رو١٣: ١٢-١٤)

من هذا نفهم تماماً أن المعمودية تعطي حقوقاً وقوة بصورة مبدئية إنما قابلة للزيادة والامتداد. فكلما تمسك المسيحي بحقِّه في المسيح امتد إلى حقوق أكثر، لأن الحياة الجديدة ممتدة لا نهاية لها.

فالمطلوب من المسيحي - وخاصةً من الداخلين في نور المسيح أو التائبين الراجعين إليه - أن يتعمق في معرفة الرب سواء بالإنجيل أو الصلاة أو السهر أو القراءة بكل اهتمام، ليدرك المسيحي غِنَى ميراثه: القوة المدَّخرة له:

+ «لا أزال شاكراً لأجلكم (مسيحيين جدد)، ذاكراً إياكم في صلواتي، كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين، وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته.» (أف١: ١٦-١٩)

العلاقات بالأقانيم الثلاثة التي يخرج بها المسيحي من المعمودية، لتقوِّم منهجه الأخلاقي:

قول الرب: «عمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» (مت٢٨: ١٩) يحمل في الحال للمولود الجديد من الماء والروح علاقة مباشرة فريدة وأصيلة وشخصية مع الله الآب والابن والروح القدس بكل معنى الشخصية.

فالله الآب: يعطي أبوَّته، فيصير التبنِّي، ويدخل المسيحي الجديد في عهد البنين.

والابن: يعطي ذاته جسداً ودماً وروحاً، فيصير المسيحي عضواً في جسده السري، وارثاً مع المسيح لله.

والروح القدس: يعطي وجوده، ليقدِّس هيكلنا لله والمسيح. ينطق فينا باسم الله كأب: «يا أبا الآب»، ويأخذ مما للمسيح ويخبر ويعطي.

لذلك، فالمنهج الأخلاقي في المسيحية قائم على علاقات وثيقة مع الله كأب، ومع المسيح كمخلِّص، ومع الروح القدس كمقدِّس. على أن أُبوَّة الله ليست مجرد منحة أو اسماً بل علاقة في الصميم:

+ «كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم ... في ذلك اليوم تطلبون باسمي ولست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم، **لأن الآب نفسه يحبكم** لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجتُ.» (يو١٦: ٢٣—٢٧)

كذلك فاتحادنا بالمسيح كعلاقة شخصية متبادلة تصير أساسية وضرورة عملية فوق ما يتصور الإنسان:

+ «لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو١٥: ٥)؛

+ «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني.» (في٤: ١٣)

كذلك الروح القدس يصبح المالك الحقيقي لزمام كل تصرُّف صحيح:

+ «الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله» (رو٨: ١٤)؛
+ «إن كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون» (رو٨: ١٣)؛
+ «كذلك الروح أيضاً يعين ضعفاتنا. لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن **الروح نفسه يشفع فينا بأنَّات لا يُنطَق بها**» (رو٨: ٢٦)؛
+ «وليس أحد يقدر أن يقول يسوعُ ربٌّ إلاَّ بالروح القدس» (١كو١٢: ٣)؛
+ «إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك (أي المسيح) ليس له.» (رو٨: ٩)

كذلك فإن الله الآب تظل عينه ساهرة على مَنْ تبنّاهم لنفسه، ويظل يوعز إلى الروح القدس والمسيح أن يكمّلا مقاصدهما الحميدة في الإنسان الساعي في خوف الله:

+ «بسبب هذا أحني ركبتيّ لدى أبي ربنا يسوع المسيح، الذي منه تُسمَّى كلُّ عشيرةٍ (أبوَّة πατρία) في السموات وعلى الأرض، لكي **يعطيكم** بحسب غنى مجده، أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليحل **المسيح** بالإيمان في قلوبكم.» (أف٣: ١٤—١٧)

+ «كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته ...» (أف١: ١٧)

هكذا أنشأت المعمودية باسم الآب والابن والروح القدس علاقات شخصية وثيقة للإنسان مع الله، تؤمِّن له مسيرته في الحياة الجديدة وسلوكه الأخلاقي.

الفصل الثالث

أخلاق المسيحي تجاه الآخرين

أ ـ المسيحي الفرد والكنيسة ككل تجاه الدولة والرؤساء

المسيحي يولد ثانيةً بالمعمودية ليأخذ مواطنة أخرى سماوية، والمسيحيون يخرجون من المعمودية أحراراً متساوين: «ليس عبدٌ ولا حرٌّ... لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع» (غل٣:٢٨). كل الفوارق تتلاشى في المعمودية، الفوارق العنصرية والاجتماعية وحتى الجنسية، فيصبح الجميع، جميع المسيحيين، متصالحين. والكلُّ يأخذ تبعيته لمسيح واحد: «فاثبتوا إذاً في الحرية التي قد حررنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضاً (ثانية) بنير عبودية» (غل٥:١). المقصود هنا هو عبودية الناموس القديم، ولكن روح الآية تحمل معنى شاملاً لكل عبودية إرادية: «قد اشتُريتُم بثمن، فلا تصيروا **عبيداً للناس.**» (١كو٧:٢٣)

ولكن عقل العامة اتخذ هذا التصريح فرصة لاستخدامه جسدياً وضد الدولة، فعاد كلٌّ من القديس بولس والقديس بطرس وأغلق باب الشطط في التفسير وحكم الحرية تحت مفهومها الروحي الوحيد:

+ «لأن هكذا هي مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتُسكِّتوا جهالة الناس الأغبياء، **كأحرار** وليس كالذين **الحرية عندهم سُتْرةٌ للشر، بل كعبيد الله.**» (١بط٢:١٦)
+ «فإنكم إنما دُعيتم للحرية أيها الإخوة، غير أنه لا تصيِّروا الحرية فرصة للجسد.» (غل٥:١٣)

إن الحرية الروحية والتساوي الروحي الشخصي لدى كل المعمَّدين إنما هما قائمان، باعتبار أن جميعهم لهم نفس الحقوق لدى الله الذي فداهم بابنه يسوع المسيح وعليهم نفس الواجبات لدى الله نفسه كديَّان الأحياء والأموات. فالحرية المسيحية في صميم جوهرها هي حرّية من عبودية الخطية

ومن عبودية الناموس القديم، ولكن لا التساوي ولا الحرية المسيحية يمسان العلاقات الرئاسية في المجتمع أو في الأسرة.

بل وإن الأُخُوَّة المسيحية العامة التي تنشأ بعد المعمودية من وحدة التساوي ووحدة الحرية بقدر ما تنشىء من امتيازات تضع واجبات والتزامات. فالتعاون فَرْضٌ مسيحي، والاحتمال والتسامح فرضٌ على الإخوة، والالتزام بالامتناع عن العثرات: «فلا نحاكم أيضاً بعضنا بعضاً بل بالحري احكموا بهذا أن لا يوضع للأخ مَصْدَمة أو معثرة.» (رو١٤:١٣)

وعلى هذه الحقوق والواجبات بين أحرار متساوين يقوم المجتمع المسيحي.

يقول قايين لله مُنْكراً أنه قتل أخاه هابيل: «أحارسٌ أنا لأخي»؟ (تك٤:٩)

تردُّ المسيحية: «نعم أنت حارسٌ لأخيك»!!

حجر الأساس في منهج العلاقات مع الدولة، وبناء أسس المنهج:

«فقال لهم أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (لو٢٠:٢٥). هي ولا شك المقولة الإلهية التي قالها الرب للذين بادروه ليختبروا حَيْدته بين الدين والدولة، فأطلقها قولة مُدوِّية حفرت حروفها على فكر كل من وقعت على أسماعه، وتداولها جميع الناس في العالم طرًّا، قولة عاد بولس الرسول وشرحها هكذا:

+ «لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلاّ من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله. حتى إن مَنْ يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة. فإن الحكام ليسوا خوفاً للأعمال الصالحة بل للشريرة.

أفتريد أن لا تخاف السلطان: افعل الصلاح فيكون لك مدح منه، لأنه خادم الله للصلاح. ولكن إن فعلت الشرَّ فخَفْ، لأنه لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذي يفعل الشر. لذلك يلزم أن يُخضَعَ له، ليس بسبب الغضب فقط بل أيضاً بسبب الضمير. فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً، إذ هم خدّام الله مواظبون على ذلك بعينه. فأعطوا الجميع حقوقهم الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية. والخوف لمن له الخوف والإكرام لمن له الإكرام.» (رو١٣: ١–٧)

هذا المنهج المسيحي السياسي يقوم على ركائزَ ثلاث:

١ — كل السلطان السياسي للدولة هو من الله، كمبدأ عقيدي.

٢ — بالواقع والممارسة، كلُّ قوة الدولة هي من الله.

٣ — والدولة تمارس سلطانها باسم الله.

هذا مهما كان شكل الدولة أو دين رؤسائها.

وبولس الرسول ينظر إلى شخص السلطان ـــ مهما كان دينه ـــ باعتباره «خادم الله» تعيَّن لخدمة المجتمع، سواء للصلاح والمدح لمن يعملون الصلاح، أو للغضب والتخويف واستلال السيف لمن يعملون ما يستحق الغضب. وهو يعمل هذا وذلك باسم الله. لذلك ليس الخوف خوفاً من الغضب أو نيلاً للمديح فقط هما هدف طاعة المسيحي للسلطان، بل من أجل الضمير، لأن السلطان يعمل باسم الله.

كذلك دفع الضرائب هو أيضاً من عمل الضمير، لأن السلطان يطلب ذلك كخادم لله من أجل عمل الصلاح.

وهكذا ينتهي بولس الرسول بآية واحدة تحكم المنهج كله: «فأعطوا الجميع حقوقهم ...» التي منها يتضح أنه لا يعطي مجرد مشورة بل **أمراً مُلزماً**.

وهنا يهمنا أن نوضح أن بولس الرسول يتكلم عن حكومة نيرون وسلطانه وأعوانه. ويلزم أيضاً أن نعرف أن حكومة روما في هذا الوقت وفي أيام نيرون كان يضطلع بمهامها الحكماء والفلاسفة المشهورون! وكان نظام حكومتها، وقضاؤها، يقومان على أسس العدالة والحرية والنظام. وبنظرة واحدة إلى القانون الروماني للعارفين بالقانون يتضح صدق هذا الكلام. ولكن هذا لا يعفي من قيام الفساد الشخصي، خاصة عند الأطراف البعيدة عن المركز الرئيسي في روما، أو حتى القيصر نفسه كنيرون.

ويلزم أن ندرك أن بولس الرسول يتكلم عن معرفة دقيقة ومن واقع وخبرة، فكل أيامه كانت سجوناً ومحاكمات ومثولاً أمام ولاة وملوك والقيصر نفسه. وقد جاز القديس بولس المحاكمات وأدرك دقة القانون الروماني، والتجأ أحياناً إلى التمسك بنصوصه، فاستخلص حقَّه بلا جدال.

ولكن وحتى في الأحوال التي كانت السلطات منقلبة على الكنيسة، لم تغيِّر الكنيسة من منهجها السياسي الخاص بالمعاملات مع الدولة، بل بقيت ملتزمة بخضوعها وأمانتها كما لله!!

ولا يمكن أن ننسى أبداً رسالة بولس الرسول التي كتبها في سجنه الأخير في روما قبل وقوعه تحت حد سيف نيرون الظالم بأسابيع، يحث فيها تيطس على الولاء للدولة:

+ «ذكِّرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح، ولا يطعنوا في أحد، ويكونوا غير مخاصمين، حُلماء، مُظهرين كل وداعة لجميع الناس.» (تي٣: ١و٢)

ونفس هذا المنهج التعليمي الفائق الوطنية والأصالة والإخلاص للدولة نقرأه تماماً لبطرس الرسول:

+ «فاخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب. إن كان للملك فكمن هو فوق الكل، أو للولاة فكمُرسَلين منه للانتقام من فاعلي الشر وللمدح لفاعلي الخير. لأن هكذا هي مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكّتوا جهالة الناس الأغبياء.» (١بط٢: ١٣—١٥)

وسواء بطرس أو بولس، فكلٌ منهما يستنهض وطنية المسيحي وأمانته المطلقة للدولة على أساس أن هذه هي مشيئة الله. وقد تحاشوا بمنتهى الحرص أي تعارض بين حرية المسيحي وبين خضوعه المطلق للسلطان وأحكامه. وهكذا نشأت المسيحية وظلت وفيها روح الاحترام الشديد والتوقير الفائق للدولة وللسلطان بنوع ممتاز وبالتالي للأحكام، وللقوانين، والضرائب حتى اليوم.

والوثائق المسجّلة في كتابات القديسين الأول منذ القرن الثاني تؤكد هذا وتشهد له. وقد أمدّنا القديس كلمندس[1] أسقف روما بصورة توضح هذه المبادىء في رسالته إلى كورنثوس (٦١)، والقديس الشهيد بوليكاربوس في رسالته إلى فيلبي (١٢: ٣)، والقديس الشهيد يوستينوس في دفاعه (١: ١٤و٧١)، والقديس أثيناغوراس (Legat. 34) والقديس ثاوفيلس (الأنطاكي) (Ad. autol 1.11)، والعلاَّمة ترتليان في دفاعه (٣٠—٣٦)، وأوريجانوس في (ضد سلسوس ٨: ٧٣). فكلهم يشهدون بتعاليمهم كيف كانت كنائسهم في كل النواحي ملتزمة تماماً بكل تعاليم بولس الرسول فيما يختص بالعلاقات السياسية مع الدولة.

شيء واحد فقط امتنعت عنه الكنيسة امتناعاً باتاً هو الاشتراك في وظائف الدولة بالنسبة لأعضائها، طالما بقيت الدولة وثنية تُلزِم أفراد حكومتها بعبادة قيصر والآلهة الوثنية وإلاَّ يُحسبون مارقين ويحق قتلهم. لذلك بقيت الكنيسة منطوية على نفسها، لها حكومتها الروحية من الداخل على يد رؤسائها كما كان يصنع بولس نفسه إذ كان يحكم ويأمر بتنفيذ العقوبات بالنسبة للمسيحيين ذوي الانحرافات والعثرات. إذ كانت الكنيسة تمنع أن يلجأ أفرادها إلى المحاكم الوثنية.

+ «أيتجاسر منكم أحد له دعوى على آخر أن يُحاكَم عند الظالمين وليس عند القديسين... أهكذا ليس بينكم حكيم ولا واحد يقدر أن يقضي بين إخوته.» (١كو٦: ١و٥)

1. F. Prat, *op. cit.*, vol. II, p. 326.

ب ــ العائلة المسيحية

في الإيمان المسيحي، يأخذ رب الأسرة كرامته من الله؛ فالله هو رب الأسرة المسيحية. كذلك الزوج بالنسبة للمرأة هو كالمسيح عريس الكنيسة، والزوجة تأخذ مكانتها لدى الرجل كالكنيسة لدى المسيح يحبُّها ويفديها، وتبقى واحدة كالكنيسة.

الكنيسة لا تفرِّق بين الرجل والمرأة، ولا تكسر الاتحاد بينهما وإلاَّ كأنها تكسر العلاقة بين نفسها والمسيح. فالزواج في المسيحية اتحاد بين الرجل والمرأة كاتحاد المسيح بالكنيسة، لا ينفصم ولا يتكرر.

الأولاد بالنسبة للأب والأم في المسيحية هم أمانة استودعها المسيح لأيديهم، فهم أولاده ــ من المعمودية ــ والأب والأم أوصياء عليهم ــ كأشابين ــ يطلبهم منهما المسيح كاملين بالنفس والجسد والروح. لذلك فتربيتهم تكون على مستوى من يربيهم للمسيح، فهي تربية مسيحية وإلاَّ يُدان الأب والأم كلاهما.

أما الأولاد فعليهم الخضوع للأب والأم كما للمسيح بكل مهابة واحترام:

+ «أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما يليق في الرب.» (كو٣:١٨)
+ «أيها الرجال أحبوا نساءكم ولا تكونوا قساة عليهن ...» (كو٣:١٩)
+ «أيها الأولاد أطيعوا والديكم في كل شيء لأن هذا مَرْضيٌّ في الرب.» (كو٣:٢٠)
+ «... لأن هذا حق.» (أف٦:١)
+ «أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم لئلا يفشلوا.» (كو٣:٢١) ... «بل ربُّوهم بتأديب الرب وإنذاره (التعليم المسيحي).» (أف٦:٤)
+ «أيتها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب ... كما تخضع الكنيسة للمسيح، كذلك النساء لرجالهن في كل شيء.» (أف٥: ٢٢و٢٤)
+ «أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة وأسْلَم نفسه لأجلها ...» (أف٥:٢٥)
+ «كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم. مَنْ يحب امرأته يحب نفسه.» (أف٥:٢٨)
+ «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً، هذا

السر عظيم ... » (أف ٥: ٣١و٣٢)

+ «أما أنتم الأفراد فليحب كل واحد امرأته هكذا كنفسه، وأما المرأة فلتهَبْ رجلها.» (أف ٥: ٣٣)

ج ــ الزواج المسيحي

المبادىء الروحية العالية التي وُضعت لرفع الزواج إلى المستوى الروحي العالي اللائق بالخليقة الجديدة في المسيح واللائق بالإنسان الذي أخذ صورة القداسة من الله في البرِّ وقداسة الحق، كانت منذ البدء هي، والمبادىء التي وُضِعت لتحكم علاقات أعضاء الأسرة ببعض، تمثل الإرهاصة الأُولى أو اللَّبِنَة الصلبة المضيئة التي وُضعت لرقي المجتمع المسيحي.

ولكن المجتمع المسيحي استطاع أن يبلور لنفسه مبدئين أساسيين يقوم عليهما: «العدل» و «الكمال» الذي نسميه الرقيُّ الخلقي أو المدنيَّة الأخلاقية.

والباحث الاجتماعي المقتدر يستطيع إدراك القيمة العظمى التي ينالها المجتمع من قانون الكنيسة المسيحي بربط الزواج بامرأة واحدة وبعدم الانفصال إلاَّ تحت عامل الانحلال الخلقي بالزنا من جانب أحدهما. ولم تسلِّمنا الكنيسة في كل تاريخها الطويل أي مهادنة في هذا القانون الكنسي المقدس حتى إلى زمن ظهور حركة الإصلاح البروتستانتي التي تبنَّت التحللُّ من هذا القانون في القرن السادس عشر(٢) وحللَّت لنفسها إفساد ما قدَّسته الكنيسة على مدى ستة عشر قرناً.

وعقيدة عدم كسر وحدة الزواج لم تأخذ لها شكلاً خاصاً بالزواج فقط بل تسحَّبت لتصير هي المعيار الأعلى لوحدة الكنيسة. وحينما أعلنها بولس الرسول لم يعلنها كأنها تقرير أو تفسير من فكره، ولا من وحي الروح بل نقلها عن المسيح رأساً:

+ «وأما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب أن لا تفارق المرأة رجلها. وإن فارقته فلتلبثْ غير متزوجة أو لتُصالحْ رجلها. ولا يترك الرجل امرأته.» (١ كو ٧: ١٠ــ١١)

وهذا يعني تماماً أن الزواج حالة تسجَّلت ــ وتظل قائمة على أي حال وعلى كل الأحوال ــ فوق إرادة كل من الرجل والمرأة، ولا إمكانية ما لإلغائها لأنها فوق استطاعة الرجل والمرأة، بل فوق

2. F. Prat, *op. cit.*, vol. II, p. 330.

استطاعة الكنيسة نفسها. فالكنيسة ليس لديها سلطان أن تنقض ما وضعه الرب! «فالذي جمعه الله لا يفرِّقه إنسان.» (مت ١٩: ٦)

علماً بأن الاستثناء الذي وضعه بولس من تدبيره فيما يخص بارتضاء رجل صار مسيحياً أو امرأة صارت مسيحية وظل الطرف الآخر غير مسيحي، فهو لا يمانع من استمرار حالة العِشْرة، فبولس الرسول لا يمانع ولكن على شرطين: **الأول** أنه لا يعتبر ذلك زواجاً مسيحياً ولا يدخل ضمن سر الكنيسة والمسيح، وبالتالي فإمكانية ترك كل منهما للآخر مرهونة بالإرادة؛ **والثاني** أن الأولاد يصيرون مسيحيين. وهذا كله على رجاء أن يتأثر الطرف الآخر ويقبل الإيمان المسيحي (١كو ٧: ١٢—١٧). وطبعاً فإن هذا الاستثناء موقوف على ظرف خاص نادر هو أن يدخل الإيمانَ أحدُ الزوجين ويبقى الآخرُ بلا إيمان مسيحي.

وننتهي من ذلك بأن **تقديس سر الزواج المسيحي**، وحصره في حدود **الوحدة الروحية** بين الرجل والمرأة، **والمساواة بالروح** بينهما وربطه بقوة الله **لعدم كسره** كحُكْم إلهي مُبْرَم غير قابل للنقض، كان هذا هو السبب الأول في قيام المجتمع المسيحي، ولا يزال هو الأمل الوحيد لعودة المجتمع المسيحي لأصالته الخلقية والروحية.

وإن كان بولس الرسول يرفع البتولية لخدمة الرب أعلى من مستوى الزواج، فذلك على قياس النعمة فقط وليس إطلاقاً عاماً كتشريع مسيحي. فالبتولية هبة وليست سُنَّة، مجرد طريق، ولكن ليست هي الطريق: «لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا، لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله، الواحد هكذا والآخر هكذا» (١كو ٧: ٧). ولكن تعود الزيجة وترتفع فوق البتولية حينما تصبح شرطاً للذين يُقْبلون على الكهنوت، وذلك لخدمة الكنيسة. كما ترتفع الزيجة في اعتبار الكنيسة العام كونها تقدم أولاداً للمعمودية لقيام وبناء الجسد السرِّي.

ويعود بولس الرسول ليُلْبِس المرأة تاج الخلاص المرصَّع كونها أنجبت أعضاءً في ملكوت السموات: «ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إنْ ثبتْنَ في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقُّل» (١تي ٢: ١٥)، وذلك في مقابل رفع شأن العذارى المتبتلات لأجل المسيح:

+ «غير المتزوجة تهتم فيما للرب لتكون مقدَّسة جسداً وروحاً.» (١كو ٧: ٣٤)

الفصل الرابع

الأخلاق الشخصية للفرد المسيحي

أ ــ الفضائل الأساسية الثلاث: الإيمان، والرجاء، والمحبة

منبع **الأخلاق** في المسيحية هو **الصلة الشخصية** بالمسيح.

الصلة الشخصية بالمسيح تبدأ **بالإيمان**، والإيمان في حقيقته العملية صلة كيانية عميقة بالمسيح *ترفع الإنسان من موت الخطيئة لتضعه في قلب الحياة مع المسيح كخليقة جديدة، ذات أخلاق* تتناسب مع الحياة الجديدة.

فالإيمان هو موضوع الحياة الجديدة للإنسان: «أما البارُّ فبالإيمان يحيا» (عب ١٠: ٣٨)، يحيا في المسيح.

أي أن الإيمان هو **قوة الحاضر** الذي نغلب به المواجهة اليومية مع العالم. لذلك وضعه بولس الرسول في مصنفات الأسلحة الروحية «كالدرع» الواقي (١تس ٥: ٨) الذي يقي من كل ضربات العدو الموجّهة لكل أجزاء الإنسان، لأن الدرع يحركه الجندي ليغطي مِنْطقة الرأس والصدر حتى الركبة؛ فمساحة الدرع ٢٫٥ قدم × ٤ قدم أي حوالي ٨٠سم × ١٢٢ سم.

بعد الإيمان يأتي **الرجاء**. فهو الإيمان الذي يتخطى الواقع المنظور إلى ما هو آتٍ في غير المنظور، وهو قرين الصبر: «لأننا بالرجاء خَلَصنا. ولكن الرجاء المنظور ليس رجاءً، لأن ما ينظره أحد كيف يرجوه أيضاً؟ ولكن إن كنا نرجو ما لسنا ننظره فإننا نتوقعه بالصبر.» (رو ٨: ٢٤ ــ ٢٥)

وبعد ذلك يضع بولس الرسول **المحبة** كتاج فوق الإيمان والرجاء بالنسبة لأخلاق المسيحي.

ثم يضم الرجاء إلى الإيمان باعتبارهما وحدة أخلاقية واحدة مع المحبة: «وأما نحن الذين من

نهار فلْنَصْحُ، لابسين درع **الإيمان** والمحبة وخوذة هي رجاء الخلاص.» (١تس ٥: ٨)

فبولس الرسول يرى أن اتحاد الإيمان (ومعه الرجاء حتماً) مع المحبة يُحصِّن الإنسان من ضربة اليمين وضربة الشمال. فالإيمان يقي الإنسان من شر الانحراف في علاقته مع المسيح، والمحبة تقيه من خطر الإخفاق في علاقته مع الناس.

والثلاث الفضائل الإيمان والرجاء والمحبة هي رأس مال الكنيسة والفرد في جهاده اليومي:

+ «متذكرين بلا انقطاع **عمل إيمانكم، وتعب محبتكم، وصبر رجائكم**: ربنا يسوع المسيح أمام الله وأبينا.» (١تس ١: ٣)

واضح أن هذه الفضائل المسيحية تمسك بأعنَّة الأبعاد الثلاثة لقُوى الإنسان: الفكرية، والعاطفية، والإرادية. فالإيمان يتكفل بتغطية العقل، والمحبة تغطي العاطفة، والرجاء يغطي الإرادة.

وبولس الرسول يرى أن جميع المواهب والفضائل قابلة للتغيُّر والتبدُّل وربما لانتهاء مدة عملها بالنسبة لجهاد الإنسان في الحياة. أما الإيمان والرجاء والمحبة فهي ضرورة ثابتة لا غنى عنها قط:

+ «أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة، ولكن أعظمهن المحبة.» (١كو ١٣: ١٣)

والذي يهمنا للغاية ليس ترتيب هذه الفضائل الثلاث عند بولس الرسول، ولكن شعوره الحقيقي بضرورة هذه الفضائل، فهو لا يكف عن ذكرها مجتمعة أو فرادى، ولكن حتى ولو جاءت فرادى فهي تبدو وكأنها تجتمع كلها في ذهنه، لأنه لم يفقد إحدْيها كلية من فكره. من هنا يلزمنا أن نلتصق نحن أيضاً لا بفكر بولس الرسول وحسب بل بهذه الفضائل الثلاث، لأنه لا يمكن أن يكون تكرارها في رسائل بولس الرسول بلا ضرورة:

+ «فإننا بالروح من **الإيمان** نتوقع **رجاء** برٍّ.» (غل ٥: ٥)

أي الإيمان مع الرجاء يجعلنا نعيش على أساس التبرير.

+ «فإذ قد تبررنا **بالإيمان** لنا سلام مع الله.» (رو ٥: ١)

أي أن الإيمان وضعنا في الموضع الصحيح مع الله.

+ «صار لنا الدخول **بالإيمان** إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون ونفتخر على **رجاء** مجد الله» (رو ٥: ٢) = الحاضر والمستقبل.

+ «**والرجاء** لا يخزي لأن **محبة** الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا»

(رو ٥: ٥). الرجاء له برهان من الواقع.

+ «سمعنا **إيمانكم** بالمسيح يسوع، **ومحبتكم** لجميع القديسين، من أجل **الرجاء** الموضوع لكم في السموات.» (كو١: ٤و٥)

+ «سمعت **بإيمانكم** بالرب يسوع، **ومحبتكم** نحو جميع القديسين ...، لتعلموا ما هو **رجاء** دعوته ...» (أف١: ١٥و١٨)

+ «ليحلَّ المسيح **بالإيمان** في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في **المحبة**.» (أف٣: ١٧و١٨)

+ «إن ثبتُّم على **الإيمان**، متأسسين وراسخين وغير منتقلين عن **رجاء** الإنجيل.» (كو١: ٢٣)

+ «**المحبة** ... ترجو كل شيء وتصبر على كل شيء.» (١كو١٣: ٧)

+ «لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عملكم، وتعب **المحبة**، التي أظهرتموها نحو اسمه ... ولكننا نشتهي أن كل واحد منكم يُظهر هذا الاجتهاد عينه ليقين **الرجاء** إلى النهاية.» (عب٦: ١٠و١١)

+ «لنتقدم بقلب صادق في يقين **الإيمان** ...، لنتمسك بإقرار **الرجاء** راسخاً لأن الذي وعد هو أمين، ولنلاحظ بعضنا بعضاً للتحريض على **المحبة** والأعمال الحسنة.» (عب١٠: ٢٢-٢٤)

+ «لأن **إيمانكم** ينمو كثيراً، **ومحبة** كل واحد منكم جميعاً بعضكم لبعض تزداد.» (٢تس١: ٣)

+ «أما أنت يا إنسان الله فاهرب من هذا واتبع البر والتقوى **والإيمان والمحبة** والصبر والوداعة.» (١تي٦: ١١)

+ «تمسك بصورة الكلام الصحيح الذي سمعته مني في **الإيمان والمحبة** التي في المسيح يسوع.» (٢تي١: ١٣)

+ «اتبع البر **والإيمان والمحبة** والسلام مع الذين يدعون الرب من قلب نقي.» (٢تي٢: ٢٢)

والآن إذا دقق القارىء وتمشَّى بروحه مع هذا التكرار الذي لا يُملُّ، والذي يُظهرُ به بولس مدى أهمية هذه الفضائل الثلاث، يتيقن حتماً أنه منهج أخلاقي لا يحيد، يضعه بولس الرسول بالروح للسائرين في طريق العالم الوعر، وهو مطمئن أنه كفيل أن يبلِّغهم الغاية والقصد المبارك من سعيهم في العالم لحساب المسيح.

الإيمان:

وإذا دققنا في هذا المنهج الأخلاقي المسيحي من داخل هذه الفضائل الثلاث، يتبين لنا أن الإيمان، وإن كان هو المدخل الأساسي للحياة المسيحية بصفته الوَصْلَة القوية الأُولى بالرب من كل الكيان، إلاَّ أننا بمتابعة بولس الرسول نجد أن الإيمان حينما يتحد بالمحبة والرجاء يصبح القوة التي ترفع الإنسان فوق الحواجز الطبيعية سواء داخل الإنسان أو خارجه ليعيش ويتنفس الحياة الجديدة في المسيح، معطياً للسلوك المسيحي طابعه وقوته الدافعة إلى الأمام. فهناك فرق عظيم بين إنسان يؤمن، وإنسان يؤمن ويحب، وإنسان يؤمن ويحب ويحيا في الرجاء المبارك. ولكن في هذه الثلاثة، ولو أن بولس يضع المحبة في القمة، إلاَّ أن الإيمان هو الذي يحملها ويؤمِّنها من السقوط.

لذلك نلاحظ أن بولس الرسول يؤكد على ضرورة الرسوخ في الإيمان والثبات على الإيمان. وكم يُبْدي فرحه حينما يسمع عن ثبات الإيمان في الكنائس. فالإيمان هو القوة الأُولى لغلبة العالم كما يقول القديس يوحنا: «وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، **إيماننا**.» (١يو٥: ٤)

الرجاء:

الرجاء في المسيحية يتخصص في الإمساك بالمواعيد التي ربحها المسيح لحساب البشرية، وهي:

الحياة الأبدية: التي يعتبرها بولس الرسول في متناول اليد: «أمسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيت.» (١تي٦: ١٢)

الخلاص: الذي جعله مِلْكَ الرجاء: «لأننا بالرجاء خَلَصنا.» (رو٨: ٢٤)

القيامة من الموت: كحياة نحياها الآن وننتظر تكميلها بمجيء المسيح. والرجاء يتسلَّم مكتسباته للإيمان ليوطِّده في الأمور الآتية:

«وأما الإيمان فهو الثقة بما يُرْجَى، والإيقان بأمور لا تُرَى» (عب١١: ١).

والرجاء المسيحي هو رجاء من نوع آخر غير ما ترجوه أي نفس أخرى في العالم. فالرجاء المسيحي يختص بالأمور الروحية الفائقة التي تفوق تصوُّر الإنسان الطبيعي. كذلك، فإن الرجاء المسيحي مبنيٌّ على إيمان موطَّد، **فهو رجاء حيٌّ لا يَخزى:** «لأن الذي وَعَد هو أمين.» (عب١٠: ٢٣)

لذلك، فالرجاء المسيحي مصدر فرح داخلي (رو١٢: ١٢)، وسرور، وابتهاج، وسلام يفوق العقل، لأنه يجعل الأمور غير الموجودة وغير المنظورة كأنها حاضرة. وحينما يرسخ الإيمان ويزداد الرجاء تلتهب المحبة، فالثلاث الفضائل مفتوحة بعضها على بعض.

ولكن الرجاء، بنوع ممتاز، يُصنَّف في أسلحة الروح بالخوذة الفولاذية على الرأس (١تس ٥: ٨)، فهو يعطي جرأة لاقتحام المجهول وحماسة في الجهاد، فحينما يلتهب الرجاء لا تعود قوة ما تصدُّه أو عائق يُثْنيه عن بلوغ القصد:

+ «عالمين أن الضيق ينشىء صبراً (بالإيمان)، والصبر تزكية (للإيمان)، والتزكية رجاءً، والرجاءُ لا يُخْزِي. لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعْطى لنا.» (رو٥: ٣-٥)

المحبة:

المحبة تسير مع الإيمان، وتشتعل مع الرجاء، ثم ترتفع وحدها لتحلّق في أجواء الروح بلا عائق:

+ «أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة.» (١كو١٣: ١٣)

قصة نشيد المحبة الذي أنشده بولس الرسول لأهل كورنثوس: (١كو١٣: ١-١٣).

يظهر أن كورنثوس بقدر ما كانت أم القبائح التي لا يماثلها الآن إلاَّ باريس أو مدينة الأباطيل في كتاب «سياحة المسيحي»، بقدر ما صارت كنيستها مركز المواهب الفائقة. فقد انسكب عليها الروح بغزارة حتى إن بولس الرسول أخذ يعدِّد المواهب التي أصبح يتبارى فيها أهلها في بداية الرسالة هكذا:

+ «أشكر إلهي في كل حين من جهتكم على **نعمة الله المعطاة لكم في يسوع المسيح أنكم في كل شيء استغنيتم فيه، في كل كلمة، وكل علم** كما ثُبِّتت فيكم شهادة المسيح، حتى إنكم **لستم ناقصين في موهبة ما** ... أمين هو الله الذي به دُعِيتُم إلى شركة ابنه يسوع المسيح ربنا.» (١كو١: ٤-٩)

ثم عاد بولس الرسول يذكر لهم مواهبهم وهو قَلِقٌ عليهم؛ لأنه بالرغم من هذه المواهب العديدة جداً، إلاَّ أن بوادر الانشقاق بسبب التعالي بالمواهب بدأت تظهر وخصوصاً أن الذين نالوا مواهب أعلى ابتدأوا يتعالون على بقية الكنيسة. فبعد ما ضرب لهم مَثَل الجسد ذي الأعضاء الكثيرة والتي الأعضاء فيه لا يتفاخر بعضها على بعض بسبب أهميته أو جماله، ابتدأ يدخل في موضوع المواهب موضِّحاً أن كل المواهب العالية التي يتسابقون على امتلاكها جيدة، ولكن يوجد **«فضيلة»** ذات مستوى أهم وأعلى من جميع المواهب، بل هي الفضيلة التي تحكم وتربط وتترأس فوق جميع المواهب، تلك هي فضيلة **المحبة**. وابتدأ الروح ينطق فيه نشيد المحبة الذي سجلته له الكنيسة على ظهر قلبها، وظلت السماء تردد صداه:

+ «من جهة المواهب الروحية أيها الإخوة فلست أريد أن تجهلوا، أنتم تعلمون أنكم كنتم أمماً منقادين إلى الأوثان (بكل فجورها) البُكم كما كنتم تساقون (في عبادتها)، ...

فأنواع مواهب موجودة، ولكن الروح واحد ... ولكنه لكل واحد يُعطى إظهار الروح للمنفعة ...، كلام حكمة...، كلام علم...، إيمان...، مواهب شفاء...، عمل قوات...، نبوَّة...، تمييز الأرواح...، أنواع ألسنة...، ترجمة ألسنة، ولكن هذه كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده كما يشاء ...،

ولكن جدُّوا (أو "وإن كنتم تجدُّون") **للمواهب** الحسنى، وأيضاً أريكم طريقاً أفضل» (١ كو١٢: ١-١١و٣١):

نشيد المحبة:

«إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة (موهبة الألسن)، **ولكن ليس لي محبة** فقد صرت نحاساً يطنُّ أو صنجاً يرنُّ،

وإن كانت لي نبوَّة وأعلم جميع الأسرار وكل علم،

وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، **ولكن ليس لي محبة** فلست شيئاً،

وإن أطعمت كل أموالي وإن سلَّمت جسدي حتى أحترق، **ولكن ليس لي محبة** فلا أنتفع شيئاً،

المحبة تتأنى وترفق، المحبة لا تحسد، المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ ولا تُقبِّح ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحتدُّ، ولا تظنُّ السوء، ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق.

تحتمل كل شيء، تصدِّق كل شيء، ترجو كل شيء، تصبر على كل شيء.

المحبة لا تسقط أبداً،

وأما النبوات فستبطل، والألسنة فستنتهي، والعلم فسيبطل، لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض ...،

أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة.»

(١ كو١٣: ١-١٣)

+ «اتبعوا المحبة ولكن جدُّوا للمواهب الروحية.» (١ كو١٤: ١)

القيثارة قيثارة داود، ولكن النغم نغم بولس!

تقول القيثارة إن المواهب جيدة، وأجودها أنفعُها وليس أجملُها! ... ولكن إذا وُضعت المواهب في كفة وفضيلة الحب في الأخرى ارتفع قدر الحب عالياً.

المواهب كلها على مستوى الحُسْنَى، ولكن إن غابت عنها **فضيلة** المحبة ارتدّت فارغة. وإن توقفت المواهب، وهي حتماً تتوقف، وإن سقطت، فالمحبة لا تسقط أبداً. حتى الإيمان تتوقف مسيرته بعد تكميل السعي ولِبْس الأكاليل، حتى الرجاء ليس له موضع في السماء لأننا سننظر الذي كنا نرجو أن ننظره. والذي كنا نؤمن أن نناله نلناه. أما المحبة، فالسماء موطنُها الذي انحدرت منه، فبعد أن تكون أيّدتنا في الغُرْبة، تأخذنا إلى موطنها.

صحيح أن الوصايا في القديم وفي الجديد كثيرة، ولكن اتفق الجديد مع القديم أن:
«غاية الوصية فهي المحبة.» (١تي١: ٥)
«لأن كل الناموس في كلمة واحدة يكمل: تحبُّ قريبك كنفسك.» (غل٥: ١٤)

المحبة رباط الكمال:

فضائل كثيرة يحتاجها الإنسان المسيحي لمسيرة الخلاص الذي دُعِيَ إليه، ولكن المحبة هي الحزام الذي يضم الكل!

+ «فالبسوا، كمختاري الله القديسين المحبوبين، أحشاءَ رأفاتٍ ولطفاً وتواضعاً ووداعة وطول أناة، محتملين بعضكم بعضاً، ومسامحين بعضكم بعضاً. إن كان لأحد على أحد شكوى كما غفر لكم المسيح هكذا أنتم أيضاً، **وعلى جميع هذه البسوا المحبة التي هي رباط الكمال.**» (كو٣: ١٢-١٤)

المعنى هنا لأول وهلة يُفْهَمُ على أن المحبة تجمع وتربط هذه الفضائل اللازمة للمجتمع المسيحي. ولكن المعنى الأكثر قوة هو أن المحبة نلبسها فوق، أو أكثر من، هذه الفضائل جميعها **لكي تربط المؤمنين معاً**، أي هي رباط الكمال المسيحي، والكمال المسيحي في الوحدة المسيحية! فالفضائل كلها تُقرِّبنا معاً وتصالحنا معاً، أما المحبة فهي تربطنا معاً، ولنا سَنَدٌ يسند هذا المعنى في هذه الآية: «لأن محبة المسيح تحصرنا» (٢كو٥: ١٤)، وتحصرنا هنا تعني تربطنا وتقيِّدنا معاً.

ومعروف أنه إذا دخلت المحبة قلب الإنسان تداعت كلُّ الفضائل في إثرها، فالمحبة لا تعيش إلاَّ في وسط جوقة من الفضائل تنبعث منها وتغذيها، تأخذ منها وتعطيها.

رسمها بولس الرسول وكأنها تاجٌ مرصَّع بحجارة كريمة تتلألأ لتعطي منظراً خلاباً:

الصفة بالعربية وشرحها	الصفة باليونانية	الصفة باللاتينية
+ **تتأنى**: ومعناها الحرفي طول الأناة وهي الصفة التي تُنسبُ لأبوَّة الله. بمعنى أن المحبة تعطي صاحبها روح الأبوَّة.	μακροθυμεῖ long suffers	charitas patiens est
+ **تترفّق**: أي الرأفة والشفقة واللطف وهي الصفة التي تلازم روح الإخاء، وفيها إحساس بالمودة الصادقة. لذلك فهي تقدّم للصفة التي بعدها «لا تحسد».	χρηστεύεται	benigna est
+ **لا تحسد**: لأنها تفرح بنجاح الآخرين، وتسعد بسعادة الآخرين، ولا تتغير من الآخرين.	οὐ ζηλοῖ	non aemulatur
+ **لا تتفاخر**: المعنى المقصود أنها لا تضرب بالبوق أمامها كالفريسيين الذين يُظهرُون أنفسهم و يتعظمون بأعمالهم.	οὐ περπερεύεται	non agit perperam
+ **ولا تنتفخ**: أي لا تحاول أن تَكَبّرَ بأعمالها. فهي لا تلتفت إلى إنجازاتها.	οὐ φυσιοῦται	non inflatur
+ **لا تُقبّح**: أي لا تعمل ولا تفعل شيئاً بغير لياقة يجرح شعور الآخرين أو يُعْثرهم.	οὐκ ἀσχημονεῖ	non est ambitiosa
+ **لا تطلب ما لنفسها**: أي لا تطلب أرباحاً لأعمالها، لأنها تكتفي بوجودها. ولأن أية	οὐ ζητεῖ τὰ ἑαυτῆς	non quaerit quae sua sunt

أنانية تقتلها. فهي تعطي ولا تطلب العِوَض.

+ لا تحتدُّ: بمعنى لا تنفعل بالخطأ أو بالهجوم أو بالافتراء والوشاية أو بالذمّ أو بالاغتياب، لأن منابعها غير مربوطة بالأرضيات.	οὐ παροξύνεται	non irritatur
+ لا تظن السوء: أي لا تفكر بالرديء نحو الآخرين أو أعمالهم، وبالتالي لا تذمُّ.	οὐ λογίζεται τὸ κακόν	non cogitat malum
+ لا تفرح بالإثم: أي إن نجح الإثم أو الأثيم، فهي لا تفرح له أبداً.	οὐ χαίρει ἐπὶ τῇ ἀδικίᾳ	non gaudet super iniquitate
+ بل تفرح بالحق: أي بعكس نجاح الشر، فهي في نجاح الحق تفرح وتتهلل.	συγχαίρει δὲ τῇ ἀληθείᾳ	congaudet autem veritati
+ تحتمل كل شيء: بمعنى تغطي على كل شيء في صمت وسرِّية، وبمعنى تعطي العذر وتُخفي مناقص الآخرين وأخطاءهم.	πάντα στέγει	omnia suffert
+ تُصدِّق كل شيء: في إيمان وبساطة.	πάντα πιστεύει	omnia credit
+ ترجو كل شيء: تقبل ما تُوعَد به بدون شك.	πάντα ἐλπίζει	omnia sperat
+ وتصبر على كل شيء: بصمت.	πάντα ὑπομένει	omnia sustinet

بولس الرسول وضع هنا بالروح صورة لما يجب أن تكون عليه محبة الإنسان في قلبه وسلوكه. وواضح أنه لم يرسم بهذه الخمس عشرة فضيلة منهجاً مُنَسَّقاً، ولا كان قصده أن يجمع كل الفضائل ويرتبها، ولكن واضح أن قصد الله من تسجيل هذه الفضائل هو أن يقيس الإنسان نفسه عليها ليرفع من قلبه ما هو غير مناسب للمحبة، ويسعى لاقتناء ما هو لها. وهذا واضح غاية الوضوح في ذكره فضائل بالسلب وفضائل بالإيجاب: «المحبة لا تفرح بالإثم»، بل «تفرح بالحق». فالأولى لا بد أن تُرفَعَ من سلوك الإنسان، والثانية يليق أن تُكْتَسَبَ.

ب ــ فضائل أخرى

بعد ما تألقت المحبة في درجتها الأولى والعظمى عند بولس الرسول حسب التقليد الإلهي والأبوي، دخلت الفضائل الأخرى في منطقة الظل. ولكن فضيلتين ألحَّ عليهما بولس الرسول كثيراً، وكانتا تتزاحمان في قلبه وهو يستعرض الأخلاق المسيحية، وعلى مَ تكون وترسو هذه الأخلاق، هاتان الفضيلتان هما **التواضع** (ومعه الوداعة) **والصلاح** (ومعه اللطف).

التواضع ومعه الوداعة:

فضيلة مسيحية بالدرجة الأولى، ليس لها أي أثر في الجو الوثني القديم، وحتى في اليهودية كان لها معنى يختلف عن معناها الذي تقلَّدته في المسيحية. فاليهودي الذي يقع في الضغطة والهوان والبؤس ويحتمل التجربة بصبر، فهو إنما يكفِّر عن خطاياه، وما عليه إلاَّ أن يضع رجاءه في الله دون أن يشعر بالعداوة والبغضة تجاه مقاوميه، وبذلك يُحْسَبُ إنساناً بارًّا وحسب، ولكن لا يُنْسبُ إليه التواضع(١).

حينما قال الرب: «تعلموا مني لأني وديع πραΰς ومتواضع القلب ταπεινὸς τῇ καρδίᾳ» (مت١١: ٢٩). لم يكن يقصد إلاَّ فضيلة واحدة ذات وجهين؛ **فالوداعة هي اللطف تجاه الناس، والتواضع هو التصاغر أمام الله**، والاثنان فضيلة واحدة وذلك بالنسبة للمسيح.

والقديس بولس مغرم بالجمع بين الفضيلتين، والقصد في ذهنه دائماً هو أن يقدم الإنسانُ المسيحيُّ الآخرين على نفسه!!

1. F. Prat, *op. cit.*, vol. II, p. 337.

+ «بكل **تواضع ووداعة**، وبطول أناة(٢) محتملين بعضكم بعضاً.» (أف ٤: ٢)

+ «لا شيئاً بتحزُّب أو بُعجْب، بل **بتواضع** ταπεινοφροσύνη ، حاسبين كل واحد الآخر أفضل من نفسه (الترجمة الصحيحة). لا تنظروا كل واحد إلى ما هو لنفسه بل كل واحد إلى ما هو لآخرين أيضاً.» (في ٢: ٣و٤)

+ «فالبسوا كمختاري الله القديسين المحبوبين أحشاء رأفات ولطفاً **وتواضعاً ووداعة** وطول أناة.» (كو ٣: ١٢)

+ «أخدم الرب **بكل تواضع** ودموع كثيرة.» (أع ٢٠: ١٩)

وأحياناً يحصر فكره في الوداعة بمفردها كلطف فائق:

+ «ماذا تريدون؟ أبعصا آتي إليكم أم بالمحبة وروح **الوداعة**...» (١ كو ٤: ٢١)

+ «ثم أطلب إليكم **بوداعة** المسيح وحِلْمه ...» (٢ كو ١٠: ١)، لاحظ قول المسيح عن نفسه «لأني وديع ...» (مت ١١: ٢٩)

+ «أما ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، **وداعة**، تعفُّف.» (غل ٥: ٢٢و٢٣)

+ «أيها الإخوة، إن انسَبَقَ إنسان فأُخذ في زلَّة ما، فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا **بروح الوداعة**.» (غل ٦: ١)

+ «مؤدِّباً **بالوداعة** المقاومين، عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق.» (٢ تي ٢: ٢٥)

+ «ولا يطعنوا في أحد، ويكونوا غير مخاصمين، حُلَماء، **مُظْهِرين كل وداعة لجميع الناس**.» (تي ٣: ٢)

ويقول المختصون في شرح هذه الصفة الأُخلاقية، أي **الوداعة**، إنها في المسيحية لا تعمل إلاَّ على قاعدة من التواضع، فهي في الحقيقة فضيلة متقدِّمة من أصل التواضع(٣) ولا توجد بدونه.

وتقف فضيلتا التواضع والوداعة كمعيار ثابت لوزن الأُخلاق المسيحية والحكم على صحتها أو مرضها.

الصلاح ἀγαθωσύνη ومعه اللطف χρηστότης :

وهو من الفضائل البارزة في دستور القديس بولس الأخلاقي وهي من خصائص كتابته.

---

(٢) أنظر طول الأناة في المحبة.

3. Trench, *Synonyms of the New Testament, XLIII, cited by: F. Prat, op. cit.*, vol. II, p. 337, n.3.

ويقدم لنا القديس جيروم الفرق بين هاتين الفضيلتين:

[فاللطف فضيلة هادئة عذبة فيها ظُرف وإيناس، كلامها فيه مودة ورقة. والصلاح قريب منهـا. فالصالح مَنْ يسعى لإسعاد الآخرين، ولكن الصلاح أقل جاذبية من اللطف وأكثر قطعاً وتحديداً، والصالح ولو أنه متأهب دائماً ليصنع الخير ولكن ينقصه الدماثة واللطف والرقة التي تأسر كل القلوب.](٤)

الصلاح يعمل كأساس، ولكن اللطف يعطي الشكل والمظهر للفضيلة والتقوى، فإذا أُضيف اللطف على الصلاح صار الصلاح ضعف قيمته وفاعليته. ولكن لا يصح أن نقول: «صلاح اللطف» بل «لطف الصلاح»، لأن الصلاح كما قلنا أساس واللطف رداءٌ له، والاثنان معاً صفة من صفات الله، حيث يفضَّل أن يسمى اللطف رأفة، فالله صالح ورؤوف. لذلك أصبحتا هاتان الصفتان في المسيحية ذاتيْ أصول مستمدة من الله، وبذلك فإن لهما رنَّة أصالة وثبات وليست بالرخص الذي يوصف به أهل العالم.

---

4. *Comment. on Galat.*, 5,22.

الفصل الخامس

الرذائل الأخلاقية المرفوضة في المجتمع المسيحي
عند بولس الرسول

١ ــ الفُرقة:

إن أرذل الرذائل كما يراها القديس بولس، كرسول ومبشِّر، هي رذيلة «الفُرقة»، وقد حاربته وحاربها في بدء خدمته وفي نهايتها، وكانت تهدد خدمته باستمرار. وقد جاءت تحت أسماء وصفات عديدة، ولكن آثارها واحدة، إصابة الجماعة بالاضطراب والنزاع والتحاسد. وأسماؤها جاءت كالآتي:

(أ) خصام: ἔρις (رو١: ٢٩)، (رو١٣: ١٣)، (١كو١: ١١)، (١كو٣: ٣)، (٢كو١٢: ٢٠)، (غل٥: ٢٠)، (في١: ١٥)، (١تي٦: ٤)، (تي٣: ٩).

(ب) شقاقات (انقسامات): διχοστασία (رو١٦: ١٧)، (غل٥: ٢٠).

(ج) التحزُّب: ἐριθεία (رو٢: ٨)، (٢كو١٢: ٢٠)، (غل٥: ٢٠)، (في١: ١٧)، (في٢: ٣).

ولأن الكنيسة كانت تُبْنى بالنفوس الطيبة الجديدة، فقد كان من أخطر ما يصيب الكنيسة وهي في دور البناء والتجمع روح الخصام والشقاق والتحزُّب؛ لأن هدف بولس اللاهوتي هو من هدف المسيح: أن يكون الكل واحداً في ألفة وانسجام ومحبة.

٢ ــ الطمع πλεονεκτεῖν :

وباللاتينية circumvenire.

الرذيلة الثانية في قبحها عند بولس الرسول هي الطمع، **وهو الطمع في العِرْض، أو التطاول على عفة الآخرين.**

ولكن هذه الرذيلة في منهج بولس الأخلاقي ليست بمفهوم كلمة «الطمع» التي اعتدنا سماعها كطمع في مال أو فيما للغير عموماً، بل إنها تتجه مباشرة إلى الطمع في العِرْض. لذلك تأتي كثيراً مربوطة بالزنا أو النجاسة وبعبادة الأوثان التي تقوم على الزنا أيضاً وإباحة العرض. ومعروف تماماً أن مثل هذا الاتجاه له قدرة خطيرة على تقويض الكنيسة التي تقوم على القداسة الكاملة. لذلك كانت حساسية بولس الرسول نحو هذه الرذيلة شديدة للغاية: «أما الزنا وكل نجاسة أو **طمع** فلا يُسَمَّ بينكم كما يليق بقديسين، ولا القباحة ولا كلام السفاهة والهزل التي لا تليق، بل بالحري الشكر. فإنكم تعلمون هذا أن كل زانٍ أو نجسٍ أو **طمَّاع** الذي هو عابد للأوثان ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله.» (أف٥: ٣–٥)

واضح هنا أن الطمع واقع في وسط رذائل النجاسة بأصنافها، فهو صورة من صور التعدّي الجنسي. وكلها تنحصر في رذيلة النجاسة. ولعلّ أوضح المواضع التي تظهر فيها رذيلة الطمع أنها طمع في العرض هي الآية التالية:

+ «لأن هذه هي إرادة الله قداستكم، أن تمتنعوا عن الزنا، أن يعرف كل واحد منكم أن يقتني إناءه بقداسة وكرامة، لا في هوى شهوة كالأمم الذين لا يعرفون الله، أن لا يتطاول أحد **ويطمع** على أخيه في هذا الأمر، لأن الرب منتقم لهذه كلها.» (١تس٤: ٣–٦)

الفصل السادس

عناصر أخلاقية أخرى

الصلاة كعنصر أخلاقي عند بولس الرسول

قد يبدو أنها مغالاة وإفراط في التوعية بقيمة الصلاة عند بولس الرسول، ولكن قد يكون هذا معقولاً إذا لم يكن قد قدَّم نموذج حياته ناطقاً بصدق قيمة الصلاة في أعماق روحه:

+ «افرحوا كل حين، صلُّوا بلا انقطاع، اشكروا في كل شيء. لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم.» (١تس٥: ١٦—١٨)

+ «لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر، لتُعْلَم طلباتكم لدى الله.» (في٤:٦)

+ «مُصلِّين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح، وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبة.» (أف٦:١٨)

وفي ذلك يقدم هو نفسه نموذجاً حيًّا ناطقاً:

+ «نشكر الله كل حين من جهة جميعكم ذاكرين إياكم في صلواتنا.» (١تس١:٢)

+ «من أجل ذلك نحن أيضاً منذ يوم سمعنا، لم نَزَلْ مُصلِّين وطالبين لأجلكم، أن تمتلئوا من معرفة مشيئته في كل حكمة وفهم روحي.» (كو١:٩)

وفي كل مواقف بولس الرسول منذ أن عرف الرب مُشرقاً عليه من السماء وهو يصلِّي:

+ «فقال له (لحنانيا) الربُّ: قم واذهب إلى الزقاق الذي يقال له المستقيم، واطلب في بيت يهوذا رجلاً طرسوسياً اسمه شاول لأنه هوذا **يصلِّي**.» (أع٩:١١)

+ «وحدث لي بعد ما رجعت إلى أورشليم وكنت **أُصلي** في الهيكل.» (أع٢٢:١٧)

+ «قال الروح القدس أفرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه، فصاموا حينئذٍ وصلوا ووضعوا عليهما الأيادي.» (أع١٣:٢و٣)

+ «وانتخبا لهم قسوساً في كل كنيسة ثم **صليّا** بأصوام واستودعاهم للرب.» (أع١٤:٢٣)
+ «ونحو نصف الليل كان بولس وسيلا **يصليان** ويسبِّحان الله والمسجونون يسمعونهما.» (أع١٦:٢٥)
+ «ولما قال هذا جثا على ركبتيه مع جميعهم **وصلّى**.» (أع٢٠:٣٦)
+ «ولكن لما استكملنا الأيام خرجنا ذاهبين وهم جميعاً يُشيِّعوننا مع النساء والأولاد إلى خارج المدينة، فجثوْنا على رُكَبِنا على الشاطىء **وصلينا**.» (أع٢١:٥)
+ «فحدث أن أبا بوبليوس كان مضطجعاً معترى بحمى وسحج فدخل إليه بولس **وصلّى** ووضع يديه عليه فشفاه.» (أع٢٨:٨)
+ «فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه، شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم متضرعاً دائماً في **صلواتي** ...» (رو١:٩و١٠)
+ «**وأصلي** إلى الله أنكم لا تعملون شيئاً ردياً...» (٢كو١٣:٧)
+ «بسبب هذا **أحني ركبتيَّ** لدى أبي ربنا يسوع المسيح... لكي يعطيكم بحسب غنى مجده أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن.» (أف٣:١٤و١٦)
+ «وهذا **أصلّيه** أن تزداد محبتكم أيضاً أكثر فأكثر في المعرفة وفي كل فهم.» (في١:٩)
+ «أيها الإخوة إن مسرة قلبي **وطلبتي** إلى الله لأجل إسرائيل هي للخلاص.» (رو١٠:١)
+ «من جهة هذا **تضرعت** إلى الرب ثلاث مرات أن يفارقني (مرضي).» (٢كو١٢:٨)
+ «**طالبين** ليلاً ونهاراً أوفر طلب أن نرى وجوهكم ونكمِّل نقائص إيمانكم.» (١تس٣:١٠)

والقديس بولس من هذه الخلفية المشبَّعة بالصلاة، يعطي نصائحه المستمرة للصلاة، والصلاة من أجله:

+ «فرحين في الرجاء، صابرين في الضيق، مواظبين على **الصلاة**.» (رو١٢:١٢)
+ «لا يسلب أحدكم الآخر (الزوجان)، إلاَّ أن يكون على موافقة إلى حين، لكي تتفرغوا للصوم **والصلاة**.» (١كو٧:٥)
+ «واظبوا على **الصلاة**، ساهرين فيها بالشكر، **مُصلّين** في ذلك لأجلنا نحن أيضاً، ليفتح الرب لنا باباً للكلام لنتكلم بسرِّ المسيح،... كي أظهره كما يجب أن أتكلم.» (كو٤:٢-٤)
+ «فأطلب أول كل شيء أن تُقام طلبات **وصلوات** وابتهالات وتشكُّرات لأجل جميع الناس لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب...» (١تي٢:١و٢)
+ «فأريد أن **يصلي** الرجال في كل مكان رافعين أيادي طاهرة بدون غضب ولا جدال.»

(١تي٢: ٨)

+ «فأطلب إليكم أيها الإخوة بربنا يسوع المسيح وبمحبة الروح أن تجاهدوا معي في **الصلوات** من أجلي إلى الله.» (رو١٥: ٣٠)
+ «وأنتم أيضاً مساعدون **بالصلاة** لأجلنا ...» (٢كو١: ١١)
+ «**مُصلِّين** بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة وطلبة لأجل جميع القديسين ولأجلي، لكي يُعْطَى لي كلام عند افتتاح فمي لأُعلِّم جهاراً بسرِّ الإنجيل.» (أف٦: ١٨و١٩)
+ «أخيراً أيها الإخوة **صلوا** لأجلنا لكي تجري كلمة الرب وتتمجد كما عندكم أيضاً.» (٢تس٣: ١)
+ «لأني أعلم أن هذا يؤول لي إلى خلاص **بطلبتكم** ومؤازرة روح يسوع المسيح.» (في١: ١٩)
+ «أعْدِد لي أيضاً منزلاً، لأني أرجو أنني **بصلواتكم** سأوهَبُ لكم.» (فل٢٢)
+ «السلام بيدي أنا بولس. اذكروا وُثُقي...» (كو٤: ١٨)

واضح أن بولس الرسول عرف الصلاة الحارة، والتي بالدموع، وعرف حَنْي الركب طويلاً، وعرف الصلاة بمؤازرة الروح، وعرف الصلاة الطويلة جداً، والتي بلجاجة، والتي تتكرر وتتكرر من أجل الموضوع الواحد، وعرف قوة صلاة الآخرين عنه وعن قيوده، وعرف السهر في الصلاة، والمواظبة عليها في مواعيدها بدون خلل أو ملل. فإن كان للكنيسة اليوم كل هذه الصلوات مُقنَّنة في ليتورجياتها اليومية والأسبوعية والموسمية، بأسهارها حتى الصباح، وبمواظبتها التي لا تُخلُّ بالليل والنهار، فردية وجماعية، بحني الركب مراراً وتكراراً، وصلاة الأصوام في أوقاتها، فذلك كله لأن روح القديس بولس الرسول لا يزال يعمل ويتوسل لدى الروح القدس والمسيح أن لا تكلَّ الكنيسة أو تخور في جهادها الشاق ضد روح العالم.

العمل والنظام كفضائل أخلاقية
عند بولس الرسول

كان العمل والنظام بالنسبة للمسيحي المؤمن الفرد وبالنسبة للكنيسة كمجتمع مسيحي في العالم، فضيلتين يرتقي مفهومهما عند بولس الرسول من مستوى الجسد إلى مستوى الروح، فكانتا ذات اعتبار كبير في تعليمه وكرازته.

وعجيب حقاً أن هذا القديس المنتخب والمعيَّن من السماء ومن فم المسيح لمثل هذه الإرسالية

المفتوحة على عالم الأمم بعيداً، يصحب معه مِغْزَلَه وخيوطه أينما سار وأينما حطَّ، فينزوي في غرفة يستأجرها ليعظ بالنهار وينسج بالليل خيامه التي يبيعها ويقتات منها ويصرف على الإخوة من حوله. بهذا يكون بولس الرسول قد قدَّس العمل ليكون لحساب المسيح والكلمة!! وبهذا الأسلوب الفريد الذي يربط فيه العمل الروحي بالعمل اليدوي وفَّر لنفسه وبالتالي لرسالته، وبالأكثر للكنيسة، أقدس الفضائل تجاه العالم والناس:

الحرية، والاستقلالية! اللتين تؤمِّنان للفرد والكنيسة صحة العبادة ونقاوة العلاقة بالله والآخرين. هذا فوق منفعة صَلْب الفكر وضبط الجسد، علاوةً على اكتساب فرصةٍ ومصدرٍ للعطاء والسخاء والتوزيع من بذل المحبة!

بولس الرسول وهو يقلِّب يديه الخشنتين، وقد تصلَّبتا وتشقَّقتا من عُنْف فرِّ المِغْزَلِ وكرِّ النَّوْل، ودسِّ الإبرة والمِسَلَّة في نسيج شعر الماعز القديد الشديد، أمام قسوس أفسس المودِّعين، كان كمن يطرح الإنجيل أمام العالم محمولاً فوق أعراق ودموع وأسهار وجهد مبذول حتى آخر بصيص من نور العين وعافية اليدين وراحة البدن. كان كمن يستودع الإنجيل في خزانة الكنيسة ملفوفاً، لا بالذهب الإبريز، بل بشدائد جسده التي أكمل بها شدائد المسيح:

+ « فضة أو ذهب أو لباسَ أحدٍ لم أشتهِ،
أنتم تعلمون أن حاجاتي وحاجات الذين معي خَدَمَتْها هاتان اليدان،
في كل شيء أَرَيْتُكم أنه هكذا ينبغي أنكم تتعبون وتعضِّدون الضعفاء،
متذكِّرين كلمات الرب يسوع أنه قال: مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ.»
(أع ٢٠: ٣٣-٣٥)

+ « أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثل بنا لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم،
ولا أكلنا خبزاً مجاناً من أحد،
بل كنا نشتغل بتعبٍ وكدٍّ ليلاً ونهاراً، لكي لا نثقِّل على أحد منكم،
ليس أن لا سلطان لنا، بل لكي نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثلوا بنا،
فإننا أيضاً حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا
أنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً،
لأننا نسمع أن قوماً يسلكون بينكم بلا ترتيب لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليون،
فمثل هؤلاء نوصيهم ونعظهم بربنا يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز أنفسهم.»
(٢تس٣: ٧-١٢)

واضح من كلام بولس الرسول هنا أنه لا يأمر المحتاجين فقط إلى المال والقوت أن يعملوا، بل

هو يأمر ويقنّن العمل على الجميع حتى الأغنياء ذوي الجاه والفائض. فالعمل هنا يطرحه بولس الرسول كوصية لها صلة بالروح وذات ثمار مُرْبحة للفرد في حياته وللكنيسة ككلّ. لذلك، فالعمل هو فضيلة ليس للمعوزين أو الكسالى بل للجميع لبنيان الإنسان وروح الكنيسة:

+ «لا يسرق السارق فيما بعد، بل بالحري يتعب **عاملاً الصالح** بيديه ليكون له أن يعطي مَنْ له احتياج.» (أف٤: ٢٨)

العمل هنا رفعه بولس الرسول إلى مستوى الصلاح، ومنه يُعطي فرصة للمحبة والعطاء فتزداد فضيلة العمل لتفتخر بالمحبة فوق كل الفضائل.

الترتيب (النظام) τάξις ــ الطقس:

كانت حياة بولس الرسول نموذجاً لهذا الترتيب والنظام سواء في تدبيره لكل كنيسة على حدة أو كل الكنائس: «الاهتمام بجميع الكنائس» (٢كو١١: ٢٨). وبولس الرسول، في إعطائه لترتيب الخدمات وتنظيم الاجتماعات والكلام والسمع فيها، إنما كان يضع للكنيسة منهجها الخاص بالخدمات الذي نسميه الآن طقس الخدمة وأصوله:

+ «أيها الإخوة متى اجتمعتم، فكلُّ واحد منكم له مزمور له تعليم له لسان له إعلان له ترجمة فليكن كل شيء للبنيان ... لأن الله ليس إله تشويش بل إله سلام كما في جميع كنائس القديسين، لتصمتْ نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهنّ أن يتكلّمن ... أم منكم خرجت كلمة الله؟ أم إليكم وحدكم انتهت ... فليعلم (كل واحد منكم) ما أكتبه إليكم أنه وصايا الرب ...،
ليكن كل شيء **بلياقة** وبحسب **ترتيب** εὐσχημόνως καὶ κατὰ τάξιν .»
(١كو١٤: ٢٦ــ٤٠)

ولم يكن شيء يسرُّ قلب بولس الرسول قدر ما كان يسمع أن الكنائس تسير بترتيب وإيمان:

+ «فإني وإن كنتُ غائباً في الجسد، لكني معكم في الروح فَرِحاً وناظراً **ترتيبكم** τάξιν ومتانة إيمانكم في المسيح.» (كو٢: ٥)

وقطع بولس الرسول بالعقاب على مَنْ تحدثه نفسه بالإخلال بنظام الكنيسة وترتيب الخدمة فيها بحسب التعليم الذي وضعه بنفسه (ويبدو أن العقوبات كانت مكتوبة ومحددة) يعود بعدها العضو إلى خدمته، أي أن يكون القطع مترفقاً:

+ «ونطلب إليكم أيها الإخوة أنذروا الذين **بلا ترتيب**، شجعوا صغار النفوس، أسندوا الضعفاء، تأنّوا على الجميع.» (١تس٥: ١٤)

+ «ثم نوصيكم أيها الإخوة باسم ربنا يسوع المسيح أن تتجنبوا كل أخ يسلك **بلا ترتيب** ἀτάκτως وليس حسب التعليم الذي أخذه منا، إذ أنتم تعرفون كيف يجب أن يُتمثَّل بنا، لأننا لم نسلك **بلا ترتيب** ἠτακτήσαμεν بينكم.» (٢تس٣: ٦و٧)

اللياقة εὐσχημόνως:

وتتركب من مقطعين: εὖ وتعني «حسن»، σχῆμα وتعني «شكل».

ويقصد بها القديس بولس الحُسن والوقار والهدوء في الأداء:

+ «ليكن كل شيء **بلياقة** وبحسب ترتيب.» (١كو١٤: ٤٠)

+ «لنسلك **بلياقة** كما في النهار...» (رو١٣: ١٣)

+ «وأن تحرصوا على أن تكونوا هادئين وتمارسوا أموركم الخاصة وتشتغلوا بأيديكم أنتم كما أوصيناكم لكي تسلكوا **بلياقة** عند الذين هم من خارج ولا تكون لكم حاجة إلى أحد.» (١تس٤: ١١و١٢)

وتمتد اللياقة لتشمل عدم وضع عثرات أمام اليهود أو الأمم الوثنيين:

+ «كونوا بلا عثرة لليهود واليونانيين ولكنيسة الله، كما أنا أيضاً أُرضي الجميع في كل شيء غير طالب ما يوافق نفسي بل الكثيرين لكي يخلصوا.» (١كو١٠: ٣٢و٣٣)

وبولس الرسول يرحب بأن يلبِّي المسيحي دعوة غير المسيحي ليأكل عنده، إنما يحذِّر فقط أن لا يستهين المسيحي بإيمانه، كما لا يعثر مُضِيفَه:

+ «إن كان أحد من غير المؤمنين يدعوكم وتريدون أن تذهبوا، فكلُّ ما يقدَّم لكم كلوا منه غير فاحصين من أجل الضمير.» (١كو١٠: ٢٧)

+ «مقدمين كل أمانة صالحة (تجاه غير المؤمنين والأسياد) لكي يزيِّنوا تعليم مخلِّصنا الله في كل شيء.» (تي٢: ١٠)

ومنهج بولس الرسول في الفضائل الأخلاقية، سواء في السلوك الديني أو خارج الكنيسة، يكاد يجمع كل شوارد المتطلبات لحياة التقوى والرقي الأخلاقي لأصغر وأفقر عضو في الكنيسة إلى أعلى مرتبة فيها. وهو لم يَدَعْ الكنيسة تتلفَّت حولها لتستعير شيئاً من خارجها. فقد قدَّمها بولس بحق لتكون عذراء عفيفة عروساً مزيَّنة لعريسها، مدينة الله الحي أورشليم ذات الأساسات والعُمُد والأسوار والأبواب اللؤلؤية، جمالُها خلاصٌ، وبهاؤها تسبيح.

الفصل السابع

الكمال الأخلاقي

عند القديس بولس

أ ــ المسيح نموذج الكمال الأخلاقي الذي نأخذ منه لنتحول إليه:

لم يشرِّع بولس الرسول، لا للاهوت المسيحي ولا للأخلاق المسيحية. بولس الرسول كان ينظر المسيح ويصفه، ويسمع المسيح ويعلنه. لم يضع بولس منهجه كأوامر منقوشة على لوح، بل عاشه كحياة، ومن الحياة صاغ بنودها، كان المسيح فيها المرجع الوحيد، والمثل الأعلى، والنموذج الحي الذي يُحتَذى، والجسد الحي الذي منه يُغتذى. وكان الغرض الأسمى والنهائي عند بولس في رَسْمه للإنسان المسيحي هو، لا أن يصير شبيهاً بالمسيح، بل متحداً به، له فكره، وروحه، وحياته، وكل حركاته وسَكَنَاته، له ألمه وموته، وقبره وقيامته، وله مجده.

لم يتعوَّق منهج بولس في التطبيق بسبب كماله الفائق، بل نجح وامتد وغطَّى كل الكنيسة وكل الأرض، مع أن بولس لم يضع منهجه التزاماً، بل طرحه نموذجاً وقدَّم نفسه مثالاً. إلاَّ أن كلَّ مَنْ اقتحمه والتزم به وعاش فيه، وعاش له ملايين من بني البشر، كان يعطي بحياته صورة صادقة منتهى الصدق لهذا الكمال. إلاَّ أنه لم تأتِ قط صورة كالأخرى، ليبقى الكمال كمالاً لا ينقص أبداً، يؤخذ كله ويبقى كلُّه، وهذه هي سمة النموذج حينما يكون إلهيًّا.

حينما قال المسيح: «يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، مَنْ استطاع أن يقبل فليقبل» (مت١٩: ١٢)، جاء بولس ليترجم القول بالعمل: «أريد أن يكون جميع الناس كما أنا، لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله. الواحد هكذا والآخر هكذا.» (١كو٧: ٧)

واضح أن بولس الرسول سمع المسيح، فنادى، وبلغ نداؤه أقصى الأرض، فأطاعه الملايين ممن صاروا كبولس أو كقول المسيح. وكأن الموهبة كانت بانتظار نُطق المسيح ونداء بولس أو بانتظار

هذه الملايين التي سمعت وانطلقت في طريق الملكوت لا يعوقها عائق. وصارت البتولية في العالم منهجاً أخلاقياً بحد ذاته يشعُّ الإنجيل، ويسند الكنيسة في صمتٍ، ويشهد للنموذج الأكمل:

+ «... الذي هو المسيح فيكم رجاء المجد، الذي ننادي به منذرين كلَّ إنسان، ومعلِّمين كل إنسان، بكل حكمة، لكي نُحضِرَ كل إنسان كاملاً في المسيح يسوع» (كو١: ٢٧و٢٨)، حيث ليس الإنسان هو الذي يبلغ الكمال، بل إنه يبلغه في المسيح كعضو في جسد يستمتع بكمال الرأس.

وإن كان المنهج الأخلاقي يبدأ دائماً بالتمثُّل بالمسيح، ولكنه سرعان ما ينكشف السر أن النموذج الذي طرحه لنا المسيح بذاته لا يبقى كثيراً نموذجاً يُحتَذَى به بل نموذجاً يُغْتَصَبُ، بل يؤكل أكلاً: «أنتم فيَّ وأنا فيكم» (يو١٤: ٢٠)، «فمن يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦: ٥٧). فلماذا الاقتداء ولماذا التمثيل والتشبيه وقد وهب المسيح نفسه لكل مَنْ يؤمن به ويحبه؟

في الأول يأتي التغيير: «نحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح.» (٢كو٣: ١٨)

ولكن بالنهاية يأتي الاتحاد: «فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ» (غل٢: ٢٠)، «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» (في٤: ١٣)، «... ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧)، «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح.» (غل٣: ٢٧)

هكذا ينتقل **منهج الاقتداء** السلوكي والأخلاقي بالمسيح إلى **حقيقة الاتحاد** وقيادة المسيح للحياة.

فالمسيحي في نظر بولس الرسول يأخذ في البداية هويَّة الانتماء إلى المسيح، وبالنهاية يحوز على تحقيق شخصية هي شخصية المسيح التي يحيا بها. وهكذا كان ينظر بولس ويتفرَّس في المسيح، ثم يعطي منهجه الروحي الأخلاقي.

+ «فيجب علينا، نحن الأقوياء، أن نحتمل أضعاف الضعفاء، ولا نُرْضي أنفسنا. فلْيُرْضِ كل واحد منا قريبه للخير لأجل البنيان، لأن المسيح أيضاً لم يُرْضِ نفسه ...» (رو١٥: ١-٣)
+ «فَرحاً مع الفرحين، وبكاءً مع الباكين.» (رو١٢: ١٥)
+ «بكى يسوع!» (يو١١: ٣٥)

+ «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح ...» (في٢:٥)
+ «والرب يَهدي قلوبكم إلى محبة الله وإلى صبر المسيح.» (٢تس٣:٥)
+ «أطلب إليكم بوداعة المسيح وحِلْمه ...» (٢كو١٠:١)

ب ــ الفعل الإفخارستي يرقى إلى الكمال الأخلاقي:

إن السر التوحيدي الذي يوحد المسيحيين في جسد المسيح وروحه ليجعلهم واحداً بعد فُرقة واتحاداً بعد تمزُّق، إنما هو فعل أخلاقي بالدرجة الأولى:

+ « احكموا أنتم في ما أقول: كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح؟ الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح،
فإننا نحن الكثيرين، خبزٌ واحد، جسد واحد. لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد.» (١ كو١٠: ١٥ــ١٧)

هنا تبقى عملية اتحاد المؤمنين اتحاداً روحياً فعالاً في شخص المسيح بجسده وروحه، هي منتهى أمل البشرية ورجائها التي بها تتحد القلوب والأفكار والمبادىء والأرواح أيضاً. إنها حلم الفلاسفة، ومنتهى ما يتمناه ويتخيله المُصلحون الاجتماعيون. ولكن هيهات، لأنه بدون المسيح لا توجد في العالم قوة توحِّد ما بين اثنين، حتى ولو كانوا متساويَيْن في كل شيء، فما بالك حينما تكون الوحدة بين المتناقضات!

+ «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع.» (غل٣:٢٨)
+ «حيث ليس يوناني ويهودي ختانٌ وغُرْلة بربري سِكِّيثي ... بل المسيح الكل وفي الكل.» (كو٣:١١)

القديس يوحنا ذهبي الفم يشرح شركة سر الإفخارستيا هكذا:

[إن بولس لم يقل «مشاركة» participation (أي أن يأخذ كل واحد نصيبه من الجسد) بل قال «شركة» communion (ومعناها الحرفي co = معاً، union = اتحاد، أي عملية الاتحاد معاً). لأنه ــ أي بولس ــ قصد أن يشرح الاتحاد بصورة مقرَّبة للذهن. لأنه حينما نتناول من الأسرار المقدسة communion، لا نقتسم الجسد، أي المسيح، بل نتحد به. وفي الحقيقة كما أن الجسد متحد بالمسيح، هكذا بهذا الخبز نتحد بالمسيح، ولكن لماذا أنا أركز على شركة الاتحاد، لأن بولس يقول إننا نحن هذا الجسد عينه، لأن ما هو هذا الخبز؟ هو جسد المسيح، وماذا نصير نحن عند تناولنا هذا الخبز؟ نصير جسد المسيح لا أجساداً كثيرة

بعد، بل جسداً واحداً.] [1]

هذا الاتحاد يعمل في الحال لحساب التقوى كما يقول القديس أغسطينوس:

[سر الإفخارستيا هو سر التقوى، هو الآية الفعالة للوحدة، فهو رباط المحبة.] [2]

وهكذا يبقى سر الإفخارستيا في عقيدة الكنيسة هو الفعل الأول للكمال المسيحي، والضَمين الثابت لهذا الكمال. إذ يوحِّد المؤمنين معاً ثم يوحِّدهم بمصدر قداستهم وتقواهم وحياتهم الأبدية: «جسدي مأكلٌ حقٌّ، ودمي مشربٌ حقٌّ.» (يو٦: ٥٥)

أيُّ امتياز هذا أن صار للإنسان أن يغتذي ويشرب الحق؟

وبخصوص منهج بولس الأخلاقي، فليس خافياً أن الشعوب الأُوروبية ظلت تتشرَّبه، فكان لها المصدر الأمين في نشوء الأصول الأُولى للتربية المسيحية، ومبادىء التشريع والحرية، والمدنية على وجه العموم.

فما أعظم الدَّيْن الذي يدين به العالم لهذا الرسول!

أيُّ تقيٍّ، أي مُرْسَل، أيُّ واعظ، أي معلِّم لم يستمد قوة من فكره بل من روحه، أيّة نهضة، أيّة توبة لم تستمد حركتها بل قوتها من كلماته!

---

1. F. Prat, *op. cit.*, vol. II, p. 351.
2. Ibid.

الباب السابع

أمور آخر الزمان عند القديس بولس

الأخرويات ESCHATOLOGY

الفصل الأول

ما هي الإسخاتولوجيا

أ ــ معنى هذا الاصطلاح واستخداماته:

١ ــ المعنى العام لكلمة «إسخاتوس»:

ἔσχατος = "إسخاتوس" هو اصطلاح يُستخدَم للدلالة على شيء أخير، سواء كان **مادياً** مثل ما جاء على لسان المسيح: «الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي **الفَلْسَ الأخير**» (مت٥: ٢٦)؛

أو للدلالة على **المكان**: «تكونون لي شهوداً في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى **أقصى** الأرض» (أع١: ٨)، حيث «أقصى» هنا تجيء بمعنى آخر الأرض؛

أو للدلالة على **الزمن**: «فتصير **أواخر** ذلك الإنسان أشرَّ من أوائله» (مت١٢: ٤٥)؛

أو للدلالة على ترتيب **الأشخاص**: «ادعُ الفعلة وأعطِهم الأجرة مبتدئاً من **الآخِرين** إلى الأولين» (مت٢٠: ٨)؛

أو الدلالة على مبدأ أو فكرة أو حالة: «فتكون الضلالة **الأخيرة** أشرَّ من الأولى.» (مت٢٧: ٦٤)

ثم تتركز في الدلالة على اليوم: «وفي اليوم **الأخير** العظيم من العيد» (يو٧: ٣٧)، كذلك في الأعمال: «وأن أعمالك **الأخيرة** أكثر من الأولى.» (رؤ٢: ١٩)

وأول مظهر لاهوتي لاستخدام الـ«إسخاتوس» جاء على لسان بولس الرسول وهو يصف نفسه كآخر الكل (وليس مجرد أخير) على مستوى استعلان القيامة: «**وآخرُ** الكلِّ كأنه للسِّقْطِ ظهر لي أنا.» (١كو١٥: ٨)

٢ ـ الاستخدام اللاهوتي لكلمة «إسخاتوس»:

والتعبير بالـ «إسخاتوس» في المفهوم اللاهوتي يفيد نهاية أو ختام أو قفل نوع معين من تسلسل الحوادث، حتى إن بعد هذا الـ «إسخاتوس» لا يكون شيء من هذه الحوادث. وهذا يتضح من كيف يُستخدَمُ هذا الاصطلاح في العهد القديم للدلالة على «يوم يهوه» = يوم الرب. فالنهاية بالنسبة لتسلسل حوادث العهد القديم تأتي في المسيحية بظهور المسيح: «الله بعد ما كلَّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلَّمنا في هذه الأيام **الأخيرة** ἐσχάτου في ابنه» (عب ١: ١و٢)؛ «معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أُظْهِرَ في الأزمنة **الأخيرة** ἐσχάτου من أجلكم.» (١بط ١: ٢٠)

وهكذا، واعتماداً على أن مجيء يوم الرب وظهور المسيَّا هو "الإسخاتون" في العهد القديم، اعتبر المسيحيون الأوائل أنهم قد أصبحوا في يوم الرب نفسه وأنهم امتداداً به يعيشون «الإسخاتوس»، وذلك بعد أن تحققوا تماماً من حلول الروح القدس يوم الخمسين كعلامة محقَّقة وبارزة أعطاها العهد القديم للتعرُّف على بدء الـ «إسخاتوس»: «يقول الله ويكون في **الأيام الأخيرة** أني أسكب من روحي على كل بشر» (أع ٢: ١٧). ومن واقع لاهوت الخير والشر، والنور والظلمة، والحق والباطل، والاعتراف والتجديف، فإنه بمجيء الحق بالمسيح يجيء أيضاً وحتماً التجديف ومَنْ هو ضِدُّ المسيح. فظهور الضدّ للمسيح أصبح هو الآخر علامة على آخر الأيام:

+ «ولكن اعلم هذا أنه في **الأيام الأخيرة** ستأتي أزمنة صعبة لأن الناس يكونون مُحبِّين لأنفسهم، مُحبِّين للمال ... مجدِّفين ...» (٢تي ٣: ١و٢)

+ «عالمين هذا أولاً أنه سيأتي في **آخر الأيام** قوم مستهزئون سالكين بحسب شهوات أنفسهم...» (٢بط ٣: ٣)

+ «أيها الأولاد هي **الساعة الأخيرة**، وكما سمعتم أن ضدَّ المسيح يأتي، قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون، من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة.» (١يو ٢: ١٨)

ولكن كما كان للعهد القديم رؤيا شفافة صادقة مؤكدة لأواخر الأيام بمجيء «يوم الرب»، هكذا صار للعهد الجديد رؤيا مساوية وشفافة ومؤكدة لأواخر أيام قادمة تبدأ بظهور المسيح ثانية ومعه حوادث آخر الزمان الخطيرة:

+ «لأنه يجب أن يملك (المسيح) حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه، آخر ἔσχατος عدو يبطل هو الموت.» (١كو ١٥: ٢٥و٢٦)

وسيكون لهذا اليوم علامة مسموعة: «في لحظة في طرفة عين عند **البوق الأخير** ἐσχάτῃ.»

(۱ كو ۱۵: ۵۲)

ويصاحبه مصاعب فائقة: «ثم رأيت آية أخرى في السماء عظيمة وعجيبة، سبعة ملائكة معهم السبع الضربات **الأخيرة** لأن بها أُكمل غضب الله.» (رؤ ۱۵: ۱)

وينتهي هذا اليوم الأخير بالقيامة التي يُجْريها الرب لمختاريه: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتلف منه شيئاً، **بل أُقيمه في اليوم الأخير**» (يو ٦: ٣٩)؛ حيث يعتبر القديس بطرس أن القيامة الأخيرة هي إعلان الخلاص الأخير: «أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان، لخلاص مستعد أن يُعْلَنَ **في الزمان الأخير**.» (١ بط ١: ٥)

٣ ــ تعبيرات إسخاتولوجية أخرى:

وقد أعطى المسيح تعبير تكميل أو كمال أو نهاية أو ختام أو ملء الدهور **συντελεία αἰῶνος** وبالـلاتينية **consummatio** للإفادة عن تكميل آخر الزمان، التي جاءت ترجمتها باللغة العربية بتصرف: «انقضاء العالم»:

+ «والحصاد هو **انقضاء العالم** ... فكما يُجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا **يكون في انقضاء هذا العالم**.» (مت ١٣: ٣٩و٤٠)
+ «هكذا يكون في **انقضاء العالم** (كمال الدهر) يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار.» (مت ١٣: ٤٩)
+ «قل لنا متى يكون هذا وما هي علامة مجيئك **وانقضاء الدهر** (كمال الدهر).» (مت ٢٤: ٣)
+ «وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام **إلى انقضاء الدهر** (كمال الدهر).» (مت ٢٨: ٢٠)

وبالرغم من أن المسيح استخدم اصطلاح «كمال» أو «ملء» أو «ختام» أو «نهاية» الدهور للإفادة عن نهاية العالم، إلاَّ أن بولس الرسول استخدم هذا الاصطلاح عينه συντελεία αἰῶνος للإفادة عن ظهور المسيح بالتجسد وعمل الفداء: «فإذ ذاك كان يجب أن يتألم مراراً كثيرة منذ تأسيس العالم، ولكنه الآن قد أُظهر مرَّة عند انقضاء الدهور συντελείᾳ τῶν αἰώνων ليُبْطِل الخطية بذبيحة نفسه» (عب ٩: ٢٦). أي أن هذا الاصطلاح يعبِّر عن العصر الماسياني.

وهذا الاصطلاح يفيد نفس الإفادة التي يعبِّر بها الاصطلاح الآخر عند بولس الرسول وهو

وهو «**ملء الزمان**»: τὸ πλήρωμα τοῦ χρόνου «لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس.» (غل٤:٤)

كذلك الاصطلاح τὸ πλήρωμα τῶν καιρῶν وهو **ملء الأزمنة**: «لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذاك» (أف١:١٠)، تعبيراً عن أزمنة الخلاص الممتدة منذ الفداء حتى النهاية!

بطرس الرسول في رسالته الأولى، يضع بالكلمات الواضحة مفهوم الـ «إسخاتولوجيا» بالنسبة لإنسان الإيمان في العهد الجديد باصطلاح «نهاية كل شيء» πάντων δὲ τὸ τέλος: «وإنما نهاية كل شيء قد اقتربت. فتعقَّلوا واصحوا للصلوات.» (١بط٤:٧)

وهي عند بولس الرسول أواخر الدهور τὰ τέλη τῶν αἰώνων «نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور» (١كو١٠:١١)، بمعنى الدخول في العصر المسيَّاني، أي في أواخر الدهور نفسها واستعلان دهر الخلاص. وإنجيل القديس يوحنا يستخدم «اليوم الأخير» و«الساعة الأخيرة» للتعبير عن إسخاتولوجيا الإنسان المسيحي المرتبطة بالقيامة الأخيرة والدينونة.

٤ ــ محاولة لحصر المعنى:

تحت كلمة «إسخاتولوجي» التي أصبحت لازمة من لوازم اللاهوت، تنحصر حالة الإنسان من بعد الموت حتى استعلان القيامة الأخيرة والدينونة وكل ما يصاحبها من حوادث وتغييرات ونتائج إلى تكميل نهاية كل شيء.

وهنا يتحتم التعرض لكلمة «أبوكاليبسيس» ἀποκάλυψις التي تُرْجِمَت «رؤيا» في سفر رؤيا يوحنا وأُعطيت بالإنجليزية كلمة «استعلان» Revelation. والمعنى الأساسي لهذه الكلمة يفيد وصف حوادث الضيقة العظمى التي تختص بالعبادة والأخلاق والتي تسبق اليوم الأخير. وهي تُصوِّر الصراع الرهيب بين قُوَى السموات والجحيم، والنقمة المصبوبة على الذين انضووا تحت لواء الشيطان، سواء كانوا بشراً أو ملائكة ساقطين. وهذه أيضاً تعتبر مقدمات الإسخاتولوجيا النهائية.

٥ ــ الدهر الحاضر والدهر الآتي:

اتفق الأنبياء على أنه بظهور المسيَّا يُشرق على الإنسان حقبة أو عصر جديد، وهكذا كان يُحسب أن هذا العصر سيكون «نهاية الأيام»:

+ «ويكون في **آخر الأيام** أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال، وتجري إليه كل الأمم، وتسير شعوب كثيرة ويقولون: هلمَّ نصعد إلى جبل الرب إلى

بيت إله يعقوب فيُعلّمنا من طُرُقه ونسلك في سبله. لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب، فيقضي بين الأمم ويُنْصِف لشعوب كثيرين، فيطبعون سيوفهم سِكَكاً ورماحَهُم مناجِلَ. لا ترفع أمة على أمة سيفاً ولا يتعلمون الحرب فيما بعد.» (إش٢: ٢—٤)

ويلاحظ أن نبوة إشعياء عن «نهاية الأيام» دخل فيها عصر المسيح ولا زالت تمتد لتشمل نهاية الأيام بالنسبة لنا أيضاً، لأن توقف الحروب هو أمل مستقبل الشعوب الآن.

وهكذا يتضح أن إسخاتولوجيا الأنبياء في العهد القديم (نهاية الأيام) شملت دون تفريق هذا الدهر والدهر الآتي في إسخاتولوجيا واحدة. أما إسخاتولوجيا المسيح والمسيحية فوضّحت الفارق وجعلت للدهر الآتي خصائصه، وهي القيامة والدينونة وما يلازمها من حوادث صعبة ثم حياة أبدية:

+ «فأجاب وقال لهم يسوع: أبناءُ **هذا الدهر** يزوِّجون ويُزَوَّجون. ولكن الذين حُسِبُوا أهلاً للحصول على **ذلك الدهر** والقيامة من الأموات لا يزوِّجون ولا يزوَّجون.» (لو٢٠: ٣٤و٣٥)

+ «... إلاَّ ويأخذ مائة ضعف **الآن في هذا الزمان** νῦν ἐν τῷ καιρῷ τούτῳ **... وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية.**» (مر١٠: ٣٠)

٦ ــ أوضح تعبير عن الإسخاتولوجيا في العهد القديم يطابق إسخاتولوجيا العهد الجديد:

جاء على فم دانيال النبي: «وفي ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك، ويكون زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الوقت. وفي ذلك الوقت يُنجَّى شعبك كل مَنْ يوجد مكتوباً في السفر. وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون (الصالحون) يضيئون كضياء الجلد والذين ردُّوا كثيرين إلى البرِّ كالكواكب إلى أبد الدهور.» (دا١٢: ١—٣)

واضحٌ هنا الدور الأول والعظيم والفريد الذي لا يُجارَى لرئيس الملائكة ميخائيل في الإسخاتولوجيا عموماً، سواء بالمفهوم اليهودي أو المسيحي. وقد وضح ذلك في سفر الرؤيا الاستعلاني للقديس يوحنا اللاهوتي، ففيه يكون هو المنوط بالحرب مع الشيطان رأساً: «وحدثت حرب في السماء. ميخائيل وملائكته حاربوا التنين وحارب التنين وملائكته، ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء. فطُرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يُضلُّ العالم كله طُرح إلى الأرض وطُرحت معه ملائكته.» (رؤ١٢: ٧—٩)

وواضح في نبوة دانيال:

١ ــ صورة الضيقة العظيمة التي تسبق «يوم الرب».

٢ ــ كذلك واضح من نجاة كل من كان مكتوباً في السفر أنه سفر الحياة.

٣ ــ كما وَضَحت أيضاً القيامة العامة من الموت للأخيار والأشرار.

٤ ــ وكذلك الدينونة العتيدة.

٥ ــ والحياة الأبدية بأمجادها.

٦ ــ وما يقابلها من العار والإزدراء الأبدي بلا نهاية.

٧ ــ والهوة والحاجز اللذان يفصلان بينهما.

ونحن نعتقد أن القديس بولس اتخذ من قول دانيال: «وفي ذلك الوقت ينجّى شعبك كل مَنْ يوجد مكتوباً في السفر»، وبعدها مباشرة يقول: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون»، اتخذ فكرة: «هوذا سِرٌّ أقوله لكم: لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغيَّر» (١ كو١٥: ٥١)، لأن من واقع نبوة دانيال يتضح أن جزءاً سينجو بدون موت.

وفي نبوة إشعياء النبي يتضح لنا المقياس الإلهي الذي تُقاس به الأزمنة عند الله لتحديد ميعاد الافتقاد أو ميعاد الدينونة:

+ «عزوًا عزوًا شعبي يقول إلهكم، طيِّبوا قلب أورشليم ونادوها **بأن جهادها قد كمل،** أن إثمها قد عُفِي عنه **أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها!!!** صوت صارخ في البرية، أعدُّوا طريق الرب قوّموا في القفر سبيلاً لإلهنا ... فيُعلَن مجد الرب ويراه كل بشر جميعاً لأن فم الرب تكلم.» (إش٤٠: ١ــ٥)

واضح من نبوة إشعياء:

أولاً: إلى أي مدى وزمان يترك الرب الإنسان تحت الضيق.

ثانياً: متى ولماذا ينزل الرب، ويولد المسيح للفداء.

فأورشليم كناية عن شعب الله الذي أفسد طريقه وسار في طريق الإثم، ولهذا تركها الرب تجاهد ضد عناصر مضادة كثيرة حتى رأى الرب أن جهادها صار فيه الكفاية، فعفى عن إثمها على أساس أن الرب أدّبها بثمن خطاياها ضعفين!! وحينئذ جاء ملء الزمان وأرسل الله روح إيليا في يوحنا المعمدان، ثم نزل الابن من السماء، حسب النبوات.

ب ـ قيمة التطلع نحو أمور الأخرويات :

ولا يخفى عن القارىء أن القيمة الحقيقية للتطلع نحو أمور الأخرويات كانت منذ الدهر محطّ أنظارِ ورجاءِ وحنينِ الآباء والأنبياء والقديسين وحتى إلى الآن.

ولكن إن كان مجيءُ المسيح وانفتاح أزمنة الخلاص وانسكاب الروح القدس بمباهج الفرح والحب الإلهي والإحساس بالسماء بل ومُعايشة أمجاد الدهر الآتي قد أشبعت كثيراً وكثيراً جداً من الحنين الذي برّح بمشاعر الإنسان الروحي، إلاَّ أنه لا تزال الأمور الأخروية، وإن كانت لا تقلق النفس الناظرة إلى فوق، فهي تطرح أسئلة كثيرة تشتهي كل نفس أن تطّلع عليها.

ثم لا يخفى أيضاً عن الإنسان الباحث في مدى صدق أو مصداقية الجري وراء الأُمور الأُخروية التي يحجزها الزمن أو يحجزها قعود الخبرات الروحية عن رؤيتها واللحاق بها، أن العالم نفسه بوضعه العلماني سواء الفلسفي أو التِقْنيّ الهندسي بكل فروع التكنولوجيا قد بلغ أوج البحث فيما هو في الأرض وتحت الأرض وما في السماء وما وراء السماء والقمر والنجوم والمجرّات، ناهيك عن القوة التي أطلقها الإنسان سواء من الذرة أو غيرها، وما آلت إليه من تطورات شاسعة في البعد الزماني والمكاني بما يفوق تصور العقل وحساباته، أليس هذا امتداداً فعلياً نحو الأخرويات إنما على المستوى المادي؟

ثم لو طرحنا ـ فرضاً ـ سؤالاً على الإنسان منذ ألف سنة هل بوسع الإنسان أن يذهب إلى القمر ويتمشى فوقه لكان جوابه إن هذا من شأن الأُخرويات!! وها نحن قد انطلقنا إلى القمر ذهاباً وإياباً وسرنا عليه وأكلنا فوقه وشربنا!!

وهكذا يعيش عالم اليوم أخرويات أمس. وحتماً سيعيش في غده القريب أخرويات اليوم!!

وعلى أي حال، لن يكف العالم عن البحث والفحص وبَرْمَجة شئون المستقبل ـ الأخرويات ـ بأقصى جهد وسيحصل بالفعل على الأعاجيب والمذهلات.

ولكن تبقى أخرويات الفكر والمادة سراباً وأحلاماً يستيقظ العالم منها بعد أن يحياها فيجدها حفنة تراب وقبضة ريح. أما أخرويات الروح، فبقدر ما فيها من شحٍّ وجهد جهيد، فالقليل منها يُنعش روح الإنسان ويملأه بالرجاء الذي يجدد حياته وكأنه يَلِدُه من جديد. إن أعظم ما تشتهيه نفس الإنسان السويّ أن يعرف ويتيقن أن هناك سعادة حقيقية تنتظره يوم يغمض عينيه ليغيب عن هيئة هذا العالم الزائل! ناهيك أنْ يأخذ من الآن عربونها ويعيشه!

كذلك لا نبالغ في القول إذا علمنا أن سعادة حاضرنا وقدرتنا على استيعاب حقوقنا فيه ترتبط بالأساس بقدرتنا على إدراك مستقبلنا بوعي روحي وثقة لمعايشة أسراره وأمجاده، كحقوق لا تُنال بالتمنِّي بل بالاغتصاب: «ملكوت السموات يُغصَبُ والغاصبون يختطفونه.» (مت ١١: ١٢)

وهكذا نقول بيقين إن سعادة الإنسان في نعيم الله تبدأ وتُعَاشُ من الآن قبل مجيء الأخرويات، الجحيم كذلك يعيشه الخطاة هنا قبل أن يواجهوه هناك.

لأنه ليس لمخلوق قط أُعطي أن يخترق الزمن والخلود إلاَّ الإنسان! فهو الوحيد الذي أُعطي له أن يحوِّل الزمن إلى خلود! ويخترق الأخرويات! ويستحضر لنفسه ما هو ليس موجوداً! كما أنه هو الذي يُتعس قَدَرَه بجهله، بأن يصنع له من تراب الأرض وشهوات الجسد جحيماً بقدر طوله وعرضه.

الإسخاتولوجيا (الأمور الأخروية الآتية) لا تقوم على قواعد نظرية أو فكرية أو تأملية، ولكن تقوم على قاعدة صلبة في الإيمان المسيحي أن المسيح «مات وقام»، فموت المسيح هو الفعل الزمني للخلاص، وقيامة المسيح هي الفعل الأخروي الأبدي، وهذه الحقيقة شرحها المسيح عملياً بقوله: «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩). وبولس الرسول حوَّلها إلى قاعدة إيمانية: «لأنكم قد مُتُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣: ٣و٤)

هكذا يكشف بولس الرسول عن أعمق معاني الإسخاتولوجيا وهي وجود المستقبل مختبئاً في الحاضر بانتظار العلانية الأخيرة، بظهور المسيح. وهذا هو بعينه الخلاص الواقع في الحاضر الزمني الممتد للاستعلان في المستقبل الأبدي. وهكذا، فالإسخاتولوجيا في أبسط صورة لها هي فعل إلهي يُستعلن مرتين، **المرة الأولى** في عمق الزمن ليمسك به الإنسان بيديه: «امسك بالحياة الأبدية التي إليها دُعيتَ» (١تي٦: ١٢)، التي ليست أكثر من أن يمسك بالصليب!!، **والمرة الثانية** ليرتفع به الإنسان في دائرة الله. ولكن في الاستعلان الأول لفعل الخلاص الإلهي يظل الإنسان على مستوى موت المسيح، أي المعاناة والآلام في عمق الزمن بانتظار الاستعلان الثاني الذي هو على مستوى القيامة والظهور، أي لمسح كل دمعة وقبول شركة المجد. ولكن الاستعلان الثاني يبقى دائماً مرتبطاً رباطاً وثيقاً بالأول، وهكذا يحتمل الإنسان الصليب من أجل السرور الموضوع أمامه!!

الفصل الثاني

النصوص الأخروية في رسائل القديس بولس

إذا رتَّبنـا المواضيع اللاهوتية البارزة التي تزاحمت في قلب بولس الرسول وعبَّر عنها في مواضعها فكوَّنت هيكل لاهوته، نجدها هكذا بحسب الأهمية عند بولس الرسول، حيث نجد الإسخاتولوجيا تأتي دائماً كتعقيب وليست ذات أصالة في اللاهوت الفدائي:

أولاً: الفداء ومركزه الصليب.

ثانياً: القيامة ومركزها الحياة الأبدية.

ثالثاً: الإنسان الجديد ومركزه حرية البنين، في مقابل الإنسان العتيق ومركزه عبودية الخطية.

رابعاً: الجسد السرِّي للمسيح ومركزه الكنيسة بصورتها العضوية وامتدادها فوق الزمن.

خامساً: الأخرويات ومركزها المسيح.

ولكن بالرغم من أن الحديث عن الأخرويات يجيء في آخر المواضيع المهمة عند بولس الرسول إلاَّ أنها استحوزت على قدر كبير من الكلام والتوضيح. والآيات التي ركَّز عليها القديس بولس رؤيته للأمور الأخيرة هي كالآتي بحسب ترتيبها الزمني في تاريخ كتابة الرسائل:

(أ) «ثم لا أريد أن تجهلوا أيها الإخوة **من جهة الراقدين** لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم،

لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع سيُحضرهم الله أيضاً معه،

فإننا نقول لكم هذا ــ بكلمة الرب ــ **إننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب لا نسبق الراقدين،**

لأن الرب نفسه بهتاف، بصوت رئيس ملائكة، وبوق الله، سوف ينزل من السماء. والأموات في المسيح سيقومون أولاً،

ثم نحن الأحياء الباقين سنُخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء،

وهكذا نكون كل حين مع الرب، لذلك عزُّوا بعضكم بعضاً بهذا الكلام.» (١تس٤: ١٣—١٨)

(ب) «**وأما الأزمنة والأوقات، فلا حاجة لكم أيها الإخوة أن أكتب إليكم عنها، لأنكم أنتم تعلمون بالتحقيق أن يوم الرب — كلصٍّ في الليل — هكذا يجيء.**
لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ **يفاجئهم هلاك بغتة** كالمخاض للحُبْلى فلا ينجون،
وأما أنتم أيها الإخوة فلستم في ظلمة حتى **يدرككم ذلك اليوم كلص،** جميعكم أبناء نور وأبناء نهار.» (١تس٥: ١—٥)

(ج) «وإياكم الذين تتضايقون راحة معنا **عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته،**
في نار لهيب مُعْطياً نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح،
الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته،
متى جاء ليتمجد في قديسيه ويُتعجَّب منه في جميع المؤمنين، لأن شهادتنا عندكم صدقت في ذلك اليوم.» (٢تس١: ٧—١٠)

(د) «لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا، **أي أن يوم المسيح قد حضر، ...**
لأنه لا يأتي إن لم يأتِ الارتداد أولاً، ويُستعلَن إنسان الخطية ابن الهلاك،
المقاوم والمرتفع على كل ما يُدْعَى إلهاً أو معبوداً، حتى إنه يجلس في هيكل الله كإله **مُظهراً نفسه أنه إله، ...**
والآن تعلمون ما يَحجز، حتى يستعلن في وقته،
لأن سِرَّ الإثم الآن يعمل فقط، إلى أن يُرفَع من الوسط الذي يحجز الآن، وحينئذ سيُستَعلن الأثيم الذي الرب يُبيده بنفخة فمه ويُبطله بظهور مجيئه، الذي مجيئه —
أي الأثيم — **بعمل الشيطان** بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة، وبكل خديعة الإثم في الهالكين لأنهم لم يقبلوا محبة الحق حتى يخلصوا، ولأجل هذا **سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدِّقوا الكذب.**
لكي يُدانَ جميع الذين لم يصدِّقوا الحق بل سُرُّوا بالإثم.» (٢تس٢: ١—١٢)

(هـ) «ولكن إن كان المسيح يُكْرَزُ به أنه قام من الأموات، فكيف يقول قوم بينكم إنه ليس قيامة أموات،

فإن لم تكن قيامة أموات فلا يكون المسيح قد قام، وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل هو إيمانكم، ونوجد نحن أيضاً شهود زور لله لأننا شهدنا من جهة الله أنه أقام المسيح وهو لم يُقِمْهُ إن كان الموتى لا يقومون، لأنه إن كان الموتى لا يقومون فلا يكون المسيح قد قام، وإن لم يكن المسيح قد قام فباطل إيمانكم، أنتم بعد في خطاياكم، إذاً الذين رقدوا في المسيح أيضاً هلكوا. إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاء في المسيح فإننا أشقى جميع الناس،

ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين،

فإنه إذ الموت بإنسان بإنسان أيضاً قيامة الأموات،

لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع،

ولكن كل واحد في رتبته، المسيح باكورة ثم الذين للمسيح في مجيئه،

وبعد ذلك النهاية، متى سلّم المُلْكَ لله الآب،

متى أبطل كل رياسةٍ وكل سلطان وكل قوة.

لأنه يجب أن يملك حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه.

آخر عدوٍّ يُبْطل هو الموت،

لأنه أخضع كل شيء تحت قدميه،

ولكن حينما يقول إن كل شيء قد أُخضع (لله)، فواضح أنه غير (المسيح) الذي أخضع له الكل.

ومتى أُخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل،

كي يكون الله الكل في الكل،

وإلاّ فماذا يصنع الذين يعتمدون من أجل الأموات؛ إن كان الأموات لا يقومون البتة فلماذا يعتمدون من أجل الأموات؟

ولماذا نخاطر نحن كل ساعة؟ إني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم.

إن كنت كإنسان قد حاربت وحوشاً في أفسس فما المنفعة لي إن كان الأموات لا يقومون؟ فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت.

لا تضلُّوا، فإن المعاشرات الرديَّة تفسد الأخلاق الجيدة. اصحوا للبر ولا تخطئوا، لأن قوماً ليست لهم معرفة بالله. أقول ذلك لتخجيلكم.

لكن يقول قائل كيف يُقام الأموات وبأي جسم يأتون؟

يا غبي، الذي تزرعه لا يحيا إن لم يَمُتْ،
والذي تزرعه لستَ تزرع الجسم الذي سوف يصير بل حبَّةً مجردةً. ربما من حنطةٍ أو أحد البواقي،
ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد. ولكل واحد من البذور جسمه،
ليس كلُّ جسدٍ جسداً واحداً، بل للناس جسدٌ واحدٌ، وللبهائم جسدٌ آخر، وللسمك آخر وللطير آخر،
وأجسام سماوية وأجسام أرضية،
لكن مجد السمويات شيء ومجد الأرضيات آخر،
مجد الشمس شيء ومجد القمر آخر ومجد النجوم آخر،
لأن نجماً يمتاز عن نجم في المجد.
هكذا أيضاً قيامة الأموات، يُزرع في فساد ويُقام في عدم فساد، يُزرع في هوان ويُقام في مجد، يُزرع في ضعف ويُقام في قوة. يُزرع جسماً حيوانياً ويُقام جسماً روحانياً. يوجد جسم حيواني ويوجد جسم روحاني.
هكذا مكتوب أيضاً صار آدم الإنسان الأول نفساً حيَّةً وآدم الأخير روحاً مُحيياً،
لكن ليس الروحاني أولاً بل الحيواني وبعد ذلك الروحاني،
الإنسان الأول من الأرض ترابي، الإنسان الثاني الرب من السماء،
كما هو الترابي هكذا الترابيون أيضاً، وكما هو السماوي هكذا السماويون أيضاً،
وكما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي.
فأقول هذا أيها الإخوة إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله، ولا يرث الفساد عدم الفساد.
هوذا سِرٌّ أقوله لكم،
لا نرقد كلُّنا ولكننا كلنا نتغيَّر، في لحظةٍ في طرفة عينٍ عند البوق الأخير، فإنه سيبوَّق فيُقامُ الأموات عديمي فساد ونحن نتغيَّر،
لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت،
ومتى لبس هذا الفاسد عدم فساد ولبس هذا المائت عدم موت، فحينئذ تصير الكلمة المكتوبة: ابتُلع الموت إلى غلبة،
أين شوكتك يا موت؟ أين غَلَبتك يا هاوية؟!
أما شوكة الموت فهي الخطية وقوة الخطية هي الناموس.
ولكن شكراً لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح.

إذاً يا إخوتي الأحباء كونوا راسخين غير متزعزعين مُكْثرين في عمل الرب كل حين. عالمين أن تعبكم ليس باطلاً في الرب.» (١ كو١٥: ١٢—٥٨)

(و) «لأننا نعلم أنه **إنْ نُقِضَ بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله، بيتٌ غير مصنوع بيد، أبديٌّ،**

فإننا في هذه أيضاً نئن مشتاقين إلى أن نلبس **فوقها** مسكننا الذي من السماء،

وإن كنا لابسين (الأصح: "حتى إذا لبسناها أو إذا صرنا لابسين") **لا نوجد عراة،**

فإننا نحن الذين في الخيمة (الأصح: "فإننا طالما كنا في هذه الخيمة") نئن مثقَّلين إذ لسنا نريد أن نخلعها، بل **أن نلبس فوقها لكي يُبتلَعُ المائت (بواسطة ὑπό) الحياة.**

ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا **أيضاً الروح كعربون** (بحسب المعنى)،

إذاً فنحن واثقون (متشجعون) كل حين، وعالمون أننا **ونحن مستوطنون في الجسد فنحن متغرِّبون عن الله،**

لأننا بالإيمان نسلك لا بالعيان،

فنثق ونُسَرُّ بالأولى **أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب،**

لذلك نحترص (فليكن طموحنا) أيضاً مستوطنين كنا (في الجسد) أو متغرِّبين (عن الرب) أن نكون مرضيين عنده،

لأنه لا بد **أننا جميعاً نُظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً.**» (٢ كو٥: ١—١٠)

(ز) «الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا **ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح،**

إن كنا نتألم معه لكي نتمجَّد أيضاً معه،

فإني أحسب أن آلام الزمان الحاضر **لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا،**

لأن انتظار (بقلق) الخليقة يتوقع (باشتياق) استعلان أبناء الله، إذ أُخضعت الخليقة للبُطل، ليس طوعاً (بإرادتها) **بل (بإرادة) الذي أخضعها على الرجاء،**

لأن الخليقة نفسها أيضاً ستُعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله،

فإننا نعلم أن كل الخليقة تئن وتتمخض معاً إلى الآن،

وليس هكذا (الخليقة) فقط، بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضاً نئن في أنفسنا **متوقعين التبني فداء أجسادنا.**» (رو٨: ١٦—٢٣)

(ح) «فإني لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر ...، أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم، وهكذا سيخلص جميع إسرائيل.» (رو١١: ٢٥و٢٦)

(ط) «لأنكم قد مُتّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله.» (كو٣:٣)

(ي) «الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل استطاعته أن يُخْضِعَ لنفسه كل شيء.» (في٣:٢١)

(ك) «أنا أُناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته،

اكرز بالكلمة، اعكف على ذلك، في وقت مناسب وغير مناسب،

وبّخ، انتهر، عِظْ بكل أناة وتعليم،

لأنه سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح بل حسب شهواتهم الخاصة يجمعون لهم معلمين مُستحكّةً مسامعهم فيصرفون مسامعهم عن الحق وينحرفون إلى الخرافات،

وأما أنت فاصْحُ في كل شيء، احتمل المشقات. اعمل عمل المبشِّر. تمِّم خدمتك،

فإني أنا الآن أُسكب سكيباً ووقت انحلالي قد حضر، قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعي حفظت الإيمان،

وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديَّان العادل،

وليس لي فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً.» (٢تي٤: ١-٨)

وإن كان القديس بولس لم يستوفِ موضوع الأخرويات من حيث التحقيق والتوضيح واكتفى بنظرات عاجلة أرغمته عليها أسئلة المؤمنين المستجدين من الأمم الذين لم يكن لهم تراث أخروي، فإننا أيضاً لا نجد الرب نفسه قد استوفى مفهوم أمور الآخرة والأخرويات لأنه بالكاد استطاع سامعوه أن يستوعبوا البدايات والمداخل إليها: «إن كنتُ قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون، فكيف تؤمنون إن قلت لكم السماويات.» (يو٣:١٢)

لذلك سوف نقتصر في معالجتنا لهذا الموضوع هنا من زاوية رؤية القديس بولس، مكتفين بالناحية الروحية التي تخص صميم وجودنا وإيماننا ورجائنا وتطلعاتنا القريبة والبعيدة من نحو ما ينتظرنا من جهة الموت وما بعد الموت والدينونة وحياة الدهر الآتي.

هل تتضارب الإسخاتولوجيا مع حركة الزمن عند القديس بولس؟

عندما نقرأ الآتي:

«هوذا سِرٌّ أقوله لكم لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغيَّر،

في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير، فإنه سيبوَّق فيُقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغيَّر.» (١ كو١٥: ٥٢و٥٣)؛

فإن هذا الفكر يتجاوز حقيقة الواقع ولا يتمشى مع منطق الأحداث، فلا بولس تغيَّر ولا الأموات قاموا، فهل تزيفت الرؤيا عند بولس؟ لا نعتقد قط! ولكن هي المضادة المؤلمة بين الإيمان الحار الملتهب الذي يرتفع بالرؤيا في صدق الروح فيراها وكأنها تحققت أو وشيكة الحدوث، وبين الزمن الذي لا يخضع للإيمان كالمارد العنيد الذي يسخر بالروح والروحيات ويسير سيرته العرجاء لا يلوي على خير.

فبولس رأى نفسه بالفعل وقد تغيرت: «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً» (٢ كو٥: ١٧)؛ «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نتغير إلى تلك الصورة عينها، من مجد إلى مجد كما من الرب الروح.» (٢كو٣: ١٨)

فمن ذا الذي يحصل على هذا القدر من التجديد في صميم خليقته والتغيير في طبيعته ولا يقول قولة بولس:

+ «هوذا سِرٌّ أقوله لكم لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغيَّر»!

ولكن حرارة الإيمان ورؤية الروح الصادقة لا يعترف بها الزمان الجاحد الذي لا يتغير إلاَّ إلى زوال!

وهكذا وكأن الزمان قد سخر من بولس وكذَّب رؤياه، ولكن: «فأجابني الرب وقال اكتب الرؤيا وانقشها على الألواح لكي يركض قارئها. لأن الرؤيا بعد إلى الميعاد وفي النهاية تتكلم ولا تكذب، إن توانَتْ فانتظرها لأنها ستأتي إتياناً ولا تتأخر.» (حب٢: ٢و٣)

وهكذا، عزيزي القارىء، يكون من الخطأ ومن الخطر أن نُدخل عامل الزمن في التعرف على الأخرويات، فكل رؤيا هي في حقيقتها خروج عن الزمان وهي معه دائماً متضادة.

ولكن هل عندما ندخل في الأخرويات يحلُّ لنا أن نتجاهل الزمن؟ هذا هو الخطأ الذي تمادى

فيه أهل تسالونيكي، ففي غمرة الفرح الروحي والإحساس بالخلاص والتجديد الذي حازوه، تجاوزوا تشجيعات بولس الرسول وإنجيله وألقوا باختباراته وراء ظهرهم، إذ رأوا أنفسهم وقد بلغوا قيامة الأموات نفسها وأنهم حصلوا على حياة الدهر الآتي (أنظر ٢تس٢: ٢ و٢تي٢: ١٨). فدلَّ ذلك على تنكُّبهم طريق الاتضاع، وتجاهلِ عنصر المسكنة، وإحناءِ الظهر للآلام ومواجهة الزمن الحاضر والصليب على الأكتاف.

وهذا مما حدا ببولس أن يكتب إليهم رسالته الثانية محذراً من الخروج عن حق الإنجيل الذي تسلّموه حتى لا يقعوا في خديعة الشيطان (٢تس٢: ١٢).

وهكذا، عزيزي القارىء، يكون من الخطأ ومن الخطر فصل الإسخاتولوجيات عن واقع الزمن بفريضة آلامه التي صارت من عناصر الخلاص الأساسية. و بولس يربط أبصارنا الروحية بحركة الزمان الغادرة لئلا تغطينا ظلمة هذا الدهر فلا نتبيَّن يوم الرب: «وأما الأزمنة والأوقات فلا حاجة لكم أيها الإخوة أن أكتب إليكم عنها، لأنكم أنتم تعلمون بالتحقيق أن يوم الرب ــ كلصٍّ في الليل ــ هكذا يجيء ... فلا نَنَمْ إذاً كالباقين بل لنسهرْ ونَصْحُ.» (١تس٥: ١و٢و٦)

الفصل الثالث

الموت وما بعد الموت

عند القديس بولس الرسول

١ ــ قيمة الموت في الاعتبار الإسخاتولوجي عند القديس بولس:

يلزم أن ننتبه أن الذي يفصلنا الآن عن الإسخاتولوجيا، أي الأمور الأخيرة الآتية، أي القيامة والدينونة والحياة الأبدية، هو الموت!! فنحن الآن نرقد على رجاء القيامة العتيدة الآتية!

فما هو اعتبار الموت في ضوء هذه الأمور الآتية؟

معروف أن حكم الموت الواقع على الإنسان في مقابل التعدّي على وصية الله هو الموت الروحي، بمعنى الخروج من لَدُن الله والحرمان من الحياة معه التي كانت هي حياة الخلود. والنتيجة الحتمية للموت الروحي هو توقُّف الامتداد لحياة الجسد الطبيعي حيث يُحْرَم الجسد الطبيعي من قوة الحياة الفائقة ــ النعمة ــ التي كانت ترفعه إلى المستوى الروحي مع الروحيين. وهكذا هبط الإنسان إلى مستوى الأحياء الطبيعية التي تستمد حياتها من أحكام الطبيعة، فدخل تحت سطوة الموت الجسدي وقانونه الطبيعي كأي مخلوق جسدي.

أما بعد الفداء وحصول الإنسان على النعمة وعربون الحياة الأبدية الذي هو سُكْنَى الروح القدس، فقد تأهل الإنسان فقط للحياة الأبدية مرة أخرى ليكون كأحد الروحيين ولكن بعد أن يخلع جسد الخطية؛ لأن الإنسان، وإن كان قد رفع عنه المسيحُ أحكامَ الموت الروحي، إلاَّ أنه لا يزال يحمل جسد الخطية.

وهكذا، فالإنسان الذي قَبِلَ الفداء وقَبِلَ الروح القدس هو الآن، وإن كان مُستهدَفاً للموت الجسدي، إلاَّ أنه مهيَّأ بعد القيامة للحياة الأبدية مع الله مرة أخرى.

أما الإنسان الطبيعي الذي لم يَجْرِ عليه الفداء ولا قَبِلَ الروح القدس، فإنه بعد أن يُستهدَف

لموت الجسد يبقى بعد القيامة في حالة الموت الروحي أي بعيداً عن الله.

والآن معروف عامة أنه يوجد **موت جسدي، وموت روحي، وموت روحي أبدي، وموت جسدي يؤدي إلى حياة أبدية!** أربعة أنواع من الموت وكلها من مخلفات الخطية: «لأن أجرة الخطية هي موت» (رو٦: ٢٣)، ولكن يقابلها في المسيح وفي لاهوت بولس «هبة النعمة للحياة الأبدية».

ولكن في لاهوت بولس الرسول يوجد نوع خامس للموت!! وهو موتنا السرائري في المعمودية الذي نجوزه بالإيمان وحرية الإرادة في موت المسيح ودفنه، وهو الذي ينشىء لنا «عدم الموت» الذي نستديمه ونوثِّقه في الإفخارستيا بتناول جسد الابن الوحيد ودمه لنحيا به، وهو ترياق أو دواء عدم الموت!!

وبهذا نُحْسَبُ بحسب لاهوت بولس الرسول: «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله، اهتموا بما فوق لا بما على الأرض، لأنكم قد مُتُّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا فحينئذ تُظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣: ١-٤)

ويؤكد ذلك بولس الرسول مرة أخرى باعتبار أننا جُزْنا نوعاً من الموت بسر الإيمان هكذا: «لأن محبة المسيح تحصرنا، إذ نحن نحسب هذا أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذاً ماتوا.» (٢كو٥: ١٤)

ماذا صنع المسيح في الخطية والموت؟

عند بولس الرسول، الموت هو النتيجة الحتمية لسمِّ الخطية وكأن الخطية عقربٌ أو ثعبانٌ، وشوكة العقرب في ذيلها وضرس الثعبان في فمه، فشوكة الخطية أو عضَّتها تنتهي فيمن تفترسه بسريان سُمِّها حيث تكون أعراض الموت! أما الشيطان فقد اتخذ الخطية هكذا سلاحه ليوسِّع دائرة أتباعه وهم جميعاً قتلاها!

فالخطية أصبحت هكذا للذين يعرفون من الذي يحركها ويدفعها، ويعرفون فاعلية سُمِّها رعبةً، وخاصةً عند الذين تعرضوا لها فسلبتهم إرادتهم وقوتهم ومالهم وفرحهم وكرامتهم حتى آدميتهم!!!

+ «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت (الذي ماته) ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس، ويعتق أولئك الذين خوفاً من الموت كانوا جميعاً كل حياتهم تحت العبودية.» (عب٢: ١٤و١٥)

فلما جاء المسيح وقهر الخطية، كسر شوكة الموت، أي انتزع من الخطية سلاحها المميت، كمن يقطع ذيل العقرب ويسحق شوكته، أو كمن يخلع ضرس الثعبان ويحطمه. وهكذا عطَّل الفعل المؤدي للموت: «أي شوكتك يا موت أين غلبتك يا هاوية» (١ كو١٥: ٥٥)، بانتظار اليوم الذي يُبطِل فيه الموت ذاته: «آخر عدوٍّ يبطل هو الموت.» (١ كو١٥: ٢٦)

وهكذا إذ فقدت الخطية رعبتها، وأُخضِعَ الموت للحياة، استطاع الإنسان في المسيح ومع بولس الرسول أن يقول: «لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح.»!! (في ١: ٢١)

٢ ـ وأين تذهب النفس؟ وماذا يكون حالها؟

لقد ذهب المفسرون ذوو المذاهب المتعددة كلَّ مذهب، فمنهم مَنْ قال إنها تموت مع الجسد بانتظار القيامة الجسدية، ومنهم مَنْ قال إنها تكون بلا وعي وفي حالة نوم بلا حراك، ومنهم مَنْ قال بل تهيم كالأشباح ولا تدري ما تقول وما تعمل. ولكن الواضح من لاهوت بولس الرسول وبحسب الكنائس التقليدية أن النفس بعد الموت تصير مع المسيح في وضع واعٍ: «لي اشتهاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً» (في ١: ٢٣). بل ويؤكد بولس الرسول أن الحياة مع المسيح تكون هي التي لها الوجود واليقين والاستظهار فوق الإحساس بالموت حينما يحل ميعاده: «لأن لي الحياة هي المسيح، والموت هو ربح» (في ١: ٢١). ثم يعود ويؤكد ما يقول: «ولكن أن أبقى في الجسد أَلْزَمُ من أجلكم. فإذ أنا واثق بهذا أعلم أني أمكث وأبقى مع جميعكم.» (في ١: ٢٤و٢٥)

وفي موضع آخر يكشف بولس الرسول عن ماذا يحدث ليس بعد الموت بل مع الموت خطوة بخطوة:

+ «فإننا نحن الذين في الخيمة (الجسد) نئنُّ مثقَّلين، إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها (جسدنا السماوي)، لكي يُبتَلَع المائت من الحياة (وصحتها بواسطة ὑπὸ الحياة)...، فإذاً نحن واثقون كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد فنحن متغرِّبون عن الرب ...، فنثق ونُسَرُّ بالأَولى أن نتغرب عن الجسد (الموت) ونستوطن عند الرب.» (٢ كو٥: ٤ ـ ٨)

كذلك فبولس الرسول عندما يقول عن الموت إنه «رقاد» كما قال المسيح تماماً، فهذا يعني ليس رقاد النفس بل رقاد الجسد بحسب الظاهر. ورُقاد الجسد ـ كرُقَادٍ ـ معروف أنه لا يُبْطِلُ نشاط النفس، بل تكون النفس في حالة من الوعي المفتوح على الرؤى ومناظر السماوات والحديث

مع الله والوجود في حضرته، فهذه كانت ولا تزال حال الأنبياء والرائين.

كذلك، فالمسيح لما نادى لعازر الميت بالاسم وهو له أربعة أيام في القبر، سمعت النفس وهي في أعماق الهاوية وخرجت في الحال. كذلك بكل تأكيد كانت نفس المسيح في أوَج قوتها ووعيها ولاهوتها والجسد في القبر وذهبت تكرز وتبشر الذين في الهاوية.

والسؤال: فهل تكمل سعادة الأبرار إذا انطلقوا ليكونوا مع المسيح بعد الموت؟ وبالتالي تتم محاكمة الأشرار وعقوبتهم؟ واضح أن لا سعادة الأبرار ولا شقاوة الأشرار تأخذ وضعها المنصوص عليه في الإنجيل إلاَّ بعد استعلان الدينونة العامة و يقف الجميع «أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً.» (٢ كو٥: ١٠)

وفي النهاية نرى أن القديس بولس لم يُعْطِ لما بعد الموت منهجاً لاهوتياً يمكن أن نستوضح منه ماذا يحدث للنفس البشرية بعد فراقها الجسد، ولكن الذي أكَّد عليه بولس الرسول بشدة أن **الموت لا يفصلنا عن المسيح**: «لأننا إن عشنا فللرب نعيش، وإن مُتنا فللرب نموت (ونحيا)، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن.» (رو١٤: ٨)

على أن القيامة التي نقومها الآن مع المسيح هي قيامة بالروح، لذلك يستحيل أن يسود عليها الموت الروحي. فالموت الجسدي يحجز الجسد عنها أما الروح فتنطلق لتحياها جزئياً إلى أن يُستعلن ملء القيامة العامة.

٣ ــ قيامة الأبرار:

يقول القديس بولس في سفر العبرانيين تعقيباً على تعاليم الرسل المستقرة في الكنيسة:

+ «لذلك ونحن تاركون كلام بداءة (كاتشزم) المسيح، لنتقدم إلى الكمال غير واضعين أيضاً أساس θεμέλιον (١) التوبة من الأعمال الميتة والإيمان بالله، تعليم المعموديات ووضع الأيادي، قيامة الأموات والدينونة الأبدية.» (عب٦: ١و٢)

واضح هنا أن قيامة الأموات والدينونة الأبدية هي من أسس تعليم الإيمان الرسولي في الكنيسة. هكذا اهتم بولس الرسول أن يكون التعليم بالقيامة من الأموات أساساً ثابتاً في تعليمه كنتيجة

---

(١) أساس θεμέλιον وهي كلمة سِيمِيلّ التي تستخدم في الخرسانة الإنشائية بمعنى كَمَرة الأساس.

حتمية مُلازمة لقيامة المسيح من الأموات (١ كو١٥: ١-١٣). والآيات المحورية في هذا الأصحاح هي:

+ «فإن لم تكن قيامة أموات، فلا يكون المسيح قد قام. وإن لم يكن المسيح قد قام، فباطلة كرازتنا وباطل أيضاً إيمانكم ... لأنه إن كان الموتى لا يقومون، فلا يكون المسيح قد قام ... ولكن الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين.» (١ كو١٥: ١٣و١٤و١٦ و٢٠)

علماً بأن بولس الرسول تحمّل من أجل هذه العقيدة الإهانات والضرب والاضطهادات ولكنه لم يخذل المسيح في قيامته: «ولي رجاء بالله في ما هم أيضاً ينتظرونه أنه سوف تكون قيامة للأموات، الأبرار والأثمة» (أع٢٤: ١٥). وهنا يتفق بولس الرسول تماماً مع التقليد اليهودي النبوي على أساس نبوة دانيال النبي، كما يتفق تماماً مع تعليم المسيح (لو٢٠: ٣٧).

ولكن بالرغم من أن بولس الرسول هنا يذكر القيامة العامة للأبرار والأثمة، إلا أن تشديده هو على القيامة المنتصرة للأبرار التي هي على أساس قيامة المسيح المنتصرة على الخطية والموت. وهذا كان موضوع ليس فقط إيمان بولس بل ورجائه وجهاده واشتياقه: «لأعرفه وقوة قيامته (المنتصرة) وشركة آلامه متشبهاً بموته، لعلّي أبلغ إلى قيامة الأموات.» (في٣: ١٠و١١)

وبولس الرسول يؤكد أن رجاءنا في الحياة مع المسيح وقبول نعمته هي قمة سعادتنا، وهي تنتظرنا في القيامة العتيدة أكثر جداً مما غارسها في هذه الحياة. بل إن سعادتنا بالمسيح في هذه الحياة لا تُحسَبُ أكثر من شقاء وبلاء إذا لم يلحقها السعادة الكاملة في القيامة، التي سترفع عنا كل ثقل واضطهاد وحزن وألم ودموع وتنهد عانيناه في هذا الدهر:

+ «إن كان لنا في هذه الحياة فقط رجاءٌ في المسيح، فإننا أشقى جميع الناس.»!! (١ كو١٥: ١٩)

+ «ولماذا نخاطر نحن كل ساعة؟ إني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم. إن كنت كإنسان قد حاربتُ وحوشاً في أفسس (في الدفاع عن الإيمان بقيامة الأموات) فما المنفعة لي. إن كان الأموات لا يقومون، فلنأكل ونشرب لأننا غداً نموت.» (١ كو١٥: ٣٠-٣٢)

فقيامة الأبرار تأخذ عند القديس بولس قوتها من قوة قيامة المسيح نفسها: «... والله قد أقام الرب وسيقيمنا نحن أيضاً بقوته» (١ كو٦: ١٤)، «وإن كان روح (الله) الذي أقام يسوع من

الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو٨: ١١)، «عالمين أن الذي أقام الرب يسوع سيُقيمنا نحن أيضاً بيسوع ويحضرنا معكم» (٢كو٤: ١٤). بل إن بولس الرسول يعتبر أن الروح القدس الذي هو روح القيامة، إنما أخذناه الآن كعربون وكختم خُتِمَ على أرواحنا، ختمٍ لا يقوى الموت على فضّه أو إفساده وهو باقٍ بقوته ليعمل فينا ليوم الفداء لاستعلان تكميل الخلاص والفداء:

+ «ولا تُحزنوا روح الله القدوس الذي به **خُتِمتُم ليوم الفداء**.» (أف٤: ٣٠)

+ «الذي فيه أيضاً (الإنجيل)، إذ آمنتم خُتمتُم بروح الموعد القدوس الذي **هو عربون ميراثنا**، لفداء المُقتَنى لمدح مجده.» (أف١: ١٣و١٤)

وهذا الروح القدس نفسه يعمل في قلوبنا وضمائرنا وأرواحنا **مؤكِّداً** أننا مدعوون ليس لاستيطان الجسد، بل نحن مدعوون لاستيطان الرب عندما نخلع خيمتنا الأرضية ونتغرب عن هذا الجسد:

+ «ولكن الذي صنعنا لهذا عينه هو الله الذي أعطانا أيضاً **عربون الروح. فإذاً، نحن واثقون** كل حين وعالمون أننا ونحن مستوطنون في الجسد فنحن متغرِّبون عن الرب ... **فنثق ونُسَرُّ بالأَوْلى** أن نتغرب عن الجسد ونستوطن عند الرب.» (٢كو٥: ٥-٨)

أما لماذا يهتم الروح القدس بنا هكذا، أي يختم على أرواحنا ويشهد فيها ببنوتنا لله ويشفع ويصلي ويصرخ ويعطي رجاء انتظار ما نتوقعه بالصبر؟ فالسبب في لاهوت القديس بولس هو: لأننا صرنا هيكله، وهو الذي يتعهد بهذا الهيكل في غُربتنا على الأرض حتى يوصله إلى السماء. فهنا يكفينا منه رشاش النعمة والعزاء بالدموع من يوم إلى يوم، أما هناك فإلى ملء قوة قيامة المسيح وحياته ينطق فينا بتسابيح المجد. هنا هو يعطي حرارة الاشتياق إلى ما ينتظرنا في قيامة الأبرار، وهناك فإنه يهبنا حينذاك من طبيعته علناً فرحة الامتلاك.

٤ - جسد القيامة:

بولس الرسول يوضح أن القيامة العتيدة ستكون قيامة الأجساد والأرواح، حسب التعليم الرسولي، لممارسة الحياة الأبدية. ولكنه يعطي تعليماً إضافياً أن جسد القيامة سيختلف عن جسدنا الأرضي الطبيعي مؤكداً أن: «لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله، ولا يرث الفساد عدم الفساد.» (١كو١٥: ٥٠)

وهو يحتاط للسؤال: ماذا لو حدث الاستعلان الآن وجاء المسيح وأُعلنت القيامة؟

يرد بولس الرسول أنه لا بد لنا، نحن الأحياء، أن نجوز حالة تغيير من الفساد إلى عدم الفساد

لنؤهَّل للارتفاع والوجود مع المسيح: «لا نرقد كلنا، ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير. فإنه سيبوَّقُ، **فيُقام الأموات عديمي فساد، ونحن نتغير،** لأن هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت.» (١ كو١٥: ٥١—٥٣)

أما جسد القيامة فقد وضَّح بولس الرسول نوعيته **أنه سماوي،** أي من طبيعة قادرة أن تعيش في السماء مع السمائيين.

وهو يرد على سؤال طرحه هو من نفسه: «لكن يقول قائل كيف يُقَام الأموات وبأي جسم يأتون؟» (١ كو١٥: ٣٥). هنا يفرِّق بولس الرسول بين جسد البارِّ في القيامة وبين جسد الأثيم، لأنه ولو أنهما كليهما يقومان، ويقومان ليرتفعا نحو السماء ليجوزا معاً الدينونة أمام الله على السواء، إلاَّ أنَّ جسد البار يُقامُ في مجد:

+ «هكذا أيضاً قيامة الأموات، يُزرع في فساد (الولادة على الأرض)، ويُقَامُ (للوقوف أمام الله) في عدم فساد. يُزرَع في هوانٍ، **ويُقام في مجد.** يُزرَعُ في ضعف، ويُقام في قوة. يُزرع جسماً حيوانياً، ويُقام جسماً روحانياً. يوجد جسم حيواني ويوجد جسم روحاني.» (١ كو١٥: ٤٢—٤٤)

وكما قال الرب يسوع لنيقوديموس: «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يو٣: ٦)، هكذا يقول بولس الرسول: «الإنسان الأول من الأرض ترابيٌّ، والإنسان الثاني الرب من السماء. كما هو الترابي — آدم — هكذا الترابيون أيضاً؛ وكما هو السماوي — المسيح — هكذا السماويون أيضاً، وكما لبسنا صورة الترابي **سنلبس أيضاً صورة السماوي.**» (١ كو١٥: ٤٧—٤٩)

فما نصنعه الآن هنا تحت يد المسيح بالسر وبعمل الروح القدس في المعمودية، على مرأى من شهود وأشابين بأن نخلع الجسد العتيق الآدمي مع خطاياه ونلبس الجديد الذي هو على صورة خالقه في المجد، في عمليتين سرِّيتين هما الموت والقيامة من داخل موت المسيح وقيامته؛ هكذا سيتم لنا كل هذا في القيامة العامة إنما بصورة علنية على مشهد من ربوات ملائكة وأرواح الأبرار المكمَّلين في المجد، بعد أن نخلع هذا الجسد نهائياً ونطرحه في القبر ليَبْلَى. كذلك فنحن لا نُعْدَم في جهادنا الروحي اليومي، بحسب بولس الرسول، من ممارسة عملية خلع الإنسان القديم ولِبْس الإنسان الجديد عينه، إنما في حيز الخبرة الضيقة، حينما نمارس توبتنا وتجديد عهودنا مع الله بالصلاة والصوم والنسك والبذل، وكأننا نحدِّد ونجمِّل صورة جسد القيامة من الآن.

الفصل الرابع

مجيء المسيح Παρουσία

«يوم الرب» والظروف الملازمة له

١ ــ كلمة «باروسيا» παρουσία ومرادفاتها:

الـ "باروسيا" اصطلاح أُطلق على استعلان مجيء المسيح. واللفظة بحد ذاتها تفيد **«الحضور»**، وفي حالة المسيح فهو **«الحضور الأسنى»**، أو كما نقول بالنسبة لعظماء الملوك **«الحضرة السنيَّة»** عند ظهور أو مجيء الملك. غير أن الكلمة «باروسيا» استُخدمت أيضاً في مواقف ولأشخاص غير المسيح و**«مجيء»** المسيح أو **«استعلانه»** ذو شأن كبير في العهد الجديد، وهو المَكْنِيُّ عنه في العهد القديم بـ**«يوم الرب»** أو **«يوم يهوه»**، وذلك كما جاء على فم الأنبياء.

وإليك بعض التعبيرات التي جاءت موازية للباروسيًا أي ليوم الرب أو مجيء المسيح المرتقب:

المجيء: παρουσία

+ «لأن مَنْ هو رجاؤنا وفرحنا، وإكليل افتخارنا؟ أم لستم أنتم أيضاً أمام ربنا يسوع المسيح **في مجيئه** παρουσία.» (١تس٢: ١٩)

+ «لكي يُثبِّت قلوبكم بلا لوم في القداسة أمام الله أبينا **في مجيء** παρουσία ربنا يسوع المسيح مع جميع قديسيه.» (١تس٣: ١٣)

+ «فإننا نقول لكم هذا بكلمة الرب، إننا نحن الأحياء الباقين **إلى مجيء** παρουσίαν الرب لا نسبق الراقدين.» (١تس٤: ١٥)

+ «وإله السلام نفسه يُقدّسكم بالتمام. ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم **عند مجيء** παρουσία ربنا يسوع المسيح.» (١تس٥: ٢٣)

+ «ثم نسألكم أيها الإخوة من جهة **مجيء** παρουσίας ربنا يسوع المسيح واجتماعنا

إليه.» (٢تس٢:١)

+ «وحينئذ سيُستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة فمه ويُبطله بظهور **مجيئه** **παρουσίας**.» (٢تس٢:٨)

+ «ولكن كل واحد في رتبته، المسيح باكورة، ثم الذين للمسيح في **مجيئه** **παρουσίᾳ**.» (١كو١٥:٢٣)

+ «فتأنوا أيها الإخوة إلى **مجيء** الرب ...» (يع٥:٧)

+ «فتأنوا أنتم وثبِّتوا قلوبكم لأن **مجيء الرب** قد اقترب.» (يع٥:٨)

+ «لأننا لم نتبع خرافات مصنَّعة، إذ عرَّفناكم بقوة ربنا يسوع **ومجيئه** بل قد كنا معاينين عظمته.» (٢بط١:١٦)

+ «قائلين أين هو موعد **مجيئه**، لأنه من حين رقد الآباء كل شيء باقٍ هكذا من بدء الخليقة.» (٢بط٣:٤)

+ «منتظرين وطالبين سرعة **مجيء** **παρουσίαν** يوم الرب.» (٢بط٣:١٢)

+ «والآن أيها الأولاد اثبتوا فيه، حتى إذا أُظهر يكون لنا ثقةٌ ولا نخجل منه في **مجيئه**.» (١يو٢:٢٨)

+ «قُل لنا متى يكون هذا؟ وما هي علامة **مجيئك** وانقضاء الدهر؟» (مت٢٤:٣)

+ «لأنه كما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، هكذا يكون أيضاً **مجيء** ابن الإنسان.» (مت٢٤:٢٧)

+ «وكما كانت أيام نوح، كذلك يكون أيضاً **مجيء** ابن الإنسان.» (مت٢٤:٣٧)

+ «ولم يعلموا حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع، كذلك يكون أيضاً **مجيء** ابن الإنسان.» (مت٢٤:٣٩)

يوم الرب:

ويلاحظ أن عوض «الباروسيا» أي «المجيء» للتعبير عن مجيء المسيح، تستخدم أيضاً كلمة **«يوم الرب»**:

+ «الذي سيثبِّتكم أيضاً إلى النهاية بلا لوم في **يوم ربنا** يسوع المسيح.» (١كو١:٨)

+ «أن يُسلَّم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد، لكي تخلص الروح في **يوم الرب** يسوع.» (١كو٥:٥)

+ «إننا فخركم كما أنكم أيضاً فخرنا في **يوم الرب** يسوع.» (٢كو١:١٤)

+ «لأنكم أنتم تعلمون بالتحقيق أن **يوم الرب** كلصٍّ في الليل هكذا يجيء.» (١تس٥:٢)

+ «ولكن سيأتي كلصٍّ في الليل، **يوم الرب**، الذي فيه تزول السموات بضجيج وتنحلُّ العناصر محترقة، وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها ...، ولكننا بحسب وعده ننتظر سموات جديدة وأرضاً جديدة يسكن فيها البر.» (٢بط٣: ١٠–١٣)

+ «منتظرين وطالبين سرعة مجيء **يوم الرب** الذي به تنحلُّ السموات ملتهبة والعناصر محترقة تذوب.» (٢بط٣:١٢)

+ «تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم، قبل أن يجيء **يوم الرب** العظيم الشهير. ويكون كلُّ مَنْ يدعو باسم الرب يخلص.» (أع٢:٢٠و٢١)

يوم المسيح:

+ «لا تترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا، أي أن **يوم المسيح** قد حضر.» (٢تس٢:٢)

+ «واثقاً بهذا عينه أن الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحاً يكمِّل إلى **يوم يسوع المسيح**.» (في١:٦)

+ «متمسِّكين بكلمة الحياة لافتخاري في **يوم المسيح**.» (في٢:١٦)

ذلك اليوم:

+ «متى جاء ليتمجَّد في قديسيه – **في ذلك اليوم** – ويُتعجَّب منه في جميع المؤمنين، لأن شهادتنا عندكم صدقت (تصحيح الترجمة).» (٢تس١:١٠)

+ «أما أنتم أيها الإخوة، فلستم في ظلمة حتى يدرككم **ذلك اليوم** كلصٍّ.» (١تس٥:٤)

+ «لكنني لست أخجل لأنني عالمٌ بمَنْ آمنت، وموقن أنه قادر أن يحفظ وديعتي **إلى ذلك اليوم**.» (٢تي١:١٢)

+ «لِيُعْطِهِ الرب أن يجد رحمة من الرب **في ذلك اليوم**.» (٢تي١:١٨)

+ «وأخيراً قد وُضِعَ لي إكليل البر الذي يَهَبُهُ لي **في ذلك اليوم** الرب الديَّان العادل.» (٢تي٤:٨)

لأن اليوم سيبيِّنه:

+ «فعمل كلُّ واحد سيصير ظاهراً **لأن اليوم سيبيِّنه**.» (١كو٣:١٣)

في اليوم الذي فيه يدين:

+ «**في اليوم الذي فيه يدين** الله سرائر الناس حسب إنجيلي بيسوع المسيح.» (رو٢:١٦)

اليوم يقْرب:

+ «غير تاركين اجتماعنا كما لقوم عادة بل واعظين بعضنا بعضاً، وبالأكثر على قدر ما ترون **اليوم يقْرب**.» (عب١٠: ٢٥)

اليوم العظيم، يوم الله:

+ «فإنهم أرواح شياطين، صانعة آيات، تخرج على ملوك العالم وكل المسكونة لتجمعهم لقتال **ذلك اليوم العظيم، يوم الله** القادر على كل شيء. ها أنا آتي كلص. طوبى لمَنْ يسهر.» (رؤ١٦: ١٤و١٥)

ظهور ربنا: ἐπιφάνεια

+ «أن تحفظ الوصية بلا دنس ولا لوم إلى **ظهور** ἐπιφανείας **ربنا يسوع المسيح**.» (١تي٦: ١٤)

+ «أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند **ظهوره وملكوته** ...» (٢تي٤: ١)

+ «وليس لي فقط، بل لجميع الذين يحبون **ظهوره** أيضاً.» (٢تي٤: ٨)

+ «منتظرين الرجاء المبارك **وظهور مجد الله العظيم ومخلِّصنا يسوع المسيح**.» (تي٢: ١٣)

+ «حينئذ سيُستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة فمه ويُبْطِله **بظهور مجيئه** τῇ ἐπιφανείᾳ τῆς παρουσίας αὐτοῦ.» (٢تس٢: ٨)

أبوكاليبسيس (استعلان):

+ «وأنتم متوقعون **استعلان** ἀποκάλυψιν ربنا يسوع المسيح.» (١كو١: ٧)

+ «وإياكم الذين تتضايقون راحة معنا عند **استعلان** ἀποκαλύψει الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته.» (٢تس١: ٧)

+ «لكي تكون تزكية إيمانكم ... توجد للمدح والكرامة والمجد عند **استعلان** يسوع المسيح.» (١بط١: ٧)

+ «فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التي يُؤتَى بها إليكم عند **استعلان** يسوع المسيح.» (١بط١: ١٣)

+ «بل كما اشتركتم في آلام المسيح، افرحوا، لكي تفرحوا **في استعلان مجده** أيضاً مبتهجين.» (١بط٤: ١٣)

عزيزي القارىء: كم هي مُفرحة ومُعزِّية هذه التعبيرات التقوية المخلصة التي نطق بها هؤلاء القديسون بالروح من حرارة متأججة في قلوبهم بانتظار يوم مجيئه العظيم.

لقد ورثتها الكنيسة في صلوات إفخارستية «الديداخي» التي للرسل القديسين، حيث تنتهي الصلوات بصراخ الكاهن والكنيسة معه: «فَلْيَنْتهِ العالم، تعالَ أيها الرب يسوع! ماران أثا».

وبهذا النداء التوسلي المملوء اشتياقاً ودالة، ينتهي أيضاً سفر الأبوكاليبسيس، أي الاستعلان المسمَّى بسفر الرؤيا هكذا:

+ «نعم أنا آتي سريعاً. آمين تعالَ أيها الرب يسوع!!» (رؤ٢٢: ٢٠)

٢ ــ قرب مجيء المسيح

+ «ولولوا لأن يوم الرب قريبٌ، قادمٌ كخراب من القادر على كل شيء. لذلك ترتخي كل الأيادي، ويذوب كل قلب إنسان، فيرتاعون. تأخذهم أوجاعٌ ومخاضٌ، يتلوَّون كوالدة، يبهتون بعضهم إلى بعض، وجوههم وجوه لهيب.» (إش١٣: ٦ــ٨)

+ «هوذا يوم الرب قادمٌ، قاسياً بسخط وحُموِّ غضب، ليجعل الأرض خراباً ويبيد منها خُطاتها. فإن نجوم السموات وجبابرتها لا تُبرز نورها. تظلم الشمس عند طلوعها والقمر لا يلمع بضوئه وأُعاقب المسكونة على شرِّها والمنافقين على إثمهم، وأُبطل تعظُّم المستكبرين، وأضع تجبُّر العُتاة.» (إش١٣: ٩ــ١١)

+ «آه على اليوم! لأن يوم الرب قريب، يأتي كخراب من القادر على كل شيء.» (يؤ١: ١٥)

+ «اضربوا بالبوق في صهيون، صوِّتوا في جبل قُدْسي ليرتعدْ جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب. يومُ ظلام وقتامٍ، يومُ غَيْمٍ وضباب ... يوم الرب عظيم ومخوف جداً، مَنْ يطيقه؟» (يؤ٢: ١و٢و١١)

+ «تتحول الشمس إلى ظلمة والقمر إلى دم، قبل أن يجيء يوم الرب العظيم المخوف.» (يؤ٢: ٣١)

+ «جماهير، جماهير في وادي القضاء، لأن يوم الرب

قريب في وادي القضاء. الشمس والقمر يُظلمان، والنجوم تحجز لمعانها.» (يؤ٣: ١٤)

+ «ويل للذين يشتهون يوم الرب. لماذا لكم يوم الرب؟ هو ظلامٌ لا نورٌ. أليس يوم الرب ظلاماً لا نوراً وقتاماً ولا نورَ له؟» (عا٥: ١٨و٢٠)

+ «فإنه قريبٌ يوم الرب على كل الأمم.» (عو ١٥)

+ «قريب يوم الرب العظيم، قريب وسريع جداً. صوت يوم الرب. يصرخ حينئذ الجبَّار مُرًّا. ذلك اليوم يومُ سَخَطٍ، يوم ضيق وشدة، يوم خراب ودمار، يوم ظلام وقتام، يوم سحاب وضباب، يوم بوق وهتاف.»

(صف١: ١٤-١٦)

+ «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب، اليوم العظيم والمخوف، فيردُّ قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم، لئلا آتي وأضرب الأرض بلعْنٍ.» (مل٤: ٥و٦)

+ «وتهربون في جواء جبالي ... كما هربتم من الزلزلة في أيام عُزيَّا ملك يهوذا. ويأتي الرب إلهي وجميع القديسين معك (معه).» (زك١٤: ٥)

بدأ الترقُّب المتفاعل مع الرجاء والشوق والإحساس الطاغي عند التلاميذ بعد القيامة وقبل الصعود، حينما بدأ المسيح يعطي التعليمات الأخيرة لتلاميذه بأن: «لا يبرحوا من أورشليم بل ينتظروا موعد الآب الذي سمعتموه مني... أما هم المجتمعون فسألوه قائلين: يا رب هل في هذا الوقت (أي عند حلول هذا الموعد من عند الآب) تردُّ المُلْك إلى إسرائيل؟» (أع١: ٤و٦)، فكان جواب المسيح الذي صار الأساس الراسخ الذي يتحتم أن يُبْنَى عليه كل شرح أو تفسير للاَّهوت الأُخروي: «فقال لهم ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الآب في سلطانه.» (أع١: ٧)

ولكن كان التراث النبوي الذي استمر على مدى العصور الأخيرة على فم الأنبياء ذا أثر شديد على فكر الرسل وبولس الرسول والكنيسة ككل في بداية تكوينها، وخاصةً بعد أن تقبَّلت الروح القدس، وحيث شعر الجميع بتغيير جذري في طبيعة العلاقات مع الله. فكان لا بد أن تدخل هذه النبوات بثقلها جنباً إلى جنب مع النبوات التي أنْبأت عن المجيء الأول للمسيَّا، والتي أُخذ بها بحرارة وتصديق، خاصة بعد أن جعلها المسيح نفسه قاعدة أساسية يلزم الرجوع إليها لمعرفة كل شيء

عن كل ما تم في حياة المسيح وموته وقيامته، والتي دائماً تضيفها الكنيسة على هذه الحوادث الخلاصية حتى اليوم بقولها: «بحسب الكتب». وبنظرة واحدة إلى هذه النبوات الخاصة بالمجيء الثاني للمسيح المَكْني عنه بـ«يوم الرب»، ندرك مدى الضغط الروحي والإلحاح في تصوير هذا «اليوم» وهذا «المجيء» بالقرب الشديد والسريع.

فإذا رجعنا إلى التراث الشرحي للربِّيين عن تقدير الزمن بين مجيء المسيا الأول لحُكْمِه الزمني و«يوم الرب»، أي مجيئه الثاني لحكمه الأبدي، نرى أن الربِّيين كانوا أول مَنْ وقع تحت تأثير ضغط الأنبياء وإلحاحهم في هذا القرب وهذه السرعة. فإن البعض منهم قال ـــ كما يحدثنا العالم F. Prat ـــ بأنها فترة لا تزيد عن ٤٠ سنة وآخر سبعين، والبعض الآخر مائة، والبعض الآخر ستمائة سنة، وآخر ألف سنة أو يزيد؛ وإن حساباتهم تبدأ إما من بدء الحكم الزمني على الأرض أو من لحظة الانتهاء.

لقد ورثت الكنيسة هذا الإلحاح في تصوير سرعة مجيء الرب. ولكن في تقييمنا لسبب هذا التصوير بهذه الكيفية من اللهفة والسرعة في شكلها الدرامي عند الأنبياء، نقول، إنها لم تكن تزييفاً في الرؤيا ولا تهويلاً لها؛ بل هو ضياع البُعد الزمني الحقيقي بحسب حركة التاريخ الإنساني من الرؤيا، سواء كان ذلك عند الأنبياء في العهد القديم أو عند الرسل أو بولس الرسول، فالرؤيا في طبيعتها أو حتى الحَدْس Intuition (وهو الاستضاءة الفكرية) هما من طبيعة روحية خارجة عن الزمن، تكون مصوَّرة في الوعي الروحي الفائق على سطح واحد يجمع الحاضر والمستقبل بعيداً عن متناول تحديد العقل الحسِّي القياسي، حيث يستحيل على الرائي تحويل المنظر إلى مفهوم عقلي قياسي. وعندما تنتهي الرؤيا لا يبقى منها ما يقيسه العقل بالمخ البشري؛ بل يبقى مجرد إحساس روحي يصير قابلاً للخطأ المباشر إذا حاول الرائي أن يُترجمه بالقياسات المادية.

وحينما قال الأنبياء بخصوص «يوم الرب» أنه قريب وقريب جداً وسريع جداً في مجيئه، كان ذلك محاولة منهم لترجمة الإحساس الروحي من **صِدْق الرؤيا ووضوحها الشديد** إلى ما يناسب العقل والواقع الزمني أنه قريب، وسريع المجيء جداً. هنا «**شدة الوضوح**» تُرجمت إلى «سريع جداً». والذي يتحتم أن نعلمه تماماً أن كل ترجمة للرؤى أو الحدس الذهني تأتي ناقصة مختلَّة مغلوطة، إذا نحن حاولنا توقيعها على الزمن.

ولكن الذي ينبغي أن يبقى في ذاكرتنا أنه طالما لم يحدد الأنبياء أو الرسل أو بولس الرسول هذه المسافة الزمنية **بالأرقام** واقتصروها على السرعة والبُطء، فإنه يكون قد جانبهم الخطأ واعتُبرت الرؤيا سليمة مائة بالمائة.

كذلك لا ننتظر من الرؤى توضيحات محددة لأعمال المسيح. فنجد في سفر الرؤيا كيف تنضغط أعمال المسيح فيظهر كمخلِّص وديَّان ومُنتقم ومصدر فرح ومجد دون تحديدات مثل تلك التي يقدمها بولس الرسول مرتَّبة بالفكر اللاهوتي.

الشعور باختزال الزمن عند القديس بولس:

هذه إحدى الخصائص البارزة في لاهوت بولس الرسول في معالجته للأمور الأخيرة، ونحن نرى في هذا صحة لاهوتية مائة في المائة. فمعروف أن الإنسان الرؤيوي الكثير التطلع في الله ينسحب منه الإحساس بالزمن، فقانون التوازن بين زمن الإنسان وزمن الله معروف: «لأن ألف سنة (عند الإنسان) في عينك مثل يوم أمس بعد ما عبر وكهزيع من الليل» (مز٩٠: ٤، ٢بط٣: ٨). لذلك لا يُعاب على الإنسان الروحي، وخاصة إذا كان يرى بالروح، أن تضيع منه التقديرات الزمنية حسب قياسات العقل المادي. على أن كل اختزال في الزمن إذا كان لحساب الله كان ذلك لخير الإنسان والكنيسة بل والعالم. فعندما نسمع القديس بولس يقول:

+ «الرب قريب، لا تهتموا بشيءٍ بل في كل شيءٍ بالصلاة والدعاء مع الشكر لتُعلم طلباتكم لدى الله» (في٤: ٥و٦)؛

+ «فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنَّا» (رو١٣: ١١)، باعتبار أن الخلاص القادم هو بعينه مجيء الرب؛

+ «فأقول هذا أيها الإخوة الوقت منذ الآن مُقصَّر لكي يكون:
الذين لهم نساء كأن ليس لهم،
والذين يبكون كأنهم لا يبكون،
والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون،
والذين يشترون كأنهم لا يملكون،
والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه،
لأن هيئة هذا العالم تزول، فأُريد أن تكونوا بلا هم!» (١كو٧: ٢٩–٣٢)؛

فإنه يكون واضحاً أن عنصر اختزال الزمن ومعه الإحساس بزوال هذا العالم موجود في قلب بولس الرسول، وأن هذا يكون لحساب المسيح. فماذا كانت النتيجة؟ فلأن الرب قريب فَلْنَرْتَم في أحضان الصلاة، ولا نكف عن الدعاء للناس والشكر على كل شيء، حتى تكون طلباتنا من أجل الكنيسة والآخرين ولأنفسنا مستجابة. ولأن هيئة هذا العالم ستزول وسريعاً، فلا يليق أن نحمل هموم العالم وهي بطبيعتها زائلة. إذاً، فإحساس بولس الشديد بالقرب من المسيح والآب، وهو الذي سرَّب منه الإحساس بالزمن، أنشأ تعليماً ونصحاً للكنيسة لتزداد هي الأخرى قُرْباً من الله

والمسيح؛ وفي كلا الحالين سواء عند بولس الرسول أو عند الكنيسة، يكون اختزال الزمن وعدم الاعتداد الكثير به وكذلك الإحساس بزوال العالم، هما لصالح الحياة برُمَّتها، للإنسان عامة وللكنيسة خاصة. أي أن الشعور باختزال الزمن وفُقدان الإحساس بسيطرة العالم وهمومه، وذلك في التعامل مع الله، ينشىء قُرباً صادقاً وحقيقياً وسريعاً مع الله!!!

هذا لم يكن مجهولاً لدى الرسل، فبطرس الرسول يحضُّنا ليس فقط على أن نترقب مجيء المسيح سريعاً في عبادتنا وحياتنا وصلواتنا؛ بل وأن نطلب سرعة مجيئه، مع العلم بأن ذلك بعينه كان حافزاً مستمراً لبطرس الرسول نفسه أن يزداد حرارة والتهاباً والتصاقاً بالله: «منتظرين وطالبين سرعة مجيء يوم الرب ...» (٢بط٣: ١٢). لأن ذلك الشعور إذا كان صادقاً وواقعياً يُدْخلنا في الإحساس بتفاهة الزمن وبالتالي تفاهة العالم وضغوطه. وهذا كان بعينه صراخ إشعياء النبي: «ليتك تشقُّ السموات وتنزل» (إش٦٤: ١). والعكس صحيح، ويثبت هذه القاعدة أن التمسك بالعالم والارتماء تحت مطاليبه والالتصاق بهمومه، أو بمعنى آخر الانجذاب إليه أو محبته، هو في حقيقته عداوة لله كما يقول بولس الرسول (رو٨: ٧)؛ أما محبة المسيح والحياة في حضرته أو حياته فينا فهي بعينها أن يُصلب العالم لنا ونحن للعالم، أي أن ينتهي من وجوده الطاغي على أنفسنا وأرواحنا.

أما العامل الذي ينشِّط فينا الإحساس باختزال الزمن «الوقت مقصَّر»، والإحساس بفقدان سطوة العالم على كياننا الروحي والتيقُّن من زواله: «لأن هيئة هذا العالم تزول» (١كو٧: ٣١)، فهو الروح القدس، فالروح القدس هو روح الخلود. وإذا زاد الإحساس بالخلود في أرواحنا انحصر الزمن في أقل حيز وضاع تأثيره المستبد. كذلك، فالروح القدس هو الضدُّ المباشر للعالم: «ذاك يُبكِّت العالم» (يو١٦: ٨). لذلك حينما نثَبُت في الروح ويسكن هو فينا، تنخفض قيمة العالم ويصغر الإحساس به، فيفقد العالم بريقه وسلطانه ويزول وجوده فينا حتى قبل أن يزول هو.

إذاً فلا تلومنَّ، أيها القارىء، القديس بولس وباقي الرسل والكنيسة الأُولى ــ مثل هؤلاء العلماء غير المسوقين من الروح القدس ــ بأن الكنيسة الأُولى كانت تعيش في إحساس عنيف بسرعة مجيء الرب وسرعة زوال العالم. فهذا كان سببه الوحيد والمباشر حلول الروح القدس وشدة تأثيره على تلك الأرواح القديسة، وليس كما يظن هؤلاء العلماء أنها شطحة من شطحات التنبُّؤ لم يلازمها الحظ. على أن هذا الإحساس، في رأي هؤلاء العلماء، سرعان ما زال، واعتدلت الكنيسة في رؤيتها؛ مع أن هذا الاعتدال وهذه الصحة الوهمية في نظر هؤلاء العلماء هي التي كانت بعينها

نتيجة ضعف انسكاب الروح في الكنيسة وضياع إحساسها بالخلود الذي كانت تعيشه الكنيسة الأولى برُسُلها وأنبيائها وقديسيها.

وليس من الصعب أن نلمح كيف أن بولس الرسول **وهو منحصر بالروح** يرتفع إلى مستوى سرعة انتهاء الزمن والعالم، ثم عندما ينزل في رسائله **إلى مستوى الأخطاء** التي تعمل في الكنائس، وإلى تمرد بعض المؤمنين على وصايا التعقُّل والعفة، نراه يدخل في الزمن ويمتد به ويحضّ على المثابرة على التوبة والصلاة والخضوع للرئاسات وتدريب النفس والجسد على طول المدى، فنحس من كلامه أنه يعايش الكنائس في عمق الزمن والعالم وواجباتهما.

أما العلماء فيرون في انحصاره بالروح وارتفاعه فوق الزمن والعالم أنه شَطْحة خرجت خارج الصحة اللاهوتية والتعقُّل، وأما النزول فيرونه عودة إلى الصحة والتعقُّل، مع أنه في هذه يكون في قمة صحوة الروح مع الروحيين، وفي تلك يكون قد خرج من دائرة الروح لمسايرة المنضوين تحت الزمن والزمنيات.

كذلك، فإننا نجد هذه المفارقة واضحة غاية الوضوح في أمر الزواج، فإنه وهو في حالة انحصاره بالروح والإحساس بقرب مجيء الرب يرى أن عدم الزواج أفضل لإنسان يريد أن يعيش بالروح وللرب وتقديس النفس والجسد:

+ «لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا ... أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا ... الوقت منذ الآن مُقصَّر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم ... غير المتزوجة تهتم في ما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً ...» (١ كو٧: ٧و٨و٢٩و٣٤)

ثم إذ ينحدر بولس الرسول من هذا المستوى العالي ليرى الأزمنة الصعبة القادمة على المسيحيين، يسبق وينصح تيموثاوس «الشاب» أسقف أفسس:

+ «ولكن الروح يقول صريحاً إنه في **الأزمنة الأخيرة** يرتدُّ قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مُضلّة وتعاليم شياطين في رياء أقوالٍ كاذبة، موسومة ضمائرهم، مانعين عن الزواج.» (١تي٤: ١ــ٣)

هنا بولس الرسول يمنع عن الزواج، وبآن واحد يرى أن المنع عن الزواج هو تعليم مضلٌّ وارتدادٌ عن الإيمان الصحيح. فبالفكر الساذج المعثر يرى الإنسان أن في هذا مضادة، ولكن التعليل لهذه المفارقة مدهش في الحقيقة. فبولس الرسول يرى في نفسه، وهو في وضعه الروحي المنحصر في الروح والمسيح وكأن المسيح قريب وعلى الأبواب، يرى عزوفاً صادقاً وقوياً وثابتاً عن الزواج للتمتع

بالمسيح بتقديس الجسد والروح، فيحضُّ أولاده أن يكونوا مثله، **إن كانوا مثله**، على مستوى الروح وبإحساس أن الوقت مقصَّر، بمعنى أن السنين ما ينبغي أن تُفقَد، وأن العمر قلَّ أو طال ما يليق أن يُبدَّد ويُتلف في الجري وراء العالم. فمهما كانت السنين وكان العمر، حتى ومع الشدة وفي حدود الثمانين، فهي أقل وأقصر جداً من أن تستوعب معرفة المسيح والوجود معه أو فيه. ولكن إنْ جاء قوم يحضُّون على المنع عن الزواج وعن تناول أطعمة ...إلخ، لا لأنهم منحصرون في الروح ومرتبطون بالمسيح لتقديس الحياة له جسداً وروحاً؛ بل ليس من أجل المسيح أصلاً ولا لتقديس الحياة له ولا لحفظ الجسد والروح في القداسة، إذ ليس لهم إيمان بالمسيح بل تابعين أرواحاً مضلّة؛ فحينئذ تكون هذه هي **الأزمنة الأخيرة بعينها**، بمعنى أيام الارتداد التي تسبق مجيء المسيح للدينونة.

وهكذا ينتهي بولس الرسول إلى إرساء قاعدة إيمانية: إن كنا في المسيح حقاً، كان امتناعُنا عن الزواج حقاً هو. أما إذا كنا لسنا في المسيح، فيكون امتناعنا عن الزواج ضلالة.

كما وأنه إنْ كنا نحسُّ بقُرْب المسيح حقاً، فإن الوقت يكون مقصَّراً حتماً؛ فإذا لم نكن نحسُّ بالمسيح أصلاً فتكون أيامنا والأيام الأخيرة سواءً، أي ارتداداً!!

وهكذا فإن رؤية بولس الرسول الأُخروية صادقة، وهي لا تفقد صدقها وصلاحيتها بامتداد الزمن. فهي في أيام بولس الرسول رفعت بولس وكنائسه حتى إلى مستوى وجود المسيح وليس إلى ترجِّي وقُرْب مجيئه وحسب، وهي هي إلى الآن تُدْخلنا في هذه الحضرة ذاتها وبنفس إحساس قرب مجيئه وكأنه على الأبواب كلما انتصف الليل، كلُّ ليل! ثم أليس هذا بعينه هو إلحاح المسيح على ترقُّب ملكوت الله وانتظار مجيء العريس وأنْ: «اسهروا إذاً لأنكم لا تعلمون في أية ساعةٍ يأتي ربُّكم.» (مت٢٤: ٤٢)

ثم إن هذا التعليم الذي يرتقي بالإنسان ليعيش على مستوى الروح والحق وتقديس الجسد والزمن، باعتبار أن الزمن مقصَّر وكل دقيقة فيه هي ذات اعتبار، وأنه ما ينبغي أن تُهدَرَ في السلبيات الدنيوية، هذا التعليم هو تعليم يُقوِّم الإنسان والعالم ويدفع إلى مزيد من الإيجابية في كل شئون الحاضر الزمني.

لذلك يخطىء كلُّ مَنْ يقول بأن أُخروية بولس الرسول في النظرة اللاهوتية، وفي انحصاره في قُرْب مجيء المسيح، وفي حصر حياته ومُريديه في إطار البتولية قد أضعفت من قوة المسيحية في التحامها بالزمن على امتداده أو في حمل همِّ العالم. بل على النقيض، فقد أنشأت هذه النظرات

اللاهوتية الجادَّة والعملية قوة تجديد في العالم، ولا تزال تعمل على جميع المستويات.

وليس من بين كافة الآباء والأنبياء مَنْ حَمَلَ همَّ الخليقة بعد المسيح إلاَّ بولس، وكأنه كان يسمع أنينها وهي تتمخض في عبوديتها، تتشبَّث بالإنسان بانتظار تكميل فدائه وانعتاق جسده من عبودية الفساد، لتنال به ومعه انعتاقها الأخير، وتنعم من تحته بحرية التبني.

٣ ــ الظروف المحيطة بالمجيء ــ الباروسيا: παρουσία

في البداية، واضح لنا مما سبق أن كل نبوة جاءت في القديم أو أي سَرْدٍ رؤيوي كرؤيا ἀποκάλυψις دانيال أو حزقيال أو إشعياء عن الأمور الأخيرة، كذلك كل ما جاء عن بولس الرسول، لا يمكن توقيعه على الزمن وكأنها رؤيا تاريخية محددة، لذلك يصبح من الخطر بل ومن الخطأ الجسيم توقيعها على التاريخ في وضعه المستقبلي. وحتى معناها يصعب أن يكون حرفياً، فهو يبقى دائماً في محيط السرِّ حسب طبيعته.

لذلك فإن نظرات أو رؤى بولس الرسول فيما يخص الأخرويات لا تزيد عن كونها صدىً للرؤيا التي جاءت في القديم، لدانيال وإشعياء، وحزقيال والباقين مع المزامير، مع توضيحات أكثر مأخوذة مما جاء في كلام المسيح عن الأمور الأخيرة وعلامة مجيئه بحسب الأناجيل، ومما استلمه هو (بولس الرسول) من المسيح رأساً.

ولو حلَّلنا مضمون هذه الرؤى نجدها مطابقة في جزئياتها لما جاء في الثلاثة الأناجيل الأُوَلى، فهي لا تخرج عن الآتي:

أولاً: إطلاق صوت الدعوة الأخيرة:

+ «لأن الرب نفسه **بهتاف، بصوت رئيس ملائكة، وبوق الله**، سوف ينزل من السماء. والأموات في المسيح سيقومون أولاً.» (١تس٤:١٦)

(أ) **هتاف κελεύσμα** وتعني صرخة للإيقاظ كما يُصرَخُ في أذن النائم ليستيقظ، أو عند اشتعال حريق، أو كما يصرخ البحارة للانتباه للخطر. ولكن مَنْ الذي يطلق الهتاف الأخير هذا؟

هنا الفاعل مستتر كما جاء في مثل المسيح والعشر عذارى: «... **صار صراخ**، هوذا العريس مقبل» (مت٢٥:٦). هل هو صوت الله الذي يسبق الاستعلان الأخير لابنه؟ أو صوت الحرس الملائكي في جوقته المحيطة بالمسيح كما حدث في الميلاد: «وظهر بغتة مع الملاك (المبشر) جمهور من الجند السموي مسبحين الله ...» (لو٢:١٣)

(ب) **صوت رئيس ملائكة:** هذا الصوت غير محدد بكلام، والمعروف دائماً في التقليد منذ نبوة دانيال أنه صوت رئيس الملائكة ميخائيل.

(ج) **وبوق الله:** أي الصوت يرافقه «بوق الله»: «في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير» (١كو١٥:٥٢)، «لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة وبوق الله سوف ينزل من السماء.» (١تس٤:١٦)

وفي التقليد القديم يتضح أن استخدام البوق يلازمه دائماً استعلان ظهور الله:

+ «وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل **وصوت بوق شديد جداً**، فارتعد كل الشعب الذي في المحلة، وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله ... وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار ... فكان صوت البوق يزداد اشتداداً جداً وموسى يتكلم، والله يجيبه بصوت!!!» (خر١٩: ١٦—١٩)

+ «عند إقبال الصبح، عجّت الأمم، تزعزعت الممالك، أعطى صوته ذابت الأرض.» (مز٤٦: ٥و٦)

+ «ويكون في ذلك اليوم أنه يُضرب ببوق عظيم ...» (إش٢٧:١٣)

+ «اضربوا بالبوق ... ليرتعد جميع سكان الأرض لأن يوم الرب قادم لأنه قريب.» (يؤ٢:١)

+ «ويُرى الرب فوقهم، وسهمه يخرج كالبرق، والسيد الرب ينفخ في البوق.» (زك٩:١٤)

والمسيح يوضح و يؤكد:

+ «ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت، فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصائها.» (مت٢٤: ٣٠و٣١)

ويبدو أن البوق يُسمى بحسب الصوت المسموع منه، فهو يُسمى ببوق الله لأن صوت الله هو الذي سيُسْمَع منه.

ولكن أوصاف بولس الرسول لظروف وملابسات ظهور المسيح تخلو من العلامات المدمرة في الطبيعة كما جاءت بصورتها المأساوية في تصوير بطرس الرسول من احتراق عناصر الأرض وذوبانها.

ثانياً: الذين يظهرون مع المسيح والمنظر المحيط:

(أ) **الملائكة:** «عند استعلان الرب يسوع من السماء **مع ملائكة قوته.**» (٢تس١: ٧)

وهي دائماً في موكب الله ومع المسيح في الدينونة كما في كلام المسيح: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده.» (مت٢٥: ٣١)

(ب) **القديسون:** «لكي يُثبِّت قلوبكم بلا لوم في القداسة أمام الله أبينا في مجيء ربنا يسوع المسيح **مع جميع قديسيه**» (١تس٣: ١٣). وهذا مطابق لما جاء في نبوة زكريا النبي: «ويأتي الرب إلهي وجميع القديسين معك (معه)» (زك١٤: ٥). ولكن الواضح أن ما جاء في نبوة زكريا النبي يفيد الملائكة، أما في رسائل بولس فالقصد هو المختارون.

(ج) **السحاب:** «ثم نحن الأحياء الباقين سنُخْطَف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء» (١تس٤: ١٧). وهذا تقليد رسولي من فم المسيح نفسه: «وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض، ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير.» (مت٢٤: ٣٠)

(د) **ونار:** «فعمل كل واحد سيصير ظاهراً لأن اليوم سيبيِّنه، لأنه بنار يُستعلن، وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو» (١كو٣: ١٣)؛

«عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته، **في نار لهيب معطياً نقمة للذين لا يعرفون الله.**» (٢تس١: ٧و٨)

والنار تلازم استعلان الله منذ البدء. فهذه الأربعة مجتمعة لازمة من لوازم الظهور الإلهي دائماً: البوق، والصوت، والسحاب، والنار (خر١٩: ١٢و١٣و١٦–١٨).

٤ – الضد للمسيح الذي بظهوره تبدأ النهاية:

أ – العائق الذي يحجز الآن ظهور الضدِّ للمسيح ἀντίχριστος:

يتميَّز القديس بولس عن كافة مَنْ تكلموا بخصوص أواخر الزمان والنهاية في موضوع لم يطرقه أحد غيره، وهو: مَنْ الذي يحجز الآن ظهور الضدِّ للمسيح – أي المسيح الكذاب – الذي بظهوره تبدأ العلامات الأخيرة لنهاية الزمان؟

+ «**والآن تعلمون ما يَحْجز حتى يُستَعلَنَ في وقته،** لأن سر الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يُرْفع من **الوسط الذي يحجز الآن.** وحينئذ سيُستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة

فمه ويُبْطله بظهور مجيئه، الذي مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآياتٍ وعجائبَ كاذبة وبكل خديعة الإثم في الهالكين، لأنهم لم يقبلوا محبة الحق حتى يخلصوا.» (٢تس٢: ٦ـ١٠)

«ما يحجز» τὸ κατέχον (نوع الجنس هنا محايد أي لا ذكر ولا أنثى):

وهنا «ما يحجز» يفيد نوعاً من القوة الوسيطة بين المسيح وأتباعه، أي المؤمنين، وبين الضدّ للمسيح، وهي تعمل مباشرة ضد هذه القوة لتمنعه من تنفيذ مخططه العدواني، وهي القوة التي حار علماء البروتستانت والكاثوليك في توصيفها. ولكن هي في رأينا كما سيأتي أنها **قوة الروح القدس** العامل في المؤمنين والشاهد للمسيح والمُدافع.

«الذي يحجز» ὁ κατέχων (نوع الجنس هنا مذكر سالم عاقل):

وهو هنا يكون، في الحقيقة وبحسب رأينا أيضاً، **شخص الروح القدس** الذي يتكلم ويرشد ويدبِّر ويشجِّع المؤمنين لمقاومة كل إيحاءات الإثم التي تعمل على مستوى السر ولا تقوى على مستوى الظهور العلني. فسرُّ الإثم يعمل في الفكر ويحرك المشاعر دون أن يعرف الإنسان مصدره، حيث يتصادم بوضوح داخل الإنسان والكنيسة **سر التقوى** = τὸ μυστήριον τῆς εὐσεβείας ضد **سر الإثم** = τὸ μυστήριον τῆς ἀνομίας . فالأول تقوده قوة الروح القدس لحساب المسيح المتجسد، والثاني تقوده قوة الإثم لحساب العدو.

+ «عظيم هو **سر التقوى** الله ظهر في الجسد.» (١تي٣:١٦)

+ «لأن **سر الإثم** الآن يعمل فقط إلى أن يُرْفَع من الوسط الذي يحجز الآن.» (٢تس٢:٧)

وصحة المعنى في ترجمة حرفية كالآتي: [الذي يتحتم عليه أن يعمل الآن في السر ويلزم أن لا يُستعلَن حتى يُرفع الذي يحجز الآن من الطريق][1].

+ «الروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية.» (أف٢:٢)

ولكن للأسف فإنه بالرغم من أن القديس بولس الرسول تعرَّض لهذا الموضوع عن ثقة ويقين، إلاَّ أنه عَبَر عليه باعتبار أنه قد استوفاهُ شرحاً شفاهاً لأهل تسالونيكي، واكتفى بالعبور على الموضوع كتابة دون توضيح. وهذا أوْقَعَ الشارحين لكتاباته والعلماء كافة في حيرة كبيرة من هذا الأمر وتضاربت أقوالهم بشدة. وقد انتحى البروتستانت نواحي غريبة في محاولة تحديد شخصية هذا الذي يحجز المسيح الكاذب الآن عن الظهور، مثل أنه ملك أو إمبراطور الرومان؛ كذلك تحديد شخصية

1. Lightfoot, *op. cit.*, p. 114.

المسيح الكاذب مثل أنه بابا روما. وأما الكاثوليك فقد استقر بعض لاهوتييهم على أن شخصية الذي يحجز المسيح الكاذب هو رئيس الملائكة ميخائيل[2]، وهذا معقول إلى حدٍّ ما لأنه هو الذي بدأ مقاومته للشيطان منذ العهد القديم كما جاء في سفر دانيال النبي:

+ «وإذا بيد لمستني وأقامتني مرتجفاً على ركبتيَّ وعلى كفَّيْ يديَّ وقال لي: يا دانيال أيها الرجل المحبوب ... فقال لي: لا تخف يا دانيال لأنه من اليوم الأول الذي فيه جَعَلْتَ قلبك للفهم ولإذلال نفسك قدام إلهك، سُمع كلامك، وأنا أتيتُ لأجل كلامك. ورئيس مملكة فارس (كناية عن الشيطان) وقف مقابلي واحداً وعشرين يوماً. **وهوذا ميخائيل واحد من الرؤساء الأولين جاء لإعانتي ...**» (دا١٠: ١٠–١٣)

علماً بأن المتكلّم هنا هوبحسب تعبير دانيال النبي «كمنظر إنسان»، ويبدو أنه هو ابن الإنسان، الذي خاطبه في آخر الأصحاح بقوله:

+ «ولكني أخبرك بالمرسوم في كتاب الحق، ولا أحَدٌ يتمسك معي على هؤلاء (رؤساء ملوك أشرار) **إلا ميخائيل رئيسكم.**» (دا١٠: ٢١)

فإن كان الرئيس العظيم ميخائيل هو الذي كان المنوط به آنئذ – في القديم – حراسة شعب إسرائيل، فهو هو لا يزال في موقع الحراسة بالنسبة للكنيسة، مع ابن الإنسان الذي تجسد واستُعلن أنه ابن الله. وقد وضح عمل هذا الرئيس العظيم ميخائيل بالنسبة للشيطان في سفر الرؤيا:

+ «وحدثت حرب في السماء، ميخائيل وملائكته حاربوا التنين، وحارب التنين وملائكته ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء. فطُرح التنين العظيم، الحية القديمة، المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله طُرح إلى الأرض وطُرحت معه ملائكته.» (رؤ١٢: ٧–٩)

ولكن في اعتقادنا أن المسيح ليس في حاجة إلى ملائكة ليدبر كنيسته ويحرسها، فقد استودعها للروح القدس، فهي في يد الله نفسه يحفظها و يدبِّرها، فهي كنيسة الله التي اقتناها بدمه وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، والمؤمنون هم جسد المسيح من لحمه ومن عظامه، وهم بنو العلي يُدْعَوْن، وأبناء الله الحي، ورعية الله، وأهل بيت الله. المسيح رأسها المدبِّر، والروح القدس يرشدها ويقتادها، والمسيح على الصليب صفَّى حسابه مع الرؤساء وسلاطين الظلمة فقد ظفر بهم وفضحهم، ولم يَعُدْ للشيطان سلطان على أولاد الله، ولا الخطية، إن هم تمسكوا بدم صليبه، فبمجرد إعلان

---

2. Prat, *op. cit.*, I,82.

المقاومة ضد الشيطان يهرب منهم، وقد سلّمهم المسيح أسلحة المحاربة الروحية القادرة بالمسيح على هدم كل حصون العدو واستئسار كل فكر ضلالة وإخضاعه إلى معرفة الحق في المسيح (راجع ٢كو١٠: ٧). فأين المكان الذي أُعطي لملاك أو رئيس ملائكة؟

في اعتقادنا الراسخ أن الذي يحجز ظهور الضدّ للمسيح هو تقوى المؤمنين وصلاتهم وإيمانهم، وغيرتهم على الحق والقداسة، وتقديسهم لاسم المسيح، ومحبتهم، وبذلهم، ودماؤهم التي يطرحونها سهلة للسفك من أجل الشهادة، إذا جدّ جديدها، وهذه التقوى عينها بكل حرارة الإيمان والعبادة يؤازرها الروح القدس ويحرسها ويزكيها. فإذا توقفت هذه، وعَدِم الإيمان المسيحي صلابته وسقط الحق وانعدمت المحبة بين المؤمنين، كان ذلك مدعاة للروح القدس أن يرفع يده، فهو الذي يحجز الآن في الوسط بين العدو المتربص الذي يجول يلتمس ابتلاع «نسل المرأة» ـــ أي مولودي الإيمان بالذي نزل من السماء مولوداً من امرأة ـــ وبين النهاية وظهور ابن الهلاك الأثيم، إنسان الخطية، الذي سيسلمه الشيطان كل قوته ليُضلّ العالم للدخول في الارتداد الكبير، الذي يكون آخر العلامات، والذي بعده تُستعلن الدينونة.

ب ـــ ظهور الضدّ للمسيح «أنتي كريست = Antichrist»:

لقد وضع بولس الرسول علامتين مميزتين لنهاية الزمان، الأُولى «الارتداد» والثانية ظهور الضد للمسيح (أنتي كريست): «لا يأتي (هذا اليوم الأخير) إن لم يأتِ الارتداد أولاً ويُستعلن إنسان الخطية ابن الهلاك.» (٢تس٢: ٣)

«الارتداد»: ἡ ἀποστασία

وتعني بحسب الكلمة اليونانية «الثورة». وفي هذا يكمن معنى أن حركة المقاومة للمسيح تأتي من الداخل وليس من الخارج، أي من داخل الجماعة، وهنا يحتمل المعنى اليهود أو المسيحيين المنشقين، ولا تحتمل بالتالي أن تأتي من الوثنيين أو من خارج الشعب اليهودي أو المسيحي.

«يُستعلن»: ἀποκαλυφθῇ

وهي نفس الكلمة المستخدمة في استعلان المسيح، ويلاحظ أيضاً أن كلمة «سر» مستخدمة لضدّ المسيح كالمسيح، مما يكشف عن أن «إنسان الخطية» هذا يحمل طبيعة فائقة نوعاً ما عن الطبيعة العادية للإنسان تجعله يحتاج إلى الاستعلان لكي يبدأ عمله.

«إنسان الخطية» : ὁ ἄνθρωπος τῆς ἀνομίας

«ابن الهلاك» : ὁ υἱὸς τῆς ἀπωλείας

الاصطلاح الأول يفيد صفة الطبيعة الأصلية والثاني يفيد نهايته البائسة، وهو تعبير عبري تقليدي نجده في سفر صموئيل الأول: «لأن ما دام ابن يسى حيًّا على الأرض لا تثبت أنت ولا مملكتك. والآن أرسل وأتِ به إليَّ لأنه **ابن الموت هو.**» (١صم ٢٠: ٣١). كما أطلق المسيح على يهوذا: «ابن الهلاك» (يو١٧: ١٢)، وهو لفظ نَبَوي يفيد نهايته المشئومة.

ومن بقية تعبيرات بولس الرسول حول هذا الموضوع يتبيَّن أن اصطلاح «إنسان الخطية» يفيد بصورة ما أن سِرَّ الإثم الذي يعمل في أبناء المعصية **الآن** ــ أي في أيام بولس الرسول وحتى اليوم ــ له علاقة بإنسان الخطية من حيث سريان الخطية، وذلك بانتظار أن يُرفع الذي يَحْجِز ظهور إنسان الخطية هذا، وحينئذ يظهر هذا الأثيم بكامل قواه الشيطانية لرفع درجة الضلالة والتمرد على الله والمسيح إلى أقصاها.

من هذا يتبيَّن لنا أن «**روح الخطية والإثم**» إنما يتقمَّص أشخاصاً كثيرين كمُسَحاء كذبة كثيرين من جيل إلى جيل إلى أن يستقر في النهاية بكل ثقله في «الضدّ الأخير» للمسيح. لذلك فاصطلاح «**إنسان الخطية**» عند بولس الرسول يحتمل التعدُّد ويحتمل المفرد، وهكذا لا يخرج عن مضمون ما قال به المسيح عن قيام **مُسَحاء كَذَبة كثيرين،** وكذلك القديس يوحنا في رسالتيه الأولى والثانية. وهذا ينطبق بإحكام على الواقع التاريخي، فالعالم أنْجَبَ بالفعل أضداداً كثيرين للمسيح حتى الآن، ومن المعقول أن ينجب في الآخر من يُحسب أقواهم لتكميل المَقْضِيِّ به على الأرض حسب تعبير دانيال النبي (دا١١: ٣٦).

أما قول بولس الرسول عن هذا الضد للمسيح بأنه «يُظْهِر نفسه إلهاً» فلا عجب في ذلك، فأباطرة روما الذين عاصرهم بولس الرسول ظنوا في أنفسهم أنهم آلهة، وتوجد قطعة نقود مسكوكة ليوليوس قيصر مطبوع على وجهها بجوار رأس الإمبراطور كلمة «إله θεός». وفي الوجه الآخر اسم المدينة «تسالونيكي» التي كتب إليها بولس الرسول رسالته هذه[3].

ولقد تميز القديس بولس بتحديد بعض الأسماء والصفات للمسيح الكذاب:

أ ــ إنسان الخطية، ابن الهلاك.

ب ــ المُقاوِم، والمرتفع على كل ما يُدْعَى إلهاً أو معبوداً.

---

3. J.B. Lightfoot, *On Second Thessalonians,* p. 113.

ج ــ يجلس في هيكل الله كإله مُظْهِراً نفسه أنه إله.

د ــ الأثيم.

هـ ــ مجيئه بعمل الشيطان بكل قوة وبآيات وعجائب كاذبة.

و ــ بكل خديعة الإثم في الهالكين.

وبهذه الصفات حاولت الكنيسة منذ العصور الأولى، منذ القديس يوحنا الإنجيلي إسقاط بعض هذه الصفات على حال ظَلَمَة ظهروا في التاريخ من أشخاص أو سحرة أو أباطرة ظالمين قساة مثل كاليجولا وسمعان الساحر أو نيرون. وقد اعتقد بعض الآباء، وبالتحديد العلاّمة جيروم والقديس أغسطينوس، أن القديس يوحنا الإنجيلي لم يَمُتْ لكي يشهد ضد نيرون عندما يعود إلى الحياة في هيئة الضدّ للمسيح(4) باعتبار أن نيرون نفسه هو الضدُّ للمسيح.

وأول مَنْ قال بالضدّ ــ لله ــ بهذه الأوصاف تقريباً هو دانيال النبي، وتنطبق رؤياه على أنطيوخس الرابع الذي اغتصب عرش سوريا سنة ١٧٥ ق.م. وسُمِّي بالمجنون، وذلك بحسب غالبية الشرّاح:

+ «ويفعل الملك كإرادته ويرتفع ويتعظم على كل إله ويتكلم بأمور عجيبة على إله الآلهة وينجح إلى إتمام الغضب، لأن المَقْضِيَّ به يُجرى. ولا يبالي بآلهة آبائه ولا بشهوة النساء وبكل إله، لا يبالي لأنه يتعظم على الكل.» (دا١١: ٣٦و٣٧)

ويأتي القديس يوحنا ليرى الضد للمسيح مشخَّصاً في كل من ينكر المسيح:

+ «أيها الأولاد هي الساعة الأخيرة، وكما سمعتم أن **ضد المسيح يأتي**، قد صار الآن **أضداد للمسيح كثيرون.** من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة... **إن كل كذب ليس من الحق. مَنْ هو الكذاب إلاَّ الذي ينكر أن يسوع هو المسيح، هذا هو ضدُّ المسيح** الذي ينكر الآب والابن.» (١يو٢: ١٨و٢١و٢٢)

+ «لأنه قد دخل إلى العالم مُضلُّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً في الجسد **هذا هو المضلُّ والضدُّ للمسيح.**» (٢يو٧)

وسفر الرؤيا حافل بأعمال الضدّ للمسيح في أصحاحات كثيرة: (رؤ١١: ٤ــ١٣، ١٣: ١ــ١٨، أصحاح ١٧ كله، ١٩: ١١ــ٢١).

---

4. *Oxford Dict. of the Christian Church*, p. 61.

وفي إنجيل القديس مرقس وإنجيل القديس متى يذكر المسيح بوضوح المسحاءَ الكذبة الذين يأتون في آخر الزمان:

+ «حينئذ إن قال لكم أحد: هوذا المسيح هنا أو هناك، فلا تصدِّقوا. لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً.» (مت ٢٤: ٢٣و٢٤)

+ «فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: إني أنا هو، ويُضلُّون كثيرين.» (مر١٣: ٦)

والقديس متى يذكر كيف ستكون من أهم علامات آخر الأيام كثرة «الإثم ἀνομία»:

+ «ولكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص.» (مت ٢٤: ١٢و١٣)

وهي التي يقول عنها بولس الرسول: «لأن سر الإثم الآن يعمل فقط ... وحينئذ سيُستعلن **الأثيم ὁ ἄνομος**.» (٢تس ٢: ٧و٨)

وقد أوضح داود النبي في مزمور ٨٩ موقف «ابن الإثم» من المسيح بوضوح:

+ «حينئذ كلمتَ برؤيا تَقِيِّك، وقُلتَ: جعلتُ عوناً على قويٍّ، رفعتُ مختاراً من بين الشعب، وجدتُ داود عبدي، بدُهن قدسي مسحتهُ، الذي تثبتُ يدي معه، أيضاً ذراعي تُشدِّده، لا يرغمه عدوٌّ **وابن الإثم** لا يذلِّله، وأسحق أعداءه أمام وجهه، وأضرب مُبْغضيه.» (مز٨٩: ١٩—٢٣)

ولكن من أروع الأوصاف التي جمعت كل ما للإنسان والشيطان معاً في صورة الضد لله والمسيح، ما جاء في سفر حزقيال النبي:

+ «من أجل أنه قد ارتفع قلبك، **وقلت أنا إله**، في مجلس الآلهة أجلس، في قلب البحار، وأنت **إنسان لا إله وإن جعلتَ قلبك كقلب الآلهة** ... فارتفع قلبك بسبب غناك، ... لذلك ها أنذا أجلب عليك غرباء، عتاة الأمم، فيجرِّدون سيوفهم على بهجة حكمتك، ويدنسون جمالك، **يُنزلونك إلى الحفرة، فتموت موت القتلى** في قلب البحار. هل تقول قولاً أمام **قاتلك أنا إله، وأنت إنسان لا إله... موت الغُلْف تموت**... لأني أنا تكلمت يقول السيد الرب،... أنت خاتم الكمال ملآنٌ حكمة وكامل الجمال، كنت في عدن جنة الله... أنشأوا فيك صنعةَ صيغةِ الفصوص وترصيعها **يوم خُلِقْتَ، أنت الكروب المُنبَسطُ المُظلِّل** وأقمتك، على جبل الله المقدس كُنتَ، بين حجارة النار تمشيت. أنت كامل في طرقك **من يومَ خُلِقْتَ** حتى **وُجِدَ فيك إثم** ... ملأوا جوفك ظلماً فأخطأت، فأطرحك من

جبل الله وأُبيدك أيها الكروب المظلِّل ... قد ارتفع قلبك لبهجتك، أفسدْتَ حِكْمتك لأجل بهائك، سأطرحك إلى الأرض ... **فأُخرِج ناراً من وسطك فتأكلك وأُصيِّرك رماداً على الأرض ... ولا توجد بعد إلى الأبد.»** (حز٢٨: ١–١٩)

كثيرون يقولون إن الكلام هنا عن إبليس، ولكن واضح كل الوضوح أنه يكرر مراراً: **أنت إنسان أنت إنسان!!**

وبنفس الأوصاف يتكلم إشعياء النبي عن هذا الضد لله والمسيح في كلمات بلغت القمة في روعة التعبير الروحي عن كيف ارتفع وكيف سقط:

+ «كيف سقطْتِ من السماء يا زهرة بنت الصبح؟ كيف قُطِعْتَ إلى الأرض يا قاهر الأمم؟ وأنت قُلتَ في قلبك: أصعدُ إلى السموات أرفَعُ كرسيَّ فوق كواكب الله وأجلس على جبل الاجتماع في أقاصي الشمال، أصعدُ فوق مرتفعات السحاب، **أصيرُ مثل العَليِّ**. لكنك انحدرتَ إلى الهاوية إلى أسافل الجب، الذين يَرَوْنَك يتطلعون إليك، يتأملون فيك: **أهذا هو الرجل الذي زلزل الأرض** وزعزع الممالك؟ الذي جعل العالم كقَفْرٍ وهدم مدنه... فقد طُرِحْتَ من قبرك كغُصْنٍ أشْنَع، كلِباس القتلى المضروبين بالسيف.» (إش١٤: ١٢–١٩)

كذلك يصف إشعياء كيف يبيد الله هذا المنافق (الأثيم) بنفخة شفتيه:

+ «يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، **ويميت المنافق (الأثيم) بنفخة شفتيه.**» (إش١١: ٤)

+ «عندما يأتي العدو كنهر فنفخة الرب تدفعه.» (إش٥٩: ١٩)

ومن هذه النبوات ومما ذُكر في الأناجيل، يتبين لنا أن كل ما قاله بولس الرسول هو امتداد وكصدى لما ذُكِرَ في التقليد بقديمه النبوي وجديده المسيحي.

وقد انتبه الآباء الأوائل إلى أن الأوصاف المذكورة عن الضدّ للمسيح، سواء ما جاء منها في النبوات أو الأناجيل أو رسائل بولس الرسول وخاصة الرسالة الثانية إلى تسالونيكي الأصحاح الثاني، ليست خاصة بالشيطان ولكن بإنسان منحه الشيطان قوته وسلطانه ليضلَّ العالم الضلالة الأخيرة.

وبحسب رسالتَيْ القديس يوحنا الأُولى والثانية، يُفهم تماماً أن الضد للمسيح تتركز صفاته ــ أيّاً كان هذا «الضد» ــ في إنكاره لتجسد المسيح وبنوّته للآب، لأن هذا يعني الإنهاء على الخلاص والفداء اللذين أكملهما الله بواسطة المسيح لحساب الإنسان والعالم.

كما نفهم من أقوال المسيح في إنجيليْ القديسَيْن متى ومرقس أن من أهم علامات آخر الزمان قيام مُسحاء كذبة يدَّعون صفة المسيح ورسالته وأعماله ليضلُّوا الناس ــ وإن أمكن المختارين أيضاً ــ عن خلاصهم بسبب شدة التزييف وعنف الاضطهاد.

ولكن ينفرد القديس بولس بالتركيز على شخصية واحدة ينعقد عليها لواء كل المسحاء الكذبة وكل الضلالة بل ويتمحور فيها «الأثيم» بصورة تكاد تكون تجسُّدية وكأن الإثم تجسَّد فيه، فيدعوه ليس الأثيم فقط بصيغة التشديد بل و «**إنسان الخطية**»، ويعطيه الصفة التي أعطاها المسيح ليهوذا الذي خان المسيح وسلَّمه للموت!! «**ابن الهلاك**». كذلك يكشف عن أن الشيطان أعطاه ليس فقط قوته وسلطانه في صنع الآيات الكاذبة والمعجزات المضلَّة، بل وأعطاه أيضاً «الخديعة»، «**خديعة الإثم**»، وهي نفس السلاح الذي حارب به آدم وحواء وأسقطهما من مجدهما:

\+ «ولكنني أخاف أنه كما **خدعت الحية** حواء بمكرها، هكذا تُفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.» (٢كو١١: ٣)

فالضد للمسيح هذا سلَّحه الشيطان بقوة عقلية فائقة على مستوى الحكمة الغاشَّة لإفساد ذهن وإيمان الناس، فوق قوة عمل الآيات والمعجزات الباهرة التي تسلب العقل وتطغي عليه. لذلك فإن هذا الضد للمسيح سيكون وبالاً على العالم، فسلاحه سيكون مناسباً لفلسفة الإنسان غير المتأصلة في المسيح، كما سيكون مناسباً لما بلغه العالم من استخدام القوة الفكرية لاختراع القوى والآلات المبهرة.

وإن كان الفلاسفة والعلماء اللاهوتيون الآن يستصغرون من فكرة الضد للمسيح ويعتبرونها خرافة موروثة، إلَّا أن فكرهم هذا ورأيهم هذا هو أحد المظاهر السرية الفعالة لبداية هدم الإيمان المسيحي الذي يدعوه بولس الرسول: «إن سرَّ الإثم الآن يعمل فقط» (٢تس٢: ٧)، لأن من شأن هذا التعليم الذي يناقض الإنجيل صراحة، أن يُخفي معالم وسائل الهدم التي تعمل الآن من جهة نقد كل التراث الإيماني الذي سُلِّم مرة للقديسين. ومن هذا يحذر بولس الرسول، أي من جهة التعاليم الناقدة المضلَّة التي تلبس ثوب التعقل والحكمة العلمية والدقة اللفظية والتِّقْنية الفكرية بقوله:

\+ «ولا عجب، لأن الشيطان نفسه يغيِّر شكله إلى شبه ملاك نور؛ فليس عظيماً إن كان خدامه أيضاً يُغيِّرون شكلهم كخُدَّام للبرِّ (الكاذب).» (٢كو١١: ١٤)

وهل ينسى هؤلاء اللاهوتيون ومعهم التاريخ والعالم كله، ما فعله أنطيوخُس إبيفانِس الرابع أو

كاليجولا أو سمعان الساحر أو نيرون، أو أولئك الذين روَّعوا البشرية بطغيانهم وظلمهم الوحشي من أباطرة وملوك ورؤساء، هل ينسى العالم ستالين، أو ينسى هتلر!! أليس هؤلاء جميعاً حلوا لواء «الأنْتِي كريست» وسلَّموا الشعلة الحارقة المخرِّبة بعضهم لبعض بانتظار من سيأتي ليجمع كل ما كان عند هؤلاء الطغاة من شذوذ شيطاني وعلو وكبرياء وغطرسة وترفُّع ونقمة.

وعليك، يا قارئي العزيز، أن تتصوَّر إنساناً يجمع في نفسه صفات هؤلاء الجبابرة من فكر وحكمة وقدرة وسلطان وخديعة وجرأة مع إحراز لما انتهى إليه العلم والتكنولوجيا الحديثة من أسرار القوى المدمرة الذرية وأسلحة الفضاء، ماذا سيكون!!

ج ــ كيف سيُبْطله الرب؟

+ «وحينئذ سيُسْتعلَن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة فمه ويُبْطله بظهور مجيئه.» (٢تس٢: ٨)

لقد اقتبسها بولس من إشعياء النبي: «يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويُميت المنافق بنفخة شفتيه.» (إش١١: ٤)

يبيده بنفخة فمه: ἀνελεῖ τῷ πνεύματι

هنا النفخة مأخوذة من (الروح). فهنا يختبىء نوع القوة التي يستخدمها الرب في إبادة «الضدّ للمسيح»، وهي قوة الروح بالكلمة الخارجة من فمه. فهي تشمل الأمر والتنفيذ معاً!!

ويُبطله: καταργήσει

هذه الكلمة ترجمت بالإنجليزية بمعنى «يفنيه» أو «يحطمه». ولكنها باليونانية تفيد معنى إدخاله في التعتيم، في مَحْق الظلمة، أي يخسفه بمعنى يُفْقِدُه نوره(5).

وقد جاءت هذه الكلمة «يُبطل» في مقابل الإنارة: «وإنما أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي **أبطل** الموت، **وأنار** الحياة والخلود» !! (٢تي١: ١٠)

فهنا إبطال المسيح لإنسان الخطية الأثيم ابن الهلاك هو على نوع من الإبطال أو الخسف أو الكتم، بمعنى أن لا يعود له فاعلية! وهذا يظهر بجلاء عندما ندرك الوسيلة التي سيُبْطِل الرب بها عمله وكيانه ووجوده، فهي ظهوره: «يُبْطله بظهور مجيئه»، بمعنى أنه بظهور النور والحق يختفي حتماً

5. Lightfoot, *op. cit.*, p. 115.

ما كان نوراً مزيَّفاً وحقاً كاذباً. **فظهور الرب** بقدر ما سيكون للمختارين خلاصاً بأقصى عمله ومفهومه ومسح كل دمعة من العيون التي أضناها البكاء، فإنه سيكون للمضلّ هلاكاً سريعاً وللمرفوضين دينونة أخيرة وأبدية حيث البكاء بلا رجاء.

٥ ــ الدينونة الأخيرة:

مع الاستعلان ومجيء المسيح تبدأ الدينونة للأحياء والأموات:

+ «أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته.» (٢تي٤: ١)

وقوله: «يدين الأحياء والأموات» يعني أنه يدين البشرية برُمَّتها ولا استثناء، ويدخل في ذلك بالضرورة حتى القديسون المنوط بهم هم أن يدينوا ملائكة: «ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة» (١كو٦: ٣)، فلا مناص، إذ لا بد أن يدخلوا هم بدورهم في الدينونة ويقفوا أمام كرسي المسيح.

وبالأساس يلزم أن نعرف أن أحكام الدينونة هي أبدية لا استئناف فيها ولا رَجْعَة ولا استثناءات بأي حال: «الدينونة الأبدية» (عب٦: ٢).

أما المختارون فسيكونون «كل حين مع الرب.» (١تس٤: ١٧)
أما الأشرار «سيُعاقَبُون بهلاك أبدي.» (٢تس١: ٩)

وبالرغم من التركيز الذي تميَّز به القديس بولس بخصوص **التبرير** بالإيمان دون أعمال، وبالرغم من أن أعمال الناموس انتهت عند بولس الرسول إلى عدم استحقاق لأي شيء، إلّا أنه من جهة **الدينونة** يُبرز الأعمال باعتبارها الميزان الذي بمقتضاه تكون المجازاة.

والدينونة عند بولس: **دينونة للذين تحت الناموس، ودينونة للذين بلا ناموس، ودينونة للذين أعْتَقهم الرب من الناموس وحررهم من قضائه!** الكل لهم دينونة، والكل سيقف أمام كرسي المسيح:

أ ــ أما دينونة الذين تحت الناموس: «كل مَنْ أخطأ في الناموس فبالناموس يُدان.» (رو٢: ١٢)

حيث تقوم الدينونة بحسب الناموس على أساس: «لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله بل الذين **يعملون** بالناموس هم يُبرَّرون.» (رو٢: ١٣)

ب ــ **أما الذين بلا ناموس** فتقوم دينونتهم على أساس: «لأن كل مَنْ أخطأ بدون الناموس، فبدون الناموس يهلك» (رو٢: ١٢)، حيث ستكون أفكارهم وضمائرهم هي التي تقف مشتكية ضدهم ومحتجة في يوم الدينونة (رو٢: ١٥).

ج ــ **أما الذين أعْتَقَهم المسيح من الناموس** وحررهم من قضائه، فقد رفع عنهم قضاء الدينونة تماماً كما رفع عنهم الناموس: «لا شيء من (قضاء) الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع»، ولكنه وبالتالي نقل الأعمال الجسدية التي كانت تُبرِّر بحسب الناموس إلى أعمال روحية تبرِّر حسب الروح، فيضيف قائلاً: «السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح. لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت.» (رو٨: ١و٢)

وهكذا سيُدَان جميع الناس سواء الذين كانوا تحت الناموس أو الذين بلا ناموس أو الذين أُعتقوا من الناموس وتحرروا من قضائه ــ وذلك بمقتضى **قانون الأعمال** كالآتي:

أ ــ الذين **تحت الناموس** تُطْلَب منهم الأعمال الصالحة التي ينص عليها الناموس.

ب ــ الذين **بلا ناموس** تُطلب منهم الأعمال الصالحة بمقتضى الضمير والفكر.

ج ــ الذين **أعتقهم المسيح** من الناموس تُطلَب منهم الأعمال الصالحة بحسب الروح، وهكذا يُدان الجميع بحسب الأعمال:

+ «**الذي سيجازي كل واحد حسب أعماله**، أما الذين بصبر في **العمل الصالح** يطلبون المجد والكرامة والبقاء، فبالحياة الأبدية. وأما الذين هم من أهل التحزب ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم، فسخط وغضب؛ شدة وضيق على كل نفس إنسانٍ يفعل الشر اليهودي أولاً ثم اليوناني، ومجد وكرامة وسلام لكل من **يفعل الصلاح** اليهودي أولاً ثم اليوناني، لأن ليس عند الله محاباة!!» (رو٢: ٦ــ١١)

وهذه أسماها بولس الرسول: «دينونة الله العادلة.» (رو٢: ٥)

وبهذا يتضح تماماً قانون بولس الرسول بالنسبة للدينونة بحسب الأعمال على الجميع، ولسنا مع العلماء الذين قسَّموا لاهوت بولس الرسول فيما قبل رسالة رومية بحسب الأعمال وفيما بعد الرسالة بحسب الإيمان، وكأنه يغيِّر رأيه ويصححه من رسالة لرسالة ــ هذا نعتبره للأسف شططاً فكرياً عند هؤلاء العلماء العظام الذين لهم وزنهم العالمي، سواء ليدزمان أو هـ. براون أو ريدربوص(٦).

6. Ridderbos, *Paul, An Outline of His Theology,* p. 178.

فالدينونة عامة، وهي بحسب الأعمال، مهما كان الإنسان؛ ولكن هذا يُطلَبُ منه العمل بحسب الناموس الذي يدين به، وهذا بحسب الضمير إذ ليس له ناموس، وهذا بحسب المسيح إذ صار تحت ناموس النعمة والروح.

وبولس الرسول يضع الوقوف بالنسبة لكل إنسان أمام المسيح الديّان كحتمية لا استثناء منها قط، مهما كان إيمانه، ومهما كانت النعمة العاملة فيه، ومهما بلغت روحياته من القوة والنقاوة:

+ «لأنه لا بد أننا جميعاً نُظْهَر أمام كرسي المسيح، لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شرًّا.» (٢كو٥: ١٠)

وبولس الرسول يكرر هذا المعيار الحتمي للدينونة في مواضع كثيرة:

+ «لأننا جميعاً سوف نقف أمام كرسي المسيح.» (رو١٤: ١٠)

+ «عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير، فذلك يناله من الرب، عبداً كان أم حُرًّا.» (أف٦: ٨)

+ «وكل ما فعلتم، فاعملوا من القلب كما للرب ليس للناس، عالمين أنكم من الرب ستأخذون جزاء الميراث، لأنكم تخدمون الرب المسيح. وأما الظالم فسينال ما ظَلَم به، وليس محاباة.» (كو٣: ٢٤و٢٥)

هنا ينبغي أن نفرق بين **الدينونة بحسب الأعمال** كقانون حتمي، وبين **التبرير بالإيمان** بالمسيح.

لأن بدون الإيمان بالمسيح، فالدينونة ستكون بمقتضى الناموس أو بمقتضى الضمير والأفكار. وواضح أن أعمال الناموس، ثَبَتَ أنه بالرغم من أن الذي يعمل بها يحيا بها وينال برَّ الناموس (وليس برَّ الله)، إلاَّ أنه لم يستطع أحد قط أن يعمل بالناموس وبالتالي يتبرر به، لأن الذي يخطىء في واحدة من وصايا الناموس يُعتبر أنه أخطأ في كل الوصايا. من هنا أُغلق على الجميع في العصيان (رو١١: ٣٢)، ولم يتبرر أحد بأعمال الناموس (رو٣: ٢٠).

إذاً، بالناموس لا يتبرر أحد أمام الله؛ بل يُدَانُ على أنه أخطأ للناموس من جهة كل أعماله. لهذا، ولهذا فقط، جاء المسيح ليبرِّر بدون الناموس، يبرِّر بالإيمان، حيث البرُّ هنا هو برُّ الله المُعْطَى للإنسان مجاناً بالإيمان بالمسيح لأنه بارٌّ، والبارُّ يبرِّر كل من يؤمن به.

هكذا يقف الإيمان بالمسيح في يوم الدينونة ليرفع عنا كل الدينونة بحسب أعمال الناموس، ويَهَبَنا برَّ الله بحسب الإيمان بالمسيح (على أساس الفداء الذي صنعه). إذاً، ففي الدينونة العتيدة

يقف الذي آمن بالمسيح لينال أولاً جزاء ما عمل من الصلاح بحسب الروح، لأن الإيمان بالمسيح له عمل خاص ليس كعمل الناموس في شيء:

+ «فإننا بالروح من الإيمان نتوقع رجاء برٍّ، لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغُرْلة (تضرُّني في شيء)، بل **الإيمان العامل بالمحبة**.» (غل٥: ٥و٦)

+ «متذكرين بلا انقطاع **عمل إيمانكم، وتعب محبتكم، وصبر رجائكم** ربنا يسوع المسيح أمام الله وأبينا.» (١تس١: ٣)

على أن **عمل الإيمان في المسيح** يعلو في مفهومه وعمقه وهدفه كثيراً وكثيراً جداً عن أي عمل للناموس، فهو يشمل احتمال التألُّم والظلم والضيق، هذه التي تُحسَبُ أعمالاً مؤهِّلة مباشرة لملكوت الله!!

+ «لأن إيمانكم ينمو كثيراً، ومحبة كل واحد منكم جميعاً بعضكم لبعض تزداد ...، وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم والضيقات التي تحتملونها بيِّنة على قضاء الله العادل (الدينونة) أنكم تؤهَّلون لملكوت الله الذي لأجله تتألَّمون أيضاً.» (٢تس١: ٣-٥)

هكذا نرى أن أعمال الإيمان بالمسيح تبرِّر وتؤهِّل لملكوت الله.

في حين أن أعمال الناموس عاجزة عن أن تبرِّر وبالتالي لا تؤهل لملكوت الله.

أما بدون الإيمان بالمسيح وبدون الناموس، فأعمال الخطية تتقدم الخطاة للعقاب.

الإيمان والأعمال في الدينونة الأخيرة:

على أنه يتحتم علينا أن نفرق مرة أخرى بين **الدينونة العتيدة والتبرير** بالنسبة **للإيمان والأعمال**.

فالإيمان بالمسيح إذا دخل الدينونة يطالب بالأعمال الخاصة به: محبة، صبر، احتمال، بذل، شكر، اتضاع، التي بدونها لا يمكن أن يُحسَب الإيمان بالمسيح إيماناً أصلاً.

ولكن الإيمان بالمسيح إذا وقف أمام تبرير الله، أي استعداد الله لإعطاء برِّه الخاص، فإن الإيمان بالمسيح يخطفه خطفاً ويستحوذ عليه استحواذاً: «ملكوت السموات يُغْتصَبُ والغاصبون يختطفونه.» (مت١١: ١٢)

فالذي لا يعمل يُدان، هذه حقيقة مطلقة!

ولكن «الذي لا يعمل ولكن يؤمن (بالمسيح) بالذي يبرِّر الفاجر فإيمانه يُحْسَبُ له برّاً.» (رو٤: ٥)

لماذا؟

لأن العمل هو **عمل الإنسان**، وكل مَنْ يعمل يحاسب بمقتضى عمله ونيته وضميره وأفكاره، **هذا عدل.**

ولكن **الإيمان** هو **عمل الله** وكل مَنْ وُهِبَ له أن يعمل عمل الله يتأهل حتماً لبرِّ الله**!!**

«**هذا هو عمل الله أن تؤمنوا** بالذي هو أرسله.» (يو٦: ٢٩)

وهذا نعمة!!

فصل المختارين عن المرفوضين ونصيب كل منهما في الدينونة:

يقدم لنا بولس الرسول في رسالته الثانية إلى تسالونيكي صورة لما ستكون عليه الدينونة بالنسبة للمختارين إزاء المرفوضين:

+ «... من أجل صبركم وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم والضيقات التي تحتملونها،

(أ) بيِّنة على قضاء الله العادل أنكم تؤهَّلون لملكوت الله الذي لأجله تتألمون أيضاً،

إذ هو عادل عند الله أن الذين يضايقونكم **يجازيهم** ضيقاً،

(ب) وإياكم الذين تتضايقون راحة معنا عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته في نار لهيب،

(ج) مُعطياً نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح،

(د) الذين سيعاقَبُون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته،

(هـ) متى جاء ليتمجد في قديسيه.» (٢تس١: ٤ــ١٠)

ولكن بولس الرسول في هذه المنظومة المُحْكَمة إنما يطابق التقليد النبوي.

أ ــ ففي سفر الحكمة ليشوع بن سيراخ يعطي المطابقة من جهة المجازاة:

+ « لأن الرب هو القاضي وليس عنده محاباة الوجوه

يسمع **تضرُّع المظلوم** ولا يغفل عن **طِلْبَة اليتيم والأرملة**،

يحكم الصديقين ويصنع قضاءً،

الرب لا يُمْهل، ولا يصبر عليهم، حتى يقصم ظهر عديمي الرحمة،

حتى يمحو القوم الشاتمين ويحطم عصى الظالمين

حتى يجازي كل واحد حسب أعماله وأفعال الناس وافتكاراتهم،

حتى يقضي قضاء شعبه ويفرح برحمته.» (يشوع بن سيراخ ٣٢: ١٢ــ١٩)

كذلك نجد في إشعياء النبي نفس المطابقة:

+ «لأن للرب يوم انتقام، سنة جزاء من أجل دعوى صهيون.» (إش٣٤:٨)
+ «قولوا لخائفي القلوب تشددوا لا تخافوا هوذا إلهكم، **الانتقام يأتي جزاء الله، هو يأتي ويخلِّصكم.**» (إش٣٥:٤)

كذلك إرميا النبي:

+ «لأن الرب إله مجازاة يكافىء مكافأة.» (إر٥١:٥٦)

ب ــ مجيء الرب مع ملائكته بلهيب نار:

+ «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة.» (خر٣:٢)
+ «وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار.» (خر١٩:١٨)
+ «والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب، فكلَّمكم الرب من وسط النار.» (تث٤: ١١و١٢)
+ «من قِبَل رب الجنود تُفتَقَد برعد وزلزلة وصوت عظيم، بزوبعة وعاصف ولهيب نار آكلة.» (إش٢٩:٦)
+ «لأنه هوذا الرب بالنار يأتي ومركباته كزوبعة، ليردَّ بحموٍ غَضَبهُ وزَجْرهُ بلهيب نار، لأن الرب بالنار يعاقب ...» (إش٦٦: ١٥و١٦)
+ «كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام. لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه لهيب نار وبكراته نار متقدة.» (دا٧:٩)

ج ــ النقمة على الذين لا يعرفون الله:

+ «صوت ضجيج من المدينة، صوت من الهيكل صوت الرب مجازياً أعداءه.» (إش٦٦:٦)

د ــ العقاب بالهلاك الأبدي من وجه الرب:

+ «أولئك الأردياء يُهْلكهم هلاكاً ردياً.» (مت٢١:٤١)
+ «رُدَّ لهم جزاءً يا رب حسب عمل أياديهم ... اتبع بالغضب وأهلكهم من تحت سموات الرب.» (مرا٣: ٦٤و٦٦)

هـ ــ متى جاء ليتمجد في قديسيه:

+ «وقال لي أنت عبدي إسرائيل الذي به أتمجد.» (إش٤٩:٣)
+ «فأتعظم وأتقدَّس وأُعْرَفُ في عيون أمم كثيرة، فيعلمون أني أنا الرب.» (حز٣٨:٢٣)

وهكذا نجد أن صورة الدينونة عند بولس الرسول تأتي مطابقة لأعمال الله في القديم، ولرؤى الأنبياء التي تنبأوا بها، إنما بتركيز وإيضاح يُفهم منه أن الله إنما سيُعيد بالدينونة حقوق المظلومين والمضطهدين التي فقدوها تحت سحق المتسلطين الأشرار الذين سيُكالُ لهم بالكيل الذي كالوا به. لذلك فيوم الدينونة هو للأشرار «يوم غضب». وإن الملكوت إنما يورَّث بدون استحقاق من طرفنا، لأن حتى الأعمال الصالحة الله هو الذي سبق فأعدَّها لكي نسلك فيها (أف ٢: ١٠). أما حالة الأبرار في الدينونة فيصفها بولس الرسول: «**راحة**» و «**مجد**» و «**تأهيل للملكوت الله**» و «**حياة في حضرة الله**»، في مقابل الأشرار: «**ضيقاً**»، «**نقمة**»، و «**الحرمان من وجه الرب ومن مجد قوته**» الذي هو بعينه «**الهلاك الأبدي**».

وفي موضع آخر يصف بولس الرسول ما أعدَّه الله لمختاريه، وهنا عجز فكره وفمه وقلمه عن أن يعبِّر عما رآه وعاينه وسمعه لأن حياة الخلود لا يحتملها فكر الإنسان مهما اتسع خياله وسما بيانه وارتقى إدراكه. شيء واحد وَثِقَ منه بولس: أن لا شيء بمستطيع أن يفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع (رو ٨: ٣٩)، وأننا سنراه في مجده (٢تس ١: ١٠)، ونكون معه كل حين (١تس ٤: ١٧).

الفصل الخامس

الدهر الذي يتبع مجيء المسيح

أ ــ ملكوت الله والمسيح

ثلاث نظرات للملكوت عند بولس الرسول، وكل نظرة منها لها عمقها واتساعها، ولكن لم يحاول أن يجمع بين هذه النظرات في منهج واحد، لأنه كان يعيش كلًّا منها ويستمتع بها:

١ ــ الملكوت الآتي والمجد الأبدي:

+ «أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله؟ لا تضلُّوا.» (١ كو٦:٩)
+ «... أنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله.» (أع١٤:٢٢)
+ «فأقول هذا أيها الإخوة إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله ولا يرث الفساد عدم الفساد.» (١ كو١٥:٥٠)
+ «فإنكم تعلمون هذا أن كل زانٍ أو نجسٍ أو طمَّاع، الذي هو عابد للأوثان، ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله.» (أف٥:٥)
+ «من أجل صبركم وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم ... بيِّنة على قضاء الله العادل أنكم تؤهَّلون لملكوت الله ...» (٢تس١: ٤و٥)
+ «أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته.» (٢تي٤:١)
+ «وسينقذني الرب من كل عمل رديء، ويخلِّصني لملكوته السماوي الذي له المجد إلى دهر الدهور آمين.» (٢تي٤:١٨)

٢ ــ الملكوت باعتباره هو الكنيسة (في الأرض أو السماء):

+ «وبعد ذلك النهاية متى سلَّم المُلكَ لله الآب ...» (١ كو١٥:٢٤)، (أي سلَّم كنيسة المقدَّسين).